مذكرات

شارلز شابلن جونيور

شابلن أبي

مكتبة
Telegram
Network
2020

ترجمة: أكرم الحمصي

شابلن أبي

اسم المؤلف: شارلز شابلن جونيور
Author: Charles Chaplin Jr
عنوان الكتاب: شابلن أبي
Title: My Father Charlie Chaplin
ترجمة: أكرم الحمصي
Translated by: Akram Alhomsi
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
Cover Designed by: Majed Al-Majedy
الناشر: دار المدى
P.C.: Al-Mada
الطبعة الأولى: 2019
First Edition: 2019
جميع الحقوق محفوظة: دار المدى
Copyright © Al-Mada

دار المدى للإعلام والثقافة والفنون

بغداد: حي أبو نؤاس - محلية 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا - شارع ليون- بناية منصور - الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017 + 961 175 2616 + 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد - متفرع من شارع 29 أيار

almadahouse@net.sy

+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, .without the prior permission in writing of the publisher

شارلز شابلن جونيور

شابلن أبي

ترجمة: أكرم الحمصي

ملاحظة إلى والدي:

في روايتك لرحلتك حول العالم عام 1931، ولدى ذكرك لورد بيركنهيد، ابن المشرع ورجل الدولة البريطاني المعروف، كونت بيركنهيد، وقد تناهى إلى مسامعك أنه كان بصدد الكتابة عن والده، كتبت قائلاً: «فكرت في نفسي في صعوبة المهمة وتساءلت عمّا إذا كان الابن الذي يتصدى لكتابة سيرة حياة والده قادراً على الانفصال بما يكفي عن الموضوع الذي يكتب عنه، كي يتمكن من رؤية الظلال العميقة كما البقع المنيرة بما هو ضروري لرسم صورة واقعية لرجل عظيم».

ولأن هذا الكتاب سيكون بمثابة المفاجأة بالنسبة إليك، فإني آمل أن أكون قد نجحت في تحقيق هذا الانفصال الذي ساءلت لورد بيركنهيد عنه. أما في الجانب المتعلق بكونك رجلاً عظيماً، فقد أدركت أن الجميع، بمن فيهم ألدّ أعدائك، يقرّون أنه، في عالم الموهبة، لا يوجد ندّ لك.

بكل احترام،
ابنك، شارلز

أتذكّر، أتذكّر

أشجار الصنوبر المظلمة والشاهقة؛

اعتدت التفكير أن قممها الهيفاء

قريبة جدّاً من السماء:

كان ذلك جهل طفولي،

صار الآن فرحاً صغيراً

أن أعلم أني بعيد عن السماوات

أكثر مما كان الأمر عليه عندما كنت صبيّاً

توماس هود

-1-

كانت هنالك على الدوام تلك الصرخة التي استطعت أن أسمعها، الصرخة التي بدت لي صادرة عن شخص آخر، الصرخة في وجه شيء ما لم أستطع أن أتذكّر وجهه قط، على الرغم من أنني كنت قادراً على الشعور بحضوره الخبيث- صرخة تلو الأخرى في الظلام، في قلب الوحدة المطلقة. ثم فجأة كان النور. كان هنالك أشخاص يلاطفونني ويضعون كمادات باردة على رأسي لأنني كنت ما أزال عالقاً في شراك رعبي.

سمعت أصواتهم المطمئنة تخاطبني: «اهدأ، اهدأ يا شارلي. كل شيء على ما يرام. استيقظ! استيقظ!».

كانت أصوات أناس، أناس حقيقيين. لم أعد وحيداً. أصبحت قادراً على فتح عيني والابتسام لأنهم كانوا، جميعاً، حولي- جدتي، والدة جدتي، والدتي، بل وفي بعض الأحيان والد جدي. أما سيدني، شقيقي الأصغر، فكان جالساً في سريره، يحدق بي وعيناه ترمشان بذهول.

كنت وسيدني مختلفين للغاية. فقد بدا أفضل استعداداً مني لمقاومة الوحدة. كان، في الواقع، أكثر استقلالاً. فعندما كان في الثانية من عمره، أحسّ، ذات يوم، بالضجر من المنزل فخرج منه بكل بساطة. وقد تمّ العثور عليه فيما بعد يتجول حول الكتلة السكنية التي نقيم فيها. أما أنا، فلم يكن لي أن أتصرف على هذا النحو أبداً.

لكن كان هنالك شيء واحد مشترك بيننا. لقد كنا عنيدين. كان سيدني يتمتع بنوع من العناد يجعله صعب المراس، فيما يتميز عنادي بالهدوء. ولم تكن والدتي تعلم كيف يمكن لها أن تحتوينا. إذ كانت امرأة فاتنة للغاية وفتية، وكانت أقرب إلى أن تكون شقيقتنا الكبرى. وسرعان ما عادت إلى الشرق، بعيد بلوغي الثالثة من العمر، كي تظهر، هناك، كمغنية في الملاهي الليلية ولم نعد نراها إلّا في فترات متباعدة.

لم أكن، وسيدني، نرى والدنا لفترات طويلة. وكنا أصغر سنّاً من أن تبهرنا حقيقة كونه تشارلي شابلن العظيم. كما أننا لم نتذكر، بالتأكيد، مرارة زواجه القصير بأمنا الذي انتهى بالانفصال ثم بالطلاق. كانت تلك قصة سمعتها بعد سنوات من ذلك في ظروف حزينة.

كانت أمي، ليليتا ماكموراي، أو ليتا غراي، وهو الاسم الفني الذي اختارته لنفسها، نصف

اسكتلندية ونصف إسبانية- إنكليزية. إذ تنحدر جدتي لأمي، السيدة ليليان غراي، التي لا أزال، وسيدني، ندعوها نانا، من جهة والدتها، من أسرة كاليفورنية عريقة ذات أصول إسبانية. فقد كان الاسم الأوسط لوالدتها، التي كنا نناديها جدتي، هو لويزا كاريلو. وقد توفيت عام 1950 عن ثلاثة وثمانين عاماً. هكذا، يفترض بنجم الشاشة ليو كاريلو أن يكون واحداً من أقربائنا الأبعدين. أما والد جدتي نانا، فهو ويليام إدوارد كوري، وهو رجل إنكليزي، في حين أن جدي، روبرت إيرل ماكموراي، اسكتلندي، وقد انفصل عن نانا عندما كانت والدتي لما تزل صغيرة للغاية.

لم يكن عمر والدتي يزيد عن ست سنوات عندما التقت بوالدي للمرة الأولى في مطعم صغير في الحيّ كان يتردد عليه أحياناً. وقد جذبه سحرها الطفولي إلى درجة أنه أمضى بعض الوقت يتحدث إليها ويسليها ببعض الحيل مستخدماً أعواد الثقاب. ولم يلتقيا مرة أخرى، بعد ذلك اللقاء العارض، إلّا بعد مضي ستة أعوام. كما أسهم الحظ، مرة أخرى، في اللقاء التالي. إذ كان تشاك رايزنر، الذي كان يعمل، في ذلك الحين، مساعد مخرج لدى والدي، يعيش في البناء نفسه الذي تعيش فيه أمي ونانا، وكانت أمي معتادة على اللعب مع ابنه الصغير دينكي. فذكرها السيد ريزنر لوالدي مقترحاً عليه إلقاء نظرة عليها. وذات، يوم جاء والدي وشاهد أمي التي كانت تقف في الخارج فأبهره مظهرها إلى درجة جعلته يوقع معها عقداً مدته عام واحد وجعلها على الفور تشارك في فيلم «الولد» الذي كان تصويره جارياً مع جاكي كوغان.

سألت جاكي، مؤخراً، عن ماهية العمل تحت توجيهات والدي، فهزّ جاكي رأسه قائلاً: «لا أذكر الكثير عن والدك، باستثناء أنه كلّما أرادني أن أبكي أمام الكاميرا، كان يخبرني قصصاً حزينة حتى تسيل دموعي على وجنتي. لقد كنت صغيراً للغاية- في الرابعة من عمري فحسب».

ثم أشرق وجهه قائلاً: «بيدَ أني أتذكّر والدتك. لقد اعتدنا على اللعب سويّاً في مواقع التصوير. لقد كانت مرحة دائماً».

وبعد فيلم «الولد»، شاركت أمي ونانا بدورين صغيرين في فيلم «الطبقة المتعطلة» الذي أخرجه والدي. ثم انتهى عقد أمي واختفت من حياة والدي لبضعة أعوام. وكان يمكن لها أن لا تراه من جديد لولا أنها عرجت على الاستديو، بعد ظهيرة أحد الأيام بعد انتهاء المدرسة، مع صديقة لها هي ميرنا كينيدي كي تتباهى أمامها أنها تعرف شارلي شابلن الشهير، بالفعل. في ذلك الوقت، كان والدي منهمكاً في الحصول على فتاة مغمورة كي تلعب دور البطولة إلى جواره في فيلم «حمى الذهب».

وعندما رأى أمي، أسرته مرة أخرى، لكن بطريقة مختلفة، هذه المرة. إذ لم تعد أمي، وكانت، في ذلك الحين، قد بلغت سنّ السادسة عشرة، تلك الفتاة الصغيرة المرحة، بل تفتحت واستحالت سيدة شابة جميلة ذات عينين بنيتين. لقد أصبحت امرأة سمراء مفعمة بالحيوية. سألها والدي أن تؤدي اختبار أداء من أجل الفيلم فوافقت أمي، وكان والدي سعيداً بما رآه ووقّع معها عقداً لأداء الدور. هكذا ساهم القدر، أو الحظ أو ما شئتم تسميته، مرة أخرى في جعل المسافة بين والدي ووالدتي تزداد قرباً أكثر من أيّ وقت مضى. وقد انتهى كل ذلك بالزواج المفاجئ لوالدي، في تشرين الثاني 1924، في قرية إمبالم المكسيكية الصغيرة التي لجأ إليها هرباً من وابل الأسئلة التي كان الصحفيون يطرحونها.

وبعد عملية الفرار هذه، أخذ والدي عروسه، التي هي أمي، إلى بيته الكبير الجديد الواقع في ساميت درايف في بيفرلي هيلز. تخلّت والدتي عن دورها في فيلم «حمى الذهب» لجورجيا هايل وأصبحت ربة منزل. وبطلب من والدي، جاءت نانا للإقامة مع والدتي وأبصرت النور في العام التالي، في الثامن والعشرين من حزيران 1925، كما تشير إلى ذلك شهادة ميلادي. وقد ولدت في البيت، كوالدتي. أما مكان ولادتي، فكان غرفة النوم الشرقية، وهي الغرفة التي أصبحت غرفتي وغرفة سيدني عندما عدنا بعد سنوات من ذلك للإقامة في منزل والدنا.

كان والدي قلقاً للغاية في الفترة التي سبقت ولادتي. إذ كان قد تزوج من قبل- شابة أخرى اسمها ميلدريد هاريس- وتوفي طفلهما بعد بضعة أيام من ولادته. وقد دام حزن والدي على طفله المتوفى عدة أشهر، وكان على درجة من المرارة جعل الآنسة هاريس تؤكد أنه كان السبب الرئيس لانهيار زواجهما.

لكن ولادتي كانت مصدراً لقلق آخر. فقد التفّ الحبل السري حول عنقي بشدة وكاد يخنقني الأمر الذي اضطر الطبيب إلى وضع قطعة من الكتان على فمي ونفخ فيها فسعلت بشدة حتى أصبحت قادراً في نهاية الأمر على البكاء فارتاح جميع الحاضرين.

أعرب والدي، مراراً، قبل ولادتي عن ميله إلى الفتيات، لكنه رحّب بقدومي وأعرب عن رضاه لأنني كنت مولوده الأول الصحيح البنية. حملت اسم تشارلز سبنسر تيمناً به بعد نزاع أسري حول هذه المسألة. فقد اعترض والدي على هذا الاسم بشدة قائلاً إن حمل اسمه يعني أن حياتي ستكون معلقة بسمعته وهو أمر قد يتبين، في المستقبل، أنه عائق كبير يقف في طريقي، لا سيما إذا اخترت مهنته. لكن أمي، التي كانت تعرف جيداً غرور والدي الكبير، عجزت عن منع نفسها من الشعور أن سبب اعتراضه الحقيقي يتعلق بوجود اثنين في العائلة يحملان اسم تشارلي شابلن، فاستمرت

في الدفاع عن قضيتها حتى فازت. كان والدي يعرف، أثناء حياة جدي، باسم شارلي جونيور. وهكذا، كان عليَّ أن أكون الوارث الجديد لهذا اللقب.

لا بُدَّ أنني كنت الرضيع الأول الذي كان والدي على ذلك القدر الوثيق من التماس معه. فقد كنت، بالنسبة إليه، أكثر من مجرد ابن رضيع. لقد كنت رمزاً للبيت الأسري وللحياة المنزلية ولكل ما افتقده في طفولته- كل شيء بالفعل. وهو أمر عليكم أن تدركوه إن رغبتم في فهم والدي.

ولد أبي في السادس عشر من نيسان 1889 في الشقة رقم 3 في بناء بارنيل تيراس الواقع في حيّ كنينغهام رود اللندني. وقد شيّد ذلك البناء ذو الطبقات الثلاث المبني من الطوب (الذي تعرض للقصف خلال الحرب العالمية الثانية) في القرن التاسع عشر وكان يتمتع بمظهر داكن يبعث على الاكتئاب. كان والداه بريطانيين. كان جدّي مزيجاً فرنسيّاً وأيرلنديّاً- اسم شابلن ذو جذور فرنسية. أما جدتي، فكانت تجري في عروقها دماء غجرية- فرنسية أو إسبانية- ورثتها من والدتها. وقد كان والدي يزهو بصورة مبالغ فيها على الدوام بتلك الدماء الرومانية الجامحة.

كان جداي من الشخصيات المعروفة في مسارح لندن في تلك الفترة. فقد كان مغني أناشيد شعبية يتمتع بصوت رخيم. كان على قدر كافٍ من العذوبة كي يغني في نيويورك. أما والدة أبي، هانا شابلن، التي عملت في المسرح في سنّ مبكرة تحت اسم ليلي هارفي، فقد غنت وعزفت على البيانو وكانت، لبرهة، عضواً في فرقة جيلبرت وسوليفان التي جالت في أرجاء إنكلترا ومثلت في الاسكتشات الكوميدية التي كانت ذات رواج كبير في البرامج المسرحية.

وكان لوالدي أخوان نصف شقيقين، الأول منهما هو الراحل ويلر درايدن، ابن الممثل ليو درايدن. أظن أن عمي ويلر نشأ في كنف والده، ولذلك، كان والدي، في تلك الأيام المبكرة، على صلة أكثر قوة بأخيه الثاني، العم سيدني الذي يكبر والدي بأربع سنوات. وبعد طلاق الجدة شابلن من والد العم سيدني وزواجها بجدي، حمل العم سيدني لقب شابلن. وبسبب شبهه العارض بزوج والدته- قال بعض الناس إنه أشبه بجدي منه بوالدي في العديد من الجوانب- فقد كان الكثيرون يظنون أنه من عائلة شابلن بالفعل.

يعيش أبناء العاملين في المسرح عادة حياة يكونون فيها عرضة للتقلبات المستمرة. لكن حياة والدي كانت أقل أمناً من ذلك بسبب إدمان الجد شابلن على الكحول الأمر الذي جعله عاجزاً عن تقديم الرعاية المناسبة لأسرته. وقد توفي في الثلاثينيات من عمره بسبب مرض يعود إلى معاقرته الخمر.

تميزت طفولة والدي بالبرودة منذ البداية وكان الجوع والبرد من الأحاسيس التي لازمته باستمرار. وعندما بلغ سنّ الخامسة، عاش تجربة أكثر مرارة لا يزال يتذكرها، حتى اليوم، برعب كبير. فقد وضعته والدته، مع العم سيدني، في ميتم لأنها كانت عاجزة عن رعايتهما. هكذا عانى والدي خذلان والدته، بعد أن كان والده قد خذله بدوره، أو هذا ما بدا عليه الأمر لطفل في الخامسة من العمر.

لم يقدم الميتم قط ما يكفي من الطعام والملبس، فكان الأطفال فيه جائعين ويعانون من البرد باستمرار. كما كانوا يعاملون كالمجرمين لمجرد كونهم فقراء. كان النظام المعمول به في الميتم قاسياً على غرار النظام العسكري، ويستطيع المرء أن يتخيل بسهولة ما يمكن للانضباط أن يكون عليه عند منعطف القرن، في فترة كان تأديب الأطفال فيها أشد صرامة بكثير مما هو عليه اليوم. إذ كان الضرب بالسياط وضروب الحرمان والسجن الانفرادي من العقوبات المستحقة على أدنى المخالفات. وقد بدا أن موظفي الميتم كانوا يمارسون جهداً منظماً يرمي إلى كسر إرادة الأطفال الخاضعين لهم وتحطيم روحهم المعنوية.

وأضيف إلى تلك الوحدة حقيقة أن والدة والدي لم تزره إلّا لماماً خلال العامين اللذين بقي فيهما، مع شقيقه سيدني، في الميتم. لكنها عادت لأخذه إلى البيت، من جديد، لدى بلوغه السابعة من عمره. وقد ذكرت سجلات الميتم أنه «تمّ تسليم سيدني شابلن إلى والدته في العاشر من آذار 1896، والأمر نفسه ينطبق على شارلز». خرج والدي من الميتم صبيّاً هادئاً حسن التربية- أو هكذا كان، على الأقل، وصف سيريل هولدن له. فقد اعتاد السيد هولدن، ابن فريد هولدن المدير السابق لمسرح كنتربري، الذي يعادل والدي سنّاً، على رؤية والدي عندما كانا صبيين في الثامنة من العمر، لأن الجد شابلن كان، في ذلك الوقت، يمثل في المسرح. لقد أدرك والدي جيداً أن الفقر خير معلم. وقد استطاع السيد هولدن، في اللحظة التي نظر فيها في عيني والدي الزرقاوين الجليديتين، أن يرى فيهما أمراً لم ينكسر بعد، أمراً فيه الكثير من العزيمة والقوة، أمراً كان أكبر بكثير من جسده الصغير المهزول. يمكنكم، إن شئتم، أن تدعوه غرور والدي الهائل. لكن هذا الأمر هو ما جعله قادراً على المضي قدماً في غياب أية قوى دافعة أخرى.

وقد حدثني والدي، ذات يوم، عن ذلك الأمر قائلاً: «عليك أن تؤمن بنفسك. ذلك هو السر. فحتى عندما كنت أعيش في الميتم أو أهيم على وجهي في الشوارع بحثاً عما يسد رمقي ويبقيني على قيد الحياة، حتى في تلك اللحظات، كنت أعتبر نفسي أعظم ممثل في العالم. كان عليَّ أن أشعر بهذا الامتلاء الذي يأتي من الثقة الكلية بالنفس. ودون ذلك، فإن مصيرك سيكون الهزيمة».

كان والدي بحاجة إلى أن يحلم. كانت فترة الرخاء التي عرفها آل شابلن مؤقتة. إذ لم يمضِ وقت طويل قبل أن يعود مرة أخرى إلى الجوع والبرد والإهمال. لكنه لم يعد إلى الميتم قط لأنه كان قد أصبح، بمشقة بالغة، أكثر من مجرد طفل متشرد لندني يستجدي الآخرين كي يعيش وينام هنا وهناك ويحصل بالكاد على ما يسد به رمقه. أصبح جسده الهزيل بالطبيعة أكثر ذبولاً بحيث بدا رأسه الكبير الوسيم، بخصلات شعره السود، كتلة كبيرة تجثم على كتفيه النحيلين. هناك، في تلك الأحياء العشوائية التي تسودها القسوة والبذاءة، وحيث يعتبر أيّ تنافر أمراً جديراً بالضحك، كان ظهوره مدعاة لأشكال السخرية والملاحظات النابية. كان، إذن، لا يزال هدفاً للاستهزاء، لكنه نال حريته على أقل تقدير. وكان الحظ يقف إلى جانبه، بين الفينة والأخرى، فيحصل على عمل يجعل حياته أكثر أمناً- كأن يعمل صبي حلاق أو بواباً في أحد المسارح أو أن يؤدي، مقتفياً خطى والديه، أدواراً صغيرة كوميدية أو راقصة في عروض الفودفيل.

لكن والدي عرف فترة طويلة من الأمن النسبي من حيث تلبية احتياجاته المعيشية عندما كان عضواً في فرقة «غلمان لانكشاير الثمانية». لكن تلك التجربة جعلته يعاني بطرق أخرى. فقد أجرت الفرقة جولة طويلة على بلدات المناجم في شمال إنكلترا. كانت بلدات موحشة يخيم عليها البرد والرطوبة والهواء العابق بالدخان. كانت شجارات السكارى من الأحداث المألوفة، وكان لتلك المشاهد أثر على روح والدي شبيه بالألم الجسدي. كان ينكمش على نفسه بسبب ليالي الوحدة الطويلة تلك التي كان يقضيها مع زملائه الصغار من أعضاء الفرقة المجتمعين في غرفة وحيدة صغيرة باردة يفتقدون فيها حرارة المنزل وحنان الأم. الافتقار إلى الأب والافتقار إلى الأم- ربما تلخص هذه الكلمات أشد ضروب الحرمان التي أحسّ بها والدي في طفولته.

فقد نقل عنه ذات مرة قوله: «وحده حبّ الأم ما يدوم». لكنني لا أظن أنه اقتنع، في قرارة نفسه، بأنه حظي بهذا الحبّ، بالفعل. فعلى الرغم من أنه كان يقول للآخرين إن الفقر كان مصدر الشقاء الوحيد في طفولته، لكنه أسرّ لجدتي من أمي بمصدر للألم أكثر عمقاً، هو ذلك الشعور أن والدته قد خذلته عندما كان في أمسّ الحاجة إليها.

وتضاف إلى التراجيديا التي عاشها والدي في طفولته أن أمه بدأت تعاني من أعراض مرض عقلي لم يفارقها وكانت الأعراض تزداد ظهوراً مع مضي السنين. لم يتسم مرضها بالعنف، بل كان، بالأحرى، يتميز بشكل من أشكال الانسحاب من عالم الواقع، فكانت تمر أوقات تعجز فيها عن التعرف على ولديها وكان ينبغي نقلها إلى المستشفى.

لا بُدَّ أن مرض جدتي أثّر بعمق في والدي لأنه حدثني، وسيدني، عنه كثيراً في سنوات لاحقة. لكن

تعامله المستخف مع هذا الشأن لم يضللنا. كان والدي يقول مثلاً: «أشكر الله لأنكما ولدتما بيدين وقدمين وساقين ورأس واحد. أي إنكما طبيعيان، لأنه يحدث، في بعض الأحيان، كما تعلمان... بالطبع كان يمكن للأمر أن يكون، بالنسبة إليكما، خلاف ذلك. هنالك أمر ما في هذه الأسرة، أمر ما... آه كم قلقت عليكما». كان يتحدث بمرح، ثم يتجهم وكأن مجرد مرور طيف تلك الأسرة كان كافياً لجعل ذلك الطيف يدنو منه إلى مسافة أقرب من أن يشعر بالارتياح.

أطياف- صور جدي وجدتي التراجيدية، شوارع كنينغتون الرمادية. تلك كانت خلفية والدي عندما وقف، في تلك الليلة، وأخذ ينظر إلى الأسفل نحوي بقلق أكبر من القلق المعهود الذي يحسّ به أيّ أب تجاه ابنه المولود حديثاً، على الرغم من أنني كنت بصحة جيدة وطفلاً طبيعيّاً من كافة النواحي كما أكد له ذلك الطبيب وهو يضحك.

-2-

لم تكن الأمور بين والديّ على خير ما يرام قبل إبصاري النور، لكن روحاً من التصالح شاعت بينهما لفترة وجيزة تلت ولادتي. فقد وحدهما الطفل الذي أنجباه وكانا أسرة بالفعل. تخبرني نانا أن والدي بدا، خلال تلك الأسابيع السعيدة، وكأنه قد تغير على مستوى طبيعته وأصبح أقل ميلاً للصمت وأكثر لطفاً؛ أما فيما يخصني شخصياً، فلا أظن أنني، كطفل رضيع، قد انتقلت، بالنسبة إليه، من مرحلة الرمز. ولا بُدَّ أنه كان يعيش حالة من الرهبة تجاهي جعلته يحجم عن حملي بين ذراعيه.

كما كان والدي مشغولاً في عمله على فيلم «حمى الذهب» في الاستديو. لم نكن نراه كثيراً. لكنه كان يأتي إلى الغرفة التي كنت أنام فيها مع نانا، التي ثابرت على العناية بي، صبيحة كل يوم قبل ذهابه إلى العمل كي يلقي عليَّ التحية ويطمئن إلى أحوالي. وعند عودته إلى المنزل ليلاً، كان يعرج على الغرفة لمشاهدتي بالطريقة نفسها.

وعلى الرغم من أن والدي لم يعلم تماماً ما عليه القيام به تجاهي، فإنه كان فخوراً بإنجابه ابناً. كانت الطرق التي يعبر فيها عن اعتزازه دونكيشوتية في الكثير من الحالات كما هي طبيعته. فذات صباح، بينما كان في طريقه إلى العمل، وقف أمام المهد الذي كنت ممدداً فيه عارياً تماماً وانحنى فوقي. كان يرتدي بذلة بيضاء فلطختها، بكل الجهل الذي يتميز به طفل صغير، بكمية كبيرة من الماء. لكن والدي لم يزعج نفسه بتغيير ملابسه، بل ذهب إلى الاستديو حاملاً تلك البقعة الصفراء البادية للعيان وكأنها وسام استحقاق. وعندما يسأله أحدهم عما حصل، كان يبرز صدره إلى الأمام وكأنه مزين بالأوسمة ويقول باعتزاز: «إنه ابني من قام بذلك. أليس الأمر مدهشاً؟».

ولد شقيقي سيدني في الثلاثين من آذار 1926 في غرفة النوم الوسطى في منزل شابلن الواقع على قمة التل. كانت رغبة والدي بإنجاب فتاة قد بلغت حدّاً جعله يكاد يستشيط غيظاً بسبب خيبة أمله من ولادة سيدني. لكنه سرعان ما غفر لشقيقي الخطأ الذي ارتكبه. أطلق على سيدني اسم سيدني إيرل شابلن تيمناً بعمي سيدني على الرغم من أن والدتي أرادت أن تدعوه توماس إدوارد، لكن النصر كان لوالدي هذه المرة.

لم ترافق ولادة سيدني أية تعقيدات وكان طفلاً مفعماً بالحيوية منذ اللحظة الأولى. وقد أحضرت ممرضة للعناية به وشارك والدتي النوم في الغرفة الوسطى. هكذا أصبحت رحلة والدي اليومية

إلى العمل تتضمن الآن وقفتين. فكان يزور، في البداية، سيدني ثم ينتقل لزيارتي قبل أن يهبط الدرجات إلى الباب الأمامي ثم إلى الاستديو. وكان الروتين نفسه يتكرر لدى عودته من العمل.

تعرفت للمرة الأولى إلى الصعلوك الصغير، الذي سيلعب دوراً كبيراً في حياتي في المستقبل، بعيد ولادة سيدني. حدث ذلك في وقت متأخر من اليوم وكان سيدني ممدداً في السرير مع أمي وكنت جالساً في حضن نانا عندما فتح الباب فجأة ودخل أبي. كان التعب قد نال منه إلى درجة منعته من خلع زيه في الاستديو فظهر أمامي بسرواله المترهل وشاربيه الصغيرين المضحكين اللذين تحولا إلى رمز محبّب في العالم أجمع. حدقت فيه بعينين كانت حدقتاهما تزدادان اتساعاً وأخذت أتساءل: من هذا؟ أيّ عالم غريب انبثق منه كي يتسلل إلى حلقتنا الأسرية؟ يقال لي دائماً إنني لم أكن طفلاً صاخباً. هكذا بدأت أبكي بصمت.

فقال الرجل الصغير الغريب: «لماذا تبكي؟ إنه بابا. إنه بابا». لكن الصوت المألوف لم يستطع منع دموعي من الانهمار. ثم دخل الصديق الصغير وانتزع أحد شاربيه قائلاً: «ألا ترى؟ إنه بابا». لكني لم أكفّ عن البكاء فأزال جزءاً من الشارب الثاني، مكرراً القول «إنه بابا». تنازعتني الدهشة والدموع، فحدقت في ذلك المخلوق العجيب الذي كان نصفه والدي ونصفه الآخر شخصاً غريباً. ثم أزال شاربه الثاني تماماً قائلاً: «هل ترى الآن؟ إنه بابا».

لكني كنت قد رسمت على وجهي ابتسامة سرور عريضة، قبل أن ينتهي من ذلك. هكذا استطاع الصعلوك الصغير، الذي أضحك ملايين البشر، أن يخيف ابنه الصغير إلى درجة البكاء- لقد أخافته فكرة أن والده الذي لم يكن يراه إلّا لماماً وبقي، على الرغم من ذلك، يحبّه، بل إنه كان يحبّه منذ الأيام الأولى لولادته، قد تحول إلى مخلوق غريب ما. كان غريباً، بالنسبة إليَّ، ذلك التحول الكلي الذي طرأ، أمام ناظري، على وجه مألوف تماماً استحال شخصية لم أستطع إدراكها، وطبيعة عجزت عن فهمها... شيئاً غير ذي محل ثقة كان هناك ثم اختفى من جديد.

أفترض أن الكثير من الناس يظنون أنني، وسيدني، كنا صبيين محظوظين. فقد كانت والدتنا فتية وجميلة وكان والدنا شخصية مرموقة على مستوى العالم وكان لدينا، بالإضافة إلى ذلك، جدتان وذووهما يعتنون، جميعهم، بنا.

كان الجدان كوري يأتيان، في بعض الأحيان، إلى المنزل لزيارتنا ولإبداء الإعجاب بحفيديهما. وكانت الجدة كوري مغرمة بوالدي كما كانت علاقة الجد كوري به ممتازة على الرغم من وجود بعض الخلافات بينهما تعود إلى الفترة التي سبقت زواج والدي. كانا رجلين إنكليزيين وكانا، بهذه

الصفة، متشابهين من حيث الملبس والسلوك، وكانا يملكان القدر نفسه من العناد وعزة النفس، وكانت لديهما النظرة نفسها إلى الحياة، ولا سيما عندما يتعلق الأمر بالأطفال.

لكن والد جدي رأى أن والدي مضى أبعد مما ينبغي في إيمانه في أن الدولة يجب أن تأخذ الأطفال من ذويهم كي تقوم، هي نفسها، بتنشئتهم. لم تكن هذه الفكرة شكلاً من أشكال الدعاية «الشيوعية» كما يمكن أن يبدو عليه الأمر، لأن والدي، الذي يؤمن بالروح الفردية، كان يبغض فكرة الخضوع للدولة. كما لم يكن الأمر لأن والدي يظن أن الأطفال الذين تأخذهم الدولة سيتلقون تنشئة مناسبة كما يفترض والد جدي ونانا. لقد كان منشأ هذه الفكرة، في الواقع، رغبة والدي في تجنيب الأطفال الآخرين المعاناة العميقة التي عاشها هو نفسه في طفولته. لقد رأى في الدولة كياناً كلي الحكمة يتمتع بالثروة والإنسانية لا يمكن له أن يتخلى عن أيّ طفل. كانت تلك واحدة من العديد من النظريات الطوباوية غير الواقعية التي تصبو إلى عالم لا يعاني فيه أحد.

كما كانت الجدة شابلن تزورنا كل أسبوع. فكان والدي يرسل سائقه لإحضارها إلى المنزل أو إننا كنا نذهب إلى منزلها الصغير الواقع في جادة لانكرشيم في وادي سان فرنسيسكو بالقرب من هوليوود. وكان والدي قد أحضر الجدة شابلن إلى البلاد قبل أربع سنوات تقريباً من زواجه بوالدتي. كان مخلصاً لها على الدوام. فعندما انضم، مستفيداً من صلات العم سيدني، إلى فرقة فريد كارنو المسرحية وبدأ بالحصول على دخل ثابت يبلغ ثلاثين دولاراً في الأسبوع، وضعها في دار رعاية خاصة في إنكلترا. وبعد النجاح الأسطوري الذي حققه في هوليوود، بدأ يعمل على إحضارها إلى الولايات المتحدة كي تصبح رعايتها أسهل بالنسبة إليه. لكن الأمر لم يكن سهلاً لأن حالتها العقلية جعلتها غير مؤهلة للحصول على الجنسية، كما أن وضعها الصحي جعلها شخصاً غير مرحّب به بسبب الاحتمال القائم أن تصبح عبئاً على الدولة ذات يوم. وقد اقتضى التغلب على كافة الصعوبات القانونية التي وقفت في وجه والدي عدة سنوات قبل أن يوافق، في نهاية المطاف، على تسديد مبلغ سنوي يستخدم كضمانة لرعايتها وينال، بذلك، إذناً خاصّاً بإحضارها إلى البلاد.

عاشت الجدة شابلن معظم السنوات السبع التي بقيت لها في ذلك المنزل الصغير المستأجر في جادة لانكرشيم. ووظف والدي الشخصين اللذين استأجر منهما المنزل لرعايتها ووفر لها كل أشكال الرعاية التي كانت بحاجة إليها. وعندما اكتشف حبّها للنزهات، وضع سيارته وسائقه تحت تصرفها. لقد قام بكل ما في استطاعته لجعلها سعيدة ومرتاحة- كل شيء إلّا زيارتها. لا أعلم إن كان ذلك عائداً لحالتها العقلية المؤسفة، أم لكونها أيقظت ذكريات طفولته التعيسة، لكن الواقع أنه لم يرها مرة دون أن يعاوده إحساس بالكآبة يعادل، في حدته، الألم الجسدي، وكان ذلك الشعور

يلازمه أياماً عديدة مانعاً إياه من التركيز على عمله.

لكن والدتي، التي تتمتع بروح الجماعة بسبب الروابط الوثيقة التي تجمع أفراد أسرتها، نجحت في إقناعه برؤية الجدة شابلن بتواتر أكبر. ومن هنا تطورت بصورة مضطردة تلك الزيارات الأسبوعية إلى منزلها.

أدرك الناس الذين رأوا والدي وجدتي معاً مقدار الشبه بينهما. فعلى الرغم من أن والدي كان يتميز بكبر رأسه الذي ورثه من والده، فإن حجم جسده الصغير موروث من أمه. كما كان يتمتع بعينيها الزرقاوين الجليديتين الجميلتين وبابتسامتها الخبيثة وبيديها الرقيقتين التعبيريتين.

اكتشفت والدتي ونانا على حدّ سواء في الجدة شابلن امرأة ساحرة كما كانت بالنسبة إلى كل من عرفها. لكن الأمر لم يكن يتطلب من المرء سوى أن يتكلم معها لبعض الوقت كي يكتشف أنها كانت تعيش في عالم يختلف عن عالم الآخرين- عالم من الفانتازيا.

كانت الجدة شابلن في بعض الأحيان تناقش بضراوة الغارات الجوية التي كانت المناطيد الألمانية الكبيرة قد شنتها على لندن خلال الحرب التي انتهت منذ فترة وجيزة والتي سببت لها رعباً كبيراً، في حين كانت تثرثر في أحيان أخرى عن الجد شابلن الذي كانت تتذكره بافتتان. كما كانت، بين الفينة والأخرى، تعرب عن اعتزازها بوالدي وحبّها له حين تهتف مرة تلو الأخرى: «ابني! ابني!».

لم تتحدث قط عن السنوات السابقة، سنوات فتوتها وطفولة والدي، سنوات العوز والحرمان. ربما كانت قد نسيت تلك الأيام. بيدَ أنه كان هنالك أولئك الذين رأوها في مناسبات مختلفة واكتشفوا أنها تكون أكثر هدوءاً ولطفاً وحكمة عندما تكون برفقة والدي.

وعلى الرغم من ذلك، كان مزاج الجدة شابلن يبدو، في بعض الأحيان، أكثر مرحاً من المألوف. كانت لا تزال تتذكر فترة العمل المسرحي في أيام شبابها وكانت تعزف على البيانو وتغني لنا. وكان يمكن لها أن تقفز من كرسي البيانو وتؤدي الفقرات التي أسعدت جمهور مسارح لندن، في أيام مضت. فكانت تدور وتدور وترفع تنورتها كما كانت تفعل في الماضي وترقص بمرح في حين كنت أمدّ يدي محاولاً إمساكها دون جدوى. ثم تتوقف الجدة شابلن، فجأة، وتنحني باتجاهي ضاحكة وتمسكني الأمر الذي يستفزّ والدي. فيهزّ رأسه لأمي ونانا معبراً عن خشيته من أن تسلك الجدة شابلن سلوكاً متهوراً. كان يهمس محذراً: «راقباها... يا إلهي، أرجوكما أن تراقباها... لا تدعاها تمسكه. أرجوكما! قد ترميه من النافذة عن طريق الخطأ» دون أن تجدي محاولات والدتي

ونانا في تهدئة روعه وإقناعه أنه يمكن الاعتماد على الجدة شابلن بصورة أو بأخرى. فقد كان والدي يتمتع بخيال جامح يصور له الأمور بطريقة مغرقة في المغالاة ويجعله يتوقع أسوأ العواقب من أكثر الأحداث شيوعاً.

لفهم موقع أسرتنا في هوليوود في تلك الأيام، على القارئ أن يعرف شيئاً عن قصة انتقال والدي من ظلمة أحياء كنينغتون الفقيرة إلى الموقع الذي احتله في صناعة السينما بوصفه ملك الكوميديا. اعتبر الناس، في هذه المدينة، النجاح السريع الذي حققه فيها إحدى أكثر الظواهر إعجازاً. لكن يمكنكم، في الواقع، القول إن مجرد نجاته من تجارب طفولته القاسية كان أمراً إعجازيّاً. بيدَ أنه كان يقف خلف كل شيء أمر آخر مكنه من النجاة، أمر ربما ازداد بروزاً بسبب كل ما عانى منه- أمر ما لامع ومتألق، هو روح المرح الذي عجز أيّ شيء عن قتله واستطاع أن يتسلل من أعماق المأساة كي يخترق السطح.

استرعى والدي الانتباه للمرة الأولى عندما ظهر في مسرح الهيبودروم مع فرقة «غلمان لانكشاير الثمانية». فقد ارتدى، آنذاك، زيّ كلب وأثارت حركاته المرتجلة موجة عارمة من الضحك. إلّا أن الإدارة، التي خشيت أن تقوم الشرطة بإغلاق المسرح، قامت بسحبه من خشبة المسرح على وجه السرعة.

وفي سنوات مراهقته، جال والدي شمال البلاد من جديد، وهذه المرة برفقة فرقة «شرلوك هولمز»، بصفته بيلي ملمع الأحذية. وفي السنوات اللاحقة، كان والدي يقول، كلّما تحدثت إليه عن عملي المسرحي: «أنت تعلم أن والدك ممثل مسرحي كذلك. لقد عاش، بدوره، تجربة مسرحية صغيرة». في البداية، كنت أنتظر منه أن يتبع هذه الملاحظة بالقول إنه جسد هاملت أو سيرانو. لكنه كان، بدلاً من ذلك، يقول بفخر: «نعم. عندما كنت في الرابعة عشرة، لعبت مع فرقة شرلوك هولمز دور بيلي الصبي ملمع الأحذية». عندما كنت أسمع والدي يتحدث عن ذلك الدور بهذا القدر من الحنين، لم أكن أستطيع الامتناع عن الشعور بأنه ربما كان، في قرارة نفسه، يفضل المسرح عن التمثيل الإيمائي والسينما.

كان والدي في السابعة عشرة تقريباً عندما انضم إلى فرقة فريد كارنو إلى جانب العم سيدني. لم يعرف النجومية في بريطانيا، بل كان يلعب أدواراً مساعدة على الدوام. وأثناء جولة فرقة فريد كارنو في القارة الأوروبية، قلب والدي مسرح الفولي بيرجيه في باريس رأساً على عقب بدور الكلب الذي كان قد أثار قدراً كبيراً من الحماسة في لندن عندما ابتكره وهو في الثامنة من عمره. وذات يوم، دعاه كلود دوبوسي، الذي كان حاضراً بين الجمهور، إلى الانضمام إليه حيث تلقى

تهنئة ذلك المؤلف الموسيقي الحارة. وقد اعتبر والدي، على الدوام، تلك اللحظات التي قضاها مع دوبوسي واحدة من النقاط المنيرة في مسيرته المهنية وكلمني عنها كثيراً عندما كنت طفلاً.

كان أداء والدي الفريد، حتى في الأدوار الصغيرة، هو ما جعله يدعى مرة أخرى للانضمام إلى فرقة فريد كارنو في جولتها الأمريكية. أما الفضل في إحضاره إلى هذه البلاد، فكان عائداً إلى آمي ريفز زوجة الراحل ألفرد ريفز الذي كان مكلفاً، في ذلك الوقت، بتنظيم جولة الفرقة.

أدركت آمي المواهب التي يتمتع بها والدي منذ عام 1909، لم تكن، في ذلك الوقت، قد تزوجت بعد وكانت تعمل راقصة في فرقة كارنو في لندن حيث لعبت ووالدي دورين صغيرين في أحد الاستكشات، في حين كان العم سيدني نجم العرض. وبعد مرور عام، وكانت قد اقترنت بآل وأصبحت تجول برفقته في الولايات المتحدة مع فرقة كارنو، تذكرت آمي والدي. كان السيد ريفز، في ذلك الوقت، قد ابتلي بداء مألوف في أوساط الفرق المسرحية. فقد تركه الممثل الرئيس في فرقته من أجل مرعى أكثر خضرة. فعاد السيد ريفز إلى لندن، وشاهد، نزولاً عند رغبة آمي، والدي وهو يمثل ووقّع معه عقداً على الفور وأخذه عائداً إلى الولايات المتحدة جاعلاً إياه نجم العرض. وكان ذلك عام 1910.

جال والدي مع الفرقة في الولايات المتحدة ثلاث سنوات. وفي عام 1912، تلقى عرضاً من ممثل كوميدي رائع آخر هو إد واين الذي كانت لديه فرقته المسرحية الخاصة، وكان قد رأى والدي وأعجب بأدائه وعرض عليه أجراً أسبوعيّاً بلغ خمسة وستين دولاراً مقابل الانضمام إلى فرقته. وعندما طالبه والدي بخمسة وسبعين دولاراً، هزّ واين رأسه معترضاً: «آه، لا يمكنك بلوغ هذا الأجر في هذه البلاد».

وفي عام 1913، وقّع والدي عقده السينمائي الأول. فقد كان في فيلادلفيا عندما تلقى برقية من آدم كيسيل طالباً منه أن يتصل به في مكتب كيسيل وباومان، مالكي شركة كيستون فيلمز، في نيويورك. وكانت البرقية موجهة إلى «السيد تشارلز شابلن».

كان ماك سينيت وراء إرسال تلك البرقية. إذ كان سينيت قد اكتشف والدي أثناء زيارة عارضة إلى الأميريكان ميوزيك هول حيث كان والدي يؤدي دور السكير في مسرحية «ليلة في مسرح إنكليزي». ويعلق السيد سينيت على هذه الحادثة بالقول: «على الرغم من أنه كان عظيماً بالفعل، إلّا أنني أظن أن مصيره المحتوم كان العودة إلى إنكلترا لو أنني لم أره في ذلك اليوم على خشبة المسرح النيويوركي. كان يمكن له أن يكون ممثلاً مسرحيّاً عظيماً، لكني لا أظن أنه كان سيعمل

في السينما لأنهم لم يكونوا يصنعون أفلاماً كوميدية في إنكلترا في تلك الأيام. إذ كانت هوليوود المكان الوحيد الذي يقوم بذلك».

أما تطلعات والدي حول ما كان يمكن له أن يكون عليه مستقبله، إن استثنينا تدخل السيد سينيت الطارئ ذاك، فقد كانت مختلفة بشدة. إذ يقول والدي إنه، وأحد زملائه في الفرقة، كانا يوفران المال لشراء مزرعة في أركنساس من أجل تربية الخنازير.

تردد والدي فترة طويلة قبل أن يقرر الذهاب إلى هوليوود. فقد كان، في تلك الفترة، قد احتل موقعاً آمناً، بالفعل، في فرقة فريد كارنو وكان يحصل، بوصفه نجم الاستعراض، على أجر مجزٍ يبلغ خمسين دولاراً في الأسبوع. بل إنه بقي غير مقتنع بأنه قد اتخذ القرار المناسب، حتى بعد نجاحه في إقناع شركة كيستون فيلمز بدفع أجر أسبوعي لكي يبلغ مئة وخمسين دولاراً. إذ إنه كان يشك في قدرة الفن الجديد على الاستمرار كما كان يشك في قدرته، هو نفسه، على التكيّف معه. ولا بُدَّ أن الأفكار نفسها قد راودت سينيت لدى معاينته والدي للمرة الأولى دون ماكياج. تقول آمي ريفز إن فتوته البالغة أدهشت الجميع على الدوام لأنه كان يبدو، مع الماكياج، رجلاً في الخامسة والأربعين من العمر. هكذا سأله السيد سينيت وقد صار قلبه بين قدميه: «هل أنت حقّاً الرجل السكير؟» فأجابه والدي بالقيام ببعض الحركات الروتينية أتبعها بانحناءة كانت بمثابة تغطية لافتقاره إلى الثقة بالنفس. وقد أقرّ والدي، في سنوات لاحقة، أنه امتنع، لدى وصوله إلى هوليوود، عن الذهاب إلى الاستديو مدة ثلاثة أيام بسبب التوتر الذي عاشه في تلك الفترة، وأن الفضل في إخراجه من جحره يعود إلى مكالمة السيد سينيت الهاتفية إلى الفندق المتواضع الذي يقيم فيه في البنكر هيل.

أثار ظهور والدي في الاستديو بعض التلميحات الساخرة. فقد ألقى عليه فورد ستيرلينغ نظرة سريعة أتبعها بضحكة مجلجلة. وقال للسيد سينيت: «لقد أوقع بك هذا الفتى الصغير الغضّ الذي لا يملك ما يلزم كي يعمل في السينما». وقد مال العديد من الأشخاص الذين كانوا موجودين في الاستديو إلى الموافقة على رأي ستيرلينغ. فقد كان والدي بريطانيّاً من حيث الكلام والتصرفات- بل إنه كان يستخدم مصطلحflickahs البريطاني للدلالة على الأفلام- إلى درجة لم يستطع أحد معها أن يرى كيف يمكن له أن يتدبر أموره في الولايات المتحدة. كان شابّاً خجولاً متحفظاً يعيش حياة متقشفة في فندقه الرخيص، وكان يتمتع بمظهر كادحي لندن وبنظرتهم إلى الاقتصاد. فقد أخبر السيد سينيت ذات يوم، وكان قد نجح في جمع المئة ألف دولار الأولى في حياته، أنه سيتقاعد. أعتقد أنه كان يعني ما قاله في ذلك الوقت- كما كان يعنيه تماماً في كل مرة كان يشير فيها إلى

التقاعد. فقد تحدث والدي عن التقاعد بصورة دورية منذ أيام كيستون، بل إني لا أتذكّر مرة أنجز فيها فيلماً ناجحاً دون أن يقول لي إنه فيلمه الأخير وإنه قد انتهى من السينما إلى الأبد.

بدا حسّ الدعابة اللطيف لدى والدي غير مناسب لأجواء شركة كيستون التي كان الممثلون والفنيون فيها أشبه بأسرة كبيرة مهذارة يمارس أفرادها التهريج والقفشات. وذات صباح، عجزوا عن كبح جماح رغبتهم في المزاح مع والدي لأنه بدا لهم خجولاً للغاية. كانت القفشة محضرة أصلاً لجيس داندي، الكوميدي ذي الجثة الضخمة الذي كان يمضي فترات طويلة في المرحاض يقرأ صحيفة الصباح. هكذا، قاموا بكهربة مقعد المرحاض وعندما دخل داندي إليه شغلوا التيار الكهربائي. وعلى الفور، أطلق داندي صرخة كبيرة وكأنه مات. مضت برهة من الوقت ثم دخل والدي، الذي كان غافلاً عمّا جرى، إلى المرحاض، فشغلوا التيار الكهربائي مرة أخرى.

لكن أحداً لم يخرج راكضاً من الباب هذه المرة، بل سمعت جلبة مرتفعة ثم ساد صمت ازدادت وطأته شيئاً فشيئاً وأحسّ جميع من كانوا في الخارج بالضيق. ثم تمتم أحدهم قائلاً إن التيار الكهربائي ربما كان أشد مما ينبغي. وأخيراً، اتجهوا، جميعاً، بصمت إلى المرحاض ودفعوا الباب الموارب وهم يخشون الأسوأ. وهناك، كان والدي ممدداً على الأرض دون حراك ووجهه إلى الأسفل. وبينما كان الجميع يقفون ويحدقون بذعر، رفع والدي رأسه، فجأة، ورسم على وجهه تلك الابتسامة الشيطانية التي سحرت الملايين حول العالم ثم أخذ يومئ إليهم بأنفه بغطرسة.

أظن أن والدي اعتبر متغطرساً بطرق أخرى كذلك، أو تمّ اعتباره غير متعاون على الأقل. فعلى الرغم من أنه كان يتمتع بالتهذيب والهدوء، إلّا أن سلوكه تجاه المخرج حول الطريقة التي ينبغي له، فيها، أن يؤدي دوره كان يتميز بالعناد والجدل. كانت الكوميديا في تلك الأيام تتسم بسرعة الإيقاع وتعتمد، بصورة كبيرة، على الحركات الفظة والقوية. أما أداء والدي الإيمائي، فكان يعتمد على الرقة والرشاقة وعلى إيقاع في الحركة شبيه برقص الباليه. وعندما حاول جلب هذه الطريقة في الأداء إلى الشاشة، اعترض المخرج قائلاً إنه أبطأ مما ينبغي ويضيع الكثير من الوقت ولن يكون قادراً على لفت انتباه جمهور المتفرجين. والواقع أن ذلك المخرج بدا محقّاً لدى خروج الفيلم الأول الذي مثله والدي إلى الصالات. فقد أخفق الفيلم إخفاقاً ذريعاً وصار الجميع مقتنعين أن ذلك «الإنكليزي الصغير الغامض» الذي أحضره السيد سينيت أحمق بالفعل.

تذهب الروايات إلى القول إن العاملين في الاستديو كانوا يأملون بزيّ أكثر أناقة من ذلك المعطف البريطاني والقبعة اللذين ارتداهما والدي في أول أفلامه، إلّا أن زيّ الصعلوك الصغير نجح في البروز على الرغم من كل شيء. لكن والدي أخبرني ذات مرة أن شخصية الصعلوك الصغير

تعود، في جذورها، إلى سنوات عديدة قبل ذلك. فذات ليلية، وكان والدي، في تلك الأثناء، يعمل بواباً في أحد مسارح لندن، أتاه المدير المسعور بذلك الخبر المخيف أن نجم العرض غاب بداعي المرض وأنه يحتاج إلى بديل. فهل كان والدي صالحاً لهذه المهمة؟ كان الممثل الكوميدي الغائب ضخم الجثة وكانت ملابسه أكبر بكثير من أن تكون مناسبة لوالدي- كان السروال مترهلاً والحذاء كبيراً في حين كانت القبعة صغيرة لأن رأس أبي أكبر من رأس الممثل الكوميدي.

وقد أخبرني والدي عن تلك الليلة قائلاً: «ارتديت الملابس ببساطة فكانت النتيجة صعلوكاً. ثم خرجت إلى الخشبة فانفجر الجميع في الضحك لمرأى الرجل الصغير يرتدي سروالاً عملاقاً. هكذا طورت عرضاً ليليّاً كاد ينتهي بي بالسقوط في حوض استحمام مليء بالماء فينتفخ السروال ويجعلني أطفو في الماء بسبب امتلائه بالهواء».

ومع ملابس الصعلوك، خرجت شخصية الصعلوك الصغير إلى حيّز الوجود. لم يكن الصعلوك شخصية مدروسة، بل إنه انبثق من مكان ما يقع عميقاً داخل والدي. لقد كانت هذه الشخصية ذات والدي البديلة بالفعل، ذات الصبي الصغير الذي لم يكبر أبداً: الصبي الجائع ذو الملابس الرثة، الصبي الذي يعاني من البرد والذي لا يزال قادراً، على الرغم من كل شيء، على الإيماء للعالم بأنفه.

هكذا، صار والدي، الذي توطدت مكانته في شركة كيستون، قادراً على ردّ الجميل للعم سيدني الذي كان قد جلبه إلى فرقة كارنو، فاستدعاه للانضمام إلى طاقم الشركة.

ويتذكر السيد سينيت تلك الفترة قائلاً: «كان سيدني جيداً على الرغم من أنه كان، من حيث الموهبة التمثيلية، بعيداً جدّاً عن والدك. لكنه كان يتمتع بذلك الإحساس الفني الذي يميز الأسرة. وقد تولى فيما بعد مسؤولية إدارة أعمال والدك».

ازدادت ثقة والدي بالنفس مع مرور الوقت وارتفاع شعبيته، فبدأ، بالتدريج، يفرض آراءه فيما يتعلق بالأسلوب الذي ينبغي صنع المشاهد فيه. لم يكن يجادل لمجرد الجدال، بل لأنه لم يكن من نوعية الرجال الذين يقنعون بتجسيد الشخصية الموكلة إليهم ويدعون للآخرين مهمة التخطيط للسياق الذي تعيش فيه الشخصية. والواقع أن والدي بدأ، منذ اللحظة الأولى التي اجتاز فيها بوابات هذه الاستديوهات، بدراسة تقنيات السينما بكل تلك العزيمة التي كان يضعها في كل ما يثير اهتمامه، سواء كان الأمر يتعلق بالعمل أم باللعب.

ويتذكر السيد سينيت الأمر قائلاً: «كان آخر الممثلين الذين يغادرون الاستديو. كان يبقى هناك كي

يشاهد الفرق الأخرى وهي تعمل وكان يهتم بكافة التفاصيل- كافة التفاصيل. لقد كان تلميذاً رائعاً».

ومع حلول نهاية العام، صار والدي يكتب أعماله ويخرجها. وقد صنع خمسة وثلاثين فيلماً لشركة كيستون عام 1914 قبل أن ينتقل، عام 1915، إلى شركة إيساناي بأجر أسبوعي يعادل عشرة أمثال الأجر الذي كان يتقاضاه في كيستون وصنع لصالحها أربعة عشر فيلماً. وفي عام 1916، وقّع عقداً مع شركة ميوتوال كومباني مقابل عشرة آلاف دولار أسبوعيّاً ومكافأة سنوية مقدارها مئة وخمسون ألف دولار، أي ما مجموعه ست مئة وسبعون ألف دولار سنويّاً، وهو رقم تصدر عناوين الأخبار حول العالم وتحول إلى سابقة للأجور الخرافية التي أصبح العاملون في السينما يطلبونها أو يتقاضونها في ذلك الوقت. كان والدي، في ذلك الحين، في السادسة والعشرين من العمر وكان، قبل سنتين من ذلك، مجرد ممثل إيمائي يعمل في المسرح.

يقول السيد سينيت معلقاً: «كيف، بحقّ الجحيم، نجح في الحصول على عشرة آلاف دولار أسبوعيّاً ولم يمضِ على وجوده في البلاد أكثر من سنتين؟ لأنه كان عبقريّاً. هذا هو السرّ. لقد كان ذلك الصبي الإنكليزي الصغير فتى لامعاً للغاية».

لم يكن والدي يعلم مقدار الشعبية التي وصل إليها حتى قام برحلته الشهيرة إلى نيويورك، التي كان العم سيدني قد سبقه إليها، من أجل توقيع العقد مع شركة ميوتوال كومباني. كان يحلق ذقنه في الحمام عندما توقف القطار في مدينة ألبوكيرك في نيومكسيكو. نظر بتراخٍ من النافذة ورأى حشداً مكوناً من حوالي ألفي شخص متجمهرين أمام القطار. فكر في نفسه أن هذا الحشد جاء لتحية شخصية مشهورة على متن القطار فخرج كي يتقصى الأمر ووجهه مغطى بالرغوة. ولبالغ دهشته صاح أحدهم فجأة: «ها هو ذا! ها هو ذا! تشارلي شابلن هناك!».

لقي والدي ذلك الترحيب الصاخب على طول رحلته عبر البلاد. بل إن لافتات النيويورك تايمز الإعلانية رحّبت بقدومه إلى مدينة نيويورك: «إنه هنا!». هكذا تحقق حلم فتى كنينغتون الصغير وبأسرع الطرق الممكنة. لقد أصبح الكوميدي الأعظم، الكوميدي الأكثر شهرة، الكوميدي الأكثر تمتعاً بالحبّ في العالم. لكن أمراً صغيراً كان يشوب لحظات المجد تلك.

فقد قال لي أبي في سنوات لاحقة: «كنت شخصية مشهورة يعرفها الجميع. لكني لم أكن أعرف أحداً في مدينة نيويورك باستثناء عمك سيدني. لقد أحبّني الجميع، لكني لم أكن أملك أيّ صديق مقرب أستطيع أن أتحدث معه. لقد أحسست بنفسي أكثر الرجال الأحياء وحدة».

لكن على الرغم من وحدته، استخدم والدي شهرته خير استخدام. فقد طلب من شركة ميوتوال

كومباني مضاعفة الأجر المعروض عليه ثلاث مرات. ولكم أن تتخيلوا مقدار الأسف الذي انتاب الشركة لأنها لم توقع العقد معه في هوليوود.

-4-

صنع والدي مع شركة ميوتوال كومباني اثني عشر فيلماً، ثم ذهب إلى شركة سيركويت المملوكة من فيرست ناشيونال إكزيبيتورز، وهي شركة إنتاج حديثة التأسيس استطاع أن ينتج فيها أفلامه بنفسه. واستمرت أجوره الخرافية بالارتفاع. فقد نال هناك مليون دولار ومكافأة مقدارها خمسة عشر ألف دولار لمجرد التوقيع مع حصة من الأرباح. وبالمقابل، كان على والدي أن يصنع ثمانية أفلام في الأشهر الثمانية عشر التالية.

هكذا بدأ والدي، وقد صار الآن منتجاً يتمتع بحرية مطلقة في صناعة أفلامه، في بناء استديو جديد يخصه يقع عند تقاطع شارع لا بريا وجادة سانسيت في هوليوود. وقد حمل حجر الأساس لهذا المبنى طبعة حذاء الصعلوك وتاريخ 1918، وهو العام الذي استكمل فيه بناء الاستديو.

وبمجرد توقيعه العقد مع فيرست ناشيونال، أرسل والدي برقية إلى ألفريد ريفز، وكيل الحجوزات السابق لفرقة كارنو، طالباً منه فيها الحضور إلى هوليوود. وكان والدي قد أخبر آمي ريفز قبل ثلاث سنوات من ذلك: «عندما أصنع أفلامي ذات يوم، سأجعل آلف مديري».

كانت الحرب العالمية الأولى لما تزل مستعرة عندما وصل آلف ريفز وعاين الروح الحربية التي تعمّ الولايات المتحدة. وقد أسهم والدي بقسطه في المجهود الحربي عندما انضم، في ربيع عام 1918، إلى دوغلاس فيربانكس وماري بيكفورد في جولة مدتها شهرين تهدف إلى الترويج لصكوك «قرض الحرية الثالث». وقد أثمرت الصداقة الحميمة التي نمت بين هؤلاء الثلاثة عام 1919 عن تشكيل شركة يونايتد أرتيستس ريليزينغ كوربوريشن التي وزعت كافة أفلام والدي ابتداء من عام 1923.

وعندما انضمت آمي ريفز إلى زوجها في هوليوود بعد توقيع الهدنة، وجدت والدي، الذي كان في التاسعة والعشرين من العمر، وقد تزوج ميلدريد هاريس، وهي ممثلة سينمائية في السادسة عشرة من عمرها. وبعد سنوات من ذلك، كتبت الآنسة هاريس عدة مقالات لاذعة في الصحف حول زواجها التعس، تحدثت فيها عن مزاج والدي النكد وعن نوبات الصمت التي كانت تنتابه، وعن حاجته الملحة إلى الوحدة وعن جولاته الليلية المتوحدة الطويلة، وعن الموسيقى الغريبة والحزينة التي كان يرتجلها. وسرعان ما اكتشفت أنها لا تعني له أيّ شيء عندما يتعلق الأمر بعمله- لأنه كان يصل الليل بالنهار عندما يكون في صدد إنجاز فيلم. هكذا، حصل الانفصال المتوقع بينهما بعد

ولادة طفلهما في صيف 1919 ووفاته بعد أيام قليلة.

أصبح ذلك الانفصال مع كل ما رافقه من صخب واتهامات متبادلة مادة لعناوين رئيسة مثيرة في الصحف كانت الأولى في سلسلة من قصص الصفحات الأولى الملتهبة التي وسمت، مع مرور السنين، حياة والدي المهنية. وتمثلت المفارقة في أنه كان على والدي، الذي التمس الخصوصية أكثر من أيّ شخص آخر أعرفه، أن يعاني عذاب رؤية الكثير من مشاكله الحميمية وقد صارت، بأدقّ تفاصيلها، مادة للصحف.

وكان بدهيّاً أن تتسلى الصحافة بقصة الشجار بينه وبين لويس ماير، الذي كان في ذلك الحين مدير الإنتاج لدى ميلدريد هاريس، الذي اندلع في الفترة التي لم يكن الطلاق فيها قد بتّ بعد. تقول الرواية إن والدي سمع ماير وهو يحاول إقناع الآنسة هاريس بعدم الموافقة على التسوية المالية التي عرضها عليها ومقدارها خمسة وعشرون ألف دولار، ففقد والدي صوابه كالمعتاد وتوعد ماير بضربه في المرة القادمة التي سيراه فيها.

بيدَ أن الأمر لم يقتضِ من والدي سوى وقت قصير قبل أن يندم على تهديداته الفارغة. كانت هوليوود، في تلك الأيام، بلدة على قدر أكبر من الترابط والدرامية مما هي عليه اليوم، فتمّ أخذ تصريحات والدي العنيفة على محمل الجدّ وتناقل الناس هناك أقاويل مفادها أنه يتربص لماير. ومنذ تلك اللحظة، أحسّ والدي بنفسه كأنه بطل ملحمة وسترن ميلودرامية يجوب البلدة ويده على جراب مسدسه، باستثناء أنه كان بطلاً متردداً لأنه لم يكن يرغب، على وجه الخصوص، في خلق حملة دعائية غير مرغوبة تدور حوله. ولذلك، لم يقم والدي بمطاردة خصمه كما هو متوقع، بل فعل كل ما في وسعه لتجنبه، إلَّا أنه لم ينجح في ذلك لسوء حظه. هكذا وجد نفسه، والسيد ماير، ذات ليلة، وقد اجتمعا في قاعة العشاء في فندق ألكسندريا الواقع في قلب مدينة لوس أنجلوس.

أدرك والدي أن اللحظة الموعودة قد حانت وكان كافة الحاضرين يحدقون فيه بترقب. فانتظر والدي مرور السيد ماير في ممشى الفندق وقال له: «انزع نظارتيك يا ماير» ووجه إليه لكمة طائشة فأخطأه. ثم هاجمه السيد ماير والتحم الرجلان فانزلق والدي ووقع أرضاً ولطم رأسه بسقالات كانت موضوعة هناك من أجل بعض أعمال الصيانة. عند ذلك، سارع رجل الأمن في الفندق وأوقف الشجار وهرع بعض الحاضرين لمساعدة والدي على النهوض وسرعان ما اختفى، والسيد ماير. لم يتذكر والدي تلك الحادثة مرة دون أن يشعر بقدر من الإحراج. وقد قال لي ذات مرة معلقاً على ذلك: «لقد ورطت نفسي بسبب كثرة الكلام».

خشي والدي أثناء الضجيج الذي رافق انفصاله عن ميلدريد هاريس، على فيلم «الولد» بشكل عام وعلى مسيرته المهنية على وجه الخصوص. لكنه نجح، في تشرين الثاني 1920، في الوصول إلى تسوية مع زوجته السابقة بلغت مئة ألف دولار مع بعض العقارات وتمّ الطلاق بهدوء وخمد الضجيج الإعلامي مفسحاً المجال لوالدي كي ينجز فيلمه بسلام. وكان من المثير للاهتمام، على ما أظن، أن ابنة الاثني عشر ربيعاً ذات الشعر الداكن التي ظهرت كملاك مغناج في مشهد الحلم في فيلم «الصبي» كانت زوجة والدي التالية ووالدتي.

أنجز فيلم «الصبي» عام 1921 فقام والدي برحلة إلى الخارج هي الأولى منذ بزوغ نجمه في هوليوود. كانت مكانته في الحياة قد تغيرت بصورة جذرية عن تلك الأيام التي كان فيها مجرد ممثل في المسرح. أما الآن، فقد عاد إلى لندن وقد أصبح نجماً ووجد الناس هناك يتعاملون معه كما يتعاملون مع شخصيات شهيرة على شاكلة جورج برنارد شو وجيمس م. باري وتوماس بورك وهـ. ج. ويلز.

وقد شرح والدي في السنوات اللاحقة الدافع الرئيس لزيارة إنكلترا وهو البحث عن حبيبته في أيام الطفولة، وهي فتاة تدعى هيتي كيلي. لكنه اكتشف لدى وصوله أن هيتي، وهي فتاة سمراء فاتنة كان عمرها يزيد قليلاً عن عمر والدي، قد توفيت مؤخراً. لكن حلم والدي المثالي بهيتي استمر في مطاردته عدة سنوات- ربما لأنها أصبحت بالنسبة إليه غاية لا يمكن إدراكها الأمر الذي جعل مشاعر الحنين تجاهها تستمر مدة طويلة.

وفي تشرين الأول 1921، عاد والدي إلى هوليوود ودفن نفسه في العمل من جديد. لكنه وجد متعته في الارتباط العاطفي بسلسلة من النسوة الجميلات- بولا نيغري... كلير ويندسور... كلارا شيريدان. وكان ذلك من العادات التي داوم عليها في الفترات التي لم يكن مرتبطاً فيها.

لكن والدي لم يكن من هواة الترف. فعلى الرغم من أنه أصبح واحداً من أثرى رجال هوليوود، فقد استمر، حتى ذلك اليوم، في العيش في شقق وبيوت مستأجرة متواضعة إلى حدّ كبير. بل إن غرفة تبديل الملابس الخاصة به في الاستديو كانت صغيرة للغاية ومتواضعة إلى درجة جعلت أصدقاءه يعترضون ولا سيما دوغلاس فيربانكس وماري بيكفورد اللذان كانا قد تزوجا عام 1920. إذ كان دوغ يقول لوالدي: «يجب أن يكون لديك غرفة تتناسب مع مكانتك، كغرفتي»، فكان والدي ينظر إلى غرفة تبديل الملابس لدى فيربانكس ويهزّ رأسه قائلاً: «لو كان لديَّ غرفة كهذه، لما استطعت تجسيد شخصية الصعلوك الصغير. إني أحتاج إلى مكان يشبهه».

لم يفلح دوغ فيربانكس وماري بيكفورد في إقناع والدي بتحديث غرفته، لكنهما نجحا أخيراً في إقناعه بشراء أرض مساحتها ست دونمات على المنحدرات الجرداء الواقعة بالقرب من منزل بيكفير الذي كانا قد شيداه لتوّهما على الرغم من أني أظن أن الفضل الرئيس في ذلك يعزى إلى ماري لأن والدي كان أكثر استجابة لطلبات السيدات كما أنه كان يكنّ لها تقديراً كبيراً.

كانت الأرض الواقعة في ساميت درايف، في الفترة التي اشتراها فيها والدي، أرضاً مقفرة وموئلاً للأرانب وبنات آوى. فبدأ العمل عليها على الفور واستأجر بستانيين مكسيكيين لزراعة المنحدر بالأشجار بسبب ولعه بالوحدة التي توحي بها الغابات، كما استأجر خدمات مقاولين من أجل تتويج قمة التل بالمنزل الذي قام بتصميمه بنفسه. أستطيع الآن أن أتخيل الانفعالات التي راودته وهو ينظر إلى تلك القلعة الصفراء القوية، وهي مزيج من العمارة الباسكية والعمارة الإسبانية المعاصرة، الرابضة على قمة التل. كان ذلك هو البيت الأول الذي حظي به. بدا منيعاً وصلباً صلابة التل نفسه ويشرف على البلدة الصغيرة في بيفرلي هيلز التي تنتشر منازلها المتفرقة في الأسفل.

في ذلك الوقت الذي بني فيه والدي منزله، وكانت قد مضت عشر سنوات على توقيعه العقد مع شركة كيستون، كانت الكوميديا الرقيقة المرحة التي قدمها التي تجتذب التعاطف مع شخصية البطل قد استطاعت التفوق على أسلوب كوميديا العنف والفظاظة الذي ميّز أعمال كيستون الكوميدية، وبدأ الممثلون الكوميديون بتبني التقنيات التي ابتكرها، وكان المنتجون والمخرجون يدرسون أسلوبه في صناعة الأفلام. هكذا تحول والدي إلى شخصية لم تكن ثرية ومعروفة فحسب، بل وتمتعت بنفوذ كبير كذلك.

كان هناك أولئك الذين يعرفونه منذ الأزمنة القديمة والذين يؤكدون أن النجاح قد غيّر والدي، وأنه لم يعد ذلك الإنكليزي الخجول المتحفظ الذي ترك فرقة كارنو من أجل مهنة غير مضمونة النتائج في هوليوود. كانوا يقولون إنه أصبح شخصاً متمحوراً حول ذاته إلى حدّ بعيد، وإنه لم يكن قادراً على تحمل أيّ شيء يعترضه. لكن كان هنالك آخرون ممن قالوا إنه لم يتغير على نحو يثير الدهشة وإن ما كان يبدو وكأنه طغيان لم يكن سوى هاجس الكمال الذي يميز الفنانين. لكن الجميع توافقوا على أنه كان عبقريّاً وأن مكانته في هوليوود كانت راسخة رسوخ المنزل الذي بناه على قمة التل. ذلك ما كان عليه الموقف عندما أحضر والدتي إلى منزله بوصفها عروسه الجديدة وكانت هذه الأمور في الفترة التي كنت، فيها، وسيدني، طفلين رضيعين.

-5-

لم يكن زواج والدي سليماً منذ البداية ولم يكن هنالك ما يمكن صنعه لإصلاحه. إذ لا يستطيع المرء أن يجد في العالم بأسره شخصين على هذا القدر من التباعد الذي ميّز والدي ووالدتي. أما والدتي، فتنظر إلى الوراء، إلى زواج الأضداد الغريب ذاك، بطريقة فلسفية قائلة: «تعلم السنوات المرء روح الدعابة. أستطيع الآن أن أرى أن الأمر برمّته كان سخيفاً منذ البداية، كان قصة مذهلة لشخصين اختلفا في السنّ وفي كل شيء آخر».

لكن القصة لم تكن على هذا القدر من المرح في ذلك الوقت. فباستثناء الفترة الوجيزة التي تلت ولادتي، كان زواجهما قصة عذاب ناجم عن انعدام الانسجام دامت سنتين. كان والدي يشعر بأنه مقيد بحياة منزلية كان أقل ما يقال فيها إنه عاجز عن فهم متطلباتها أو استيعاب مبدأ العطاء المتبادل الذي يعتبر جزءاً من طبيعتها. وكان ذلك ينطبق على زواجه بميلدريد وكان أول الذين اعترفوا بالعجز الذي يعاني منه في هذا المجال.

فقد قال ذات مرة: «لست واثقاً من أنه كان عليَّ أن أتزوج. فأنا أعشق حرية الترحال وحرية تناول الطعام في أيّ وقت وحرية القيام بما يحلو لي. فعندما أعمل، أنقطع عن العالم وهو أمر يصعب معه الطلب إلى امرأة أن تكون سعيدة في أوقات أغفل فيها عن مجرد وجودها».

ولم تكن والدتي بالتأكيد تلك المرأة التي تسعدها شروط كهذه. فقد كانت، عند اقترانها بوالدي، في السادسة عشرة من عمرها فحسب، وكانت فتاة صغيرة مفعمة بالحياة، وكان يفترض بها أن تكون تلميذة في المدرسة الثانوية تستمتع بالحفلات وتواعد الفتيان وتقوم بكل ما يقتضيه سنّ المراهقة.

كانت، منذ البداية، تحسّ بالرهبة تجاه والدي الذي كان، وقد بلغ الخامسة والثلاثين، يفوقها عمراً بما يزيد عن الضعفين. وعلى الرغم من أنه كان، من الناحية القانونية، زوجها، فقد كان، في واقع الحال، شخصية عظيمة، تشارلي شابلن العظيم الذي كان يكتسي، أو هكذا بدا على الأقل، بهالة الغموض والسلطة. لم تستطع فهم طبيعته المعقدة مع ذلك المزيج الغريب من الظلمة والمرح أو مع ذلك الإخلاص المتشدد للعمل. هكذا، بدأ ينتابها شعور مفاده أنها قايضت حريتها بسجن لم تجد فيه ما يماثل أحلام المراهقة الرومانسية عن الحبّ والزواج.

كان هنالك الكثير مما يجري فوق رأسي ورأس سيدني في تلك السنوات السوداوية! كانت والدتي تقابل الاتهامات التي يطلقها والدي بدموع هستيرية.

كان والدي يهتف وهو في قمة غضبه قائلاً: «لست عائداً إلى المنزل من أجلك يا ليتا. لا أنوي أن أكون زوجاً لك». ثم يبقى في الخارج ليلة تلو ليلة. وليلة تلو ليلة، تنتظر والدتي عودته دون جدوى. وفي ليلة عيد الميلاد التي تلت زواجهما، سمعت أمي ونانا وقع خطاه في الساعات الأولى من الصباح وهو يصعد الدرجات متلمساً طريقه إلى الغرفة فأدركتا أنه ثمل. والدي ثمل! إنها حالة كفيلة بإخباري، أكثر من أيّ أمر آخر، بمقدار الألم واليأس اللذين انتاباه لأنها كانت المرة الوحيدة، على حدّ علمي، التي كان والدي فيها على هذا القدر من الثمالة. فقد كان والدي يمقت المشروبات الكحولية بشدة.

ومع ازدياد مناخات التوتر في المنزل، بدأت أمي ونانا باصطحابي، وسيدني، بعيداً عن البيت في رحلات قصيرة من أجل تلطيف الأجواء. وفي واحدة من تلك العطلات التي قضيناها على شاطئ البحر في بلدة كورونادو، تعلمت المشي وكان عمري سنة واحدة. وعند عودتي إلى المنزل ملأت هذه المهارة الجديدة والدي بالسرور. لكنني واثق من أني بقيت، بالنسبة إليه، على الرغم من ذلك، مجرد رمز. فهل أصبحت، وسيدني، رمزين لشيء صار بالنسبة إليه شركاً هائلاً؟ كان يعيش في تلك الأيام منطوياً على نفسه يجتر بؤسه وحيداً.

في صيف عام 1926، انهمك والدي، الذي كان قد أنجز فيلم «حمى الذهب» في شهر آب من العام السابق، في فيلم «السيرك» وكان منسوب التوتر لديه يرتفع باستمرار كما هي حاله في فتراته الإبداعية. وأخيراً اشتكى لأمي ونانا عجزه عن التركيز مع وجود هذا العدد الكبير من الناس في المنزل، عارضاً عليهما اصطحابي في رحلة إلى هونولولو مع إبقاء سيدني مع مربيته لأنه، على حدّ قوله، لن يتمكن من الحصول على حليب الأطفال المناسب على متن سفينة.

قبلت أمي ونانا العرض بكل سرور. ولم يمضِ سوى وقت قصير على صعودهما إلى متن السفينة حتى بدأتا تتساءلان حول الدوافع التي حدت بوالدي إلى إبقاء سيدني معه. هل كان يعني حقّاً ما قاله عن الحليب أم أنه يخطط لخطف شقيقي الأصغر؟ هل سيجدان سيدني قد رحل لدى عودتهما إلى المنزل، هل سيرسله إلى إنكلترا مثلاً؟ انتابتهما كافة صنوف الهواجس بسبب الجوّ الذي كان سائداً في منزلنا في ذلك الحين. وبعد ثلاثة أسابيع من القلق حول مصير سيدني، عادت أمي ونانا إلى المنزل برفقتي متجاهلتين رجاء أبي أن نبقى بعيداً مدة أطول.

لم يكن لأحد أن يتوقع أن يستمر زواج كهذا. هكذا حلّت النهاية في الأول من كانون الأول 1926 عندما كان عمر سيدني ثمانية أشهر وعمري سنة ونصف السنة.

أظن أنه يوجد على الدوام حادث واحد أخير، علامة تعجب ختامية واحدة يقول الناس عندها: «حدث ذلك عندما...». وفي هذه الحالة، حدث ذلك في حفل عشاء دعت أمي ونانا إليه بعض الأصدقاء من بلتيمور كانوا في زيارة إلى البلدة. كانت الحادية عشرة والنصف ليلاً، ولم تكونا تتوقعان أن والدي موجود في المنزل- فقد كان معتاداً على البقاء في الخارج إلى ساعات متأخرة عن ذلك. لكن فجأة، ووسط صخب الثرثرة المرحة وموسيقى الفونوغراف، ظهر في أعلى السلم وطرد الضيوف من المنزل بنبرة حاسمة. أصيب الجميع بالصدمة، فغادر الضيوف وبلغت والدتي مرحلة لم تعد قادرة فيها على الغفران.

وفي اليوم التالي، وبينما كان والدي في الاستديو، غادرت والدتي المنزل مع سيدني- أما أنا فقد أمضيت الليلة مع ذوي جدي. وبقيت نانا في المنزل لتخبر والدي بما حصل وتغادر المنزل بدورها.

لو أن والدتي ووالدي كانا زوجين عاديين يعاني زواجهما من المشاكل، لكان انفصالهما، ثم طلاقهما اللاحق، قد مرّ بالمقدار المعهود من المرارة التي لا بُدَّ منها قبل الوصول إلى مرحلة التعافي دون أية تعقيدات إضافية تتسبب بحدوثها أطراف خارجية تزيد الطين بلة. لكن لسوء الحظ، تحول والدي، مرة أخرى، بفضل اسمه، إلى خبر يتصدر الصفحات الأولى في الصحف. كانت العناوين الرئيسة، هذه المرة، أكثر إثارة مما كان عليه الأمر في المرة السابقة عندما انفصل عن ميلدريد هاريس. فقد احتل انفصاله عن والدتي صدارة العناوين، ثم نشرت مقتطفات من دعوى الطلاق المؤسفة التي تقدمت بها ذات الصفحات الاثنتين والأربعين، فردّ والدي قائلاً إن الأمر مؤامرة ترمي إلى تحطيم سمعته.

ومنذ تلك اللحظة، تحولت شؤون والدي ووالدتي الخاصة إلى استعراض سيرك يرمي إلى إمتاع العموم. لم يبقَ أحد لم يتدخل في هذه المسألة. كان محاميا الطرفين مشغولين بإعداد مرافعاتهما وتمّ تصوير أمي وولديها وكأنهم يعانون الأمرّين، وتحول والدي إلى وحش يرفض تسديد أية إعانة نقدية. وقامت سيدات الأندية الاجتماعية بإيماءات مسرفة تجاهنا من خلال تنظيم حملة تبرعات، ووقع مثقفو فرنسا عريضة تقول إن حياة الفنانين الخاصة ينبغي أن تبقى شأناً خاصّاً بهم.

أمر أحد القضاة والدي أن يدفع لأمي أربعة آلاف دولار شهريّاً إلى حين البتّ بتسوية الطلاق وحرمه من حقوقه في زيارة طفليه، وهدد محامو والدتي بسجن أبي إن أخفق في الانصياع للأمر القضائي خلال ستين يوماً، وأخذ القاضي يتلقى رسائل مجهولة المصدر تهدده بسبب ارتفاع قيمة التعويض الشهري الذي فرضه على والدي.

وكان فيلم «السيرك» من الأضرار الجانبية لهذه القضية لأن والدي، الذي سافر إلى نيويورك لقضاء بعض الأعمال، لم يكن في مزاج يسمح له بإكماله. بل إنه تحدث عن رغبته بهجر هوليوود وقلعته الصفراء الرابضة على قمة التل التي بناها كي تكون منزلاً دائماً له. كان يتحدث عن ضرورة الهرب من مسرح الكارثة التي عاشها والانتقال إلى إنكلترا بشكل نهائي.

ثم فرضت عليه الحكومة فجأة تسديد مبلغ يفوق المليون دولار كضريبة دخل، فجاء ذلك القرار بمثابة صدمة إضافية لوالدي الذي حرص على الدوام على توظيف أشخاص يقومون باحتساب ضرائبه. أما الآن فقد أصبح يعاني من صعوبات حقيقية وسدّت أمامه كل سبل الهروب.

وسرعان ما كتبت إحدى الصحف قائلة: «العم سام هو الرابح الوحيد في هذه اللعبة الثلاثية الأطراف».

واستمرت فضيحة الطلاق بالتضخم خارج حدود أهميتها الحقيقية. فصدرت تصريحات غير عقلانية مبعثها حمى الغضب كان يفترض بها أن لا تكون علنية لكنها شقت طريقها إلى الصحف كي يطلع عليها الجميع. لذلك لم يكن مفاجئاً أن تزداد المرارة التي انتابت الطرفين حتى بدت، في بعض اللحظات، أنه لا يمكن تجاوزها، بل إن والدي اتهم نانا بتدمير زواجه حين نقل عنه قوله: «والدة زوجتي مسؤولة عن بليتي. لقد تسببت بالانفصال وهي تريدني الآن أن أعطي ابنتها كل ما أملك تقريباً. ولن يوقفها شيء حتى تصل إلى مبتغاها».

لكن نانا لم تصدق أن والدي عنى ما كان يقوله. فقد كانت على الدوام من أقرب الناس إليه، بل إن والدي، قبيل الانفصال، دخل إلى غرفة نومها، ذات صباح، بينما كانت لا تزال في السرير، ومشى نحوها وجلس على حافة السرير وقال لها: «أريدك أن تأخذي شيئاً غاية في الجمال. أنت إنسان رائع لم يتدخل في حياتنا على الإطلاق». ثم فتح العلبة الصغيرة التي كان يحملها وأخرج منها دبوساً ماسيّاً من كارتييه وقدمه لها. فتأثرت نانا إلى درجة عجزت معها عن شكر والدي إلّا بشقّ النفس ثم انحنى نحوها وقبل خدها كما كان يفعل عادة وغادر الغرفة.

أما الآن، فتستذكر نانا الأحداث الماضية قائلة: «لقد كان للصحافة قسط كبير في ما جرى. كان عليهم أن يحصلوا على نسخة من كل شيء كي يذهب المراسلون إلى والدك قائلين: ليتا قالت هذا وليتا قالت ذاك. ثم يذهبون إلى والدتك ويقولون: السيد شابلن قال هذا والسيد شابلن قال ذاك. هكذا تضخمت المشكلة بالتدريج وصار الأمر مريعاً بالفعل».

وبعد خمسة أشهر من الشكوى التي قدمتها والدتي، تصدر ردّ والدي والشكوى المضادة التي قدمها

عناوين الأخبار إلى جانب طيران ليندبرغ التاريخي إلى باريس. كانت الشكوى التي قدمها تتألف من إحدى وتسعين صفحة نشرت الصحف مقتطفات منها إلى جانب طلب والدي الحصول على حضانتي وحضانة سيدني. بدا الأمر وكأن صراعاً قضائيّاً جديداً في طور التشكل، لكنه صراع لم يكتمل.

فقد احتلت أخبار الطلاق الذي وقع في الثاني والعشرين من آب 1927 الصفحة الثالثة والعشرين من الصحف إلى جانب أنباء إعدام ساكو وفانزيتي. إذ قبل والدي طلب أمي الطلاق وحضانة الطفلين دون نقاش، بل إنه لم يظهر في قاعة المحكمة. هكذا حكم قاضي المحكمة العليا في لوس أنجلوس والتر غويرين، وسط خيبة حشود الحاضرين، بحذف كافة الأمور ذات الحساسية من الدعوى. أما والدي، الذي صارت قدراته المالية في أدنى مستوياتها منذ الانفصال، فقد وافق على تسوية مع والدتي مقدارها مئة وخمسون ألف دولار كما وافق على إنشاء صندوق قيمته مئتا ألف دولار من أجلي وسيدني وكان عليه، كذلك، تسديد كافة نفقات المحاكمة التي قدرها أحد الصحفيين المتخصصين بحوالي تسع مئة وخمسين ألف دولار لا تتضمن أجور محاميه. هكذا لم يتطلب البتّ في القضية أكثر من ساعة واحدة. ومع إنجاز التسوية النهائية، اختفت قضية طلاق شابلن من صفحات الصحف إلى الأبد.

لكن الندوب التي تركها على أمي وأبي الزواج التعس ثم الطلاق كانت أكثر عمقاً من اهتمام الجمهور بالقضية. ففي ذروة الاهتمام الإعلامي، عانى والدي من انهيار عصبي في نيويورك وأمضى أسبوعين طريح الفراش تحت رعاية الطبيب. وخضع، بسبب عجزه عن تناول الأغذية الصلبة، إلى حمية سائلة وانخفض وزنه من مئة وخمسة وثلاثين باونداً إلى مئة وثمانية عشر، الأمر الذي دفع الصحفيين إلى التعليق على مظهره المنهك وسلوكه المقهور.

كما عانت والدتي من انهيارين عصبيين جديين في السنوات التالية، حيث تجسدت، في الانهيار الأول، كل مرارات زواجها على شكل تهويمات مرعبة. ولم تكن قادرة، لفترة طويلة، على سماع الموسيقى الكلاسيكية عموماً، وكانت تغادر الغرفة مكروبة لدى سماعها فاغنر. فقد كانت الموسيقى الكلاسيكية تذكرها بقوة بتلك الليالي التي أمضتها مع والدي في حفلات هوليوود الموسيقية كما كانت تذكرها، على وجه الخصوص، بأعماقه الغريبة والمعتمة التي أخافتها للغاية لأنها لم تكن قادرة على فهمها. أما فاغنر، فقد كان، على الدوام، الموسيقي المفضل لدى والدي، وقد سمعت والدتي موسيقاه كثيراً أثناء زواجها العاثر فارتبطت، لديها، تلك المعزوفات الغنية والكئيبة والشهوانية، في الكثير من الأحوال، بالسنوات السوداوية التي أمضتها بوصفها زوجة له. وهي لا

تزال حتى اليوم تفضل الموسيقى العصرية الخفيفة على الموسيقى الكلاسيكية.

أما في فترة الطلاق، فبدا أنه تمّت تسوية كل شيء وضبطت الأمور بطريقة مناسبة ولم تكن الأضرار التي أصابت سمعة والدي كبيرة في نهاية المطاف، وعاد إلى العمل في فيلم «السيرك» بطاقة متجددة، في حين بدأت والدتي، التي صارت المرارة التي عاشتها خلفها، تخطط، مع نانا، لبناء منزل جميل في بيفرلي هيلز وعشت وسيدني في بحبوحة بفضل الصندوق الائتماني الذي وضع بتصرفنا ولم يكن علينا أن نقلق من أجل غذائنا ومسكننا وغير ذلك من متطلبات الحياة التي افتقدها والدي في طفولته.

أصبحنا نعيش الآن في منزل جدتي في بيفرلي هيلز بطمأنينة بالٍ كما كان عليه الوضع في منزل والدنا. وفي الرابع والعشرين من كانون الثاني 1928، أي بعد مضيّ خمسة أشهر على الطلاق، قامت والدتي بتعميدنا على مذهبها الكاثوليكي في كنيسة الراعي الصالح في بيفرلي هيلز، في حين امتنع والدي عن تعميدنا عندما كنا نعيش معه لأنه كان يظن أنه يجب أن يتمتع الأطفال بحرية اختيار دينهم عندما يتمتعون بما يكفي من النضج. أما الآن، فقد أصبح كل ذلك من الماضي وكنا نبدأ من جديد وكأن حياتنا السابقة على قمة التل لم تكن.

تلقيت، وسيدني، رعاية مسرفة لأننا كنا نعيش في منزل جدتي الشغوفة. والواقع أنه لم يغب عنا من الوجوه التي تعلمنا أن نحبّها ونثق بها سوى وجه واحد، لكننا كنا بالتأكيد أصغر من أن نميّز ذلك. بيدَ أن أمراً ما لا اسم له استطاع الدخول إلى حياتي، بطريقة أو بأخرى، جاعلاً إمكانية البدء من جديد أمراً مستحيلاً حتى مع صغر سني. كان هنالك نوع من الإدراك شق دربه إلى عقلي غير الواعي وكان يعبر عن نفسه، بين الحين والآخر، من خلال الأحلام. تلك كانت الفترة التي بدأت فيها أستيقظ في الليل صارخاً. وفي الوقت نفسه، اكتشفت أسرتي أنني كنت أصاب باندفاعات جلدية كبيرة عند ذهابي إلى المحيط.

-6-

مضت الأيام والأسابيع والشهور دون أن يبادر والدي بأية خطوة ليرانا، على الرغم من أن ذلك لم يكن ليكلفه أكثر من مكالمة هاتفية. فوالدي رجل عنيد للغاية- وربما يكون العناد الذي يميزني وسيدني موروثاً منه. كما كان يشعر بمرارة كانت على درجة من الشدة جعلته، على ما يبدو، يفقد اهتمامه بنا. كما تألمت أسرة والدتي بعمق وأحسّت بالقدر نفسه من المرارة. فلم يكن أفراد الأسرة يأبهون ما إذا كنا سنرى والدنا من جديد- باستثناء الجدة كوري التي لم تستطع منع نفسها من الإحساس أنه مهما يكن الأمر بين والدي ووالدتي، فلا ينبغي لذلك أن يؤدي إلى حرماننا منه، وكانت تأمل أنه سيتصل ذات يوم مطالباً بالحق في رؤيتنا الذي منحته المحكمة إياه.

لا يمكنني التأكيد ما إذا كان والدي قد فكر فينا في تلك الأيام. فقد كان منهمكاً بفيلم «السيرك» الذي تأخر إنجازه مدة طويلة بسبب مشاكله، إلى درجة أني أشك في أنه كان لديه أية فسحة من الوقت للتفكير في أيّ أمر آخر. وصل العمل على فيلم «السيرك» إلى خواتيمه في كانون الثاني 1928. وقد حقق الفيلم نجاحاً كبيراً في شباك التذاكر ونال والدي جائزة خاصة من مهرجان أوسكار عام 1927-1928. وكان نص التنويه يقول: «عن براعته وعبقريته في كتابة فيلم (السيرك) والتمثيل فيه وإخراجه وإنتاجه».

وقد أخبرنا والدي أنه لم يكن، في بداية الأمر، يكنّ لجائزة الأوسكار التي فاز بها سوى القليل من التقدير، إلى درجة أنه استخدمها كمسند باب. لكنني أذكر أنه بدأ، منذ ذلك الحين، بوضعها على رفّ مرتفع مع تمثال نصفي له وتماثيل مهرجانات دريسدن وستافورشاير. بل إني لا أزال أرى حتى اليوم الموقع المتميز الذي لا تزال الجائزة تحتله حتى في مدينة فيفي السويسرية حيث يقيم في الوقت الحاضر. لذلك ربما يكون الزمن قد غيّر رأيه بجوائز أوسكار.

بعيد إنجازه فيلم «السيرك»، غرق والدي في تحضير نص فيلم «أضواء المدينة». لكن في صبيحة يوم انطلاق الإنتاج، حلّت بصناعة السينما أزمة كبرى. فقد كانت 1928 سنة تاريخية بالنسبة إلى هوليوود. إذ اجتازت الأفلام الناطقة مرحلة الاختبارات بنجاح وتحولت إلى واقع تجاري صاعد. فكان لا بُدَّ من أن يبدأ المنتجون بتركيب التجهيزات الجديدة والاستغناء عن التقنيات القديمة، وإدخال الحوار والحبكة في قصصهم والعثور على ممثلين يتمتعون بأصوات جيدة. وشهدت تلك الفترة أفول نجم العديد من كبار النجوم الذين يتمتعون بشعبية وافرة، في حين

بدأ ممثلون مغمورون يتمتعون بنطق جيد يحتلون صدارة المشهد.

كان والدي يتمتع بصوت حسن اعتاد استخدامه على خشبة المسرح في الغناء والتمثيل على حدّ سواء. لكنه لم يكن واثقاً مما سيكون عليه الأمر على الشاشة، كما أن المزايا الفنية لهذا الوسيط الجديد لم تقنعه، إذ اعتبر أنه جلب إلى عالم السينما قدراً من الواقعية أكبر مما ينبغي. هكذا أوقف والدي عمليات الإنتاج كي يفكر ملياً في هذه المشكلة. لم يكن لأحد أن يعرف مقدار القلق الذي انتابه، في أيام التردد تلك، ما لم يكن منتجاً مثله. كان مصدر قلقه الرئيس أن السينما الناطقة قد تدمر شخصية الصعلوك الصغير التي كان قادراً، من خلالها، على التعبير عن الكثير من مشاعره الداخلية والذي كان الإيماء مصدر جاذبيتها الرئيس. بدا الأمر، في ربيع ذلك العام وصيفه الطويلين، وكأنه كان يترقب وفاة قريب عزيز، وإن يكن هذا القريب، نفسه، خياليّاً- هو ذاته البديلة.

لكن العائلة شهدت حادثتي وفاة فعليتين في تلك السنة. فقد توفي الجد كوري في الثاني من نيسان 1928، ثم توفيت الجدة شابلن في الثامن والعشرين من آب من العام نفسه، بينما كان والدي يجلس بجوار فراشها. ويقول بعض الأصدقاء إن وفاة الجدة شابلن أدخلت والدي في حالة من السوداوية لازمته لأسابيع.

في تلك الفترة، استقر رأي والدي على أن فيلم «أضواء المدينة» يجب أن يكون صامتاً. وقد عرفت أنه شرح لبعض الأشخاص أن قراره كان مدفوعاً بأسباب تجارية خالصة. فقد أصبح الصعلوك الصغير، بلغة الإيماء العالمية التي يستخدمها، يتمتع بشعبية واسعة حول العالم، وكان من شأن تأطيره باللغة الإنكليزية أن يقلص انتشاره بما يعادل ملايين من الزبائن المحتملين. لكن معرفتي العميقة بوالدي تجعلني أكاد أجزم بوجود أسباب أكثر عمقاً تقف خلف ذلك القرار. إذ إنه لم يكن، ببساطة شديدة، قادراً على الإقدام على خطوة قد تودي بالصعلوك الصغير، فكان فيلم «أضواء المدينة» بمثابة إرجاء لتنفيذ حكم الإعدام به.

يصعب إجراء حساب دقيق لكلفة هذا القرار الذي اتخذه وسط ذلك الاضطراب العاطفي العظيم. فقد دفع والدي طاقم الفيلم إلى العمل ليلاً ونهاراً وصور آلاف الأمتار من الأشرطة السينمائية- معظمها منذور للإتلاف. كما أرهق نفسه بالعمل دون أن يلقي بالاً إلى صحته أو إلى صحة العاملين معه. هكذا، بلغ التعب منه مبلغاً جعله يتعرض، في بداية ربيع 1929، لنوبة تسمم عفني حادة تحولت إلى أنفلونزا معوية كادت تتطور إلى التهاب ذات الرئة الأمر الذي جعله يوقف الإنتاج ويقفل الاستديو مدة أسبوع تقريباً حتى يسترد قواه.

كانت الفترة التي استعاد فيها والدي عافيته في ذلك الربيع وعاد إلى العمل من جديد هي، ذاتها، التي قررت الجدة كوري، خلالها، أخذ الأمور على عاتقها. كانت نانا قد غادرت المنزل مع والدتي في رحلة وكان الجدّ كوري قد توفي بالفعل، فلم يكن هناك من يمكن أن يقف في وجهها. وذات يوم، وكان قد مضى على الطلاق سنتان، رفعت سماعة الهاتف وسألت والدي عما إذا كان راغباً بزيارتنا.

لم يتردد والدنا، فطلب من الجدة كوري أن تحضرنا على الفور. أذهلته رؤيتنا. إذ لم نعد، بعد، ذينك الطفلين الرضيعين اللذين كانا لغزاً حقيقيّاً بالنسبة إليه، بل أصبحنا صبيين في الثالثة والرابعة من العمر يسيران ويتكلمان لا الإنكليزية فحسب، بل الإسبانية كذلك، لأن الجدة كوري، التي رغبت أن نتعلم لغتنا الأصلية، استأجرت خادمة إسبانية بدوام كامل كي ترعانا. أما والدي، الذي لم يكن يتكلم إلّا بضع كلمات بالإسبانية، فقد سرّه سماعنا نثرثر بلغة أجنبية بطلاقة بالغة.

كانت تلك الزيارة الأولى كفيلة بكسر الجليد. فقد صار والدي يهاتف الجدة باستمرار قائلاً لها إنه يودّ الحضور من أجل اصطحابنا إلى الاستديو. كان السرور يملأ نفسه عند تعريف الناس إلينا وكان يشعر بالكثير من الاعتزاز.

لكني واثق أن الأمر يتجاوز مجرد الشعور بالفخر، فقد ساعدت، وسيدني، على ملء بعض الفراغ في حياته. والواقع أن والدي يتميز بقدر من التحفظ يصعب معه معرفة ما يفكر فيه أو ماهية شعوره. لكن بعض الإشارات تدل على ماهية أحاسيسه كاحتفاظه بصورة كبيرة لي ولسيدني في مكان مميز على البيانو الواقع في غرفة المعيشة. ومع تقدمنا في السن، أخذنا نعرب له عن رغبتنا في أن يستبدل بتلك الصورة أخرى أحدث عهداً لأن الجميع كانوا يقولون إننا نبدو فيها كفتاتين صغيرتين، لكن والدي تشبث بتلك الصورة بعناد.

ومع عودة والدتي ونانا من رحلتهما، كانت علاقة والدي بنا قد ترسخت بالفعل. فتولت نانا مهمة اصطحابنا إلى منزل والدي أو تجهيزنا قبل أن يأتي، هو نفسه، لأخذنا متى شاء. لكن نانا لم تمضِ إلى حدّ رؤية والدي لدى اصطحابنا إليه. كان جدار الانفصال لا يزال ماثلاً بينهما ويمتزج ببعض الخوف الذي كان يعتري نانا. فقد كان والدي، في ذروة الغضب الذي كان ينتابه في تلك الأيام، يطلق، في بعض الأحيان، تهديدات مبهمة لكن قاسية- أو هكذا، على الأقل، بدا الأمر لنانا التي تعتبر شخصية دمثة للغاية. هكذا كانت نانا تسلمنا للخدم عند الباب الأمامي وتنتظرنا خارجاً أو تعود لأخذنا في وقت لاحق. لكن ذات يوم، وبعد برهة قصيرة من قيام نانا بتسليمنا للخدم عدنا إليها راكضين وشعرنا يتطاير في الهواء وقد تقطعت أنفاسنا من فرط الإثارة وهتفنا: «نانا، نانا.

أبي يريد أن يراك. وهو يطلب منك الدخول».

غادرت نانا سيارتها ببطء وتوجهت إلى البوابة الأمامية ونحن متعلقان بيديها. كانت قد مضت مدة طويلة منذ أن غادرت المنزل الكبير للمرة الأخيرة. كان والدي في استقبالها في الردهة. بدا متحفظاً بعض الشيء لكنه كان ودوداً. مدّ يده فالتقطتها نانا ثم هتف قائلاً: «أودّ أن أخبرك كم هما رائعان هذان الصبيان. لقد أحسنت تربيتهما وأنا فخور بهما». تلك كانت طريقته في استهلال الكلام.

بعد ذلك اللقاء، صارت نانا تدخل معنا في كل زيارة لوالدي. فكانت تسير في الحديقة، في طريقها إلى الداخل، في حين أجري، وسيدني، باتجاهه ونقبل خده. كانت قبلاتنا والإقرار بحبّه لهذه القبلات تشعر والدي بالخجل، لكننا كنا قادرين على رؤية كم كان يستمتع بذلك. يحبّ والدي الإيماءات العاطفية على الرغم من أنه شديد التحفظ في الإعراب عنها، في حين كنت وسيدني أكثر انطلاقاً منه على الدوام. بل إننا لا نزال حتى اليوم، وقد أصبحنا رجلين بالغين، نقبل والدنا كلّما زرناه في حين لا يزال يتصرف بالقدر نفسه من الارتباك على الرغم من سروره البالغ، فيرد قبلتنا بخجل أو يربت على أكتافنا. ولم يمضِ وقت طويل حتى صار يتبادل ونانا القبلات على الخد كما كان عليه الأمر عندما كان لا يزال مقترناً بأمي.

وسرعان ما اكتشفت وسيدني كم كان والدي مختلفاً عن كل الآباء الآخرين الذين رأيناهم حتى الآن. لم يكن هنالك أب أكثر مرحاً من والدنا. فقد كانت حركاته تجعلنا نضحك طيلة الوقت الذي نمضيه معه. وقد تعلمنا، في وقت لاحق، أنه لا يأبه لعدد الحاضرين، كبيراً كان أم صغيراً يقتصر على صبيين صغيرين. فإن أحسّ بنفسه مسلياً ورأى أن الحاضرين يتجاوبون معه، تزول حدود ما يمكن أن يقوم به مقابل الحصول على ضحكة.

اعتاد أن يؤدي أمامنا حركات الصعلوك الصغير- فيسير متثاقلاً بطريقة تستثير الشفقة تليها ركلة صغيرة ثم سقوط على الأرض. كان يقوم بهذه الحركات الخرقاء المعهودة بتلك الموهبة التي تجعلك تحسّ بأنه يرقص في أجواء من الباليه. ثم يقول، على حين غرة: «هل رأيتما كيف تمشي الدجاجة؟» ثم يختال بمشيته ويصفق بجناحيه وينق كالدجاجة في دور أدّاه بزيّ الدجاجة الكامل- الرأس، الريش، الأرجل- في أحد مشاهد فيلم «حمى الذهب». لكنه لم يكن في الواقع يحتاج إلى أيّ زي، إذ كان أداؤه واقعيّاً تماماً حتى دونه.

تعرفت وسيدني في استديو والدي إلى عالم من الخيال. كنا، في حجرة تبديل الملابس، نراقبه وهو

يتحول بالتدريج تحت أنظارنا إلى الصعلوك الصغير. كان في البداية يخرج قطعة شعر الكريب الأسود الكبيرة، التي كانت مصدراً لعدد لا يحصى من الشوارب الصغيرة، فيقص منها شاربين ويلصقهما بعناية ويشذبهما حتى يتخذا القياس المناسب. ثم يستدير إلى الوراء ويرمينا بابتسامة مزهوة قائلاً: «حسناً، ما رأيكما بوالدكما الآن؟» ثم يبدأ بتجعيد وجهه ويتخذ مختلف أشكال التكشيرات قبل أن يقفز في السروال المهلهل وينتعل الحذاء الواسع. ثم يقوم ببضع دورات في الحجرة ويسير بتثاقل بهذا الحذاء المضحك. لم نكن ندرك، في ذلك الحين، أنه يحول نفسه إلى شخصية سينمائية، فكنا نقف مذهولين في حين لم يكن يكف عن الهذر. ثم يجيب نفسه: «تعلمان، بالطبع، لماذا على الصعلوك الصغير أن يسير وقدماه إلى الخارج. لأن حذاءه أطول من اللازم وهو، لهذا السبب، لا يستطيع أن يثني ركبتيه أثناء المشي. لذلك، أيها الفتيان، هذه هي الطريقة التي ينبغي أن نمشي بها». ثم يحشر نفسه في معطفه الضيق، دون أن يكف عن الثرثرة، ويضع القبعة الصغيرة على رأسه ويدور عصاه، في حين أعجز، وسيدني، عن إمساك نفسينا عن الضحك ويهزّ والدي كتفيه بأناقة مع كل صيحة استحسان. وها هو ذا أخيراً وقد استحال كليّاً إلى تلك الشخصية الأخرى. كان يبدو، بشخصية الصعلوك الصغير، مختلفاً تماماً، أقل تحفظاً وأكثر ثقة بالنفس وأقرب إلى أن يكون طفلاً مثلنا.

كان والدي مدهشاً أثناء التصوير بقدر ما كان يبدو مدهشاً أمامنا. ففي حين تدور الكاميرا مصدرة أزيزاً إيقاعيّاً وتبث أجهزة الإنارة الحرارة في موقع التصوير، يطغى والدي في أدائه على كل من هم حوله. بل إنك تستطيع ملاحظته بسهولة وسط حشود الممثلين. كان أداؤه مسلياً وقادراً على جعل جميع من هم حوله يضحكون، في حين لم أكن، وسيدني، نكف عن الضحك. أما والدي، فتجتاحه، عندما يضحك الناس حوله، موجة من الزهو، فتتألق عيناه ويرتسم السرور على محياه بشكل واضح.

هذا ما كان عليه عمل والدي الذي كان يبدو لي ولسيدني لعباً أكثر منه عملاً. كان الناس يقولون لنا إنه تمثيل وإن والدنا ممثل. ولأننا كنا أصغر من أن نتابع الأفلام، فلم يكن يخطر لنا أن ما يفعله والدي طيلة النهار كان يخرج خارج نطاق الاستديو على الرغم من أننا كنا ندرك، بطريقة أو بأخرى، أنه شخصية هامة وهو أمر كان يتجلى بوضوح كلّما خرجنا إلى العلن برفقته.

كان التريض في جادة هوليوود واحداً من أبسط أشكال الترويح عن النفس التي كان والدي يمارسها وكنا نرافقه في بعض نزهاته. هكذا كنا نسير معه باسترخاء ونتأمل وجوه المارة وواجهات المتاجر التي كنا نمرّ بجوارها. كان والدي يهوى التمعن في وجوه الناس ودراستها أثناء تلك

النزهات وكان يحاول، في بعض الأحيان، إخفاء هويته خلف نظارات داكنة. لكن، لم يكن يمضي وقت طويل حتى يتعرف إليه أحدهم ويهتف بدهشة: «تشارلي شابلن!» فيتجمع الناس بسرعة ويتزاحمون وهم يمدّون دفاتر الأوتوغراف لوالدي الذي يقوم بتوقيع البعض منها ويردّ بقيتها لأصحابها قائلاً: «إني أشعر بالتعب الآن وأرغب في الذهاب إلى المنزل. أرجو منكم إرسال الدفاتر إلى الاستديو». ثم يأخذ يدينا ويسارع مبتعداً نحو السيارة كي يعود بنا إلى التل وهو يقول لنا بنصف ضحكة، وقد سرّه ما حصل: «أنتما تريان أيها الصبيان أنني أتمتع ببعض الأهمية. بل إني شخصية هامة للغاية في واقع الأمر».

كان شخصية هامة، كان ممثلاً هامّاً، مهما يكن معنى كلمة ممثل، وكنا نحبّه. لقد أحببنا فيه الشخص العابث بذلك الأسلوب الأنيق الذي يميزه. أردنا أن نكون معه، بيدَ أنه كانت تمضي فترات طويلة دون أن نتلقّى منه أيّ اتصال ودون أن يأتي لزيارتنا.

اعتدنا التحديق في صورته التي كنا نحتفظ بها في غرفة نومنا متسائلين متى سوف يتصل طلباً لنا. لم نكن قادرين على الذهاب إليه متى شئنا لأن العالم ملك للكبار وما على الصغار إلَّا الامتثال، وهو واقع استسلمت له في وقت مبكر وقد وجدت في ذلك ما يجعل الأمور أسهل. أما سيدني فكان مختلفاً عني. لقد كان على استعداد دائم لمجابهة هذا الواقع على الرغم من علمه أنه سوف يهزم في كل مرة.

وفي أحد الأيام، قال لي سيدني: «سوف أصبح ممثلاً عندما أكبر». فهمت قصده. لقد كان يريد أن يفوز، بدوره، بعالم الفن ذلك لنفسه، ولم يكن مستعدّاً لانتظار أن يدعى إليه. تأملت في هذه الفكرة دقيقة وبدت لي حسنة فوافقته عليها قائلاً: «وأنا كذلك».

-7-

في شباط 1931، قام والدي بجولة طويلة طويلة حول العالم بعد انتهاء العرض الأول لفيلم «أضواء المدينة» في نيويورك. لكنه لم يكن المسافر الوحيد في عائلة شابلن. إذ اتخذ القرار بأنني وسيدني، وكنت، في ذلك الوقت، في السادسة وكان في الخامسة، يجب أن نقوم برحلة طويلة. فقد ارتأت والدتي، التي كانت قد زارت أوروبا في السنة السابقة، أنه يحسن بنا أن نمضي بعض الوقت في فرنسا كي نتعلم لغة أخرى ونحن لا نزال في سنّ صغيرة. وكان على نانا أن ترافقنا في هذه الرحلة.

كنا، في ذلك الوقت، قد اكتشفنا بالفعل أن والدي يملك الصيغة الكفيلة باسترعاء الانتباه إليه. كان كل ما علينا فعله أن نقلد شخصية الصعلوك الصغير كي نتلقى الاستحسان في كل مكان من خلال التصفيق والضحك. لكننا لم نكن ندرك، حتى في تلك اللحظة، المكانة التي يتمتع بها في العالم. ولم يحصل ذلك إلَّا عندما صعدنا إلى متن سفينة «إيل دو فرانس» التي كانت ترسو في مرفأ نيويورك. فقبيل حلول ساعة الإبحار، تحلّق حشد من الصحفيين حولنا على متن السفينة. كان هنالك حوالي عشرين مصوراً فوتوغرافيّاً تقريباً كانوا، من خلال وميض كاميراتهم وأصوات مصاريعها، يسجلون حقيقة أن الطفلين شابلن في طريقهما إلى أوروبا.

وتلقينا الاستقبال الحافل نفسه عندما رسونا في فرنسا. بل ربما كانت الأجواء هناك أكثر حماسة لأن والدنا، الذي يعرفه الفرنسيون باسم شارلو، كان يتمتع على الدوام بقدر كبير من الشعبية هناك. كان الناس يقولون لنا بنبرة فيها قدر من الرهبة: «أنتما، إذن، الصبيان شابلن. هل تعلمان أيّ ممثل عظيم هو والدكما؟ عليكما أن تفخرا بكونكما ابني شارلو العظيم». بدا أن الجميع يعرفونه، وأن الجميع يعبدونه، وأن الجميع يتعاملون معنا بقدر كبير من الاهتمام لمجرد كوننا ابنيه. بل إننا ظهرنا في أحد البرامج الإذاعية وغنينا بالفرنسية والإنكليزية وأجبنا عن أسئلة تتعلق بوالدي وكأننا مخولين بالحديث باسمه. كان والدي على الدوام رجلاً مسلياً بالنسبة إلينا. أما الآن، فقد بدا لنا، من خلال هذا الكم الهائل من الأضواء التي سلطت علينا، أنه يتحول أمام ناظرينا إلى شخصية أسطورية.

أمضينا القسم الأعظم من ذلك العام في مدينة نيس التي كان يقيم فيها، كذلك، صديق لنانا، وهو رجل ثري اسمه فيكتور بريسلر كان واقعاً في حبّها وراغباً في الزواج بها، لكنها ردّته على أعقابه

كي تكرس نفسها لنا. والواقع أنني أحسست، على الدوام، بالامتنان لها من أجل تضحياتها وكنت أتساءل في نفسي كيف كان يمكن لي ولسيدني أن نمضي قدماً لولاها!

بدت فرنسا لنا أشبه بأرض عجائب كبيرة. تتخذ ذكرياتي عن تلك البلاد شكل سلسلة من المشاهد الزاهية- المناظر الطبيعية الساحرة التي أرانا السيد بريسلر إياها، الحدائق العامة الجميلة التي كنا نلعب فيها بالأراجيح ونتفادى المصورين الذين بدوا أنهم يتابعون أدقّ تفاصيل تحركاتنا، والأطفال الغالون المرحون الذين كانوا يرافقوننا. أحسسنا بالضياع في بادئ الأمر لأننا لم نكن نتحدث لغتهم، أما الآن فقد أخذنا ننسى اللغة الإسبانية التي نتقنها وندندن باللغة الفرنسية المحكية.

وفي مكان ما تحت شمس فرنسا، اختفت الكوابيس الليلية المرعبة من حياتي، فلم أعد أستيقظ في الليل وأنا أصرخ وقالت نانا إني قد تجاوزت تلك المرحلة.

في ذلك الوقت، كان والدي، في خضم جولته العالمية، يبرهن على الشعبية التي يتمتع بها في كل مكان. فقد احتفت به حشود كبيرة في إنكلترا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا ثم، في وقت لاحق، في اليابان. والتقى وجوهاً سياسية كرامزي مكدونالد ولويد جورج كما جدد صلته بونستون تشرشل وألبرت أينشتاين، وفي المجال الأدبي بجورج برنارد شو وهـ. ج. ويلز وفرانك هاريس وإميل لودفيغ. كما التقى ملوكاً وأمراء ودوقات وبالمهاتما غاندي. تعلّم التزلج في سان موريتز مع دوغلاس فيربانكس وأبحر مع العم سيدني إلى الشرق حيث زار سيلان وسنغافورة وبالي قبل أن ينتهي الأمر به في اليابان التي لقي فيها استقبال الملوك.

وفي اليابان، عاش والدي مغامرة حقيقية بعض الشيء. إذ كان أعضاء من جمعية التنين الأسود، وهي زمرة رجعية أرادت أن تبقي اليابان أسيرة العصور الوسطى، قد اغتالوا رئيس الوزراء تسويوشي إينوكاي أثناء وجود والدي هناك. وقد أخبرني والدي، في سنوات لاحقة، أن العصابة أبغضته كذلك لأنها ظنت أن شعبيته في أوساط اليابانيين كانت تزيد مقدار تعاطفهم مع الغرب. كانت حياته مهددة بالفعل. هكذا أمرت الشرطة بتخصيص حراسة له وكان عليه أن يغير، باستمرار، الفنادق التي يقيم بها لتضليل من يمكن أن يفكروا في اغتياله. والواقع أنه تمَّ إلقاء القبض، بعيد مغادرته فندقه الأول، على عضوين في الجمعية كانا يبحثان عنه.

وأخيراً، وبعد غياب استمر خمسة عشر شهراً، عاد والدنا إلى أمريكا، وكانت الصحف قد سجلت كل الأحداث التي رافقت جولته الطويلة. ولكوننا ولديه، تحولت أصغر تفاصيل رحلتنا، بدورها، إلى مادة للأخبار. لكن الأمر كان مجرد انعكاس لمجده. أما الآن، وبعد مضيّ عام على وصولنا

إلى فرنسا، فقد حصل أمر مفاجئ جعلنا نشعر بأننا في طريقنا إلى أن نصبح، نحن أنفسنا، شخصيتين مشهورتين. كان ذلك الأمر المفاجئ برقية تلقتها نانا من أمي.

فقد أعرب المخرج ديفيد باتلر عن رغبته في تصوير فيلم معنا وكان علينا أن نعود إلى أرض الوطن على الفور. فحزمنا حقائبنا ونحن نشعر بإثارة مفرطة وأخذت، كما أذكر، أتناقش مع سيدني، بحماسة مفرطة، عن مستقبلنا المهني ونحن لا نزال على متن السفينة. استقبلنا في نيويورك بصخب كبير وأجرى المراسلون الصحفيون لقاءات معنا وكانوا يسألوننا عن والدنا وكانوا راغبين في معرفة كل شيء عنا. فأخبرتهم بوقار: «سأصبح ممثلاً عظيماً».

ربما كنت أتبجح، لكن الأمر لم يكن مجرد تبجح. فقد كنت أفكر في رجل هو أعظم الممثلين الكوميديين في العالم وكنت ابنه الذي يحمل اسمه، الأمر الذي يفرض عليَّ أن أكون مبدعاً مثله. وكان توقي إلى أن أكون مصدر اعتزاز له يفوق رغبتي في أيّ شيء آخر في العالم.

رافقتنا أمي في طريق عودتنا من نيويورك إلى هوليوود. ثم ذات ليلة، جاء السيد باتلر إلى المنزل للعشاء وتمّ توقيع العقد. في ذلك الوقت، اتصلت نانا بوالدي وسألته عما إذا كان راغباً في رؤيتنا فردّ بالإيجاب على الفور وأخذتنا نانا إليه.

هكذا عدنا، مرة أخرى، إلى المنزل الكبير على قمة التل لرؤية والدنا الذي لم نكن قد رأيناه مدة تقارب خمسة عشر شهراً. تقدمنا نحوه بخفر وقبلناه فابتسم وأحاطنا بذراعيه. لم يكن والدي يبادر إلى إظهار العاطفة إلَّا فيما ندر، وإن فعل، فبطريقة رسمية- وكأنه يخشى المبالغة في منح نفسه فيواجه بالرفض.

سألنا على الفور: «هل تستطيعان التحدث بالفرنسية؟» كان، على الدوام، يهتم بالأمور التي نتعلمها وكان إتقاننا أيّ شيء من المجال التعليمي مصدر اعتزاز بالغ له. تحدثنا بالفرنسية من أجله فضحك وكأنه يتابع عرضاً بالغ التميز. لكن الأمر لم يكن يعني لنا شيئاً لأن ملايين الأطفال يتحدثون بالفرنسية كل يوم. أما ما كان يعنينا بالفعل، فهو أننا على وشك القيام بأمور عظيمة بحقّ.

تبجحت قائلاً: «سنصبح ممثلين عظيمين مثلك». توقعنا أن يسرّه الأمر. لكنه رمقنا بجدية غريبة دون أن يعلق على خططنا التمثيلية. كان والدي قد أعرب، دون علمنا، عن عدم موافقته على دخولنا عالم السينما، لكن أمي لم تعتقد أنه سيتدخل بالأمر. فهو يتحدر، في نهاية الأمر، من أسرة من الممثلين كما أنه، هو نفسه، ظهر على خشبة المسرح في سنّ مبكرة وكان طبيعيّاً أن يسير ابناه على خطاه. فالفن أمر يجري في عروقهما.

ربما كانت جدية والدي في إبعادي وسيدني عن السينما عائدة إلى أنه كان ممثلاً طفلاً وإلى أنه تذكر الضغوط التي رزحت طفولته تحتها بسبب متطلبات هذه المهنة الشاقة. هكذا كلف محاميه، فور علمه بإتمام الصفقة وتوقيع العقد، بحمل القضية إلى المحكمة فتحولت هذه المسألة إلى مادة لصراع قانوني جديد بينه وبين أمي، أو بالأحرى بين محاميي الطرفين. أما الصحافة فنفخت في أوار الخلاف وأطلعت كل من يتقنون القراءة على تفاصيل النزاع باستثناء شخصين هما أنا وسيدني.

كانت الحجة التي قدمها والدي للمحكمة بالغة الإقناع. فهو، كما قال للمحكمة من خلال المحامين، مهتم بسعادتنا ورغد عيشنا ويريدنا أن نتمتع بطفولة طبيعية ويخشى أن يؤدي دخولنا عالم العمل في سنّ مبكرة إلى التأثير على تعليمنا بشكل سلبي. وافقه القاضي على هذه الحجة وحكم لمصلحته وتمّ فسخ العقد.

عندما أبلغت، وسيدني، أننا لن نصور الفيلم، كانت خيبة أملنا بالغة إلى درجة انفجارنا بالبكاء. وفي وقت لاحق، حاول والدي، في إحدى زياراتنا إلى منزله، أن يشرح لنا أسباب إلغاء العقد قائلاً: «إن كنتما جادّين حقّاً في رغبتكما بالتمثيل، فإن المضيّ في هذا الطريق منذ الآن سيكون أسوأ قرار في العالم يمكن لكما أن تتخذاه. سوف تطبعان، على الدوام، بسمة الممثل الطفل. وعندما تبلغان مرحلة النضج سيتخلى الجميع عنكما وسيكون عليكما بذل جهود مضنية في سبيل العودة، وستعيشان أوقاتاً صعبة من أجل ذلك لأن الجميع سوف يتذكرونكما بوصفكما هذين الصبيين اللطيفين. أما إن استمرت رغبتكما بالتمثيل حين تكبران، فإنني لن أتدخل في ذلك».

أدرك اليوم، حين أتذكّر الأوقات القاسية التي عرفها ممثلون أطفال سابقون، مثل جاكي كوغان، في محاولتهم العودة، كم كان والدي حكيماً. لكن تفسيراته لم تعنِ لنا أيّ شيء في ذلك الوقت. ماذا كان يقصد بقوله إنه علينا أن ننتظر حتى نكبر؟ لقد كانت شيرلي تمبل، التي ستصبح عما قريب رفيقتنا باللعب، أصغر سنّاً مني- في الثالثة من عمرها تحديداً- عندما بدأت مسيرتها التمثيلية. وكان يمكننا أن نسير على خطاها لو أن والدي لم يقف عائقاً.

-8-

لكن الحياة لا تمضي في دروب الانحدار دون توقف. فعلى الرغم من أننا خسرنا حياتنا المهنية قبل أن تبدأ، إلّا أن التعويض الذي نلناه كان كافياً للتأثير في طفولتنا برمّتها بصورة مرضية.

بوليت غودارد! كانت الخامسة، أو شيئاً من هذا القبيل، في قائمة النساء اللواتي صعد بهن والدي إلى عالم الشهرة. إذ كانت إيدنا بورفيانس وجورجيا هايل وميرنا كينيدي وفيرجينيا شيريل قد لمعن لفترة من الوقت في ظل رعايته. لكن وحدها بوليت نجحت في الحفاظ على شهرتها بعد أن تركت والدي.

التقى بها والدي للمرة الأولى عندما كان الاثنان مدعويين إلى حفل استضافه المنتج جوزيف شينك على متن يخته. وكانت بوليت في ذلك الوقت أحد أعضاء كورس من الفتيات في فرقة هال روتش التي كانت تؤدي فيها أدواراً كوميدية صغيرة كي تكتسب ما يلزمها من الخبرة للظهور أمام العدسة.

أما والدي، فكان، من ناحية أخرى، أكثر وجوه هوليوود نفوذاً وشهرة، وكان، في الفترة التي التقى فيها ببوليت موضوعاً لشائعات مفادها أن علاقته بماريون ديفيس لم تكن مجرد علاقة عابرة. فقد كان ضيفاً دائماً على منزلها الشاطئي وكانت دعاباتها تبعث السرور في نفسه، كما أثارت شجاعتها وكرمها وروح الاستقلال لديها إعجابه. لكن على الرغم من كل مزاياها التي كانت كفيلة باجتذاب والدي، إلّا أن الآنسة ديفيس كانت تفتقر لأكثر السجايا أهمية بالنسبة إليه. فهي لم تكن في حاجة إليه. فقد كانت في ذلك الحين ممثلة ناجحة في عالم السينما.

أما بوليت، فكانت لما تزل مغمورة وعاشت حياة قاسية منذ البداية. فقد انفصل والداها وكانت لا تزال صغيرة وعادت والدتها إلى العمل كي تجني قوت يومهما. وفي سنّ الرابعة عشرة، أصبحت بوليت إحدى فتيات فرقة زيغفريد فوليز، وتولّت، منذ ذلك الحين، مسؤولية إعالة الأسرة. وفي السادسة عشرة من عمرها، تزوجت إدغار جيمس الذي طلقته في رينو عام 1931. وقد أخبرني والدي، في وقت لاحق، أنها كانت في الحادية والعشرين من العمر فحسب عندما التقى بها للمرة الأولى في العام التالي. وقد وجد فيها شخصاً مرحاً يضحك على الدوام.

يتمتع والدي بحدس مرهف تجاه الناس. فهو قادر على التعرف إلى الخصال الجوهرية الكامنة في أعماق نفوسهم. لم يرَ في بوليت مجرد فتاة كورس عادية، بل شابة تتمتع بروح استقلال عظيمة

وشجاعة فائقة، فتاة تجرأت على مجابهة الشدائد.

كانت تمتلك كل الخصال التي يحتاج إليها لتجسيد شخصية الفتاة التي تتشبه بالصبية في فيلمه التالي «الأزمنة الحديثة» الذي كان في طور إعداد نصه. تقوم قصة الفيلم على السخرية من عصر الآلة، وقد استوحاها من الركود الاقتصادي الذي أصابه بصدمة عميقة عند عودته من الخارج واكتشافه وجود ملايين الناس من العاطلين عن العمل في أرض تعجّ بالوفرة. كان، في ذلك الوقت، قد رسم الخطوط العريضة لشخصية البطلة لكنه كان يحتاج إلى العثور على الشخص المناسب لأداء هذا الدور قبل أن يصبح قادراً على تجسيد هذه الشخصية بكامل تفاصيلها. والواقع أنه يمكن أن يعزى قدر كبير من نجاح والدي في استخراج أفضل ما في الفتيات اللواتي كان يختارهن لأفلامه إلى أنه كان يكتب أدوارهن آخذاً بعين الاعتبار خصالهن الشخصية.

وفور التقاء والدي ببوليت، أخذت فتاة فيلم «الأزمنة الحديثة» بالتجسد بكامل ملامحها. عندئذٍ، قام والدي بشراء العقد الذي يربطها بفرقة هال روتش ووضعها تحت جناحه وصار معلماً لها. فوالدي، في جوهره، معلم بالسجية- وهو يعتبر تعليم الآخرين إحدى وسائل إرضاء غروره.

وجد في بوليت تلميذة نجيبة. فهي تقرأ الكتب التي يقدمها لها إلى جانب العديد من الكتب الأخرى لأنها كانت تواقة للتعلم بقدره. وكانت أولى زوجاته المتمتعات بالنضج الفكري على الرغم من حداثة سنّها، فكانت قادرة على مجاراته في النقاش، الأمر الذي وطد أواصر العلاقة بينهما.

درست بوليت على يد أساتذة الغناء والرقص الذين وفرهم والدي وتشربت كل دروسه الدرامية. بل إنها اتبعت نصيحته فيما يتعلق باختيارها للملابس. لكن أهم ما في الأمر أن والدي كان يصطحبها في حلّه وترحاله واقتصر على مواعدتها، وحدها، دون النساء الأخريات.

اهتمت الصحافة العالمية بهذه المسألة وبدأت، منذ البداية، تتكهن بزواجهما. ثم صارت قبلته لها في المطار في أثناء مغادرتها إلى نيويورك، في خريف 1932، مصدراً للمزيد من التوقعات. وازدادت التكهنات حدة في ربيع 1933. وفي صيف ذلك العام، خرجت إحدى الصحف الفرنسية بسبق صحفي مفاده أن والدي وبوليت تزوجا في عرض البحر.

وعندما اشترى والدي يخته باناسيا وبدأ بتجديده وصفته روايات الصحف بأنه يخت «شهر العسل». وفي نيسان 1934، تعزز سيل الشائعات بقصة أخرى «مؤكدة» مفادها أن والدي وبوليت قد تزوجا على متن اليخت باناسيا على يد الكابتن دايف أندرسون الذي دفع له والدي مبلغاً من المال- لأسباب لا يعرفها سواه، هو نفسه، وبوليت- كي ينتزع الصفحة التي تدل على هذه الواقعة

من سجل اليخت. وتكررت هذه القصة الخيالية بأشكال مختلفة طيلة فصل الصيف. وفي خريف 1934، عندما بدأت بوليت بارتداء طوق زفاف مرصع بالماس كي تغري الصحافة، أضيفت انعطافة جديدة إلى القصة. فقد نال والدي وبوليت، بموجب القصة الجديدة، رخصة زواج من لندن باسم سبنسر والسيدة إدغار جيمس. وفي شباط 1935، كشف الصحفيون عن أقاويل مفادها أن والدي نفسه قد أقرّ مؤخراً، في إحدى الحفلات، بأنه متزوج ببوليت في السر منذ أكثر من عام. وفي تشرين الثاني 1936، تجرأ رجل بمكانة راندولف تشرشل على القول بوقار: «أستطيع القول بثقة إنهما متزوجان. إنهما متزوجان منذ ما يزيد عن العام».

كان الصمت المطبق هو الردّ الذي اختاره والدي وبوليت على كل هذه الشائعات الأمر الذي جعل هذه القضية تتضخم خارج حدود المنطق. أما أنا، فأظن أن والدي، بروح المرح الدونكيشوتية التي يتمتع بها، قد وجد في كل هذا الهياج، الذي تسبب به وبوليت، مصدراً للكثير من التسلية. وربما يكون قد وصل إلى خلاصة مفادها أنه طالما أنه منذور للعيش في حوض أسماك في جميع الأحوال، فربما يكون من الأفضل له أن يستخرج من هذا الوضع أكبر قدر ممكن من المرح. أما بوليت، فكانت عابثة، على الدوام، لكن عبثها موجه وله غايات. فقد قالت لي ذات مرة: «إن الامتناع عن نفي قصة أو تأكيدها كفيل بجعلها تستمر وتستمر. أما لحظة تأكيد القصة، فهي لحظة وفاتها. وأنا لست على هذا القدر من الغباء كي أسمح بحصول ذلك». إذ كانت بوليت الطرف المغمور في هذه العلاقة، في حين كان والدي الطرف المعروف فيها. وطالما أنها استطاعت إبقاء اسمها مقترناً باسمه في لعبة التخمين الحامية الوطيس، فإنها تستطيع أن تكون واثقة من ظهورها المستمر على صفحات الجرائد. كانت تلك الشائعات، بالنسبة إليها، حملة دعائية لا تقدر بثمن.

أتذكّر بوضوح اليوم الذي التقيت فيه، وسيدني، ببوليت وكأن الأمر حصل بالأمس، لا منذ ما يزيد عن ربع قرن. فقد أحضرها والدي إلى المنزل الذي كنا نعيش فيه مع نانا وجدتي لتقديمها لنا وأخذنا معه لفترة بعد الظهر. في ذلك اليوم، قفز والدي خارجاً من السيارة ودار حولها كي يفتح الباب ويساعد سيدة شقراء بلاتينية حسناء على الخروج. كنت، وسيدني، نقف في الردهة وأخذنا نحدق بها بذهول. كان شعرها الباهت المشرق يؤطر وجهها البهي المدبب الذي يشبه القلب بعينيها المتألقتين بلونهما الأزرق المائل للاخضرار. وعند دنوّها منا، قدمنا والدي لها قائلاً بجدية: «هذان هما ابناي تشارلز جونيور وسيدني». ثم التفت نحونا قائلاً: «أيها الصبيان، هذه بوليت غودارد. الآن ما الذي ينبغي أن تقولاه لهذه السيدة اللطيفة؟». رفعت وسيدني رأسينا ونظرنا إلى هذا الوجه الودود بابتسامته التآمرية العابثة وذبنا فيها على الفور ولم نستعد رباطة جأشنا طيلة تلك السنوات الذهبية من طفولتنا. هل أدركت، يا بوليت، كم كنت تعنين لنا؟ لقد كنت بمثابة الأم والشقيقة

والصديقة في الآن نفسه. لقد أنرت مزاج والدنا الكئيب وحولت ذلك البناء الكبير الواقع على قمة التل إلى منزل أسري حقيقي. لقد اعتبرناك على الدوام ألطف مخلوق على وجه الأرض وأنا أشعر الآن، عندما أستعيد ذكرى تلك الأيام، بأننا كنا نعني الكثير لك كذلك وأننا ملأنا أحد جوانب حياتك.

-9-

شهد عام 1933 ثالث النزاعات القضائية بين والدي ووالدتي، وكان آخر تلك النزاعات. كان الأمر يدور، هذه المرة، حول المال. كان مصرف سيتيزنز ناشيونال بانك قد وظف المال الذي أملكه وسيدني في سوق الأسهم، وكانت أمّنا، التي تتمتع بسيطرة تامة على العائدات الشهرية لهذا المال بوصفها الوصي الشرعي علينا ملزمة بتزويد والدي بلائحة شهرية تتضمن كافة النفقات. أستطيع أن أتصور مقدار الكرب الذي سببه اضطرارها إلى إجراء هذه الحسابات لأن أمي كانت، على شاكلتي، تفتقر إلى البراعة فيما يتعلق بالأرقام.

إثر خلافها مع أبي حول العقد السينمائي، أدركت أمي فجأة أن والدي قد يطالبها، ذات يوم، بتقديم كشف حساب حول طريقة إنفاقها المال علينا. عند ذاك، وظفت والدتي المحاسبة القانونية السيدة جوليا برغ كي تتولى شؤوننا المالية. أتذكّر السيدة برغ في مكتبها المرتجل الذي أقيم لها في الطبقة العلوية من منزلنا الواقع في شارع روسمور. كانت تجلس خلف طاولتها وأصابعها تتحرك بسرعة فوق مفاتيح الآلة الكاتبة كي تصدر في نهاية كل شهر صفحات وصفحات من كشوف المصاريف. بل إن اللوائح تضمنت أقل المصاريف أهمية، من قص شعر سيدني مقابل دولارين ونصف إلى إزالة ثؤلول من أحد أصابعي مقابل خمسة دولارات.

كان والدي يدرس هذه اللوائح بعناية وبدأت، مع مرور الأشهر، تنتابه حالة من التنبه حيال مقدار المال الذي كانت والدتي تنفقه علينا. كان مبعث قلقه يستند إلى إيمانه أن المال هو أهم أشكال الضمانات في الحياة وأنه، فيما يتعلق بحالتنا، لا بُدَّ من توفير أكبر قدر من المال من أجل المستقبل.

تقول والدتي، اليوم، إنها تتمنى لو أن والدي قدم لها، على انفراد، مقترحه القائل بضرورة وضع ربع العائدات الشهرية لأموالنا في حساب ادخار لا يمكن فسخه يكون متاحاً لنا لدى بلوغنا سنّ الحادية والعشرين، لكانت رأت الحكمة فيه ووافقته عليه دونما حاجة إلى المشاحنات في المحكمة.

لكن لا بُدَّ أن والدي، الذي كان قد أصلح علاقته بنانا وأصبح يرانا بصورة منتظمة، كان لا يزال يحسّ بنوع من الاغتراب حيال والدتي لأنه بدا بوضوح أنه لم يخطر في باله أن يتكلم معها في الأمر بصورة مباشرة، بل استدعى محاميه ووضع المسألة برمّتها بين أيديهم فتجدد الخصام بينهما الذي صار مادة تناولتها الصحافة على الفور.

لم يذهب والدي إلى المحكمة طيلة جلسات الاستماع وحضرت والدتي جلسة واحدة للشهادة تحولت إلى نوبة من الهستيريا. فقد أعربت، على منصة الشهود، عن شعورها بأن والدي جعلها موضع ملاحقة واضطهاد لا هوادة فيهما. وأفترض أن التوتر الذي يكتنف المناطق المخفية من روحها قد بدأ، منذ تلك الحقبة، في التراكم وتضاعفت ألف مرة قناعتها أن والدي يحمل نوايا شريرة حيالها لدى تعرضها، بعد بضع سنوات، لانهيار عصبي.

انتهت المعركة القضائية سريعاً مع إصدار القاضي حكماً يؤيد مقترح والدي، كما منح والدتي، في الوقت نفسه، نصراً معنويّاً عندما حررها من عبء إعداد التقارير الشهرية. وعندما بلغت وسيدني سنّ الحادية والعشرين كان امتناننا لحكمة والدي كبيراً مع حصول كل منا على سبعة عشر ألف دولار من حساب مدخراتنا، على الرغم من أنني لا أستطيع القول إننا لم نعانِ، في ذلك الوقت، من التوتر العاطفي الناجم عن الصراعات التي نشبت بين والدينا.

لكن اضطراباً آخر أصاب حياتنا في تلك الفترة حصل عشية المأساة التي لم تؤثر فينا وحدنا فحسب، بل في كافة أبناء الشخصيات النافذة في كل مكان. ففي اليوم التالي لنشر الصحف قصة اختطاف طفل ليندبرغ، جاء عمال إلى منزلنا في شارع روسمور لتجهيز كافة النوافذ بنظام إنذار ضد السرقة. لكن أسرتنا لم تقتنع بكفاية نظام الإنذار في غرفة نومنا. إذ كان علينا، كذلك، أن ننام والنوافذ مغلقة طوال الليل. وفي الأمسيات الحارة، عندما كنا نتقلب ونرمي أغطية سريرينا بعيداً وجسدانا يتصببان عرقاً، كنا نتساءل عمّا يحصل. فقد بدت لنا المسألة برمّتها بلا معنى.

ثم جاءت ليلة كسر خلالها اللوح الزجاجي لإحدى النوافذ وانطلق جرس الإنذار. وخلال ثوانٍ ساد الهرج والمرج في المنزل وأنيرت الأضواء وتمَّ استدعاء الشرطة. جريت وسيدني عبر الغرف وأخذنا نحدق في الزجاج المكسور وفي رجال الشرطة الضخام بزيهم الرسمي وعلمنا من خلال التكهنات الجارية أن الفاعل، أيّاً كان، كان يسعى وراءنا وأن الأمر على قدر كبير من الجدية. أصبنا بحالة من الإثارة والغرور الطفولي بسبب كوننا مركز كل هذا القدر من الهياج.

لكن الأمر تطلب انتهاء الصخب وانصراف رجال الشرطة بملابسهم الداكنة حتى ندرك مقدار خطورة الموقف الذي كان بادياً على وجوه الكبار واجتاحتنا، للمرة الأولى، موجة من الخوف الذي لم يفارقنا، منذ ذلك الحين، كلّما كنا في منزل روسمور.

لم يسمح لنا بالخروج في الأسابيع الأولى التي تلت الحادثة. وأخيراً رفع الحظر على الرغم من أننا منعنا من الخطو إلى خارج الباب الأمامي دون أن يكون أحد البالغين معنا. أما منازل أصدقائنا فقد

أصبحت بعيدة المنال. فإن أرادوا رؤيتنا، كان عليهم الحضور إلى منزلنا. كانت نانا تصطحبنا إلى مدرستنا الخاصة ثم تعود بنا إلى المنزل وكانت ترافقنا إلى الحفلات حتى ولو كانت مقامة لدى أحد الجيران. ولم نعرف سوى شخص واحد خضع لهذا النوع من الرقابة الوثيقة- هو شيرلي تمبل التي كانت تدعونا إلى حفلاتها باستمرار وكانت، في تلك الفترة، قد تحولت إلى نجمة سينمائية راسخة مخلفة إيانا وراءها. لكن شيرلي كانت فتاة في حين إني، وسيدني، كنا صبيين كبيرين- في الثامنة وفي السابعة من العمر، وأحسسنا بأننا أكبر من أن نخضع للإشراف وكأننا في روضة أطفال. وقد انتابنا شعوربالارتياح لدى علمنا في خريف ذلك العام أننا في طريقنا إلى الذهاب إلى مدرسة داخلية في كانون الثاني المقبل.

كانت المدرسة الداخلية من بنات أفكار والدي الذي أحسّ بأننا محاطان بعدد أكبر مما ينبغي من النساء. فإن أحصينا السيدة برغ والمربية يكون العدد الكلي خمساً- وهو عدد كبير في نظر والدي الذي جعلته خبراته مع الجنس الآخر يشعر بشيء من القلق حيال هذا الموقف. فأرسل إلى والدتي لائحة من المدارس التي رآها مناسبة، طالباً منها أن تختار واحدة. فاختارت أمي ونانا مدرسة بلاك فوكس العسكرية الواقعة في هوليوود بحيث تسهل عودتنا إلى البيت في عطلة نهاية الأسبوع وكانت المدرسة تضم في عداد المنتسبين إليها عدداً من أبناء الشخصيات السينمائية النافذة. وعلى الرغم من أن نانا لم تكن واثقة من صحة هذا الاختيار، إلَّا أن أمي أحسّت بأن التدريب العسكري سينفعنا، فأخطرت والدي بهذا الخيار وعبر، من جهته، عن رضاه. لا أظن أنه فكّر يوماً- لا في تلك اللحظة ولا في أيّ وقت لاحق- في مقدار التناقض بين إرسال ابنيه إلى أكاديمية عسكرية ومعارضته الحادة والمستمرة للحرب.

كان صباحاً بارداً من شهر كانون الثاني عندما انطلقنا إلى مدرستنا الجديدة والبهجة تعمّنا حيال ما ينتظرنا هناك. لكن ما إن خطوت الخطوة الأولى عبر البوابة الخارجية مع سيدني ونانا، التي أقلّتنا إلى المدرسة، حتى انتابني شعور بأن ثمة أمراً ليس على ما يرام. وازداد هذا الإحساس بالانقباض مع كل خطوة كنا نخطوها إلى أن بلغ ذروته في اللحظة التي ودعت، فيها، نانا ووجدت نفسي وقد فصلت عن سيدني. لقد كنا طيلة حياتنا نتشارك الغرفة نفسها. أما الآن، فهي المرة الأولى التي لا نكون فيها سوية، بل وجدت نفسي مع اثنين من الأطفال الغرباء. كانت غرفتنا صغيرة ومتواضعة وأسرّتها ضيقة على الرغم من كونها مريحة. وبالمقابل، شاركت الصبيين الآخرين حماماً ملحقاً بالغرفة. بدا كل شيء لي مقفراً وعارياً.

غرقت في البكاء. لكن مربية المدرسة التي رافقتني إلى غرفتي كانت معتادة على هذه المظاهر

على ما يبدو، فحاولت تهدئة روعي قائلة: «كل شيء سيكون على ما يرام. سوف تعتاد عليها ثم ستحبّها».

لكن الأمر تطلب مني ثلاثة أسابيع قبل أن «أعتاد عليها». كنت أبكي بين الفينة والأخرى بهدوء وبحيث لا يستطيع أحد رؤيتي أو سماعي، ولا سيما حين آوي إلى النوم. وكذلك كانت الحال مع سيدني. لكن المربية أخبرت نانا أن الأمر طبيعيّ بالنسبة إلى القادمين الجدد.

أما أسوأ ما في المدرسة برأيي فهو الانضباط العسكري الصارم. فقد بدا كل شيء، من شروق الشمس وحتى مغيبها، مرتباً بعناية وكأننا كنا مجرد أحجار في رقعة شطرنج. كانت العقوبات تنتظر من يخالف القوانين. فالهمس في الصف كان كفيلاً بجعلك تتعرض للضرب المؤلم على كفيك، في حين يمكن أن يؤدي الكلام أثناء الاصطفاف إلى زيارة لمدرب التربية البدنية حيث يمكن أن تنال علقة على قدميك. لقد سبق أن ضربتني نانا على قدمي في البيت بالخفّ، لكن الأمر، هذه المرة، كان مختلفاً. فقد كان الألم، في حالة نانا، طفيفاً لأنني كنت أحبّها ولم أكن أرغب أن يخيب أملها بي. أما الضرب في المدرسة، فكان أمراً غير إنساني أشعرني بالامتعاض والإذلال- الإذلال لأنني صغير للغاية وكانت فرصتي في الدفاع عن نفسي أو حتى في مجرد الاحتجاج معدومة. أما المخالفات الجسيمة فتنتهي بك إلى مكتب مدير المدرسة حيث يمكن أن تتعرض لما هو أكثر من التأنيب أو التأديب إذ يمكن أن يصل الأمر إلى إرسال رسالة إلى ذويك.

بدت الحياة، في المدرسة، في تلك الأيام الأولى، أشبه بسلسلة مستمرة من التهديدات، حيث تقف حفنة من الغيلان البالغين المستعدين للانقضاض عليك من أجل أدنى المخالفات. كانت أجواء المدرسة بعيدة أشد البعد عن الحبّ الأنثوي والعدالة اللذين عشناهما في البيت. وعلى الرغم من أنني لم أشارك سيدني السكن إلّا أنني كنت أراه كثيراً وعلمت منه أنه يكره كل ما يتعلق بالمدرسة، مثلي تماماً.

يسهل على المرء أن يتخيل أن أثر يوم الجمعة لم يقتصر عليَّ وعلى سيدني، بل كان يعمّ المدرسة برمّتها. كان يوم الجمعة يوماً مشهوداً. فقد كنا نستعرض فيه، أمام جمهور مؤلف من الأقرباء والأصدقاء، ونريهم ما تعلمناه خلال أيام الأسبوع.

كانت نانا تحضر كل يوم جمعة كي تتابع الاستعراض وكانت أمي تأتي بين الحين والآخر. أما والدي فلم يحضر إلّا في مرات قليلة. فقد كان متحفظاً على الدوام، كما هي حاله حيال الغرباء. لم يكن يفهم مغزى زيارة الأساتذة كما يفعل أولياء الأمور الآخرون أو الغاية من الاختلاط مع أولياء

الأمور أنفسهم- ولا حتى مع نانا. هل كان ذلك لأن مرأى المدرسة، بمبانيها الجميلة وبساحاتها الفسيحة، يذكره بالميتم الحقير الذي أمضى فيه سنتين من حياته؟ هل عقدت الذكرى لسانه مرة أخرى بذلك التهذيب القسري المطبوع في نفوس أبناء الفقراء؟

لكن والدي شقّ طريقه، ذات يوم، عبر جموع المتفرجين كي يقف بجوار نانا. قال لها بصورة مفاجئة وبأسلوب ينضح بالعاطفة لم تستطع نانا فهمه قط: «أنت تعلمين أن الناس يزدادون رقة كلّما تقدموا في السنّ. الزمن كفيل بحلّ الكثير من الأمور. أنا واثق أن كل شيء بيننا سيكون على ما يرام من الآن فصاعداً». وهكذا كان. فقد وضعت تلك الكلمات نقطة النهاية للمرارة التي اكتنفت العلاقة بين أبي وأمي. فلم يعد هنالك من معارك قضائية ولا خلافات تدور حول سعادتنا.

أتذكّر المرات القليلة التي جاء فيها والدي إلى المدرسة. أستطيع أن أراه بوضوح واقفاً ويداه معقودتان خلف ظهره وعيناه الزرقاوان الجليديتان تشعان سروراً وأمارات الرضا، بل الظفر، تكسو محياه. ربما كان يشعر بشيء من الاندهاش والفخر لأنه كان قادراً على تقديم هذه الحياة الآمنة والمنظمة لولديه.

لكن كان هنالك المزيد مما يظهره وجهه، كان هنالك أمر ما أثّر بي بقوة وملأني بالعاطفة. هل كان ذلك الوحدة التي أحسستها به وكنت راغباً في إزالتها؟ إن الأمر الوحيد المؤكد، بالنسبة إليَّ، أنني، عندما كنت أرى عينيه الزرقاوين شاخصتين إليَّ، كنت أمشي بقامة أشد انتصاباً وبإحساس كبير بالتنبه وكنت أؤدي التحية بطريقة مفعمة بالحيوية وأضرب عقبي بالأرض بأسلوب أكثر حدة.

كانت أيام الجمعة هذه أهم لنا، نحن صبية مدرسة بلاك فوكس، من كل أيام الأسبوع الأخرى لأن تقديم استعراض مثالي كان يعني أننا سنقضي عطلة نهاية الأسبوع في بيوتنا. كنت، وسيدني، نمضي عطلات نهاية الأسبوع لدى نانا وأمي وفي منزل والدنا الواقع على قمة التل، على التناوب، لأننا اعتبرنا أنفسنا، وقد أصبحنا تلميذين في مدرسة عسكرية، كباراً بما يكفي كي نمضي عطلة نهاية الأسبوع برمّتها لديه.

يا لروعة تلك العطلات! يا لروعة ذلك المنزل السحري الواقع على قمة التل مع ذلك الرجل الذي كان يعيش هناك، الرجل الذي كان عدة رجال في رجل واحد، كنا قادرين على رؤيتهم معاً: الرجل الانضباطي الصارم، مقدم الترفيه الذي لا يقدر بثمن، الرجل الصموت، الرجل ذو المزاج الحالم، رجل بورنيو البري الذي يتمتع بطبع ناري. شقّ ذلك الرجل المتقلب المحبوب طريقه بعناد عبر سني طفولتي ولم يكفَّ يوماً عن إدهاشي.

أما الآن، فقد حان الوقت كي أتكلم عن تلك السنوات العامرة بالحنين التي عشتها في بيت والدي الذي كنت فيه، وسيدني، طيلة عقدين، جزءاً من حياة أسرية لم تؤرخ حتى اللحظة. لا أستطيع المرور بالمنزل القديم دون أن ينتابني الشعور بخسارة أمر ثمين غادر حياتي ولن يعود إليها قط. والواقع أن تيم ديورانت، صديق والدي الحميم في تلك السنوات، قد أخبرني، كذلك، أنه يعاني، هو نفسه، من هذا الشعور بالكآبة. فقد أصبح ذلك المنزل، الذي اعتاد والدي أن يسلّي ضيوفه فيه، في تلك الأيام التي كان، فيها، في قمة جماهيريته ونفوذه، أشبه بقوقعة مهجورة ورمزاً لأيام مجيدة عرفتها عاصمة صناعة السينما مضت ولن تعود. فقد فقدت صناعة السينما المعاصرة الكثير من بريقها الإبداعي الذي ميّز البدايات وأصبح جانب اللعب فيها أقل على حساب الجانب الاحترافي الرزين والوقور.

تبخر عقار والدي الصغير، بمساحته البالغة ستة ونصفاً من الدونمات، العقار الذي عاش فيه أياماً سعيدة، والذي كان أقل ادعاء بكثير من عقارات جيراننا، هارولد لويد في الأسفل وبيكفير في الأعلى. فقد أزيل الكثير من الأشجار التي زرعها والدي على سفح التل وسويت أجزاء كبيرة من الأرض وتمّ تقسيمها ويوجد مبنى جديد قيد الإنشاء. أما موقع ملعب التنس الذي أحبّه والدي كثيراً وأمضى فيه الكثير من الساعات السعيدة، فيحتله منزل غريب.

أما منزلنا القديم، فلا يزال قائماً فوق تلك الأرض البتراء. وينفذ مالكو المنزل الحاليون عملية تجديد شاملة لهندسته الداخلية التي مرّت بجولتي تعديل سابقتين- الأولى بإشراف بوليت والثانية بإشراف أونا أونيل. إذ أعيد طلاء الجدران الخارجية- في عملية تجديد مريعة! لا أذكر طيلة الفترة التي كان المنزل خلالها بحوزة والدي أنه قام بتجديد لون الجدران على الرغم من أنه كان ينظفها أو يغسلها بين الحين والآخر. أما المبنى الذي كان مكسوّاً بالقرميد، فينتصب اليوم عارياً تقريباً كحصن كبير مهجور وقد جردت جدرانه من ظلال الأشجار التي زرعها والدي حوله بحيث كان المرء قادراً على سماع حفيف الأشجار من كل النوافذ تقريباً.

يصيبني مرأى المنزل اليوم بالكآبة ويتراءى لي والدي وهو يقول: «أحبّ هذا المنزل ولن أعيش إلّا فيه. ما الذي تريده أكثر؟».

أحاطت أشجار والدي المنزل من ثلاث جهات. وتتدرج أشجار التنوب والشوكران والأرز

والصنوبر على سفوح التل باتجاه الأسفل وتتخللها، بطريقة تبدو عفوية، دروب ترابية ضيقة تحفّها صفوف من الأحجار غير المتجانسة. كان والدي يعشق، على نحو خاص، السير وسط هذه الأشجار بعد هطول المطر عندما يملأ أريج التنوب والصنوبر الجوّ.

أما في الجهة الرابعة، فيمتد المنحدر على شكل درجات عملاقة تنحدر باتجاه ملعب التنس وبركة السباحة. وكان والدي، في بعض الأحيان، عندما تكون البركة فارغة، يستمتع بالنزول إلى قعرها وتشغيل صنابير الماء. كانت تلك إحدى الأعمال المنزلية النادرة التي كان والدي يقوم بها لأنه لا يتمتع بالمهارات اليدوية.

يمتدّ أمام واجهة المنزل طريق دائري يسمح للسيارات بالوقوف عند المدخل الرئيس. ولدى الدخول إلى المنزل، يجد المرء نفسه في رواق فسيح يمتدّ على طول المنزل، وكان، في الأيام الأولى من تاريخه، يرتفع بمقدار طابقين. كان الأمر يبدو وكأن والدي أراد منع الجدران من الوقوف في وجهه.

وأمام واجهة الرواق، يصعد درج ملتفّ إلى الطابق الثاني كي ينتهي بشرفة ذات درابزين كانت تطل على الرواق قبل أن تقدم أونا على تنفيذ إصلاحاتها. وفي الفراغ الذي يشكله الدرج تحته، احتفظ والدي ببذلة مدرعة شرقية وبجرس نحاسي أسطواني مزود بقارع أسود. كان هنالك على ما يبدو رابط سري بين والدي وذلك الجرس. ففي بعض الأحيان، كان والدي يسير وهو مستغرق في تفكير عميق، ثم يستدير، على حين غرة، وينقر الجرس بإصبع واحدة ثم ينتظر بصمت كي يسمع النغمة الجوفاء الرقيقة التي تنطلق منه وكأنها جواب عن سؤال قام بطرحه.

وإلى يسار الرواق، توجد ردهة واسعة ذات سقف مقوس مرتفع كسقف الكنيسة. كان الأرغن ذو الأنابيب موجوداً هناك وقد احتفظ به والدي سنوات طويلة قبل أن تقنعه أونا، قبيل مغادرتهما إلى فيفي، بالتخلص منه دون أن أدري كيف نجحت في ذلك لأن والدي أحبّ ذلك الأرغن كثيراً وكان يعزف عليه على الدوام لحناً ما عادة ما يكون من تأليفه. لكن عند حضور صديق يجيد العزف، لم يكن والدي يدعه وشأنه دون أن يجلس إليه.

وإلى جانب الرواق من جهة الردهة، تقع غرفة المعيشة التي كانت مفتوحة، في تلك الأيام، على الحديقة الخلفية للمنزل، قبل أن تضاف حجرة الدراسة. تتمتع حجرة المعيشة بالأناقة بنوافذها الواسعة وجدرانها ذات الألواح البيض. تقع وسط الجدار الأيمن، لدى دخولك الغرفة، مدفأة واسعة كان والدي يستخدم لتشغيلها الفحم، بدلاً من الحطب، على الطريقة الإنكليزية.

كانت المدفأة محاطة بخزائن كتب مليئة بمجلدات تغطي طيفاً واسعاً من الموضوعات والمؤلفين. احتفظ والدي، في أعلى خزائن الكتب، بجائزة الأوسكار وبتماثيله الصغيرة التي كان يسمح لنا، في بعض الأحيان، بتفحصها على الرغم من أنه كان يحوم حولنا وعلائم القلق تبدو على محياه منبهاً إيانا من إسقاطها أرضاً لأنها قيّمة للغاية. أتذكّر بعض هذه التماثيل بوضوح شديد، ولا سيما تماثيل الفروسية الغريبة بخيولها المتبخترة وذلك التمثال الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ثلاثين سنتيمتراً والذي تمّ تنفيذه بإتقان بالغ وبكامل التفاصيل بما فيها تفاصيل السيف نفسه.

في أقصى الزاوية اليسرى من غرفة المعيشة كان ينتصب بيانو كبير من طراز ستينواي وبالقرب منه قاموس وبستر كبير كان والدي يرجع إليه بصورة متكررة، بالإضافة إلى الطاولة التي كان يستخدمها عندما يكون في الطابق الأرضي. وإلى يسار الباب انتصبت خزانة معروضات حمراء براقة ذات طراز شرقي مزينة بتنينات مذهلة وغير ذلك من الأشكال العجيبة. احتفظ والدي، في تلك الخزانة، بالتحف التي أحضرها من رحلته إلى اليابان وبأردية الكيمونو والأقنعة الطقوسية وسيوف ساموراي ذات نقوش جميلة.

كان هنالك اثنان من تلك السيوف ذات الانحناءة الطفيفة والنصل الحاد. كان كل منها محفوظاً في غمد خشبي مطلي بالأحمر والأسود والذهبي. بلغ طول أكبر السيفين متراً واحداً تقريباً، وكنت أعتبره غاية في الروعة. أما الثاني فطوله خمسون سنتيمتراً تقريباً وعليه نقوش جميلة باللونين الأسود والأحمر ومزين بضفيرة مذهبة. أحببت ذلك السيف، لكن والدي منعنا من استخدامه طويلاً إذ كان يخشى أن يصيبنا نصله الحاد بالأذى.

كانت غرفة المعيشة، في أيام عزوبية والدي، تزدحم بمختلف أشكال الأثاث دون تمييز على الرغم من أن معظم قطع الأثاث تلك كان على الطراز الإنكليزي. كان والدي قد استخدم بعضها في الشقق الصغيرة التي عاش فيها، في بداية الأمر، في لوس أنجلوس. أما القطع الأخرى فاشتراها من أجل المنازل التي استأجرها. ولم يكن والدي قادراً على التخلص من أيّ شيء يملكه.

وتبعثرت، في أرجاء الغرفة، التذكارات التي جلبها من رحلاته إلى الخارج، وكانت تحتل، الجميلة منها وذات الذوق الرديء على حدّ سواء، الحيز نفسه من الأهمية. كانت الصور الضوئية تتجمع في مجموعات على أرفف الكتب وفوق البيانو. وكانت موجودة هناك، كالتذكارات تماماً، لأسباب محض شخصية وساعدت على إضفاء طابع مريح على الغرفة على الرغم من ازدحامها.

وعلى الجهة المقابلة لغرفة المعيشة عبر الرواق، تقع حجرة الطعام الجليلة بنوافذها العريضة

وبإطلالتها على الحديقة. كانت غرفة الطعام أكثر غرف المنزل عصرية بحقّ. تقع فوق مدفأة الغرفة التي لم تستخدم إلَّا نادراً مرآة ذات إطار جميل تعكس صورة العالم الخارجي وصورة الضيوف الذين كانوا يتحلقون حول المائدة في المناسبات الاحتفالية. وقد استطعت وسيدني، بعد أن أصبحنا شابين يرتديان الزيّ الرسميّ، أن نجد لنا مكاناً إلى هذه المائدة. وكانت المرآة الكبيرة تسجل مراحل انتقالنا من طور الطفولة إلى طور الرجولة من خلال الكثير من المشاهد الجميلة.

تقع بجوار غرفة الطعام غرفة احتياطية صغيرة شغلتها الخادمة التي استقدمتها بوليت عندما جاءت للعيش معنا. وتفصل ردهة خلفية ضيقة هاتين الغرفتين عن المطبخ ذي الطراز العتيق وعن المخزن الذي شهد الكثير من ذكريات طفولتنا. وتقع غرفة طعام الخدم خلف المطبخ، في حين تقع حجرات معيشتهم في الطابق الأسفل.

توجد في الطابق الأعلى ثلاث غرف نوم كبيرة، كل منها مزودة بحمام مستقل. كانت هناك الغرفة التي ولدت فيها والتي أصبحت فيما بعد غرفتي وغرفة سيدني عندما أقمنا هناك حيث كنا نأوي إليها بأسرع ما يمكن بعد أن ننزع عنا زينا المدرسي الموحد كسجينين يتخلصان من رداء السجن المخطط.

تقع إلى جانب غرفتنا غرفة النوم الوسطى التي ولد فيها سيدني وأصبحت، فيما بعد، غرفة بوليت. ثم يأتي الحمام الرئيس. كان الحمام يعبق على الدوام بأريج عطر ميتسوكو، وهو عطر والدي المفضل. وقد اعتاد أبي على تخزين كميات كبيرة من زجاجات العطر في حمامه (كان والدي يحرص على الدوام على التزود بكميات كافية من كل شيء وكأنه كان مسكوناً بهاجس نفاد أيّ شيء قد يحتاج إليه) ولا أذكر أنه استخدم نوعاً آخر سواه. وقد تحول عطر ميتسوكو إلى جزء لا يتجزأ من شخصيته إلى درجة أصبحت معها أعجز عن تنشق رائحته الخشبية دون أن أتلفت حولي، بطريقة غريزية، باحثاً عنه.

ثم أصل إلى غرفة أخرى، الغرفة الأكثر غموضاً في المنزل ككل- أو هكذا جعلها والدي تبدو لنا. إنها غرفة الأرغن التي تفتح على غرفة النوم الرئيسة. كنت، ووالدي وسيدني، نقوم، بين الفينة والأخرى، برحلات حج وقورة إلى تلك الغرفة الواقعة في الطابق العلوي. كان والدي يقف مواجهاً لباب الغرفة المزدوج ويفتح إحدى الدرفتين متسبباً بتيار هوائي يفتح الدرفة الأخرى مصدراً صوت حفيف وكأن يداً خفية ما قد حررتها. ثم ندخل، ثلاثتنا، بوقار إلى الغرفة الكبيرة ذات الشكل المستطيل التي كانت تؤوي أنابيب الأرغن. كانت هذه الأنابيب تنتصب كجيش مبهم متدرج في الطول يصطف رجاله بالترتيب من الأنبوب القصير الأهيف إلى الأنبوب الطويل ذي الصوت

الجهير على الطرف المقابل. كان والدي يقول بفخر: «لقد استغرق تركيبها هنا جهداً كبيراً». ثم كان يريح يديه على الأنابيب مربتاً عليها وكأنها من أصدقائه القدامى.

كان كل شيء في ذلك المنزل يبدو لوالدي صديقاً قديماً، لكن لم يكن الأمر يبدو أكثر جلاء أكثر مما يبدو عليه في غرفة نومه. كان والدي، قبل بناء غرفة الدراسة في الطابق الأرضي، يقوم بجلّ عمله في تلك الغرفة ويمضي فيها ساعات طوالاً وهو يكتب ويقرأ. وقد بدت شخصيته مطبوعة فيها أكثر مما هي عليه في سائر غرف المنزل الأخرى. وهي غرفة فسيحة ذات نوافذ واسعة ومدفأة جميلة فاخرة لا أذكر أن والدي استعملها مرة. لكن الغرفة كانت بسيطة التأثيث- طاولة كتابة وكرسي ومعجم وبستر آخر وسريران كل منهما مزود بطاولة جانبية صغيرة.

كان والدي يتمدد عادة على السرير البعيد المجاور للنوافذ. أتذكّر مجلات القصص البوليسية التي كانت تتكدس دائماً بجوار سريره. فعلى الرغم من أن والدي كان من قراء شبنغلر وشوبنهاور وكانت، فقد اختار قراءة قصص جرائم القتل الغامضة من أجل الترويح عن نفسه. فعندما ينال الإنهاك منه في ختام يوم عمل شاق، كان يأوي إلى السرير ويقرأ إحدى تلك القصص لأنها كانت تساعده على النوم.

وفي درج الطاولة الجانبية بجوار سريره، احتفظ والدي بمسدس أوتوماتيكي مذخر عيار ثمانية وثلاثين كان يريه لنا أحياناً على الرغم من أننا لم نره يطلق النار منه قط. كان يقول لنا: «أنا أتدرب على استخدامه. لست بالرامي السيّئ على الإطلاق». أما أنا، فأستطيع القول، من خلال طريقة حمله له، أن ذلك المسدس منحه الإحساس بالأمان الذي منحني إياه سيف الساموراي في الطابق السفلي.

وفي الخميلة التي تطل نوافذها على منظر السماء الجميل وعلى منازل الجيران وبلدة بيفرلي هيلز برمّتها، احتفظ والدي بأحد مقتنياته الثمينة. إنه مرقاب قوي مركب على ثلاثية قوائم يملكه منذ فترة أعجز عن تذكرها. أمضيت، مع والدي وسيدني، أوقاتاً طويلة أمام هذا المرقاب الذي كان والدي يحسّ تجاهه بالإثارة نفسها التي تنتاب صبيّاً صغيراً، وكان يحرك مفاتيحه لضبط عدساته محاولاً التقاط صورة واضحة لمختلف الأجرام. كنا، في الليل، ندرس القمر عندما يكون بدراً والسماء المرصعة بالنجوم وكان والدي يشير إلى مجموعة الدب الأكبر وإلى بعض الأجرام الرئيسة على الرغم من أنه لم يكن، في أعماقه، فلكيّاً، بل كان يفضل تصويب المرقاب على المنازل المجاورة بحيث تصبح المنازل الأكثر بعداً، بفضل عدساته القوية، قريبة منا للغاية.

كان، في بعض الأحيان، يصوب المرقاب على رجل وحيد يسير في الشارع ويضحك بصوت مرتفع ثم يدير المرقاب كي نلقي نظرة قائلاً: «هل تريان ذلك الرجل؟ لا بُدَّ أنه عائد إلى منزله بعد يوم عمل شاق. انظرا إلى مشيته كم هي بطيئة ومتعبة. رأسه مطرق. لا بُدَّ أنه يفكر في أمر ما. ما الذي يفكر فيه يا ترى؟».

نعم، كان والدي، بفضوله المفعم بالحيوية، قريباً من الإنسانية قربه إلى السماء. والواقع أني أظن أنه ليس من قبيل المصادفة أن مهاراته الإيمائية لم تكن قادرة على التعبير عن عظمة السماء بنجومها فحسب، بل كذلك على المثالب المضحكة والمثيرة للشفقة لأقرانه من البشر.

وبمناسبة الحديث عن المثالب، لا يمكنني أن أختتم هذا الفصل دون أن أتناول أكثر قطع الأثاث في منزل والدي إثارة للفضول، بل قل أكثرها غموضاً. إنها السجادة الفارسية التي تغطي أرضية غرفة نومه برمّتها. تلك السجادة! بلونها المائل إلى الأحمر والمزينة بالزهور لا بُدَّ أنها كانت نفيسة للغاية في يوم مضى. أما ما أتذكّره عنها شخصيّاً، فهو أنها كانت قديمة للغاية ورثّة. تقول أمي إنها كانت موجودة هناك عند ولادتي وكانت بعيدة عن أن تكون جديدة حتى في ذلك الحين. ارتسم على السجادة خط يمتد من باب الغرفة وصولاً إلى النافذة البعيدة زال عنه وبر السجادة تماماً كاشفاً عن نسيج الأساس بسداه ولحمته. لكن والدي لم يتخلّ عن هذه السجادة على الرغم من كافة الالتماسات باستبدالها بأخرى جديدة - والواقع أننا تقدمنا بالعديد من تلك الالتماسات على امتداد السنين.

كان والدي يعترض على هذه الطلبات بهزة رأس عنيدة وهو يقول: «آه، لا، لا. عليَّ أن أدعها في مكانها. إنها في حوزتي منذ زمن طويل وهنالك ما يربطني بها. إنها تجلب لي حسن الطالع».

ما سرّ هذه السجادة. أيّ حدث جلل وقع في الماضي لم يبح به لأحد لكنه كان يولد في الآخرين انطباعاً أنها ترتبط في ذاكرته بأمر ما. لا أدري- كل ما أتذكّره أن أمي أخبرتني ذات يوم عندما سألتها عنها أنها كانت موجودة دائماً في هذا المكان، وأن والدي كان يذرعها جيئة وذهاباً في الليلة التي عاشت فيها آلام ولادة طفله الأول الذي بقي على قيد الحياة.

-11-

قبل ثماني سنوات من ذلك، عندما كنت، وسيدني، نعيش في المنزل الواقع على قمة التل، كنا لما نزل طفلين لا يباليان بالروتين الذي كان يحكم منزلنا. أما الآن، وبوصفنا صبيين يكبران في السن، فقد وجدنا أنفسنا فجأة متطفلين على مؤسسة بناها والدي في الفترة نفسها التي بنى فيها المنزل، وكانت الأمور تجري فيها بسلاسة في اللحظة التي وصلت فيها أمي التي كانت عروساً جديدة.

كانت أمي متطفلة مثلنا على الرغم من أنها كانت، ظاهريّاً، سيدة المنزل. إلَّا أن رأيها في طريقة إدارته لم يكن مسموعاً، في واقع الحال. فقد كانت والدتي امرأة فتية للغاية تفتقر إلى الخبرة وليست لديها أدنى فكرة عن كيفية تغيير إيقاع عمل هذه الآلة كي تصبح أكثر شبهاً بها، وهو الأمر الذي نجحت فيه بوليت أيما نجاح. كان الاحتجاج على ما تعتبره ظلماً يحيق بها الأمر الوحيد الذي كانت قادرة على القيام به. لكن الحياة سارت في المنزل دون أن تحيد قيد أنملة عن المسار المحدد لها، على الرغم من احتجاجاتها وشعورها الغاضب بالقنوط. كان الروتين، على ما أظن، الشيء الوحيد الذي حافظ على استقراره خلال الفترة العاصفة التي عرفها زواج والدي. بل إن ذلك الروتين استطاع النجاة من تفكك زواجهما والفضيحة التي تلته دون أن يمسه سوء. وازداد ذلك الروتين رسوخاً في سنوات العزوبية التالية التي عاشها والدي، الروتين نفسه الذي يميز الحياة المنزلية للطبقة الوسطى الإنكليزية.

لا أظن أن أيّاً من الروايات الكثيرة التي تناولت نشاطات والدي الصاخبة المزعومة وطبيعته المعادية للمؤسسة قد نجحت في اكتشاف ميله الشديد، الذي يصل إلى حدود الهزل في بعض الأحيان، للحياة المنزلية- وحبّه للحياة المنظمة التي تصبح المفاجآت والمصادفات فيها مصدر إيلام له أكثر منها مصدر بهجة. كان ارتياحه وسعادته يبلغان حدودهما القصوى عندما ينهض من سريره صباحاً وهو يعلم بالضبط ما الذي سوف يقوم به في الساعة الرابعة من بعد الظهر.

كان نهار والدي، في الأيام التي لا يعمل بها، يبدأ بين الساعة الحادية عشرة صباحاً والواحدة من بعد الظهر وحتى ساعات متأخرة من الليل. كان يكتب ويقرأ في غرفته حتى الرابعة من بعد الظهر، باستثناء أيام السبت حيث يصطحبنا في نزهة إلى مكان ما. وفي الرابعة من بعد الظهر، يلعب مباراة تنس سريعة مع أصدقائه الذين قد يكونون حاضرين، أو يقوم بضرب كرات التنس وحده إلى الجانب الآخر من الملعب. تلي التنس غطسة سريعة في بركة السباحة ثم دش أو حمام

بخاري يرتدي بعده ملابسه ويخرج للعشاء أو أنه يتناول الطعام في المنزل.

كانت وجباته المنزلية تتسم بالبساطة على الدوام ولم تكن منوعة إلّا فيما ندر ويغلب عليها الطابع الإنكليزي- لم يكن والدي يأبه للمرق أو لأنواع الصلصة ذات النكهات الغنية. كانت وجبته، في كل الأوقات تقريباً، تتألف من شريحة لحم بقر مشوية شيّاً خفيفاً أو شريحة مشوية من لحم الدجاج أو الغنم أو قطعة من ضلع الغنم. ترافق الخضار اللحم، عادة، وتتخذ شكل بازيلاء أو بطاطا مطبوخة في الفرن. لم يكن والدي يزعج نفسه باختيار الطعام الذي سيتناوله، بل كان يدع الأمر للخدم الذين يعرفون ذائقته في الطعام جيداً. أما إن خرج لتناول الطعام، فكان يختار عادة مطعم صديقه هنري برغمان في هوليوود. وعندما يمضي والدي بعض الأمسيات في المنزل، كان يختار أن يقرأ أو يكتب، ولم يختر الترويح عن نفسه قبل اقترانه ببوليت إلّا فيما ندر. كما كان والدي يتناول الشاي والكعك المغطى بالمربى الذي يقدم إليه على الدوام في الساعة الرابعة من بعد ظهيرة كل يوم أحد. كان تناول الشاي والكعك، وهما من رموز الرفاهية والأمان على الطريقة الإنكليزية، بالنسبة إلى والدي، يتخذ شكلاً طقوسيّاً بعض الشيء. ففي عطلات نهاية الأسبوع التي كنا نقضيها لديه، كان والدي يقول لنا بطريقة ورعة: «إنها الرابعة أيها الصبيان. لقد حان وقت الشاي والكعك كما يفعل الجميع في إنكلترا في هذه الساعة بالضبط».

يوحي هذا القص لكيفية قضاء والدي يومه، في الفترات التي لم يكن يعمل فيها على أحد أفلامه، بالرصانة والوقار، باستثناء أن الحياة لم تكن كذلك على الإطلاق. فلم تكن الرصانة سوى قشرة، مجرد غطاء خارجي يمكنك أن تعثر على مثيله في أكثر المشاهد صخباً في قصة أليس في بلاد العجائب. والواقع أن جنوناً على شاكلة عالم أليس في بلاد العجائب كان يسيطر على المنزل من رأسه حتى أخمص قدميه. كان هذا الجنون عائداً لولع والدي بالكمال فيما يتعلق بالخدمة وبدقة المواقيت.

لم يجد والدي أفضل من خدمه اليابانيين الثلاثة من حيث القدرة على تجسيد رؤيته المستحيلة لما يعتبره إدارة حسنة للمنزل (استخدم بستانيين مكسيكيين للعناية بالأرض خارج المنزل). لا أظن أنه يمكن أن يوجد خدم يماثلون هؤلاء اليابانيين الذين قاموا على خدمته. بل إنه يبدو أنه ارتبط بهم بصلة من نوع ما.

والواقع، أنه قامت بين والدي واليابانيين ككل علاقة خاصة. فهم يفهمون تمثيله الإيمائي، الذي يملك ما هو مشترك مع تقليد مسرح كابوكي لديهم، ويحبّونه. أما والدي، فقد وقع في حبّ فن الكابوكي، بتشديده على الإيماء، منذ اللحظة الأولى التي شاهد فيها فرقة يابانية تؤدي عرضاً

مسرحيّاً في البلاد. كما أنه عشق جانباً آخر من اليابانيين. فاليابانيون، في جوهرهم، شعب مهووس بالكمال حتى أدقّ التفاصيل كما هو والدي تماماً. كان هذا هو المجال الوحيد الذي يحسّ به والدي بالغطرسة. إذ إنه لم يكن قادراً على التسامح مع أيّ عامل يفتقر إلى الكفاءة.

كان والدي الحاكم المطلق للمنزل، على الرغم من أنه ترك إدارته للخدم الذين كان فرانك على رأسهم وكان يعمل بمثابة كبير الخدم والمسؤول عن النظافة ومدبر المنزل. كان فرانك، بقامته المربوعة ووجهه النزيه غير المتكلف، يتمتع بمواهب السحرة من حيث قدرته على تحمل أعباء تنوء بها الجبال. كما كانت إنكليزيته الطليقة، التي تشوبها لكنة خفيفة، من المواهب الأخرى التي يتمتع بها. كان على الدوام لطيفاً ودمثاً وقد أحببته، كما أحبّه سيدني، وكنا نعتبره بمثابة أخ.

أما كاي، السائق، فكان أكثر اتساقاً مع ما يمكن اعتباره أسلوباً يابانيّاً. كان يتمتع بتعبير وجه جامد وحاد وبأسلوب في المشي شبه عسكري وكان يحرص على التصرف بطريقة صارمة في التزامها بالشكليات، وكان يبدو، بزيّه الأسود الرسمي وقبعة السائق وحذائه، أشبه بالمانيكان. لا أتذكّر أني رأيت كاي، يوماً، دون زيه الرسمي أو وجهه الجامد، إلّا عندما يكون في المنطقة المخصصة للخدم بعيداً عن سيده، حيث كان يسمح لنفسه آنذاك بالاسترخاء والابتسام. كان كاي يتكلم الإنكليزية، لكن ليس بطلاقة، ولكنه لم يكن، في كل الأحوال، يتكلم بقدر فرانك. كان مجدّاً يؤدي عمله بأسلوب منهجي وفق التعليمات. بل إني أظن أن كاي كان إنساناً ملتزماً على الدوام حتى في أحلامه- إن كان يحلم.

أما جورج الطباخ، فكان يتكلم نتفاً من اللغة الإنكليزية. لكنه كان، في كلامه مع القدور والمقالي، يبدع شعراً. كان جورج في الخمسين أو الخامسة والخمسين من عمره عندما رأيته للمرة الأولى، وهو رجل قصير القامة ونحيل. وكما أني لا أتذكّر رؤية كاي دون زيّه الرسمي، فإنني أعجز، بالقدر نفسه، عن تذكر جورج دون مئزره وقبعة الطباخ الطويلة على رأسه. بل إنه كان يرتدي المئزر حتى في أيام عطلته ولا أظن أنه كان يسير في الشارع دونه.

كان جورج يتمتع بالحيوية بقدر تمتع كاي بالجمود. بل إني لم أرَ جورج قط دون أن يبدو عليه أنه مشغول بأمر ما. كان الانهماك يبدو عليه حتى عندما يكون جالساً دون عمل. وكان وجهه يتمتع بقوة تعبير لا يعادلها سوى جمود قسمات كاي. كان وجهه محفوراً بالغضون والخطوط وعيناه متألقتان على الدوام وكأنهما تشيان بمرح داخلي ما، وكان يبدو بالإجمال وكأنه قد خرج لتوّه من إحدى اللوحات اليابانية. وقد كان والدي مفتوناً به على الدوام.

ازدادت معرفتي، وسيدني، بالخدم قوة منذ الأيام الأولى، لأننا كنا لا نزال مجرد غريبين لم يجدا مكانهما في المنزل بعد. لم يكن لدينا، على سبيل المثال، مكان نركن إليه عندما يتناول والدي طعام العشاء في الخارج، لذلك كان الخدم يسألوننا عما إذا كنا لا نمانع في تناول الطعام معهم. نمانع؟ كان كل شيء في غرفة طعامهم الحميمة يوحي لنا بالجدة، وكان حضور بعض أقربائهم يزيد الجوّ مرحاً. تناولنا الأطباق اليابانية الغريبة بالعيدان التي علمنا فرانك كيفية استخدامها ولم يكن علينا أن نراقب تصرفاتنا.

لكن اختلاطنا بالخدم، خلال عطلات نهاية الأسبوع الأولى، لم يقتصر على فترات تناول الطعام. ففي الفترة التي سبقت عثورنا على بعض الأصدقاء خارج المنزل، كنا نمضي معهم فترات طويلة من اليوم ونراقب كيفية قيامهم بأعمالهم. كان الهدوء يعمّ ساعات الصباح التي تسبق استيقاظ والدي من النوم. فكان الخدم يمارسون مهامهم دون إصدار أيّ صوت. كان كاي يعتني بالسيارتين الموجودتين في المرآب في حين يتسكع جورج في المطبخ وينظف فرانك المنزل ويتأكد من توفر ما يلزم من الاحتياجات. كان مكلفاً بمهمة تزويد المنزل بكل شيء بدءاً بمستلزمات المطبخ وصولاً إلى ملابس والدي من جوارب وقمصان وأحذية. فلم يكن والدي يزعج نفسه بهذه التفاصيل.

كان فرانك يدخل أحياناً إلى غرفة النوم الرئيسة، قبل حلول الحادية عشرة صباحاً كي يجهز أدوات الحلاقة لوالدي. كان يرتب الأدوات بطريقة خاصة بحيث يستطيع والدي، لدى استيقاظه وذهابه مسرعاً إلى الحمام، أن يلتقط معجون الحلاقة ثم الفرشاة فالموسى، على التوالي، كي ينتهي من مهمة الحلاقة المضجرة بأسرع ما يمكن! لقد كان والدي يتعامل مع الوقت على الدوام كجوهرة نفيسة.

عند حلول الحادية عشرة صباحاً، تسود في المطبخ أجواء شبيهة بجنود على وشك القيام بهجوم كبير. في ذلك الوقت، يكون جورج قد أعد طعام إفطار والدي بالفعل، وصار يحوم حوله ومعالم القلق تملأ محياه وهو يضع اللمسات الأخيرة عليه.

وفجأة يقرع الجرس في لحظة لا يدري بها أحد فيبدأ التشويق! يصعب على المرء أن يزعم أنه سبق له أن رأى أحداً يتحرك بسرعة تحرك هؤلاء اليابانيين عند سماعهم صوت الجرس.

يهتف جورج بلكنته المتكلفة: «يا إلهي، لقد قرع والدك الجرس». ثم يضع يديه على رأسه في حركة هي المفضلة لديه، ثم يضع أطباق الفطور مع الملاعق والسكاكين على الصينية. أما أنا، فكنت أراقبه بافتتان وهو يملأ بسرعة أحد الأطباق بسمك الرنجة أو بالسمك المفلطح أو بسمك

الرمل أو سمك الورنك أو القريدس- كان والدي يتناول طعام الإفطار على الطريقة الإنكليزية كما شأنه بالنسبة إلى العشاء، على الرغم من أنه كان يترك التفاصيل للطباخ نفسه. وكان جورج يصنع، في بعض الأحيان، طبقاً من لحم الخنزير المقدد مع الطماطم أو الخنزير المقدد مع كبد الغنم. لكن إفطار والدي المفضل كان يتألف على الدوام من الفطائر المحلاة برائب الحليب إلى جانب المقانق والمربى والخبز المحمص والبيض.

وحالما تصبح الصينية جاهزة، يقوم فرانك، الذي كان حتى هذه اللحظة يحوم حول جورج، باختطافها ثم يقول لي بلهجة دمثة وبلكنة يابانية خفيفة: «اتبعني أيها الصبي. إنه والدك. أليس كذلك؟ ألقِ عليه تحية الصباح».

هكذا أطير، وفرانك، وبرفقتنا صينية الطعام، إلى غرفة نوم والدي التي كان يتناول طعام الإفطار فيها في تلك الفترة. ينتظرنا أبي برداء النوم ويرحّب بي بابتسامة ودودة قائلاً: «لقد أمضى والدك ليلة شاقة بالأمس». لاحظت أنه كان، حتى في تلك اللحظة، يتكلم عن نفسه بصيغة الغائب وكأن الأمر يتعلق بشخصين- الأول هو المتحدث، في حين إن الآخر، الشخص الحقيقي، هو ذاك الذي يقوم بكل شيء وينال استحسان الناس، الصعلوك الصغير.

يحضر جورج، في بعض الأحيان، طبقاً خاصّاً، فيحمل الصينية بنفسه كي يتلقى ردّ فعل والدي بنفسه. يضع الصينية بجانب السرير ويقول: «طبق جديد. أنت تجربه، أنت تحبّه». يتذوق والدي الطبق الجديد. والواقع أنه يتمتع بأسلوب في تناول الطعام يجعلني تواقاً، على الدوام، إلى مراقبته وهو يتناول طعامه. بل إن متابعة والدي وهو يزدرد ذلك الحذاء القديم في فيلم «حمى الذهب» كفيل بجعلي أتضور جوعاً. إنه أسلوبه الأنيق في قطع اللحم وفي إمساك السكين على الطريقة الإنكليزية وطريقة مضغ الطعام وابتلاعه. إذ يرفع قطعة اللحم إلى فمه ويلتقطها بعناية ثم يمضغها ببطء ويتذوقها بكل جوارحه- وكأنها أثمن ما في العالم.

وعندما ترتسم سمات الجذل على محياه بعد تذوق قطعة اللحم، يمدّ جورج ذراعيه بسرور ويشرق وجهه ويهتف: «آه، أحببته، أحببته. جيد، هه؟ جيد!». لم يكن بوسع أيّ فنان يتلقى التهنئة على أعماله أن يبدو مسروراً أكثر من جورج في تلك اللحظات.

إثر انتهائه من تناول طعام الإفطار، يعمّ الهدوء المنزل من جديد عندما يدخل والدي إلى غرفته كي يعمل فلا يقاطعه فرانك إلّا لماماً. فقد حصل ذات مرة، قبل زمن طويل، عندما لم يكن قد مضى على عمله لدى والدي فترة طويلة، أن ارتكب خطيئة الإعلان عن وصول أحد الضيوف. فرفع

والدي رأسه عن الورق الأصفر المسطر الذي كان أمامه وزمجر قائلاً: «اللعنة. أنا لا أريد أن أراه. أخبره أني في الخارج». ثم عاد من جديد إلى الكتابة.

كيف يمكن لأحد أن يشرح لشخص ما أن سيده في الخارج بعد أن ذهب للتوّ لمناداته؟ تعلم فرانك الدرس بسرعة وصار يحجب الضيوف عن والدي باستثناء هؤلاء الذين يقرر، من تلقاء ذاته، أن والدي يرغب في لقائهم، وكان عددهم قليلاً في الواقع. أما الباقون، فكان فرانك يكذب عليهم بعذوبة لأن ذلك كان الإجراء الأرق والأخف وطأة.

وكان الأمر نفسه ينطبق على الهاتف. لم يستطع والدي احتمال الهاتف قط، لم يكن يحتمل رؤيته أو التحدث عبره ولم يكن، بالتأكيد، يستسيغ سماع رنينه. كان مجرد سماع صوت الهاتف كفيلاً بجعل فرانك يسمع خطبة تقريع مطولة: «أيّ أبله وأحمق هذا الذي اخترع ذلك الشيء اللعين. أسكت هذا الشيء الحقير! أسكته! أخرسه!». كان والدي يفرغ في الهاتف كل النيران التي تعتمل في صدره على الرغم من أن أفضل استثماراته المالية كان ذلك الذي وظفه في شركة أي. تي. أند تي.

وعندما يستضيف والدي الولائم، يشرف فرانك على الخدمة بسترته البيضاء الناصعة وبربطة عنقه المعقودة بأناقة. كان يتولى مسؤولية الحفلات الكبيرة ويقوم بمهمة نادل إضافي حين تقتضي الحاجة. لكن واجباته مضت أبعد من ذلك. إذ كان مكلفاً بإدارة مواعيد والدي. فكان فرانك يذهب إلى غرفته كل صباح كي يتلو عليه جدول لقاءاته المقررة لذلك اليوم. وعندما يسافر والدي خارج المدينة، يسافر فرانك برفقته كي يكون ذراعه الأيمن. وكان يشرف، كذلك، على العناية بصحته التي لو تركت لوالدي لأهملها بالتأكيد. فعندما تسوء صحته- كان يعاني من آلام عصبية عارضة في المعدة ومن نوبات من البرد- ويكتب الطبيب له وصفة، لم يكن فرانك يكتفي بشراء الأدوية، بل كان يتحقق من أن والدي يتناولها في المواعيد المقررة. وكان فرانك واحداً من الرجال القلائل الذين استطاعوا أن يخبروا والدي بما عليه فعله بطريقة كانت تدخل السرور إلى قلبه.

وكان فرانك مكلفاً، بالطبع، بمهمة الإشراف على الخدم وكان يملك سلطة توظيفهم أو طردهم لأن والدي الذي يكره انعدام الكفاءة كان يشعر، كذلك، بحساسية فائقة تجاه صرف المخالفين. هكذا، كانت المرات التي طلب والدي فيها من فرانك صراحة أن يطرد أحداً، نادرة، بل كان الأمر يتخذ شكل لعبة تدور بين الرجلين. فكان والدي يشتكي بصورة ملتوية قائلاً مثلاً: «لا يبدو مذاق الطعام جيداً»، فيدرك فرانك ما الذي عليه فعله ويأتي بطباخ جديد على الفور. لكن ما إن حلّ جورج، حتى كفّ والدي عن إبداء الملاحظات حول الطعام. كما كف عن متابعة السائقين بعد توظيف كاي.

كان على كاي أن يعامل السيارتين- الليموزين السوداء من طراز كاديلاك وسيارة الفورد الجديدة التي اقتناها والدي لاستخدامه الشخصي- كما تعامل التحف الفنية. فكان يفكك أجزاءهما ويلمع كل قطعة على حدة وينظفها ثم يعيدها إلى مكانها. كنت، وسيدني، نراقبه بافتتان على الرغم من أننا عجزنا عن جعل كاي يتكلم كثيراً. فعندما نسأله عما يقوم به، يقول بلكنته اليابانية: «عليَّ أن أصلح سيارة السيد شابيلين. يجب أن تكون كاملة من أجل أبيكما».

بدا لي أن كاي لم يكن يكفّ عن تلميع سيارة الليموزين. فعندما يحضر السيارة إلى البوابة الأمامية للمنزل لإقلال والدي، تجده يأتي قبل ربع ساعة من الموعد المقرر ويمضي ما بقي من وقت في صقل السيارة باستخدام قماش التلميع وكأن حياته تعتمد على ذلك. وكان يقول لنا: «يجب لامعة. يجب لامعة. والدكما يحبّ سيارات سوداء براقة».

كان كاي موضع ثقة في قيادة السيارة كما هي حاله في العناية بها. وكان والدي يحمل إيماناً كبيراً بقدرة سائقه على الوصول في المواعيد المحددة مهما تكن الضغوط، على الرغم من أنه كان يحسّ، في بعض الأحيان، بأن كاي لا يبذل كل ما في استطاعته من جهد، فيسأله بلهفة: «لماذا توقفت يا كاي؟ هيا! هيا!»، فيحتج كاي بحزن وقد تنازعته مشاعر الولاء لوالدي وضرورات الالتزام بالقانون: «لكن سيد شابيلين، إنها إشارة الوقوف. إشارة الوقوف هنا».

بيدَ أن الجانب الأهم هو أن كاي أتقن فنّ إبقاء السيارة في حركة مستمرة إرضاء لرغبات مخدومه. أتذكّر الآن بوضوح حادثة تجعلني أضحك باستمرار عندما قاد كاي السيارة دون توقف من بيفرلي هيلز إلى ويلمنغتون. في ذلك اليوم، كان والدي وتيم ديورانت يخططان لرحلة إلى كاتالينا على متن اليخت وجلسا في المقعد الخلفي للسيارة استعداداً للانطلاق عندما تذكر والدي فجأة مضرب التنس. فهو لم يكن يذهب إلى أيّ مكان دون اصطحاب مضربه. هكذا، أرسل كاي إلى ملعب التنس لإحضار المضرب قبل أن يهتف فجأة بعد انصرافه: «لا... أظن أن المضرب في الطابق العلوي»، وقفز من السيارة وتيم خلفه وركض إلى المنزل للبحث عن المضرب. لكنهما عادا بعد قليل، وقد أخفقا في العثور على المضرب، كي يستفسرا من كاي عما حصل معه. لكن السيارة كانت قد ذهبت. إذ كان كاي قد عثر على المضرب في ملعب التنس، بالفعل، وعاد بأقصى سرعة ووضع المضرب في السيارة وانطلق مسرعاً دون أن يتجشم عناء النظر إلى الخلف.

جلس والدي وتيم بانتظار عودة كاي، وفي خلدهما أنه سيكتشف، بعد بضع دقائق، أنه لا يقلّ أحداً فيعود أدراجه. لكن الوقت مضى دون أن يرجع كاي. فقد قاد السيارة بسرعة تقطع الأنفاس إلى ويلمنغتون التي تبعد حوالي أربعين كيلومتراً محاولاً تعويض الوقت الضائع دون أن ينظر خلفاً.

وعند وصوله إلى رصيف الميناء، أوقف السيارة وخرج منها كالفاتحين وفتح الباب الخلفي. كان دايف أندرسون، ربان اليخت باناسيا، حاضراً هناك وسجل صراخ كاي المفجوع بعد أن نظر إلى الداخل: «السيد شابيلين! السيد شابيلين! لقد اختطفوا السيد شابيلين!».

كان إخلاص اليابانيين الثلاثة المطلق لوالدي أمراً يعجز الغربيون عن فهمه. لقد كانوا حريصين على إرضاء نزواته بصورة عمياء حتى ولو كان ذلك على حساب راحتهم الشخصية. فعندما طلب والدي من جورج أن يصعد إلى متن اليخت باناسيا كي يتولى مهام الطهو فيه، لم يفكر جورج في الاعتراض على الرغم من أنه كان يعاني من دوار البحر الذي هاجمه بقسوة فور إبحار اليخت. فأخذ جورج في الانتحاب: «لا يحبّ البحر. لا يحبّ البحر. آآآه». لكنك كنت تراه، هناك، باستمرار، يحوم بالقرب من الحاجز مدعياً الرغبة في مراقبة السماء والبحر لأنه كان يخجل من مرضه ولم يكن يرغب أن يراه الآخرون على تلك الحال.

أما فرانك، الذي يعاني بدوره من دوار البحر، فقد نجا من تلك الرحلة لأنه لم تكن هنالك من حاجة إليه، ناهيكم عن أنه لم يكن ثمة متسع على متن اليخت لإيوائه. لكنه كان، بدوره، على أتمّ الاستعداد للقيام بأية تضحية قد تطلب منه- كذلك العمل البطولي الذي قام به، ذات شتاء، أثناء مرافقته والدي في رحلته إلى نيويورك.

فقد استأجر الاثنان جناحاً مرتفعاً في برج والدورف. بدا المكان لفرانك مريحاً للغاية وكان الجوّ في الخارج جليديّاً والحرارة أدنى من الصفر. لكن ما إن وطأت قدما والدي أرض الجناح الذي كان دافئاً بصورة تبعث على الحبور، وألقى نظرة سريعة على المشع، حتى أصدر صوتاً يعبر عن عدم رضاه وهزّ رأسه قائلاً بحسم: «لا يمكننا أن نتحمل هذا. أغلق ذلك الغاز على الفور». كان مشع التدفئة يعمل على البخار بالطبع. لكن المشعات بمختلف أشكالها كانت، بالنسبة إلى والدي، أجهزة تدفئة بالغاز وهو يؤمن بشدة أن الغاز يصيبه بالصداع.

جال فرانك على كافة الغرف، دون أن ينبس ببنت شفة، وأغلق كافة المشعات، على الرغم من علمه الكامل بعواقب ذلك. إذ سرعان ما انخفضت حرارة الغرفة حتى درجة التجمد. أما والدي، الذي يؤذيه البرد على الرغم من قناعته أن الغاز يصيبه بالصداع، فقد ذهب إلى الفراش وغمر نفسه بالأغطية في حين جلس فرانك بمعطفه الطويل في غرفة المعيشة وهو يرتجف. وأخيراً، وعندما أصبح عاجزاً عن مقاومة البرد، أوى إلى غرفته وأغلق الباب وارتكب الخطيئة الكبرى المتمثلة بتشغيل مشع التدفئة لديه. لم يعترض فرانك، في ذلك الحين، أو في أيّ وقت لاحق، على رحلته الجليدية إلى نيويورك، بل كان تعليقه الوحيد على تلك الحادثة عامراً بالمرح: «لكن الصداع

لم ينل من والدك. هذا أمر مؤكد».

كانت متعة فرانك الكبرى تتمثل في استباق ما يفكر فيه والدي في كل المجالات. والواقع أن فرانك كرس الكثير من وقته لتوفير الراحة لوالدي إلى درجة أصبح يتمتع معها بحدس مؤكد حين يتعلق الأمر برغباته. كان فرانك قادراً، بصورة غريزية، على اكتشاف متى يكون والدي سعيداً أو متى يكون حزيناً أو متى يكون في مزاج نزق، وكان يبدي، في كافة الحالات، قدراً كبيراً من التعاطف.

كان فرانك هو الشخص الذي يحمّله والدي الكثير من مشاكله في ختام يوم عمل شاقّ، وهو، كذلك، الشخص الذي كان والدي يصبّ جام غضبه عليه عندما لا تسير الأمور على ما يرام، ويكون مضطرّاً لتفريغ شحنات انفعالاته في شخص ما. كانت أدنى أشكال الإهمال التي قد تصدر عن فرانك كفيلة بجعل والدي يستشيط غيظاً. وكانت شدة غضبه تتجاوز، على الدوام، حدود التناسب مع ما عكر صفوه إلى درجة جعلتني أعجز، في الأيام الأولى، عن مغالبة الشعور بالخوف تجاه ما يجري، وهو أمر كان يجعل رباطة جأش فرانك تبدو، بالنسبة إليَّ، مذهلة.

فعندما يعجز والدي عن العثور على أدوات الحلاقة حيث يجب أن تكون بالضبط، ينفجر في وجه فرانك. وعندما يعجز عن العثور على مضرب تنس لم يضعه، هو نفسه، في مكانه، كان على فرانك أن يعثر عليه. وكان الأمر نفسه يحدث عندما يخرج فرانك حذاء التنس غير المناسب. كان أيّ أمر، مهما يكن بسيطاً، كتحريك قلم من المكان الذي تركه فيه في الليلة الماضية، كفيلاً بإغضابه. بل إنه كان ينفجر في وجه فرانك حتى عندما لا يحضر أحدهم إلى موعد معدّ مسبقاً، وكأن فرانك الساحر مسؤول عن هذا التقصير. ثم يتذكر والدي نفسه فجأة، في قمة غضبه، فيعتذر من فرانك، على الرغم من أنه لا يعتذر من الآخرين إلّا فيما ندر، قائلاً: «آسف يا فرانك. لم أقصد أن أرفع صوتي. لقد سهوت بعض الشيء».

أتذكّر إحدى خطب التقريع التقليدية التي حصلت ذات مساء عندما أعدّ فرانك لوالدي البذلة غير المناسبة. كان والدي يفقد أعصابه، في غالبية الأحوال، عندما يخفق فرانك في قراءة أفكاره. فقد وصل الأمر به إلى اعتبار قدرة فرانك على إدراك ما يحتاج إليه أمراً بدهيّاً. في ذلك المساء أرعد والدي قائلاً: «لقد أصبحت مهملاً. لماذا لا تصغي إليَّ؟ لماذا لا تطيع أوامري؟ تذكر أنني أنا من يدفع أجرك». لم يكن والدي، لدى بلوغه ذروة غضبه، قادراً على منع نفسه من إلقاء بعض الكلمات المتعلقة بالأجر.

لم يقل فرانك شيئاً على الإطلاق، بل إنه لم يذكّر والدي بحقيقة أنه لم يبلغه بالبذلة التي يرغب في

ارتدائها. فقد أحسّ، في نهاية المطاف، بأن اللوم يقع عليه، بالفعل، لأنه أخفق في قراءة أفكار أبي. خرج فرانك إلى الرواق ورآني أقف هناك واجماً، مكشراً، حزيناً فقال لي: «آه، لا بُدَّ من أن يغضب أبوك بين الفينة والأخرى. لكنه رجل طيب- يسهل العمل معه. هنالك ما يشغل تفكيره- الكثير من الأمور في الواقع. هذا ما يثير جنونه. عدم قدرته على حمل كل تلك الأمور في الوقت نفسه. انزع عنك الحزن على الفور. فهو سيعود سعيداً من جديد بعد دقيقة».

أستعيد هذه الأحداث من وجهة النظر تلك دون أن أعلم على وجه اليقين ما إذا كان والدي يعتبر خدمه أفراداً مستقلين بحدّ ذاتهم، على الرغم من أن الشكوك تساورني في ذلك الشأن. لقد كانوا أقرب إليه من أن يكونوا مجرد أفراد. لقد احتلوا، بالنسبة إليه، مكانة القلب والكبد والطحال- كانوا، بالنسبة إليه، ضرورة مطلقة إلى درجة صاروا معها جزءاً منه. لقد احتاج إليهم قدر حاجته إلى أعضائه الحيوية وبالطريقة نفسها. لقد اعتمد عليهم دون أدنى مساءلة ودون أيّ تفكير واعٍ. لقد كانوا خدمه وأقرب إليه، في بعض الجوانب، مني، أنا ابنه.

-12-

كان فرانك هو من يقلّنا، عادة، من مدرسة بلاك فوكس بعد ظهر كل يوم جمعة. كان يتركنا عند الطريق الدائري أمام الباب الأمامي للمنزل، فنندفع من السيارة باتجاه البيت. لكن خطانا كانت تزداد بطئاً مع صعودنا في الدرب العريض المفضي إلى المنزل. وحال وصولنا إلى الغرفة، تكتسي وجوهنا بعلامات الوقار لأننا نعلم أن ذلك ما هو منتظر منا، بالضبط. ثم نتبادل التحية مع والدنا بالأسلوب المألوف.

كان والدي يحرص على الانتهاء من أعماله في اليوم الذي يسبق وصولنا. وعندما لا يكون الطقس جيداً نجده ينتظرنا أمام المدفأة حاملاً المنفاخ في يديه كي يزيد النار في المدفأة اشتعالاً.

كنا نقول له: «مرحباً يا والدي». كنا نخاطبه بهذه الطريقة عندما كنا صغاراً ولم ننتقل إلى كلمة «بابا» الأكثر عامية إلّا بعد أن ازددنا سنّاً. فيلتفت والدي بعيداً عن المدفأة ويسألنا: «حسناً، كيف حالكما يا ولديَّ؟ كيف تسير أموركما في المدرسة في هذه الأيام؟» فنخبره عن مجريات الأمور، في حين يستمر في النفخ في نار المدفأة حتى يبلغ اتقادها درجة مرضية، فيعيد المنفاخ إلى مكانه ويقف وظهره إلى المدفأة كي ينال الدفء منها ويهزّ رأسه بين الفينة والأخرى ويقاطعنا بصورة عارضة كي يخبرنا عن كيفية قضائه الأسبوع المنصرم.

ووراءه، يتقد الفحم بلهب أزرق ويملأ الغرفة بالدفء المحبّب عندما يكون الجوّ في الخارج قارساً. لكن والدي كان يحرص على إبقاء النار شديدة الاشتعال إلى درجة يصبح جوّ الغرفة، معها، مزعجاً بالنسبة إليَّ وإلى سيدني. يبدو أن والدي لا ينال ما يكفيه من الدفء قط. ربما تكون أجواء لندن الضبابية الموحشة التي نخرت عظامه عندما كان لما يزل طفلاً هي ما يجعله يصاب بالقشعريرة في أقل الأجواء برودا.

وفي الساعة السادسة أو السابعة مساء، ننضمّ إلى والدنا لتناول طعام العشاء في غرفة الطعام، إلّا إذا كان يخطط لتناول طعامه في الخارج. كانت تلك الوجبات الجليلة أكثر ما كان يبعث على الضيق في تلك الأيام لأن قواعد الانضباط التي سنّها والدي كانت تتخذ أشد أشكالها إيلاماً في تلك المناسبات. كان يفترض بنا أن نراقب تصرفاتنا على المائدة وأن نلتزم الصمت ما لم يوجه الكلام إلينا. كنا نجلس على كراسينا منتصبين كالرمح، في حين تتأرجح سيقاننا القصيرة بعصبية.

كان والدي يتحدث إلينا في بعض الأحيان- كان ينادينا تشارلز وسيدني على الدوام، فالألقاب لا

وجود لها بالنسبة إليه. نجيبه عندما يخاطبنا، أو يكون علينا أن نتناول طعامنا بصمت في حين يغرق في أفكاره وتكسو أمارات الجدية وجهه وتذهب عيناه بعيداً. كنا نرغب على الدوام في مغادرة المائدة فور الانتهاء من تناول الطعام، لكن ذلك الأمر كان، بدوره، ممنوعاً. إذ يقول والدي منبهاً: «آ... آ... آ... ليس بهذه السرعة. لا يمكنكما المغادرة طالما الكبار يأكلون».

لكننا كنا نتنفس الصعداء عندما تكون بوليت مدعوة إلى العشاء، وهو أمر كان يتكرر كثيراً، لأنها كانت تتولى زمام الأمور على الفور. وقد وجدنا فيها، منذ البداية، حليفاً لنا. كانت تتكلم معنا وتستدرجنا إلى الحوار، بل وتستخرج منا بعض الضحكات المقتضبة وكانت عيناها تومئان نحونا تشجيعاً.

لكن الأمر كان مختلفاً مع الدكتور رينولدز، جراح الدماغ والمحلل النفسي والمنوم المغناطيسي الشهير الذي حلّ، بدوره، ضيفاً دائماً على والدي. عرفنا، على مدى السنين، الكثير عن الدكتور سيسيل رينولدز، الإنكليزي المولد، الذي أقدم على الانتحار عام 1947 عن ستة وستين عاماً بعد معاناة طويلة من مرض عضال. كان شاهداً في محاكمات جنائية شهيرة، كمحاكمات كيد ماكوي ووليام إدوارد هيكمان، كما شارك في تجارب على التخاطر في مسرح باسادينا كوميونيتي. وقد أخبرتني والدتي أنها عندما التقت والدي للمرة الأولى، كان الدكتور رينولدز برفقته وقد أثار كلامهما السحري عن لوح ويجا الرعب في قلبها.

أما بالنسبة إليَّ وإلى سيدني، فقد كان هنالك جوّ من الغرابة يحيط بالدكتور رينولدز امتدّ إلى زوجته الأولى التي تناهى إلى علمنا أن سمك القرش افترسها على شاطئ ماوي عندما كانت تقضي شهر عسلها مع زوجها الثاني. بدت هذه القصة منسجمة، بصورة أو بأخرى، مع المناخ الذي يشيعه مظهر الدكتور رينولدز، وهو رجل طويل القامة ضخم الجثة خداه غائران يمتزج الشعر الأبيض في رأسه بالشعر الأسود، ويتمتع بعينين ثاقبتين. كنت أعجز عن كظم شعوري بالضيق الشديد عندما يتفرّس فيَّ لأن والدي كان قد أخبرني ذات مرة أن الدكتور يعرف كل شيء عن العقل وكنت واثقاً أنه كان، في تلك اللحظات، يقرأ كل أفكاري.

ربطت الدكتور رينولدز بوالدي علاقة افتتان متبادل. فقد كان والدي دائم الانجذاب إلى كل ما هو مروع، وكان لدى الدكتور رينولدز، بوصفه جراحاً، الكثير من القصص التي يرويها له. أما الدكتور، فكانت الأضواء تغويه واتخذ من التمثيل هواية. بل إنه اعتزل الطب، في السنوات اللاحقة، وكرّس الكثير من وقته للفنون المسرحية. والواقع أن والدي لم يستطع أن يفهم ما دفع الدكتور، الذي كان يعتبره عبقريّاً في مجال تخصصه، إلى التخلي عن مهنته كي يصبح مجرد

ممثل رديء. لكن تلك قصة أخرى. أما السنوات التي عرفناه فيها، فكان الدكتور رينولدز يعبّر، خلالها، بحذر، عن توقه إلى حياة الممثلين، وكان والدي يمازحه واعداً إياه بمنحه دوراً في فيلمه التالي.

كان الدكتور رينولدز، لدى حضوره إلى العشاء، يستغرق في أحاديث مشوقة عن الدماغ البشري وعن العمليات الجراحية الدقيقة التي كان يجريها عليه. لم يكن يوفر أية تفاصيل ولم يكن والدي ليسمح له بذلك، على كل حال، فكان يمطره بأسئلة عميقة كفيلة بإبقائه يتكلم طيلة فترة العشاء.

أتذكّر ليلة كنت أنصت فيها إلى الدكتور رينولدز وهو يتحدث بأسلوب درامي عن كيفية نجاحه في تشخيص حالة صرع بمجرد مراقبته لمريضه أثناء إحدى النوبات: «أدركت على الفور أنه في حاجة إلى إجراء جراحة في الفص الجبهي». فاندفعت، وسيدني، في السؤال معاً: «وما هو الفص الجبهي؟». كنا نتابع رواية الدكتور، خطوة فخطوة، كي نجد أنفسنا فجأة، في أكثر مراحلها إثارة، في مواجهة مصطلح طبي غير مفهوم. لكن استحققنا، على تدخلنا بهذه الطريقة، توبيخاً قاسياً من والدي الذي قال بحزم: «تعلمان جيداً أنه لا يليق بكما مقاطعة الآخرين بهذا الشكل. لقد علمتكما أن تسلكا بطريقة أفضل من ذلك». فلذنا بالصمت على الفور كما هو عهدنا دائماً. كان والدي، في تلك اللحظة، الأب المربي، الصارم، الجادّ، مثّل التحول الكلي الذي طرأ عليه بعد بضع دقائق مفاجأة سارة لنا. كانت النظافة واحدة من بضعة مخاوف مرضية يعاني منها الدكتور رينولدز الذي كان يعيش حرباً مستمرة لا هوادة فيها مع جراثيم متخيلة. لم يكن له أن يفتح باباً أو يلمس قطعة أثاث دون أن يمسح يديه بمنديله بعناية. أما حالات التلوث الأكثر جدية في نظره، فكانت كفيلة بجعله يهرع إلى الحمام لغسل يديه بالماء الساخن والصابون. في تلك الأمسية، ارتكب الدكتور رينولدز خطيئة السماح لمنديل المائدة الذي كان يضعه في حضنه بالانزلاق أرضاً، فانحنى لالتقاطه ووضعه جانباً، ثم تمتم وهو يلتقط أنفاسه: «اعذروني» وهب على قدميه مغادراً الغرفة دون أن يقدم أيّ تفسير.

حدقت، وسيدني، فيه بارتباك لأننا لم نكن نملك أية فكرة عن خوفه المرضي. فشرح لنا والدي، وقد رأى مقدار الذهول الذي أصابنا، وجهة الدكتور دون أن تخرج من فمه أية كلمة. فقد اكتسى وجهه بتعبيرات الاكتئاب التي تميّز الدكتور وبدأ يفرك يديه وكأنهما تحت صنبور ماء مفتوح. بلغت محاكاته مقداراً من الواقعية كان يستحيل معها أن لا نخمن على الفور العمل الذي يقلده. فأفلتت منا ضحكة مخنوقة وكأننا نقف، مع أبي، في الحلف التآمري نفسه. ثم هزّ والدي يديه في الهواء وكأنه يجففهما بعناية ثم وضع إحداهما على فمه وتجشأ بصوت مكتوم مرتين أو ثلاثاً كما يفعل الدكتور

عادة. وفي اللحظة التالية، استعاد والدي مسحة الجدية وكأن كل ما جرى كان محض خيال. لكنه وضع إصبعه على فمه وهمس محذراً: «صه! لا ينبغي أن نؤذي مشاعره كما تعلمان». لقد استرد مرة أخرى، إذن، شخصية الوالد الجدي والصارم. لكن الأمور، بعد تلك الأمسية، لم تعد إلى ما كانت عليه من قبل، لأنني أصبحت، وسيدني، نسعى لاهثين خلف فواصل التقليد السريعة تلك التي اكتشفنا أنها كانت جزءاً لا يتجزأ من شخصية والدنا.

كان والدي يتبع عدداً من قواعد اللياقة التي ألزمنا بها خلال زياراتنا لمنزله. اقرع الباب قبل الدخول. التزم الصمت أثناء جلوسك إلى المائدة. استأذن قبل أن تغادر. لا تقاطع الآخرين. قف على قدميك لدى دخول سيدة إلى الغرفة وساعدها على خلع معطفها وافتح لها الباب عندما تغادر. اعتاد والدي أن يقول لنا: «الحياة تصبح أفضل إذا التزمنا بقواعد اللياقة الصغيرة».

أعتقد أن قرع الأبواب المغلقة كانت أكثر قواعد اللياقة أهمية بالنسبة إليه. فقد اكتشفت، وسيدني، بسرعة أن فتح باب مغلق دون قرعه أولاً قد يثير غضبه بأسرع مما يمكن لأيّ انتهاك آخر أن يفعل. لم يكن والدي قادراً على تحمّل قيام أحد بذلك في الطابق العلوي أو في الطابق السفلي، في المنزل أو في الاستديو على حدّ سواء. ولم يكن يتورع عن تقريع أقرب الناس إليه على هذه المخالفة، ولم يقتصر ذلك على ابنيه فحسب، بل شمل أصدقاءه المقربين ومساعديه الذين يعملون معه منذ مدة طويلة وخدمه. ربما يعزى هذا الغضب الفوري والعارم إلى المهانة التي عاشها في طفولته، عندما لم تكن خصوصياته موضع احترام.

أتذكّر جيداً المرة الأولى التي فتحت فيها الباب دون قرعه. اندفعت، في ذلك اليوم، عبر باب غرفة نومه والإثارة تملؤني بسبب حدث ما- لم أعد قادراً على تذكّره منذ زمن بعيد. لكنني لم أنل أية فرصة من أجل إخباره بما يدور في ذهني لأن والدي انفجر على الفور وهتف قائلاً: «ألا تملك من حسن السلوك ما يجعلك تقرع الباب قبل الدخول؟» كان يرتعش، بقوة، من فرط الانفعال. وعلى الرغم من أن والدي لم يرفع يده علينا يوماً، إلّا أن خوفاً شديداً كان يتملكنا عندما يرتعش غضباً. بدا ذلك الانفعال تعبيراً عن أمر مروع ما يعتمل في نفسه، ربما يكون تعبيراً عن غضب شديد من الوحدة.

بيدَ أنني، وسيدني، وجدنا، في والدي، بالإجمال، أباً طيباً للغاية- أكثر موضوعية بكثير من معظم أولياء الأمور وكان معنيّاً برغد عيشنا. كم حاول، بكل ما أوتي من قوة، أن يلجم لسانه في حضورنا! وهو أمر كان بالغ الصعوبة، بالنسبة إليه، بسبب كمّ السنوات الكبير الذي كان ينفس فيه عن غيظه باستخدام تلك اللغة التصويرية التي أصبح معروفاً بها، حيث صارت الشتائم التي

يختارها تستخدم كمقياس دقيق لمقدار غضبه.

فكلمة «اللعنة» تعبّر عن غضب من المستوى المتوسط، في حين إن كلمة «ألف لعنة» تعبّر عن غضب أشد دون أن يكون الأمر قد خرج عن نطاق السيطرة بعد. ثم تلي ذلك شتيمة من طراز «الأغبياء الملاعين! البلهاء الحمقى! التافهون أبناء العاهرة!» وهي علامة لا يمكن للمرء أن يخطئها على أن حنقه آخذ في التصاعد. أما عندما يستخدم كلمة «الحقير» أو الشتيمة الأسوأ «الحقير اللعين ابن السفاح»، فعليك أن تعلم أن انفعاله بلغ مرحلة الإعصار لأن والدي لم يكن يستخدم كلمة «حقير» إلَّا عندما يفقد السيطرة على أعصابه كليّاً.

كان والدي يلتفت، أحياناً، في خضم إحدى خطب التقريع اللاذعة الموجهة لأحد ما كي يجدني، وسيدني، نحدق به بأفواه فاغرة من فرط الإعجاب. فيقول لنا معتذراً: «أرجوكما يا ولديَّ، لقد نسي والدكما نفسه. لم أكن أرغب في استخدام هذه الكلمات». ثم يعود ثانية إلى الشخص ذي الحظ العاثر الذي كان يتلقى سيل الشتائم وتبدأ الكلمات تتدفق من فمه من جديد وكأنها تخرج من تلقاء نفسها قبل أن ينتهي به الأمر إلى الاعتذار منا جميعاً من جديد.

كان والدي، في الفترات التي لم يكن يغرق فيها بالعمل، يحاول توفير الأنشطة الترفيهية لنا في عطلات نهاية الأسبوع التي نمضيها لديه. كان يصطحبنا في بعض أمسيات السبت إلى السينما وكنت، وسيدني، نعشق أفلام لوريل وهاردي الكوميدية وهو أمر لم يستطع والدي غضّ الطرف عنه. فقد كان يقول لأصدقائه: «حسناً. هل تعلمون أمراً عن ابنَيَّ؟ إنهما يعتقدان بوجود أشخاص أكثر إضحاكاً مني- أنا والدهما».

لكن والدي كان يعلم حقّ العلم كم كنا نحبّ أفلامه. إذ كثيراً ما كان يدعونا، مع أصدقاء نختارهم، إلى عرض سينمائي خاص لأحد أفلامه في صالة العرض الصغيرة الواقعة في ردهة المنزل. وكان عدد الحضور يصل في بعض الأحيان إلى عشرين.

وكان والدي يحبّ الانضمام إلى هذه العروض في الصالة التي كانت تجلب إليها الأرائك والدواوين والكراسي من مختلف أرجاء المنزل كي يجلس عليها الضيوف. أما هو، فكان يتخذ لنفسه كرسيّاً في مكان ناءٍ من الغرفة ويجلس عليه عاقداً ذراعيه كواحد من الجمهور. لكن لا تكاد تنقضي فترة قصيرة على انطلاق العرض حتى ينهض من مكانه ويخترق الصالة ويقف بجوارنا كي يكون قادراً على التقاط ردود أفعالنا. والواقع أنه كان أكثر اهتماماً بهذا الأمر من اهتمامه بالصعلوك الصغير نفسه.

لكن والدي لم يكن قادراً على التزام الصمت طويلاً. إذ سرعان ما يبدأ بتمرير التعليقات على المشاهد. فيقول وهو يفرك يديه بطرب: «ها هو ذا، ها هو صديقنا الصغير قادم. نعم، ها هو ذا مع صديقه الكبير بقدمه المضمدة. المشاكل قادمة. راقبوا ما سوف يحدث أيها الأولاد». كان المونولوغ الحماسي الذي يقدمه والدي يبدو طبيعيّاً تماماً بالنسبة إلينا. إذ لم يخطر ببالنا، في ذلك الحين، ولو لمرة واحدة، أننا كنا الأطفال الوحيدين في العالم أجمع الذين يستمتعون بذلك اللقاء الفريد بين تعليقات شابلن وأفلامه الصامتة.

وما إن يصل الفيلم إلى نقطة الذروة وننفجر ضحكاً، حتى يضحك والدي بدوره. ولا أزال حتى اليوم قادراً على تذكّر ضحكته الرنانة التي لم تكن مدفوعة، في الواقع، بحركات «الصعلوك الصغير» نفسه، بل بردود أفعالنا عليها. إذ كنا، في بعض الأوقات، نضحك حتى البكاء. وفي تلك اللحظات، كان والدي يحسّ بنفسه في جنات النعيم. فيسألنا قائلاً: «هل تجدون ذلك مضحكاً حقّاً؟» قبل أن يضيف بنبرة تنضح بالرضا: «الأطفال، كما تعلمون، هم أصعب أنواع المتفرجين في العالم من حيث القدرة على إرضائهم».

وكمعظم الآباء، اعتاد والدي أن يلعب معنا. أتذكّر أن لعبتنا المفضلة كانت لعبة البعبع. فقد أحببت، وسيدني، تلك اللعبة المخيفة التي كان والدي خلالها يتصرف كالبعبع ويتسلل خلفنا في مختلف أرجاء المنزل وقد اكتسى محياه بأمارات الممسوسين. كنا نفرّ بعيداً عنه حتى نصل إلى مرحلة نعجز فيها عن الحركة وقد سمّرنا الخوف فنبدأ بالصراخ. حينذاك، يدرك والدي أنه ذهب بعيداً فيتوقف عن مطاردتنا وتعود قسمات وجهه إلى سابق عهدها ويقول ضاحكاً: «هل أحببتما ذلك؟ والدكما قادر على أن يكون مخيفاً. أليس كذلك؟».

وكان والدي، ككل الآباء الطيبين، يقصّ علينا قصص ما قبل النوم. ويا لها من قصص! فبعض قصصه تتحدث عن الأشباح وكنا نصغي إليها ونحن ممددان في السرير وإحساس بالتشويق والإثارة يملأ نفوسنا. كانت قصصه مستقاة، في كثير من الحالات، من ديكنز، لكنها لم تكن، كما يمكن للمرء أن يتخيل، قصص ديكنز العاطفية أو الهجائية باعتدال التي يتميّز بها أدب ديكنز، بل كانت قصصاً مروعة بحقّ. والواقع أن التشابه بين والدي وديكنز في مجال النزوع إلى ما هو مخيف أمر يثير الدهشة.

أظن أن أوليفر تويست هي قصة والدي المفضلة لأن الخبرات التي عرفها الفتى أوليفر تويست في الميتم تشبه إلى حدّ بعيد الحياة التي عاشها والدي هناك. وكانت الفقرة التي كان يختار أن يؤديها من أجلنا عادة هي تلك التي تصف لقاء تويست بفاغين.

ثم يهمس قائلاً: «لماذا تراقباني؟ لماذا لا تزالان مستيقظين؟ ما الذي رأيتماه؟ تكلّما أيها الصبيان! بسرعة- بسرعة! كي تحافظا على حياتكما!».

كرّر والدي القصة على مسامعنا مرات كثيرة، لكني لا أذكر أنه قصّها علينا بالطريقة نفسها ولو لمرة واحدة. فقد كان، في كل مرة، يضفي عليها زخرفات جديدة من صنع مخيلته، بحيث أعجز، وسيدني، عن توقع ما هو قادم، مع علمنا أنه سيكون مثيراً بالتأكيد.

ثم يمضي وقت طويل، بعد أن يكون والدي قد ألقى علينا تحية المساء ضاحكاً، ونحن ممددان في سريرنا المزدوج ونناقش أداءه. كما أننا كنا نتجاذب أطراف الحديث كذلك كي يذكّر واحدنا الآخر أنه ليس وحيداً، لأن أسلوب القص السحري الذي يميّزه كان قادراً على نخر عظامنا كالصقيع. وهناك، كنا نسمع وسط الظلام الدامس نقر أغصان الأشجار على نوافذ غرفتنا وأصوات نسيم الليل الكئيبة.

كانت الحياة مع والدي، طيلة فترة طفولتي وفتوّتي، أشبه بالحياة في سفينة تبحر في بحر مائج. أما الأمواج، التي كانت تتوالى بفواصل زمنية مدة كل منها خمس سنوات، فهي فترات الإبداع المركّز التي كانت كل فترة منها تتمخض عن واحد من الأفلام التي شكّلت، بمجموعها، سلسلة من التحف السينمائية- «أضواء المدينة»، «الأزمنة الحديثة»، «الديكتاتور الكبير»، «السيد فيردو» وأخيراً «بريق الشهرة». وعلى الرغم من أني لا أعلم بالضبط الكيفية التي عمل فيها والدي على إنجاز فيلم «الملك في نيويورك» الذي تمّ إنتاجه في أوروبا، لكنني أستطيع أن أتخيل أنه عمل عليه بالقدر نفسه من التركيز والقوة اللذين صنع بوساطتهما الأفلام الأخرى.

فعندما يعمل والدي، يضحي بلا رحمة بكل اهتماماته الأخرى، بما في ذلك أسرته نفسها، لصالح فورة الإبداع العارمة تلك التي تصل إلى ذروة لا تضاهى قبل أن تنهار، مع وصول الفيلم إلى خواتيمه، تاركة إياه في حالة من الاستنفاد. بل إنه قال، هو نفسه، ذات مرة، إنه يصبح مضطرّاً، بعد إنجاز كل فيلم، إلى أن يأوي إلى الفراش يوماً أو اثنين على الأقل كي يستعيد قواه. ولم يكن والدي الشخص الوحيد الذي يصيبه الإعياء في تلك الفترات، بل كان الإرهاق يسيطر على كل المحيطين به سواء في الاستديو أم في المنزل. تلك هي نوعية الحياة مع إنسان مبدع مهووس بالكمال. لكن كيف للمرء أن يتوقع، مع وجود عبقري من هذا الطراز، أن يعيش جوّاً من الاستقرار المستدام. لم يكن الأمر أنني، وسيدني، لم نكن ننتظر أن يكون الأمر خلاف ذلك فحسب، بل إننا سلمنا بهذا النوع من الحياة حتى كبرنا.

أما الأجواء المنزلية الوادعة إلى حدّ ما التي تحدثت عنها في الفصل السابق، فكانت تسود الفترات الفاصلة بين موجتين- بين فيلم «أضواء المدينة» الذي كان والدي قد أنجزه بالفعل، وفيلم «الأزمنة الحديثة» الذي كان في طريقه إلى إنجازه. فقد اتسمت تلك الفترة بالهدوء النسبي، إذا استثنينا الاضطراب الذي يجيش تحت السطح وفترة الاستعداد لقدوم موجة المدّ العملاقة التالية.

استغرق الأمر أكثر من عامين قبل أن ينجز والدي نص فيلم «الأزمنة الحديثة» الذي بدأ العمل عليه فور عودته من رحلته إلى الخارج عام 1932. كان تقدم العمل بطيئاً على الدوام، بل إن وتيرة انطلاق العمل كانت أميل إلى الكسل. لكن والدي، في جميع الأحوال، عشق الكتابة كديكنز، الكاتب الذي عشق التمثيل. أخبرني والدي ذات مرة أنه حاول أن يجعل كتابة خمس مئة كلمة حول أيّ

موضوع ممارسة يومية لمجرد التدريب. لكن والدي كان لا يزال يعمل على كتابة النص في الفترة التي بدأت فيها، وسيدني، نتردد إلى المنزل. أما الإنتاج الفعلي للفيلم، فلم يبدأ إلَّا في شهر تشرين الأول التالي.

ومع ازدياد توارد الأفكار إلى رأسه، واحتلال الكتابة مساحات من وقته كانت تزداد اتساعاً، بدأت، وسيدني، نعتاد هذا النوع الغريب الموجه من التركيز العقلي الذي كان قد زاد حياة ميلدريد هاريس وحياة أمي صعوبة ووحدة. فعندما كنا نعود من المدرسة إلى المنزل، في تلك الفترة، نجد والدي في غرفة المعيشة في الطابق الأرضي. فيرحّب بنا بفتور فنراهن أن فكرة ما قد استولت عليه للتوّ قبيل مجيئنا، وأنه سرعان ما سوف يجلس إلى طاولته كي يبدأ في العمل.

أتذكّر المرة الأولى التي وجدناه فيها على هذه الحال بعيد ظهر أحد أيام الجمعة. هتفنا بحماسة منتظرين منه ردّاً مرحّباً كعهدنا به: «مرحباً يا أبي. ما الجديد لديك؟» فرمانا بنظرة متجهمة وهزّ رأسه قائلاً بنبرة رتيبة مفاجئة: «لا تزعجاني. لا تزعجاني. أنا مشغول. اذهبا. اذهبا في الحال. العبا مع أصدقائكما». ثم لوّح بيده مشيراً إلى الباب. فخرجنا ومشاعر الذهول والخزي تملؤنا وتساءلنا باستياء: «ماذا أصاب والدنا؟». أخذنا نتجول في الخارج وغادرنا الامتعاض بالتدريج. لكنني بقيت أتخيله جالساً إلى تلك الطاولة مطرقاً ونظارته ذات الإطار البني جاثمة على أنفه ويده الممسكة بقلم الرصاص تتحرك بسرعة فوق أوراق الدفتر الصفر المسطرة. عدت من جديد إلى غرفة المعيشة وأخذت أختلس النظر من زاوية باب الرواق. كان والدي لا يزال يعمل. كان يتوقف عن الكتابة قليلاً ويحدق في الفراغ وأصابعه تداعب أعلى الصفحة برقة وقد اكتسى وجهه بتعبيرات الاستغراق نفسها التي كنت أراها عندما كان يأكل. كان يتعامل مع أوراق الكتابة بالرقة نفسها التي يتعامل المرء فيها مع الأشياء النفيسة، أو بالأحرى مع المخطوطات القديمة النادرة.

وقفت في فتحة الباب دون أن أكون واثقاً مما عليَّ فعله، لكنه لم ينظر إليَّ. تسللت إلى الغرفة بصمت وجلست منتظراً. عاد والدي إلى الكتابة من جديد. ثم انتهى فجأة ولوّح بيديه بعلامات الظفر وهبّ على قدميه ورآني. اختطف أوراقه وسارع نحوي ووقف أمامي وكأنه كان يتوقع أن أكون موجوداً هناك في تلك اللحظة أنتظره بصمت وأتمنى له الأفضل. هتف قائلاً: «ما رأيك في هذا يا تشارلز؟ هذا هو فيلمي التالي». وقبل أن تسنح لي الفرص لقول أيّ شيء، بدأ يقرأ ما كان قد كتبه ويمثله كما لو أنني كنت الجمهور كلّه. «ستكون الطيور تغني... ستكون الغابة هادئة وساكنة... وصديقنا الصغير...». ثم سألني بلهفة بعد انتهائه من القراءة: «ما رأيك؟». وأضاف وكأنه يتحدث عن عمل شخص آخر: «أليس جميلاً؟». فأجبته بسرعة: «رائع». لم أكن أفكر إلَّا

في أن والدي قد قرأ عليَّ عمله بصوت مرتفع وأنه طلب بالفعل رأيي فيه. أما أنا، فكان واجبي يقتصر على الإصغاء.

وفي المرات التالية التي كان والدي يعمل خلالها، كنت أجلس معه في الغرفة بصمت. كان يغادر الغرفة، في بعض الأحيان، ويمشي مطرقاً عبر الدروب الترابية الملتوية التي تشق التل وهو يصارع أفكاره. أما أنا فكنت أسير في أعقابه، برفقة سيدني في بعض الأحيان، في انتظار اللحظة المجيدة التي يلتفت والدي عندها وقد أشرقت عيناه وتهدج صوته: «وجدتها أيها الصبيان. أصغيا».

وكانت هنالك ظاهرة أخرى أدركتها، وسيدني، بألم وهي أن عقل والدي، في تلك الفترات، كان يغيب بشكل متصاعد. فقد كنا، في بعض الأحيان، نفوز بموافقته على انخراطنا في نشاط ما. لكن ما إن نشرع بتنفيذ ما خططنا له، حتى نجد والدي، الذي كان حريصاً على الالتزام بعهوده معنا قدر الإمكان، ينفجر فجأة دون سابق إنذار قبل أن يكتشف، بحزن بالغ، أنه قد نسي كل شيء عن وعده. وكان ذلك يضفي المزيد من عدم اليقين على الحياة في المنزل.

تعلمت وسيدني بسرعة، لأسباب تتعلق بسلامتنا الشخصية، أن نقرأ الإشارات وأن نتصرف وفق مقتضياتها. كان والدي يغنّي لدى إحساسه بالسعادة، ويا له من غناء، مقتطفات من مقطوعات أوبرالية، أو من أغنياته المفضلة، أو من فقرات من المسرحيات الغنائية التي شارك فيها في طفولته. أما المقطوعة المفضلة لديه، على ما أذكر، فتقول شيئاً كالتالي:

«آه.. منذ تلك الليلة المشؤومة

أصبحت زوجتي مجنونة،

أما أنا، فقد أصابني مسّ مخيف (وعند هذه النقطة كان يشير على الدوام إلى رأسه)

يا له من أمر بغيض، بغيض، بغيض!

تتسلل من سريرها في الليل

وتسير حول سريري،

وتغني: هاملت، هاملت، هاملت،

أنا شبح والدك».

كما أحبّ تأدية الألحان التي كتبها. وكانت أغنية «هلا تشتري زهوري الجميلة؟» من فيلم «أنوار المدينة» الأغنية المفضلة بالنسبة إليه.

كان يغنّي في الحمام. وكان يغنّي أثناء استعداده للخروج لقضاء الأمسية خارج المنزل. وكنت تستطيع أن تسمعه أينما كنت في المنزل- ولو كنت في الطابق الأرضي أو حتى في الخارج. بل كان يمكن سماع صوت غنائه يتردد عبر التل. وكان غناؤه يبعث فيَّ وفي سيدني مشاعر الراحة لأننا نوقن أننا في طريقنا لقضاء عطلة نهاية أسبوع رائعة.

ثم كانت هناك الأيام التعيسة عندما كنا نجد والدنا غارقاً في إحدى نوبات المزاج السيّئ التي يعرفها جيداً كل الذين عاشروه. لم يكن والدي يمارس عادة التكلم مع نفسه إلّا إذا كان يقرأ بصوت مرتفع نصّاً كتبه للتوّ. أما عندما يعيش حالة اكتئاب، فإنه يلتزم الصمت عادة- الصمت المطبق. كان أيّ شيء كفيلاً بأن يقوده إلى هذه الحال- كانت أية قصة مأساوية يقرؤها في الصحف كفيلة بإثارة غضبه- لكن الاكتئاب كان يغزوه، بصورة خاصة، عند إحساسه بأن الروح الإبداعية فارقته، عندما ينتظر بلا طائل توارد أفكار تأبى أن تصل. كانت يداه، في تلك اللحظة، تبدوان مقيدتين وقدماه عالقتين في زنزانة عقلية مظلمة ما. ثم يرتمي قلمه جانباً دون حراك وتصبح أوراقه الصفر في حالة بطالة. كان، في بعض الأحيان، يتجول بتثاقل في الممرات الترابية وسط الأشجار وخطواته تفتقر للتوثب. وكان، في أحيان أخر، يقف متجمداً تماماً أمام النافذة في غرفة المعيشة ويحدق في الخارج ويداه معقودتان خلف ظهره وأصابع إحدى يديه تنقر وتنقر دون توقف على معصم اليد الأخرى، أو أن أصابعه تنقر، إن كان جالساً، على ركبتيه بالطريقة العبثية نفسها. كان يعجز عن رؤيتنا لدى دخولنا أو سماعنا لدى خروجنا.

وأخيراً، عندما يستمر انطواؤه على نفسه فترة أطول مما ينبغي، كان يقوم بخطوة ما لكسر حالة الاكتئاب. وكان العلاج بسيطاً. إذ كان يجري اتصالاً هاتفيّاً طارئاً بأحد أصدقائه ويدعوه إلى المنزل من أجل مباراة تنس. كان مرأى ملعب التنس كفيلاً ببثّ البهجة في نفسه، في تلك الأيام. ووالدي لاعب أعسر- وهو أعسر في كل شيء باستثناء الكتابة- يمارس لعبة التنس بالرشاقة نفسها، وباليسر نفسه الذي يقدم فيه أعقد فقراته الإيمائية.

لم يكن والدي يمارس التنس بعد ظهر كل يوم في المنزل فحسب، بل مضى عشقه لهذه الرياضة إلى درجة أصبحت، معها، جزءاً من حياته، حتى في أسفاره. كان والدي يزور نيويورك مرتين سنويّاً وكان يرافقه، عادة، في هذه الرحلة تيم ديورانت الذي يتحدر من الساحل الشرقي. وعندما يسافر الرجلان بالقطار، كانا يصعدان على متنه، في بعض الأحيان، بملابس التنس. وما إن يصلا

إلى شيكاغو، حتى يتصل والدي بالهاتف للعثور على مكان كي يلعب فيه في الفترة الفاصلة بين تبديل القطارات. كان يلعب جولة واحدة ثم يعود إلى القطار. ويحدث الأمر نفسه لدى وصوله إلى نيويورك حيث يقيم في الريفر كلوب ويتجه فور وصوله إلى ملاعب التنس.

كان التنس يعني لوالدي، ما يعنيه الخمر والجنس والدين للرجال الآخرين. ويبدو أن التنس يبثّ فيه نوعاً من الاسترخاء السحري. فقد كنت أراه في المنزل يسير نحو ملعب التنس بقدمين متثاقلتين وقد امتلأت نفسه بالكآبة والحزن. لكنه كان يتغير بصورة جذرية مع ضربة البداية، فيزداد تنبهاً ورشاقة وتركيزاً. إذ كان يستحيل عليه أن يركز، في الآن عينه، على جولة التنس في الخارج وعلى الظلمة التي تملؤه في الداخل. وفي الوقت الذي تكون مباراة التنس قد شارفت على الانتهاء، تكون الكآبة قد تبددت كليّاً بالفعل ويكون والدي قد عاد إلى حالته الطبيعية من جديد- ولا سيما في حال فوزه بالمباراة.

يعتبر والدي من الأشخاص المتمحورين على ذواتهم، لكن المقربين، وحدهم، يدركون مقدار هشاشة الأساس الذي يقوم عليه هذا التمركز على الذات. إذ تكفي كلمة أو إيماءة لإفقاده الثقة بنفسه، وتكفي خشيته من أن يكون قد فقد ملكاته الإبداعية إلى الأبد لجعله يغرق في حزن عميق. في تلك الأوقات، كان فوزه بمباراة تنس كافياً لجعله يخرج مما هو فيه، وكان أصدقاؤه، الذين يراهنون، عادة، بالمال، على المباريات التي يلعبونها معه، يحرصون على عدم بذل كل ما لديهم أثناء اللعب كي يكونوا واثقين من أنه سيتغلب عليهم.

حلّ فصل الربيع وبدأ النهار يزداد طولاً مع اقتراب صيف كاليفورنيا الحار، وأخذ والدي يتحرك بإيقاع يزداد سرعة. وأخذ مزاجه الرديء يزداد ظهوراً ونوبات غضبه تزداد تكراراً وساد في المنزل جوّ من الترقب والتوتر هيمن على كل من يعيشون فيه. كنا، جميعاً، موجودين في المركب نفسه وبدا والدي، وبدوْنا معه، كجيش من الجنود الجبناء في طريقهم إلى معركة واترلو. كانت خشيته من الإخفاق، وهي لعنة خالدة ترافق كل التواقين إلى الكمال، مصدر عذابه.

ومع اقتراب الانتهاء من كتابة النص، انخرط والدي في مهمة أخرى هي تدريب بوليت على دورها السينمائي الأول. أتذكّر تلك الساعات الطويلة التي قضاها برفقتها في غرفة المعيشة أو في ملعب التنس. كان ذلك الدور الكبير الأول الذي ستلعبه بوليت وكانت ممتنة للغاية من الفرصة التي أتيحت لها. كانا يكرران المشهد نفسه مرات ومرات وكان والدي يضغط بلا هوادة للحصول على الأثر الذي يبتغيه. أما بوليت، فكان الأمر بالنسبة إليها مجرد لعبة. كانت تعمل حتى اللحظة التي تحسّ بها أنها على وشك الوقوع أرضاً من فرط الإعياء. أما والدي فلم يكن يبدو عليه أنه يمكن أن

يتعب. وعلى الرغم من أنه كان يفقد أعصابه في العديد من المناسبات، كما أذكر، إلَّا أنه حافظ على رباطة جأشه، بل إنه لم يكن يرفع صوته عندما يدرب بوليت، مهما تكرر المشهد. لكن التوتر العصبي الذي كان يعتمل في صدره قد يكون أكثر إثارة للخوف من انفجارات الغضب المفاجئ المعروفة عنه. كان يرفض الاكتفاء بما هو أقل من الأفضل حتى ولو كان الأمر يتعلق بإيماءة بسيطة أو تعبير وجه صغير.

كانت جملة: «حاولي من جديد. حاولي من جديد. حاولي من جديد» تطارد بوليت حتى في أحلامها. كانت رؤيتها لعدم كفايتها تدفعها، في بعض الأحيان، إلى البكاء: «تشارلي، تشارلي، أنا لست بممثلة. الأمر بسيط للغاية: أنا لست ممثلة». فكنت، وسيدني، نخرج من مخبئنا ونندفع لحمايتها والنأي بها عن تدريب والدي الذي لا يرحم. كانت بوليت، في الأحوال الطبيعية، مرحة وفتية للغاية، على شاكلتنا تماماً، فلم نكن قادرين على تحمل رؤيتها مبتئسة. كنا نقول لأنفسنا إنها ليست بحاجة إلى أن تبلغ مرحلة الكمال لأنها، على ما هي عليه، قادرة على القيام بكل شيء. لكن والدي لم يشاركنا وجهة نظرنا هذه، بل إنه كان يزداد سعاراً، يوماً إثر يوم وأسبوعاً إثر أسبوع، في سعيه الدؤوب لتشكيل فتاة فيلم «الأزمنة الحديثة» المحبوبة.

-14-

في صيف عام 1934 ذاك، بدأ والدي مرحلة الاستعداد لإنتاج فيلم «الأزمنة الحديثة». لكنه لم يكن في حاجة إلى سدّ أية ثغرات قد يعاني منها الاستديو لأن طاقمه الفني لم يتعرض إلى أيّ نقص بسبب حرص والدي، طيلة السنوات الأربع السابقة، على إبقاء كل العاملين لديه على قائمة الأجور حتى عندما لم يكن هنالك ما يفعلونه.

من الجدير بالذكر، على ما أظن، الإشارة إلى أن والدي دأب على هذه الممارسة الأخلاقية منذ بداياته الأولى، عندما لم يكن هنالك من نقابات، وكانت شركات الإنتاج الأخرى تصرف العاملين لديها بصورة جماعية مع الانتهاء من كل فيلم كي تعيد توظيفهم من جديد عند الحاجة إليهم. أما هو، فكان يعتمد على إخلاص موظفيه الفائق، وهو إخلاص كان جميع من في المدينة يعرفونه تماماً وكانت الصحف تشير إليه في ذلك الوقت.

وكان والدي وفيّاً تجاه من عملوا لديه بقدر وفائهم له. فعندما أصيب فرانك أنتونيز، مدير قسم النقل لديه، بالعجز نتيجة أزمة قلبية، صرفه والدي من العمل لكنه حرص على الإبقاء على أجره. كما أنني أعلم، كذلك، مقدار حرصه على مساعديه السابقين مثل إدنا بورفيانس، الشخصية النسائية الرئيسة السابقة لديه، ورونالد توثروه، مصوره السينمائي في عصر السينما الصامتة. بل إنني أعجز عن ذكر كل من استفاد من كرمه لأنه لم يكن يتباهى بذلك. لكن ما أعلمه تماماً هو أن علاقة الرئيس بمرؤوسه كانت، في شركة والدي، أشبه بعلاقة أسرية.

وبسبب العطلة الصيفية التي أتاحت لنا زيارة والدنا خلال أيام الأسبوع وفي عطلة نهاية الأسبوع على حدّ سواء، سنحت لي، ولسيدني، فرصة متابعة الاستعدادات التي كانت تجري على قدم وساق لأن والدي كان يصطحبنا معه إلى الاستديو. وحالما نصبح في الداخل، كان سلوك والدي يتغير فيزداد إثارة ويفيض حيوية ويتحول هناك، بمعزل عمّا يمكن أن يبدو عليه في الخارج، إلى السيد المطلق الذي تصبح كل كلمة يقولها قانوناً. بل إنني لم أستطع، وسيدني، على الرغم من صغر سنّنا، إلّا أن نلاحظ مقدار الاحترام الذي يبديه الجميع عند تحيته، بدءاً بالنجارين وانتهاء بمديري الإنتاج. فقد بدا أن الجميع ينظرون إليه بنوع من الرهبة، مثلي تماماً.

بيدَ أنه كان يوجد رجل واحد يستطيع، بالفعل، أن يتصدى لوالدي في الاستديو. كان هذا الرجل هو مساعده القديم آلف ريفز، مدير الأعمال في استديوهات شابلن. أتذكّر آلف جالساً إلى طاولة مكتبه

الواقعة في مكتب جدرانه مكسوة بالألواح الخشبية ومظلم إلى درجة تبدو معها الماسة التي تزين خاتمه مصدر الضوء الوحيد فيها. كان تطفل والدي عليه يستفزه إلى أقصى الحدود فيقول بلكنته اللندنية الممطوطة التي لم يفقدها على الرغم من طول سنوات إقامته في الولايات المتحدة: «اخرج من هنا على الفور يا تشارلي، فأنا مشغول». فكان والدي يغادر المكتب على الفور دون أيّ نقاش. كان مكتب آلف المكتب الوحيد في الشركة الذي يمكن أن يطرد منه. وباستثناء ذلك، كان والدي رئيساً للجميع دون منازع. كان الكاتب والمخرج وكبير المصممين والمؤلف الموسيقي ومسؤول المونتاج ورجل الماكياج. كان الكل في الكل. ويكفيكم مراقبة تيترات أيّ فيلم من أفلام شابلن كي تدركوا ذلك.

كان لديه بعض من أفضل رجال المحاسبة في البلاد، والله وحده يعلم مقدار الضغوط التي كان يمارسها عليهم. لكنه لم يكن قادراً، على الرغم من ذلك، عن منع نفسه من إسداء نصائحه الصغيرة. كان بإمكانه، مثلاً، أن يجادل مديري الإنتاج على مدى ساعة كاملة حول كلفة دعامة سعرها معروف. وعلى الرغم من ذلك، زادت كلفة إنتاج فيلم «الأزمنة الحديثة» عن مليون ونصف المليون من الدولارات وهو رقم كان يبدو فلكيّاً بمعايير تلك الأيام.

كان والدي يخرج عن المألوف بصورة مستمرة عندما يتعلق الأمر بالمال إلى درجة انتشرت في هوليوود قصص أسطورية حول ذلك الأمر. كان من تلك القصص أن والدي طلب، في العقد الذي وقعه مع شركة ميوتوال كومباني، أجراً أسبوعيّاً مقداره ألف وخمسة وعشرون دولاراً بدلاً من الدولارات الألف التي عرضت عليه قائلاً إنه يريد الدولارات الخمسة والعشرين الإضافية كي يعيش منها.

وعندما يتناول الطعام في المطعم، ينفح الساقي بقشيشاً مقداره عشرة بالمئة من قيمة الفاتورة مهما تكن الخدمة المقدمة جيدة- ولا سيما إذا ظن أن الساقي قد تعرف عليه. كان دقيقاً بشأن تلك النسبة المئوية. وبسبب عدم ثقته بمهاراته الحسابية، كان يعهد بالفاتورة لبوليت أو لي أو لسيدني كي نتحقق من المبلغ الكلي- حتى آخر فلس. ثم يمضي إلى الخارج ويمنح حلاقاً غافلاً خمسة دولارات مكافأة له على براعته دون أن يعرفه. كان يمكن له الوصول بالتقتير إلى أبعد الحدود حتى عندما يتعلق الأمر بأرومات أقلام الرصاص، بل إنه كان يمكن أن يبدي قلقاً جامحاً حيال فقدان إحداها لأن «لأقلام الرصاص ثمن كما تعلمون».

والواقع أن والدي استطاع جعل طاقم فيلم «الأزمنة الحديثة» يتشربون أفكاره حول الاقتصاد إلى درجة أصبحوا معها يفرضون رقابة لصيقة على الإنفاق طيلة فترة التصوير كي يوفروا عليه

بضعة دولارات أو ما هو أقل من ذلك. أذكر من ذلك قصة مساومتهم الطويلة لمالك منزل أرادوا استئجاره لتصوير أحد المشاهد والتي انتهت بتخفيض قيمة الإيجار من المبلغ المتعارف عليه وهو خمسة وعشرون دولاراً يوميّاً إلى خمسة دولارات فحسب. لكنهم مضوا أبعد من ذلك عندما رفضوا دفع أكثر من خمسة دولارات بحجة أن يومي التصوير الأول والثاني لم يمضيا على ما يرام وأنهم عادوا في اليوم الثالث لمجرد إعادة بعض اللقطات.

لكن والدي كان قادراً، على الرغم من ذلك، على فقدان مبالغ كبيرة من المال دون أن يرفّ له جفن. كان الأمر حتى لو كان المبلغ المفقود كبيراً، فليس له أية قيمة واقعية. ويروي جوزيف شينك، المنتج الذي عانى، هو نفسه، في فترة لاحقة، من مشاكل ضريبية جدية، قصة اكتشاف والدي أنه كان مقصّراً إلى حدّ كبير في الإيفاء بالاستحقاقات الضريبية المترتبة عليه، حيث نشب جدال كبير بين محاميه من جهة والعم سام من جهة أخرى. ويتذكر السيد شينك نتيجة هذا النزاع لأنه كان مع والدي في فندقه في نيويورك عندما جاءه محاموه بالأخبار.

فقد قالوا له بشيء من التهيّب وهم يخشون غضبه: «لقد وافقنا على دفع مليون دولار». فما كان من والدي إلَّا أن نهض من مكانه ومشى باتجاه البيانو وكأنه لا يوجد في هذا العالم ما يشغله ثم قال: «حسناً. أنا سعيد أن الأمر قد انتهى. فلنحتفل قليلاً». ثم جلس إلى البيانو وبدأ يعزف.

كان والدي يغرق في عمله في بعض الأحيان إلى درجة يتصل معها هاتفيّاً ويطلب مني ومن سيدني أن لا نأتي إلى المنزل على الإطلاق، فكان يراودنا إحساس قوي بالإقصاء. كان لدينا، هناك، بالفعل، مجموعة من الأصدقاء. كان هناك الأشقاء الثلاثة كريزل الذين يقيمون على الضفة الأخرى من الشارع، وكان والدهم، فيما مضى، قاضياً في الصين وكان جميع أفراد أسرته يتكلمون الصينية. وكان هناك كذلك أبناء هارولد لويدز الذين كانوا يعيشون في أسفل التل عند زاوية الشارع في دارة فاخرة تحفّها حدائق أوسع بكثير من تلك التي كانت لدينا. بل كان لعائلة لويدز ملعب غولف ذو تسع حفر وبركة سباحة كانت تبدو، بدربها الجليل المحاط بالأشجار المفضي إلى نوافيرها، وكأنها تنتمي إلى تاج محل.

كنت، وسيدني، نحبّ زيارة الفتاتين لويدز، بيغي وغلوريا. وقد أحببت غلوريا منذ النظرة الأولى على الرغم من أنني لم أواعدها قط. وكانت الفتاتان تأتيان في بعض الأحيان لزيارتنا برفقة شقيقهما الصغير هارولد جونيور الذين كان يسير خلفهما. وكنا، والأشقاء كريزل والأشقاء لويدز والكثير من الآخرين، نقضي أوقاتاً مسلية خلال عطلات نهاية الأسبوع. لذلك كنت، وسيدني، نجد ما يكفي من الجرأة كي نرجو والدي أن يغير رأيه. ولم يكن والدي من النوع الذي لا يقبل

التفاهمات، إذ كان يلين في نهاية الأمر ويقول: «حسناً. موافق شريطة أن تدعاني وشأني». لكن هذا النوع من التسويات لم يكن يشمل أصدقاءنا. فقد تعلمت، وسيدني، منذ زمن طويل أن لا ندعوهم إلى المنزل دون استئذان والدي أولاً، لأن الأمر يصبح محرجاً عندما يكون في خضم إحدى نوبات التوحد ولا يرغب في وجود أحد حوله. إذ كان يمكن له أن يقول بسرعة: «كيف حالكم؟» ثم ينسحب على عجل إلى الطابق العلوي حتى يغادر ضيوفنا ثم يعود في وقت لاحق لتقريعنا: «عليكما أن تبديا المزيد من الاحترام لوالدكما. عليكما أن تخبراه قبل أن تحضرا أحداً».

استمرّ عمل والدي المنهك مع بوليت طيلة فصل الصيف في المنزل وفي الاستديو واستمر إحساسي، وسيدني، بالأسف تجاهها. بيدَ أن بوليت لم تكن بحاجة إلى إشفاقنا، فقد كانت بارعة في تدبر أمورها وتتمتع بالقدرة على التملق بأفضل الطرق الممكنة. فكانت تقول: «يجدر بك أن تأخذ بعض الراحة يا تشارلي. فلنمرح قليلاً اليوم. سيكون الأمر رائعاً بالنسبة إلى الصبيين كذلك».

كانت بوليت تحرص باستمرار على إشراكنا في اللعبة لأنها أغرمت بنا كثيراً ولأنها أدركت، كذلك، أنها تستطيع التأثير في والدي من خلال اللعب على غريزة الأبوة لديه. إذ كان إدراكه لواقع إهماله المستمر لنا يشحن طاقاته فيضع العمل جانباً- التدريب، المؤتمرات، الاستديو- ويخرج برفقتي ورفقة سيدني وبوليت في نزهة تستغرق اليوم كله.

كنا نختار، عادة، مدينة الألعاب أميوزمنت بيير في الأوشن بارك. وأثناء الرحلة الطويلة باتجاه المحيط، اعتاد والدي أن يسلينا بقصص طرزان. أتذكّر كيف كنا نجلس في المقعد الخلفي للسيارة في حين يقصّ والدي لنا قصصاً كثيرة لم يكن مصدرها كتب إدغار رايس بوروز التي أشك في أن والدي قد قرأ أيّاً منها في حياته، بل كانت قصصاً رائعة من بنات أفكاره تتناول حياة الرجل القرد هذا.

وما إن تطأ أقدامنا أرض الأميوزمنت بيير، حتى نكتشف، أنا وسيدني، أن والدي وبوليت قد كفّا عن أن يكونا أكبر سنّاً منا. فقد كانت عينا والدي تومضان ويسير بخطى متواثبة وهو ينظر حوله يمنة ويسرة. لقد كانت أجواء المتنزه الصاخبة تبعث في نفسه مشاعر الإثارة والغبطة على الدوام.

كنت وسيدني نعشق القطار الأفعواني وكانت بوليت تنضم إلينا في بعض الأحيان في جولة، لكننا عجزنا عن إقناع أبي أن يجربه ولو مرة واحدة. فقد كان يفضل العجلة الدوارة الكبيرة، كما كان يعتبر القطار المائي تجربة مثيرة، في حين كنت، وسيدني، نراها مملة. لكن أفضل الألعاب، بالنسبة إليه، كانت تلك التي يستطيع المرء من خلالها اختبار مهاراته في التسديد، سواء من خلال

رمي كرة باتجاه مجموعة من زجاجات الحليب أو حلقة باتجاه عصا منتصبة. وكانت لعبة الرماية المفضلة، بالنسبة إليه، تلك التي تتضمن خنزيراً صغيراً يتقدم عند إصابة الهدف من الطفل ثم يعود إلى الداخل من جديد. وقد كانت هذه اللعبة تجعل والدي يضحك من الخنزير الصغير كأيّ طفل.

تعددت زيارات والدي للأميوزمنت بيير مع مرور السنين فصار معروفاً لجميع العاملين فيه الذين تعرفوا إلى نقاط ضعفه، فكانوا ينادونه عند مروره بالقرب منهم: «هيه، تشارلي، تعال إلى هنا، جرب هذه اللعبة... تشارلي، تعال إلى هنا! تشارلي!». كان صراخهم يغيظ أبي في بعض الأحيان فيعرض عنهم وينظر إلى الأمام، وكأنه لا يسمعهم، ويقول متمتماً لي ولسيدني: «لا تصغيا إليهم. لن نلعب إلّا الألعاب التي نريدها».

على الرغم من أن والدي كان أعسر، إلّا أنه كان رامياً بارعاً إلى أقصى الدرجات. كان يجمع النقاط التي يربحها بحرص ويستبدلها في نهاية اليوم بدمى وحيوانات محشوة. وعندما يحاول المحاسب منحه جائزة أقل مما يستحق، كان يهزّ رأسه ويعيد حساب مجموع نقاطه أمام عينيه. فقد كان والدي يأبى، حتى عندما يتعلق الأمر بدمية محشوة كانت تؤول لي ولسيدني على الدوام، أن يدع أحداً يسجل نقاطاً عليه.

كان والدي يعود من تلك النزهات بشوشاً وقد استردّ نشاطه. وفي اليوم التالي، ينغمس في العمل من جديد، وكأنه لم يكن هناك في الأمس من لعب وضجيج ومرح وموسيقى صاخبة وأنوار احتفالية.

مع اقتراب يوم انطلاق إنتاج فيلم «أنوار المدينة»، بدأ والدي يفرض رقابة صارمة على العارضين الصحيين المزمنين اللذين يعاني منهما- آلام المعدة العصبية ونزلات البرد. وكان بارعاً جدّاً في التداوي المنزلي من الأمراض التي لا تخرج عن السيطرة. وكان الألكاسلتزر أحد الأدوية المفضلة لديه في علاج حموضة المعدة وكان، ولا يزال، يتناول هذا الدواء بعد العشاء إذا أحسّ بأن نوبة حموضة في طريقها إلى مهاجمته. وفي ذلك الصيف، كان فرانك يحضر له حبّة من الدواء مع كأس من الماء كل ليلة دون أن يطلب ذلك، وكان والدي يتناول الدواء منه بورع شديد.

أما البرد، فكان والدي يداويه بالنوم تاركاً نافذة واحدة مفتوحة بصورة طفيفة، أو أنه يقوم بإغلاق كافة النوافذ إن شعر بأن الطقس أقسى مما ينبغي، فقد كان يعتبر التيارات الهوائية بالغة الخطورة حتى في أشد الأجواء دفئاً. بل إن أية نسمة هواء مفاجئة كان كفيلة بإثارة انتباهه حتى أثناء انهماكه في العمل، فيجول في أرجاء المنزل بحثاً عن ذلك النسيم المعتدي كي يجد، في نهاية المطاف،

نافذة بالكاد مفتوحة، فيقوم بإغلاقها بالرتاج. كنت أجده في بعض الأحيان غارقاً بالعرق ومتدثراً بردائه، فيشرح الأمر لي قائلاً: «لقد لبست الرداء لأنني أتصبب عرقاً ولا أرغب في أن أصاب بالبرد».

بيدَ أن اهتمامه بصحته لم يكن مرضياً على الإطلاق. فقد كان بإمكانه أن يستهلك نفسه دون رحمة أثناء العمل وأن يسهو عن تناول الطعام وعن النوم. كان مبعث خشيته الوحيد من المرض هو مقدار المال الذي يمكن أن يكلفه توقفه عن العمل كما حصل في فيلم «أنوار المدينة».

وكما حصل في فيلم «أنوار المدينة»، تردد والدي طويلاً حول مسألة ما إذا كان فيلم «الأزمنة الحديثة» سيكون فيلماً صامتاً أم فيلماً ناطقاً. كان لا يزال على رأيه أن الفيلم الصامت وحده هو ما يمثل الفن السينمائي الحقيقي، وأن القيمة الفنية تتضاءل باضطراد مع كل نقص في استخدام المخيلة. وقد أحسّ بأن السينما الناطقة معنية بالاعتبارات التجارية أكثر بكثير مما هي معنية بالاعتبارات الفنية.

في ذلك الوقت، كانت صالات السينما مليئة بالأفلام الكوميدية. كان هنالك النجوم الجدد مثل ويلر وولسي وجو إي. براون، بالإضافة إلى كوميديي السينما الصامتة الذين نجحوا في العبور إلى عصر السينما الناطقة مثل باستر كيتون ولوريل وهاردي وهارولد لويد. منح ارتقاء هارولد لويد الصاعق درجات النجاح في كوميديا الموقف، والدي قضية تشغله. كان عليه أن يسأل نفسه ما إذا كان الجمهور قد أعرض كليّاً عن سينما الكوميديا التراجيدية الإيمائية.

كما كان، من الناحية الأخرى، يشعر بقلق شديد من الانتقال إلى عالم السينما الناطقة لأنه كان لا يزال يشعر بأنه لا مكان للصعلوك الصغير في ذلك العالم، كما أنه لم يكن واثقاً من أن صوته على الشاشة سيلقى استقبالاً حسناً. وفي نهاية المطاف، دفعته ميوله المحافظة القوية، ممتزجة بتردده في القيام بما هو غير مألوف، أن يعرض عن التنافس المباشر مع لويد وغيره من كوميديي السينما الناطقة، ومنح صعلوكه الصغير فرصة أخرى عندما اتخذ القرار بجعل «الأزمنة الحديثة» فيلماً صامتاً.

اعتقد الجميع في هوليود أن والدي مجنون. ففي الوقت الذي كان فيه منتجون مثل جيسي لاسكي وديفيد سيلزنيك وسيسيل دي ميل يدرسون تبني أساليب جديدة لتحسين الأفلام الناطقة، كان والدي يتشبث، بعناد، بالسينما الصامتة التي صارت جزءاً من الماضي. وبدأ الناس يتعاملون معه بوصفه منتج هوليوودي عظيم ولّت أيامه نتيجة عجزه عن التكيف مع التقنيات الحديثة وسادت في المدينة مقولة مفادها إنه قد انتهى كرجل سينما.

حلّ فصل الخريف وعادت والدتي من الساحل الشرقي كي تفي بالتزاماتها الغنائية وعدتُ، وسيدني، بتعاسة، إلى الحياة العسكرية ذات الأفق الضيق في مدرسة بلاك فوكس. وانصياعاً لأوامر والدي، ردّت بوليت شعرها إلى لونه الطبيعي الأسمر. وفي تشرين الأول، دارت عجلة

إنتاج فيلم «الأزمنة الحديثة».

ولَّت أيام الكسل الآن، الأيام التي كان والدي يستطيع التحكم بترتيباتها بنفسه. حيث يمكن له أن يتأخر عن مواعيده الأخرى أو التزاماته الاجتماعية. أما العمل، فلم يتأخر عنه يوماً- كان يصل إلى هناك، عادة، في السابعة صباحاً- كما لم يتأخر، قط، أحد ممن يعملون معه لأن التأخر عن الاستديو يكلف مالاً ويمكن لتأخر شخص واحد عن الحضور أن يبقي الطاقم برمّته عاطلاً عن العمل.

كان كاي يقلّ والدي إلى الاستديو عادة، على الرغم من أن والدي يقود السيارة أحياناً. وكان فرانك يرافقه، في كثير من الأحيان، ويساعده في كل ما يتعلق بالأزياء ويقوم، على وجه العموم، بوظيفة عنصر ارتباط عام.

أما أنا وسيدني، فعادت زياراتنا لوالدي، مرة أخرى، كي تقتصر على عطلات نهاية الأسبوع. لم تكن نقابات العمال، في ذلك الحين، قد تبنت بعد، قاعدة العمل أربعين ساعة أسبوعيّاً ولم تكن عطلة يوم السبت موجودة في عرف والدي عندما كان يعمل، وهو الأمر الذي سمح لي ولسيدني بمرافقته إلى الاستديو.

كان المزاج الذي يسيطر على والدي طيلة اليوم مشروطاً بمعدلات الإنجاز في اليوم السابق. فإن كان الإنجاز حسناً، يصل، في اليوم التالي، إلى العمل بمزاج مبتهج ويمرّ اليوم بسلاسة، وإلّا، فإنك تجده يضغط على نفسه وعلى الطاقم برمّته بلا هوادة ويشعر الجميع بوطأة الوقت.

أتذكّر نفسي أجول مع والدي في الاستديو، وقد راودني الشعور بأهميتي بوصفي ابنه، لتفقد الاستعدادات ومراجعة خطة الإنتاج لذلك اليوم. وأخيراً كنا نذهب إلى غرفة الماكياج كي نجد أنفسنا، مرة أخرى، كما في تلك الأيام التي كنا فيها أصغر سنّاً، نعيش سعادة مراقبة والدنا يتحول إلى الصعلوك الصغير أمام ناظرينا ثم يبقى على تلك الحال حتى مغادرته الاستديو ليلاً، حيث يتخلى، حينذاك، عن شخصه البديل. أما في الاستديو، فلم يكن يغادر تلك الشخصية حتى لو أن أمراً ما أغضبه، بل يتجول بتثاقل بحذائه الكبير راسماً على وجهه تكشيرة الصعلوك الصغير ومقلداً حركاته. وقد كان من دواعي استغرابنا، أنا وسيدني، مشاهدة هذه الشخصية المتقلبة، التي تكون دائمة المرح على الشاشة، وهي تتصرف أمامنا بنفاد الصبر والفظاظة هذين.

مع انتهاء والدي من وضع الماكياج، تبعناه إلى موقع التصوير في تلك المنصة التي استمرت خمس سنوات في حالة إقفال وبطالة. هكذا وجدنا أنفسنا، مرة أخرى، في أرض العجائب الحيية

تلك. لكننا كنا، الآن، أكبر سنّاً وأكثر قدرة على إدراك ما نراه أمامنا. ولم يكن الأمر كذلك فحسب، بل إن تجهيزات الاستديو أصبحت أكثر تطوراً بكثير مما كانت عليه في زمن «أنوار المدينة». كانت تفاصيل الخلفية التنازل الوحيد الذي قدمه والدي لعالم صناعة السينما الجديد. كان الديكور يمثل الأجواء الداخلية لمصنع، لكن لم يكن يمكن لأحد، ولو بعد ألف سنة، أن يخمن ما ينتجه ذلك المصنع بالضبط. بدا المكان، مع تلك الآلات والعجلات الكبيرة وخطوط التجميع الصاخبة، أشبه بكابوس.

كم أحببت، وسيدني، مشاهد خطّ التجميع ذاك الذي كان والدي يحاول مجاراة إيقاعه، دون جدوى، ويستمر في الحركة بصورة أوتوماتيكية حتى بعد أن يكون خط الإنتاج قد توقف عن العمل لسبب أو لآخر! وكم هتفنا لحركاته المضحكة وهو يتلقى سيلاً من الصواميل والبراغي وقرون الذرة من آلة تعاني من عطل ما. وصرخنا بجذل ونحن نشاهد اللوح الموجود فوق باب الكوخ الصغير يسقط مراراً وتكراراً على رأس أبي كلّما مرّ من خلاله. أما منظر والدي، الذي كان قد قام بكل أشكال الدوران الممكنة، أثناء تنفيذ شقلبة كبيرة إلى الماء كي يقع بالقرب منه- سقط في الواقع على وسادة هوائية مخفية- فقد كان أكبر من قدرتنا على الاحتمال.

في السنوات التالية، شرح لنا والدي سرّ نجاحه في الكوميديا- أو بالأحرى سرّ نجاح معظم الأعمال الكوميدية. فقد اعتاد أن يقول لنا: «يمكنكما، إلى حدّ ما، أن تستخدما ما هو غير متوقع لانتزاع الضحك. لكن القفشة التي تنجح، بالتأكيد، هي تلك التي يعرفها الجمهور. وهذا ما يجعلني أعشق القفشات القديمة كمشهد الغطس ذاك- فقد سبق أن تمّ تقديمه مرات عديدة لا تحصى، ويعلم الجميع ما سوف يحصل في نهايته. أما الأمر الوحيد الذي يجب أن تقلقا بشأنه، فهو أسلوب أداء القفشة بحدّ ذاته». والواقع أن والدي تمتع، على الدوام، بأداء فريد. كان قادراً على أن يصنع من لاشيء مشاهد مسلية بطريقة تبدو، معها، أعتق القفشات جديدة بفضل ابتكاراته الذكية.

كانت متابعة المشاهد من الخطوط الجانبية مصدر تسلية بالنسبة إليَّ وإلى سيدني، في حين كان الأمر، بالنسبة إلى الممثلين والفنيين، عملاً حقيقيّاً. فعلى الرغم من أن والدي كان، في تلك اللحظة، الصعلوك الصغير اللطيف بحقّ، والعاجز تجاه قوى العالم، إلّا أنه كان، في الوقت نفسه، المخرج الشهير الملهم الذي كان مصير شركة الإنتاج برمّتها ملقًى على عاتقه. والواقع أنني تكلمت مع الكثير من الناس الذين كانوا يقولون لي: «آه. لقد كان الرعب يملؤني طيلة الوقت الذي كنت أعمل فيه مع والدك».

لم تكن شهرته مصدر تهيبهم الوحيد، بل نزوعه الشديد إلى الكمال الذي كان كفيلاً بجعلهم يبلغون

قمة التوتر. فوجود أحد أجزاء الديكور بعيداً عن المكان الذي يفترض أن يكون فيه بضعة سنتيمترات، أو عدم وجود أجهزة الإنارة في مكانها الصحيح، أو حتى إن أعطاه أحدهم قلم رصاص غير مبريّ، كان كفيلاً بجعله ينفجر صارخاً: «اللعنة. هل عليَّ القيام بكل شيء بنفسي؟». في لحظات كهذه، لم يكن يفوته، إلَّا لماماً، تذكير الآخرين، كما يذكر فرانك: «تذكروا أنني أدفع أجوركم كي تؤدوا عملكم بصورة حسنة».

كان يمكن لوالدي أن يتسامح مع بعض الأخطاء التي يرتكبها الفني المستجد، في حين يكون الطرد المصير للفني الذي يتجاوز عدد أخطائه الحدّ المقبول. وكان آلف ريفز يتولى مسألة الفصل من العمل، انطلاقاً من مكتبه، لأن والدي كان عاجزاً، في الاستديو، كما في المنزل، عن طرد أيّ موظف، بنفسه، مهما بلغ ضعف كفاءته. كما لم يكن والدي ليعيد توظيف شخص سبق طرده لأسباب كهذه، على الرغم من أنه كان يقدم المال لأسرة ذلك الشخص إذا تناهى إلى علمه أنها معوزة. فانعدام الكفاءة، بالنسبة إليه، جريمة لا تغتفر. وبالمقابل، يمكن لأيّ شخص تثبت كفاءته أن يضمن حصوله على عمل دائم لديه. بهذه الطريقة كان والدي يفوز بولاء موظفيه.

لكن سعة الصدر التي كان والدي يبديها حيال الممثلين الذين يعجزون عن فهم مشهد ما كان أكبر من صبره مع الفنيين، على الرغم من أن تعبيره عن سعة الصدر تلك يتمّ بذلك الأسلوب العصبي المتسم بالهياج الذي كان يصيبهم بالاستياء أكثر مما لو أنه انفجر في وجههم بشكل مباشر. كان في بعض الأحيان، من أجل الحصول على الأثر المطلوب، يؤدي المشهد بنفسه كي يُري الممثل كيف يعبر الغرفة أو كيف يجلس أو كيف يؤدي هذه الحركة أو تلك. كان والدي يبدي نفاد صبر تجاه الممثلين الذين يبدو أنهم لم ينفذوا الحركة المطلوبة بطريقة صحيحة من المرة الأولى. فكان يكرر الحركات بسرعة خاطفة ويشرح لهم ما يريده منهم بصوت منخفض وإيقاع رتيب وسريع. لكن الممثل، الذي يستشيط غضباً في تلك اللحظة، يصبح عاجزاً عن فهم المشهد أو عن محاكاة الحركات التي يقوم بها والدي، فيبدأ هذا الأخير بالصراخ: «انظر، انظر، انظر! لا، لا، لا!. حاول من جديد! حاول من جديد! حاول من جديد!» ولم يكن ينال مبتغاه، إلَّا بعد لأي.

وعندما يبدأ والدي بمراجعة المشهد برمّته كي يتحقق من أنه قد تمّ تنفيذه بصورة مطابقة لتصوراته عند كتابة النص، تهتم عينه الفاحصة بأقل التفصيلات أهمية، كوضعية يد هذا الممثل أو ميل رأس ذاك. لم يكن يبدو أن أيّ تفصيل يمكن أن يفوته. كنت أتساءل، أحياناً، وأنا أراقب والدي وهو ينفذ أفلامه، إن كان يعتبر الممثل مخلوقاً من لحم ودم. كان، في بعض الأحيان، يساورني إحساس بأنه يتعامل مع الممثلين بوصفهم مجموعة من الدمى أو التماثيل يعمل على ترتيبها للوصول إلى

المشهد التصويري الموجود في رأسه. وأظن أن هذا الأسلوب في العمل هو ما يعطي أفلامه مسحة تطغى عليها الفانتازيا الرمزية.

يفقد والدي إحساسه بالوقت عند استغراقه في العمل، فتأتي ساعة الغداء ثم تمضي دون أن يعلن عن فترة استراحة، ولا سيما أن أحداً لم يكن يملك ما يكفي من الجرأة لمقاطعته وتذكيره أن الساعة قد دقّت الثانية عشرة ظهراً. فكان العمل يمضي قدماً حتى الثانية من بعد الظهر، أحياناً، قبل أن ينتبه إلى الأمر ويغادر الاستديو لمدة ساعة حيث كنت، وسيدني، نشاركه تناول طعام الغداء في حجرة تبديل الملابس.

كان يسألنا بلهجة راضية: «ما رأيكما في العمل الذي أنجزناه هذا الصباح؟» على الرغم من أنه يعرف رأينا بالفعل لأنه كان يتمتع بموهبة التقاط ردود فعلنا بسرعة أثناء انهماكه في العمل. لقد أصبحت الآن أكثر إدراكاً مما كنت عليه عندما كنت أصغر سنّاً أن والدي كان يراقب ما يدور حوله باستمرار لمعرفة كيفية استقبال عمله الكوميدي في أوساط العاملين المنتشرين حول موقع التصوير- من مسؤولين عن التجهيزات إلى مصورين ومسؤولي إضاءة ومشرفين على العمال ونجارين. اعتاد والدي القول إنه تعلم، منذ البداية، أن لا يسعى، في التمثيل، لإرضاء أحد سوى نفسه لأنه اكتشف أنه عندما يبذل جهده كي يكون مسلياً لمجرد إرضاء الآخرين، فإن العمل الذي ينفذه يصبح منذوراً للإخفاق. لكنني لاحظت أنه يحتاج إلى ضحكات المحيطين به من أجل إرضاء غروره وجعله يستمر في العمل، على الرغم من قناعته أن إرضاء ذاته هو الوسيلة الوحيدة المضمونة لصنع عمل كوميدي ناجح.

يعود والدي إلى العمل، من جديد، بعد الغداء، ويقود أعمال الإنتاج طيلة فترة بعد الظهر وحتى ساعات متأخرة من المساء مبدياً علامات التيقظ نفسها لأصغر التفاصيل كما كان الأمر عليه في الصباح. وفي ساعات المساء المتأخرة، عندما يوشك أعضاء فريق العمل على السقوط من فرط الإعياء، تصبح علامات الحيوية والنشاط على محيا أبي أقوى من أيّ وقت مضى. وكنت تستطيع سماع الآخرين يهمسون: «لا إلهي، ذلك الشابلن، إنه لا يتعب».

وحدي وسيدني كنا نعرف حقيقة الأمر، لأننا كنا نراه عند عودته من العمل. فعند حلول موعد انصرافنا من المدرسة أيام الجمعة بعد الظهر، كنا نذهب إلى المنزل في أعلى التل فنجده فارغاً. كان المنزل يبدو، في غياب أبي، فارغاً، حتى ولو كان الخدم موجودين. فقد كان وحده، على ما يبدو، القادر على بثّ الحياة فيه. كان الأمر يبدو وكأن المنزل نفسه يشعر بأنه، مثلي ومثل سيدني والخدم، جزء منه- امتداد له في المكان. وأخيراً تتخذ سيارة الليموزين التي يقودها كاي مكانها في

الطريق الدائري، فأسارع، وسيدني، إلى الخارج للترحيب به. تتوقف السيارة أمام الباب يخرج كاي منها ويدور حولها كي يفتح بابها الخلفي. في تلك اللحظة، كنا نشاهد صديقنا الصغير في الداخل بكامل ماكياجه وعلى وجهه ذلك الشارب المضحك، وقد أسند إلى المقعد وهو شبه نائم. يناديه كاي برفق: «سيد شابيلين، لقد وصلنا». فينهض الصديق الصغير، الذي لا يزال، لشدة الإرهاق، يرتدي السروال المترهل، لكن دون المعطف الضيق والحذاء الواسع والقبعة الصغيرة، ويدلف من الباب قائلاً: «مرحباً أيها الصبيين. آه، يا له من يوم! لقد كان يوماً طويلاً!». يساعده كاي على الخروج فنقول بحماسة: «دعنا نساعدك نحن أيضاً يا أبي». يتأبط كاي إحدى ذراعيه وآخذ، مع سيدني، ذراعه الأخرى لمساعدته على صعود الدرجات. يسير ببطء باتجاه المنزل ونظراته وحركاته تشي بأكثر الناس الذين عرفناهم إرهاقاً. وفي الداخل، نرافقه في صعود الدرجات الدائرية ونتجه معه إلى غرفة النوم الرئيسة. وهناك، يرتمي والدي على السرير، فنجلس بجواره ونتجاذب أطراف الحديث معه ريثما يصل فرانك كي يساعده على تبديل ملابسه. أسأله لدى ظهور فرانك: «أبي، هل نستطيع البقاء هنا؟»، وقد بلغ النعاس منه مبلغاً يبدو معه أن اقتراحي سيثير غضبه. لكن يبدو أن رفقتنا كانت أمراً مرحباً به بالنسبة إليه.

يتمدد على السرير بينما ينزع عنه فرانك حذاءه وجوربيه وسرواله المترهل، فيبقى بملابسه الداخلية. بيدَ أن مرآنا كان أمراً أكبر من أن يستطيع مقاومته. فما إن يحصل على شيء من الراحة، حتى ينهض باتجاه المرآة ويبدأ برسم بعض الوجوه على محياه، لنفسه أولاً ثم لي ولسيدني، ثم يبدأ بنزع شاربه بالتدريج كما كان يصنع عندما كنت صغيراً ويصطنع تكشيرات مخيفة ثم يقول وهو ينزع جزءاً من الشارب بعنف: «هذه هي بعض أفخاخ مهنة التمثيل. تسعة وتسعون بالمئة منها عرق- ينتزع جزءاً آخر من الشارب- وواحد بالمئة موهبة،... آه»، ثم يضيف بعد توقف قصير وهو ينظر إلينا: «والواحد بالمئة ذلك يجب أن يكون جيداً». ثم يهتف برعشة ختامية: «ها أنا ذا! هل أبدو، من جديد، كوالدكما؟» ويمسح شفته العليا بالكحول ويكشر نحونا من جديد.

ثم يضع والدي رداء النوم عليه ويتجه إلى الحمام وغرفة البخار. أما غرفة البخار التي تمتد ثلاثة أمتار طولاً ومتراً ونصفاً عرضاً، فمكسوة من أحد جانبيها بألواح من المرمر. وعندما يدير والدي أحد الصنابير، يتدفق البخار من إحدى الفتحات، فينزع رداءه ويجلس هناك عارياً تماماً ما يقارب ثلاثة أرباع الساعة على الرغم من الحرارة المرتفعة التي تكاد لا تطاق.

وعلى الرغم من أن والدي كان، دون أدنى شك، يمارس على نفسه ضغوطاً جسدية كبيرة في

العمل، إلّا أنني أثق أن الجزء الأعظم من إرهاقه مصدره التوتر العاطفي، وهو أمر كان يظهر بوضوح عندما يكون الاستديو في حالة ارتباك.

كان والدي يبوح لي ولسيدني بما يعتمل في صدره فيقول أحياناً: «تعلمان أنه يصعب على المرء أن يكون مسلياً عندما يكون ذلك مفروضاً عليه دون أن يكون راغباً في ذلك»، وكنا وسيدني نشعر بالإشفاق عليه. لقد كان أعظم الكوميديين على الإطلاق. فماذا يستطيع صبيان في الثامنة والتاسعة من العمر فعله للترويح عنه عندما يشعر بأن ملكات الإضحاك قد تخلّت عنه؟ ثم يستمر في القول: «لم أنجح في عملي اليوم. لم أستطع أن أضحك أحداً. لقد كان يوماً سيئاً، سيئاً للغاية».

كان الإحباط يسيطر على والدي، في بعض الأيام، حتى قبل أن يغادر المنزل فيقول: «يا للهول، يبدو أنني لا أريد الذهاب إلى الاستديو»، لكنه يتحامل على نفسه كي يمضي يوم عمل كئيباً. بيدَ أنه يحدث، في بعض الأحيان، عند بداية يوم التصوير، أن يثير مشهد ما لم يكن ينبئ بالمرح أصلاً، موجة من التصفيق غير المنتظر، فيتبدل مزاج والدي فجأة بصورة جذرية ويسترد اهتمامه بما بين يديه ويستمر في العمل حتى ساعة متأخرة. لكن الإحباط يلازمه، أحياناً أخرى، فيوقف التصوير في الحادية عشرة صباحاً ويصرف الفنيين ويمنح نفسه استراحة لبقية اليوم كي يعود إلى الاستديو في صبيحة اليوم التالي، على الرغم من أن أيام التوقف هذه كانت نادرة. أما إن كانت حالته المزاجية حسنة، فإن العمل يستمر حتى الحادية عشرة ليلاً ويقود العاملين لديه بأسلوبه المعهود الذي لا هوادة فيه. وعلى الرغم من أن والدي كان يستغرق، في إنجاز أفلامه، مدة أطول مما تستغرقه معظم الأفلام الأخرى، إلّا أنه كان يعمل وفق برنامج زمني أكثر صرامة مما هو عليه في شركات الإنتاج الأخرى، بيدَ أنه كان يكثر من التكرار، مدفوعاً بنزعة الكمال لديه- وهو أمر ينطبق، على وجه الخصوص، على فيلم «الأزمنة الحديثة».

كان طلوع شمس كل يوم جديد يحمل معه تذكيراً له أن مستقبله المهني على المحك. وكان الفيلم الصامت الذي يعمل على إنجازه موضوعاً للشائعات في المدينة. وكان أصدقاؤه وزملاؤه من المنتجين يهزّون رؤوسهم تشكيكاً وكانت التكهنات تملأ أعمدة الصحف. ولا بُدَّ أنه كان يلوم نفسه، بين الفينة والأخرى، على ميوله المحافظة.

في خريف عام 1934، كان والدي في قمة الانهماك في إنتاج فيلم «الأزمنة الحديثة» عندما صدمته تهديدات جديدة باختطافنا. فقد زعم أحد العاملين في الاستديو أنه استمع إلى حوار بدا وكأنه يتناول خطة ما موضوعة لاختطافنا بصورة تدعو إلى الريبة. كان يمكن لوالدي أن يتجاهل هذا التهديد واعتباره لغواً لو أنه لم يتلقَّ، بعد بضعة أيام من ذلك، رسالة تهديد مغفلة جعلته يتصرف بحسمه المعهود. فقد استأجر حراساً شخصيين لنا- أو هذا على الأقل ما قاله في البيان الذي وزعه على الصحافة لأنني لا أتذكّر رؤية أيّ من حماتنا الشجعان. كما أعلن أنه حوّل الاستديو والمنزل الواقع في أعلى التل إلى قلعتين يحميهما رجال مدربون على مواجهة كافة الاحتمالات.

أعلم أن والدي كان في تلك الفترة قلقاً بحقّ. بل إن أنباء الخطف التي كان يقرؤها في الصحف استمرت في إثارة قلقه حتى بعد مضي فترة طويلة على ذلك الحادث. وعندما كان طيشنا يجعلنا نتأخر في العودة إلى المنزل عن الموعد المحدد بعد زيارة بعض الأصدقاء، كنا نجده ينتظرنا وهو يعيش حالة من التوتر الشديد، فيسألنا بقسوة: «أين كنتما؟ لقد خشيت أن تكونا قد خطفتما. ألا تعلمان أنكما تجعلان والدكما يقلق عليكما حتى الموت؟ لقد جعلتماه يزداد شيباً»، ممرراً أصابعه بعصبية على شعره الجميل- شعره الذي كان الشيب قد بدأ يغزوه، بالفعل، في سنّ مبكرة.

كان والدي، في الفترة الفاصلة بين عيد الشكر وعيد الميلاد، منهمكاً تماماً في الإنتاج الذي تضمن، من بين أمور أخرى كثيرة، رحلة عمل سريعة إلى نيويورك. لكن بوليت كانت معنا لحسن الحظ. فقد نجحت في تخصيص بعض الوقت لنا حيث كانت تصطحبنا إلى مباريات كرة القدم وإلى حديقة الحيوانات كما رافقتنا، مرات عديدة، إلى الغداء في مطعم براون ديربي. وكانت بوليت هي من تولى، عن والدنا، مهمة التخطيط لموسم عيد الميلاد في ذلك العام، بما في ذلك شراء الهدايا. أما مساهمتها في إحياء العيد، فكانت مفرحة بقدر كونها غير عملية. فقد قدمت لنا دراجة صغيرة تعمل على البنزين. أنا واثق أنها اشترتها، في ذلك الوقت، دون أن يدور في خلدها أن منزلنا يقع على قمة تل شديد الانحدار وأن السيارات تمرّ بسرعة على الطريق الدائري المجاور الذي يتصل، بشكل مباشر، بالطريق الخاص المفضي إلى المنزل. كانت الدراجة مصدر تسلية كبيرة لي ولسيدني منذ البداية. بل إنها كانت مصدر متعة وفضول لكل من عاش في البيت حتى إن فرانك ووالدي اختبراها. فقد قادها والدي، في إحدى المرات، في جولة رصينة ولم أستطع، وسيدني، منع أنفسنا من الضحك من أسلوبه الحذر في قيادتها.

أما نحن، فكان الأمر، بالنسبة إلينا، مختلفاً. فقد كنا نطير بها إلى أسفل التل ونندفع إلى الطريق العام غافلين عن السيارات العابرة. وكنا، في بعض الأحيان، نصطدم بالحاجز المنصف للطريق فنطير من الدراجة ونسقط في وسط الشارع. وقد عدت، ذات يوم، إلى المنزل وعلى جبهتي كدمة بحجم بيضة الإوز، فنظر إليّ والدي برعب وأخذت مخيلته، كالعادة، تصور له مشاهد مجزرة كان جسدي وجسد سيدني الداميين موضوعاً لها. رجانا أن نكون أكثر حذراً، لكنه لم يهدد، يوماً، بحرماننا من قيادة الدراجة. لقد كان والدي يتمتع بمجموعة متميزة من القناعات سببت له، مع ترافقها بالعناد، الكثير من المشاكل في حياته. لقد كانت الدراجة ملكنا ولا أظن أنه فكر مجرد تفكير في أنه يملك الحق، كوالد، في أخذها منا.

وكان هنالك أناس آخرون معنيين بقضية الدراجة، وإن بطريقة أخرى. إنهم جيراننا، أسرة ديفيد سليزنيك، الذين تعني لهم ساعات النوم في الصباح الباكر الكثير. فقد كانوا يشتكون، دون طائل، من ضجيج الدراجة، كما اشتكوا، فيما بعد، عندما قام بيغ بيل تيلدن بإعطاء والدي دروس تنس في ملعبه كانت تبدأ في السابعة صباحاً. وأظن أن بوليت، بعد زواجها بوالدي، وجدت في إزعاج آل سليزنيك من خلال تشجيعنا على قيادة الدراجة صباحاً بأسلوبنا الشيطاني مصدر تسلية لها.

كان عيد الميلاد في تلك السنة مميزاً. فقد قطعت والدتي التزاماتها المهنية في الشرق وطارت من نيويورك لقضاء فترة الأعياد معنا وأقامت في جناح في فندق الإمباسادور في لوس أنجلوس حيث نظمت لي ولسيدني ولمجموعة من أصدقائنا حفلة في ليلة الميلاد لا أتذكّر الكثير منها. لكنني أتذكّر، بوضوح أكبر، اليوم التالي لأنه كان من المناسبات النادرة التي اجتمع فيها والداي سوية. فقد جاء والدي لزيارتنا بناء على دعوة وجهتها له والدتي. قرع الباب، فجأة، ودخل ومدّ لها يده قائلاً وكأنهما لم يفترقا إلّا في الأمس: «مرحباً. كيف حالك؟ تبدين في حال جيدة». فأجابته: «وأنت كذلك يا تشارلي». ركضت، وسيدني، وقبلناه وعدنا إلى اللعب. لكن والدي لم يبقَ طويلاً. إذ سرعان ما هبَّ من مكانه فجأة وقال بخجل: «لا أظن أني يجب أن أبقى لفترة أطول لأن بوليت تنتظرني في السيارة وقد تستاء إن تركتها تنتظر طويلاً». فقالت والدتي: «ولمَ لا تدعوها للصعود؟» فاتصل والدي بموظف الاستقبال وسأله أن يدعو بوليت.

وصلت بوليت والتقت بوالدتي في ذلك الفندق للمرة الأولى والأخيرة. وقد أسرتها شخصية بوليت كما كانت قد أسرت والدي وسيدني وأسرتني من قبل. فقد علّقت والدتي على ذلك اليوم بالقول: «كانت لطيفة للغاية. فتاة رائعة، رائعة بحقّ، وتتمتع بروح مرح قوية. لن أنسى جمالها ما حييت بذلك الثوب المخملي الأسود وشعرها الداكن المنسدل على كتفيها». وعلى الرغم من أن بوليت لم

تلتقِ بوالدتي بعد ذلك، إلّا أنها داومت، مع مرور السنين، على الاتصال بها وإرسال الملاحظات اللطيفة الصغيرة كي تظهر لها أنها تتذكرها. بل إن بوليت أرسلت لوالدتي، عندما أصيبت بالانهيار العصبي، للمرة الأولى، وأسعفت إلى المستشفى، زجاجة من النبيذ في سلة من القش مع ملاحظة تقول: «أبلي من مرضك سريعاً يا ليتا ولك منا أفضل الأمنيات». هل كانت بوليت تحاول، بهذه الطريقة، شكر والدتي على إقراضها ابنيها؟ لا أدري. لكن والدتي كانت كثيراً ما تقول لأصدقائها إنها «سعيدة لأن تشارلي تزوج بوليت لأنها اعتنت كثيراً بابني. لقد كانت لطيفة معهما. وقد خصصت الكثير من الوقت كي تمضيه معهما».

نعم، لقد منحتنا بوليت الكثير من وقتها. ففي شهر كانون الثاني ذاك، وكانت والدتي قد عادت إلى الساحل الشرقي للإيفاء بالتزاماتها هناك، أخذتنا بوليت إلى الجبال في رحلة نهاية أسبوع طويلة أمضيناها في بحيرة أروهيد. يا لها من عطلة جميلة أمضيناها في تلك المنطقة الوادعة التي تكسوها الثلوج والتي تختلف، بصورة جذرية، عن الأراضي المنخفضة الدافئة. بدت بوليت هناك كشقيقة كبرى فلعبنا معاً وتزلجنا وكنا نمضي، ثلاثتنا، إلى النوم في المساء بعد أن يكون التعب قد نال منا.

لكننا لم نستسغ وداع بوليت عند حلول الظلام، عندما يصبح الجوّ بارداً ويوحي بالوحدة وصوت الريح يبعث على الترقب ويزيد ظلمة الليل وحشة. هكذا ذهبنا إلى غرفتها، مرتجفين، ورجوناها قائلين: «اسمحي لنا بالبقاء معك». فأجابتنا بوليت وهي تضحك: حسناً. لعشر دقائق فحسب». فقفزنا إلى سريرها وتمددنا بجوارها بطمأنينة وذراعاها تطوقاننا ونحن نصغي إلى حكاياتها. وسرعان ما غططنا في النوم قبل أن نسمع صوتها من بعيد وهي تقول: «حسناً، رافقاني إلى سريركما». ثم هزتنا برقة وأخذتنا إلى السرير.

لم نمضِ قط عطلة شتاء على هذا القدر من الجمال. لكن كان علينا أن نعود إلى الديار من جديد من أجل القيام بأعمالنا الاعتيادية- العودة إلى المدرسة، بالنسبة إليَّ وإلى سيدني، وعودة بوليت إلى العمل وإلى ثرثرات الصحافة التي كانت تتكهن حول مغزى قيام الصديقة المفضلة لرجل ما باصطحاب أبنائه في عطلة خارج المدينة. والواقع أن بوليت أحبّت هذه الضجة.

عشت في تلك السنة، وقد أصبحت على أبواب العاشرة من عمري، واحدة من أكبر خيبات الأمل التي عرفتها في طفولتي. إذ شهدت تلك السنة قيامي، للمرة الأولى، بتقليد والدي في العلن. لقد اعتدت، وسيدني، أن نقلد في المنزل شخصيات سينمائية مثل لويد وغاييل وغاربو، بل حتى والدنا. وكان والدي يسرّ بأدائنا ويشجعنا في بعض المناسبات على عرض ما لدينا أمام ضيوفه. لكن

الوضع هنا كان مختلفاً لأن العرض كان سيقدم على خشبة مسرح أمام جمهور حقيقي في صالة إيبل في لوس أنجلوس.

كنت، وسيدني، في تلك الفترة، نرتاد مدرسة للرقص. وقد أعدّ الأطفال عرضاً مسرحيّاً يبعث الحياة في مجموعة من الدمى تمثل شخصيات قصصية مختلفة، وكان دوري أداء شخصية الصعلوك الصغير. أثنى جميع الحضور على أدائي، لكني كنت أتوق إلى سماع ذلك الإطراء من شخص واحد فحسب- الصعلوك الصغير نفسه. أتساءل إن كان أحد من الممثلين أو الحضور قد لاحظ كيف كنت أجول بناظري على ذلك البحر المظلم من الوجوه الحاضرة في مواجهة الخشبة بحثاً عن وجه واحد مألوف، أو كيف كنت أشد أذني محاولاً التقاط تلك الضحكة المجلجلة. لكن أيّاً من ذلك لم يحصل.

علمت فيما بعد أن والدي، الذي كان قد خطط، بالفعل، لحضور العرض، قد انشغل بعمل طارئ. سرّه ما سمعه عن العرض الذي قدمته وعن الاستحسان الذي لقيه، لكن الأمر لم يكن كما لو أنه كان حاضراً هناك بنفسه كي يرى العرض. وقد عجزت عن تجاوز تلك الخيبة على الرغم من إدراكي للحالة التي يكون والدي عليها عندما يعمل.

في تلك الفترة، كان يصل الليل بالنهار في الاستديو الذي نقل إليه مقرّ إقامته برفقة طباخه جورج. وأخيراً، وفي ختام عشرة أشهر من العمل المجهد، اكتمل فيلم «الأزمنة الحديثة» وخرج والدي من سطوته كي يجد نفسه محاطاً بعلاقات شخصية مقطوعة، أو مضطربة على أقل تقدير.

كانت بوليت أشد المتأثرين. إذ كانت قد أسلمت نفسها كليّاً لقياد والدي التواق إلى الكمال، فكانت فتاة «الأزمنة الحديثة» رائعة بحق. لكن بوليت، المرأة الحقيقية، تعرضت، في تلك الفترة، للتجاهل التامّ. ولا بُدَّ أنها شعرت، بعد خروجها من المحنة الرهيبة التي عاشتها، برغبة ملحة في الهروب من معلمها القاسي والحصول لنفسها على شيء من المرح. أو هذا، على الأقل، كان رأي الصحافة التي تحدثت عن أنها شوهدت في المدينة برفقة رجال آخرين، الأمر الذي أفضى إلى الحديث عن الانفصال. لكن أيّ نوع من الانفصال؟ فقد كان الصحفيون، حتى اللحظة التي بدا فيها أن كل ما كان يربطهما قد انتهى، لا يزالون يتكهنون حول ما إذا كان الأمر يتعلق بالطلاق أو بفسخ خطوبة أو ربما بمجرد نهاية علاقة عاطفية.

ولحسن الحظ، لم تتناهَ إلى أسماعنا، سيدني وأنا، أيّ من تلك الشائعات. فقد أصبحت بوليت، في ذلك الوقت، تعني لنا الكثير. وفي إحدى عطلات نهاية الأسبوع، وفيما كانت الصحف تكتب عن

ابتعادها عن أبي، أخذتنا بوليت معها إلى بالم سبرينغ. ولدى عودتها، بدأت تظهر مع والدي في كل مكان.

كانت بوليت هي الشخص الذي اختاره والدي للاجتماع ب هـ. ج. ويلز، لدى وصوله، في التاسع والعشرين من تشرين الثاني، إلى مطار غليندايل. فقد كان ويلز قد استضاف أبي في إنكلترا وجاء الدور عليه كي يحلّ ضيفاً عليه. أمضى ويلز أسبوعين أو ثلاثة في منزل والدي. أتذكّره رجلاً ذا شاربين متهدلين وأسلوب بريطاني خالص في الكلام والسلوك. والواقع أننا لم نشعر تجاهه، في سنّنا الصغير، بالإعجاب وكان، بالنسبة إلينا، مجرد كاتب آخر من أصدقاء والدي ومصدر إزعاج غير منتظر لأنه احتل غرفتنا طيلة فترة إقامته لدى والدي حارماً إيانا من قضاء أية ليلة في المنزل أثناء وجوده فيه.

على الرغم من أن أعمال التصوير كانت قد اكتملت بالفعل، إلَّا أن والدي لم يكن قد أنجز الموسيقى التصويرية بعد. كانت الموسيقى، بالإضافة إلى بضع كلمات تخرج من مضخم صوت وأغنية ختامية لا معنى لها يؤديها والدي بصوته، هي التنازل الوحيد الذي رضي بتقديمه لعالم السينما الناطقة. وقد أخبرني فيما بعد أن الهدف الرئيس من تلك الأغنية الخرقاء كان اختبار صوته في السينما.

لم يكن لدى والدي قسم مختص بالموسيقى، فكان عليه اللجوء إلى شركة اليونايتد أرتيستس للاستفادة من موسيقيي الشركة وغرف التسجيل فيها. وفي حين كان العاملون في شركته يعانون من أسلوب عمله الذي ينزع إلى الكمال، إلَّا أنه ينبغي القول إن الموسيقيين الذين بدؤوا العمل معه عاشوا عذاباً حقيقيّاً.

لا يتقن والدي قراءة النوتة الموسيقية لكنه كان يعلم تمام العلم ما يريده، ويلحّ على الحصول عليه بتمامه، ولا يستسلم حتى يبدو اللحن صحيحاً بالنسبة إليه. وقد استعان والدي بمجموعة من أهم الموسيقيين في عالم السينما. فقد أسندت إلى ألفرد نيومان، الحائز على عدد من جوائز الأوسكار والذي كانت تربطه، في ذلك الوقت، علاقة تعاقدية مع سام غولدوين، مهمة إعداد الموسيقى التصويرية وقيادة الفرقة الموسيقية. كما استأجر والدي خدمات المؤلف الموسيقي الشاب الموهوب ديفيد راكسين، الذي سيسجل اسمه، فيما بعد، في تاريخ الموسيقى مع مقطوعة لورا، وإدوارد باول لكتابة الموسيقى التي يضعها والدي وتوزيعها.

وقد استهلكهم والدي جميعهم. فقد بلغ تركيز إدوارد باول على كتابة الموسيقى حدّاً كاد يفقد معه

بصره وكان عليه الاستعانة بطبيب عيون من أجل إنقاذه. أما ديفيد راكسين، الذي كان يعمل بمعدل عشرين ساعة في اليوم، فقد خسر اثني عشر كيلوغراماً من وزنه وكان يصل إلى درجة من الإنهاك يعجز معها عن استجماع قواه للذهاب إلى المنزل، فكان ينام على أرض الاستديو. وقد حدث، ذات مرة، أن رآه نيومان يسير في طريق الاستديو ودموعه تسيل على خديه. لكن ديفيد كان لا يزال يحتفظ في جعبته بما يكفي من الصلابة كي يمازح والدي بين الفينة والأخرى من باب تخفيف الضغوط عنه.

كان في حوزة والدي آلة تسجيل شبيهة بالديكتافون كان يسجل عليها الألحان التي يدندنها الأمر الذي يسمح له بالعمل ساعات أطول والاحتفاظ بأفكاره إلى اللحظة التي يلتقي فيها براكسين. وفي أحد الأيام، سجل ديفيد نتفاً من الكونشيرتو الثالث لبروكوفييف والسمفونية الأولى لشوستاكوفيتش كي يستمع إليها والدي عند تشغيله آلة التسجيل. لكن ما لم يتوقعه ديفيد هو أن والدي كان، في ذلك اليوم، ينظم جولة في الاستديو لعدد من الضيوف المميزين كان منهم ألكسندر ولكوت وهـ. ج. ويلز وكينغ فيدور. فوقف والدي بالقرب من آلة التسجيل وشغلها وهو يقول باعتزاز: «هكذا أؤلف موسيقاي» قبل أن يقفز إلى الخلف عندما صدحت موسيقى شوستاكوفيتش، ثم نظر إلى ديفيد راكسين طويلاً وهزّ إصبعه نحوه. وكانت تلك إشارة الإعجاب الوحيد بالقفشة.

لكن آل نيومان كان هو الشخص الذي انهار، في نهاية الأمر، تحت وطأة الضغوط. فقد كانت دقائق الموسيقى التي تعادل ستين متراً من شرائط التسجيل وأسابيع من العمل المتصل كافية لجعل أعصابه تبدو كما لو أنه خضع لجلسات تعذيب بالماء على الطريقة الصينية. فقد انفجر الرجل، ذات يوم، على حين غرة، وبدأ ينعت والدي بكل ما جادت به قريحته من صفات بعد أن قذف عصاه على طول خشبة المسرح بكل ما أوتي من قوة كنوع من التأكيد على ما كان يقوله، ثم غادر إلى جناحه الموجود في الجهة المقابلة لاستديو التسجيل وأفرغ نصف زجاجة من الويسكي في جوفه لتهدئة روعه واتصل بغولدوين ليخبره أنه ما عاد قادراً على التحمل. وقد رفض العودة إلى العمل بالفعل على الرغم من الضغوط التي مورست عليه وكان على والدي وغولدوين الاستعانة بخدمات رجل آخر للحلول محل نيومان.

لكن الرجلين نجحا، في نهاية المطاف، في تخطي كافة العوائق واكتمل تسجيل موسيقى فيلم «الأزمنة الحديثة». ثم دخل والدي المرحلة الختامية في إنتاج الفيلم، وهي المرحلة الأصعب على الإطلاق بإجماع كافة المنتجين. إنها فترة الغموض الفاصلة بين إنتاج الفيلم وتقديمه للجمهور. وهي مرحلة القلق نفسه الذي يساور الممثل المسرحي في ليلة العرض الافتتاحي، وإن جزئيّاً، لأن

الممثل يظلّ محتفظاً بفرصته، حتى لحظة إسدال الستارة، في تعديل أدائه بما يكفل إرضاء الجمهور الصعب المراس، في حين إن السينما منتج معلب لا يمكن فيه تعديل أيّ مشهد أو تحسينه بناء على ردود فعل الحاضرين. فمصيرك معلق بالعمل الذي تمَّ إنجازه في الشهور السابقة للعرض وعملك برمّته يقع تحت رحمة جمهور ليس لديك أيّ اتصال مادي معه.

روى لي والدي، يوماً، قصة تلك الأمسية التي سامه جمهور الحاضرين فيها العذاب. شهدت تلك الأمسية عرضاً سريعاً لأحد أكثر أفلامه شعبية، «حمى الذهب»، أو «أنوار المدينة»، في صالة بيلاسكو القديمة الواقعة في القسم المكسيكي من مدينة لوس أنجلوس. أجهل سرّ اختيار بيلاسكو مكاناً للاختبار إلَّا إذا كان القائمون على العرض قد افترضوا أن جمهور ذلك الحيّ مكون من أناس متوسطين يقدمون عينة معبرة يمكن من خلالها قياس ردّ فعل الجمهور. وزعت على الحاضرين، في بداية العرض، بطاقات بريدية وطلب من كل منهم أن يكتب عليها رأيه في الفيلم المعروض. لكن والدي لم يطق انتظار البطاقات، فقرر الذهاب متخفياً إلى الصالة لالتقاط ردود الأفعال بنفسه.

«جلست في أحد المقاعد خلف ثلاثة مكسيكيين ضخام الجثة كانوا جالسين وأذرعهم معقودة. دار في خلدي أنهم يحاولون الاسترخاء بعض الشيء مع بداية العرض، لكنهم، في الواقع، ظلّوا جالسين في مقاعدهم كأنهم صخور. اجتاحني شعور بالذعر وبدأت أنظر إلى الناس حولي. كانوا، جميعاً، جالسين دون أن تبدر عنهم أية حركة. بدأت معدتي بالاضطراب فكان عليَّ الذهاب إلى الحمام كي أفرغ كل ما فيها.

«وهناك أخذت أقول لنفسي إن ذلك لا يمكن أن يكون حقيقيّاً. ثم عدت إلى مكاني وكان الصمت المهيمن على الصالة أشبه بصمت القبور. وجدت المكسيكيين الثلاثة كما تركتهم: جالسين في أماكنهم دون حراك وأذرعهم معقودة. لقد أذهلوني بالفعل. لماذا لم تصدر عنهم أدنى حركة حتى الآن؟ سارعت إلى الحمام من جديد. لا بُدَّ أنني قمت بذلك أربع مرات أو خمساً، أثناء عرض الفيلم، لإفراغ ما في جوفي. وكنت، في كل مرة أعود إلى الصالة والأمل يحدوني أن أجد المكسيكيين الثلاثة يضحكون والجمهور في حالة من الهرج والمرج. لكن ذلك لم يحصل. بل إني لم أسمع، على مدى دقائق الفيلم، أية ضحكة مجلجلة، بل مجرد ضحكات مكتومة تنطلق بين الفينة والأخرى.

وكي تكتمل المأساة، هبَّ المكسيكيون الثلاثة واقفين، بعد انقضاء ثلاثة أرباع الفيلم، وتمطوا وتثاءبوا ومضوا في حال سبيلهم. فتبعتهم على الفور بعد أن فقدت قدرتي على التحمل ومضيت إلى المنزل وأعصابي منهارة. وكان كل ما استطعت القيام به هو التضرع إلى الله عسى أن يكون

بعض الأشخاص على الأقل قد استساغوا الفيلم. لأنني، في نهاية المطاف، أنفقت على إنتاجه ما يربو على المليون دولار. كان عليَّ أن أصلّي».

وعند وصول البطاقات البريدية، أذهل الاستحسان الذي أعرب عنه معظم الحاضرين والدي. وكان تفسيره الوحيد للأمر أن المكسيكيين، كشعب، لا يعبرون عن سرورهم بالضحكات الهادرة، بل بالضحك المكتوم.

انتاب القلق نفسه والدي في فيلم «الأزمنة الحديثة». بل إني أظن أنه داوم بصورة يومية على مياه الألكاسلتزر الغازية المقاومة لحموضة المعدة حتى الليلة التي عرض فيها الفيلم. لم يقابل النقاد الفيلم الجديد بالحماسة نفسها التي أبدوها تجاه الأفلام السابقة، لكن بدا أن الجمهور أحبّ الفيلم. إذ جمع الفيلم في الولايات المتحدة نفسها حوالي مليوني دولار، وهي حصيلة تعتبر ممتازة إن أخذنا بعين الاعتبار الركود الاقتصادي الذي كانت تعيشه البلاد. كما كان ذلك برهاناً ساطعاً على أن الصديق الصغير كان قادراً على الصمود حتى في عالم السينما الناطقة. أما النقاد الذين توقعوا للفيلم سقوطاً مريعاً، فقد بدؤوا يخمنون أسباب نجاحه وأخذ المنتجون والمخرجون يدرسون تقنياته علّهم يجدون فيها ما يساعدهم على تحسين أفلامهم ولم يعد ينظر إلى والدي على أنه من سينمائيي الماضي. لقد كان لا يزال ملك الكوميديا.

أما والدي، فقد رمى كل ما يتعلق بفيلم «الأزمنة الحديثة» خلف ظهره ولم يعد راغباً في مناقشته أو حتى في مجرد التفكير فيه، بل بدأ يعمل التفكير في شيء جديد ومثير يشغل به نفسه. هكذا قرر القيام برحلة إلى الشرق الذي كان قد أبهره بحقّ عند زيارته الأخيرة له في سياق رحلته حول العالم. لكنه لم يخطط، هذه المرة، للقيام بالرحلة وحده، إذ كان على بوليت ووالدتها السيدة غودارد أن ترافقاه فيها. لم يكن والدي بخيلاً في المناسبات التي تتطلب التعبير عن الاستحسان، فقدم لبوليت جوهرة نفيسة إعراباً منه عن تقديره للعمل الرائع الذي قامت به في الفيلم، على الرغم من أن الرحلة، بحدّ ذاتها، كانت جائزة إضافية جعلت بوليت تشعر بالإثارة كالأطفال.

ودعتهم، وسيدني، ذات يوم من شهر شباط وأبحروا برفقة الرجل الوفي فرانك على متن السفينة «الرئيس كوليدج» في طريقهم إلى هونولولو. كم كان كبيراً الحسد الذي ساورنا ونحن نفكر في الأماكن الغريبة التي سوف يرونها! كما أننا شعرنا بشيء من الفراغ لأنهم تركونا لمدرستنا الشبيهة بالثكنة العسكرية. لكن من يرغب في اصطحاب الأطفال معه في رحلة سوف يتبين فيما بعد أنها كانت رحلة شهر عسل؟ أو هذا على الأقل ما تنبأت به كافة الصحف. وكالعادة، لم ينفِ والدي وبوليت الشائعات كما لم يؤكداها.

-17-

دامت جولة والدي في الشرق برفقة بوليت ما يزيد عن ثلاثة أشهر لم نتلقَّ منه خلالها أية رسالة على الرغم من أنني واثق أنه كان يفكر فينا باستمرار. لكن جلوس والدي إلى طاولة الكتابة كان حدثاً استثنائيّاً كالهزات الأرضية الكبرى.

وعلى الرغم من أنه لم يتصل بنا قط، إلَّا أننا كنا قادرين على متابعة تطورات رحلته من خلال الصحف اليومية. كانت المرافئ التي زارها تحمل أسماء غريبة على شاكلة يوكوهاما وشنغهاي وهونغ كونغ وسنغافورة وباتافيا وجاوة وسومطرة وبالي. وكانت الصحف، عند كل محطة من محطات الرحلة، تتكهن حول ما إذا كان قد تزوج بوليت سرّاً.

لم تعننا هذه التكهنات في شيء. فكل ما كنا نفكر فيه هو المدة التي انقضت مذ كان المنزل الواقع في أعلى التل مفتوحاً لنا للمرة الأخيرة. لقد افتقدنا المنزل كما افتقدنا والدي وبوليت وأصدقاءنا. لم يكن ربيع ذلك العام سعيداً بالنسبة إلينا في جميع الأحوال: فقد عشنا فيه أولى تجاربنا مع التراجيديا.

ففي يوم أحد الفصح من ذلك العام، عرفت والدتي، أثناء جولة غنائية ناجحة في اسكتلندا، أول انهياراتها العصبية وكانت في بلد تعتبر نفسها غريبة فيه تماماً، إذا استثنينا خادمتها المخلصة غلاديس. تلقت نانا برقية تحثها على الحضور لملاقاة والدتي على الفور. لكن نانا كانت، هي نفسها في ذلك الوقت، تعاني مرض ذات الرئة الشديد أبقاها طريحة الفراش، فكان على غلاديس أن تعود بوالدتي إلى الولايات المتحدة وتضعها في مصح. أما نانا، فلم تستطع مغادرة سرير المرض والسفر إلى الساحل الشرقي لإحضار والدتي إلى المنزل إلَّا في شهر أيار.

وعند عودتهما، اشترت نانا، من أجلنا جميعنا، مزرعة مساحتها خمسة فدانات في وادي سان فرناندو الواقع بالقرب من تلال هوليوود وكانت، في ذلك الوقت، منطقة بعيدة عن ضجيج المدينة وعن الناس وعن كل ما كان يمكن أن يهزّ والدتي. وهناك تولّت نانا مهام التمريض الشاقة التي تقتضيها صحة والدتي المعتلة. والواقع أن اضطراب والدتي العقلي قد تفاقم باختلال في إفرازات الغدد وكانت في حاجة إلى مداخلة جراحية، لكن وضعها الدقيق منع الطبيب من المخاطرة بإجرائها. هكذا استحال وضعها حلقة جهنمية يغذي فيه وضعها الجسدي حالتها العقلية وبالعكس. كانت تلك الفترة حقبة معاناة بالغة عشناها جميعنا، ولا سيما والدتي التي كان عليها أن تناضل كي

تشق طريقها على درب استعادة صحتها ووضعها الطبيعي.

كم وجدتها، وسيدني، مختلفة. لم تعد، في ذلك الوقت، الفتاة الساحرة العامرة بالحيوية المستعدة على الدوام كي تضحك، بل أصبحت شخصاً هادئاً هستيريّاً وكان يمكن لأتفه الأمور أن يغضبها. بل إن بثّ الموسيقى الكلاسيكية من خلال المذياع كان وحده كفيلاً بإثارة جنونها. والواقع أن حالة الهياج المسعور التي عاشتها في ذلك الوقت أخافتني وأشاعت الحيرة في نفسي.

أمضت والدتي معظم الوقت طريحة الفراش. أتذكّر كيف كانت تتمدد هناك ساعات وساعات في حالة من الدوار على الرغم من أنني لم أكن أعلم أن الأطباء كانوا يعطونها أدوية مسكنة لإبقائها هادئة.

أحبطني الموقف برمّته كما لو كنت طفلاً يقف في مواجهة مرض يعجز عن فهمه، لكنني لم أبالغ في أخذ الأمر على محمل الجدّ في البداية. بل قبلت التفسير الذي قدمته نانا ومفاده أن والدتي أجهدت نفسها في العمل حتى انهارت وأنها تحتاج إلى الكثير من الراحة.

أتذكّر أحد الأيام الأولى في شهر حزيران عندما اتصل والدي بالمدرسة قائلاً إنه عاد وهو يرغب في رؤيتنا. أحسست، وسيدني، بالسعادة. وفي يوم الجمعة، وصل فرانك بوجهه الباسم بالسيارة كي يقلنا إلى المنزل الواقع في أعلى التل وكأن أشهراً طوالاً لم تمضِ.

وفي طريق العودة إلى المنزل قال لنا فرانك: «لقد تزوج والدكما في هونغ كونغ على متن سفينة». سألناه عن التفاصيل فهزّ رأسه قائلاً وهو يضحك: «لم أرهما وهما يتزوجان. لم أكن قريباً منهما في ذلك الوقت. كان لديهما ما يشغلهما وكان لديَّ ما يشغلني. لكنهما أبلغاني بذلك».

وأخيراً، وصلنا إلى منزل والدنا وكان والدي وبوليت بانتظارنا. بدت السعادة على محياهما، وكان والدي سعيداً على نحو خاص. فعلى الرغم من أنه يستمتع على الدوام برحلاته إلى الخارج، لكن السعادة تغمره في كل مرة يعود فيها إلى المنزل. فهو ليس رحالة بحقّ. بل إن شعوره بالتجذر بلغ، في ذلك الوقت، قدراً من القوة جعله يبقى في الولايات المتحدة بعد تلك الرحلة مدة ستّ عشرة سنة متتالية.

ركضت، وسيدني، وعانقنا والدي أولاً ثم بوليت. انحنت بوليت واحتضنتنا في حين أكد والدي المعلومات التي قدمها لنا فرانك وهو يضحك. لكن على الرغم من أن والدي أخبرنا بزواجه ببوليت دون مواربة، إلّا أن ذلك الزواج بقي سرّاً عائليّاً لسنوات لأن أحداً منهما لم يزعج نفسه بتقديم أية معلومة عن هذا الأمر للصحفيين. وقد استمرت الصحافة، طيلة السنوات الطويلة التي أمضياها

معاً، في التكهن حول ما إذا كان ذلك حصل، وإن حصل فمتى وأين.

جاء شهر حزيران من ذلك العام بالعديد من المستجدات. فقد جلب ذلك الشهر لوالدتي شعوراً بالذنب طاردها لسنوات على الرغم من أنها لم تكن، بحقّ، مسؤولة عمّا حصل. فكيف يمكن لأحد أن يحمل إنساناً عليلاً بصورة مأساوية المسؤولية عن أيّ شيء؟ كما جلب هذا الشهر لي، في نهاية المطاف، فهماً أعمق للحياة. وقد وافقتني والدتي على أنني يجب أن أبوح بهذه القصة لأنها تقدم نظرة أكثر وضوحاً لعلاقاتي بوالدي في تلك الفترة.

لم أعتبر، وسيدني، أنفسنا مختلفين عن أبناء الأزواج المطلقين حتى شهر حزيران 1936. عرفنا أن والدينا لم يكونا قادرين على الاستمرار معاً وأنهما انفصلا ونحن في سنّ صغيرة للغاية على الرغم من أننا كنا محصنين ضد ضروب القبح التي ترافق الطلاق. كما أن المعركتين القضائيتين اللتين تلتا الطلاق لم تحدثا فينا أية صدمة تزيد عن مجرد الضيق. لكن والدي ووالدتي حرصا على إظهار الاحترام المتبادل. فكانت والدتي تحذرنا أثناء إقامتنا معها قائلة: «لا تنقلا لي أية أخبار عن والدكما ولا تنقلا له أية أخبار عن هذا البيت. فلكل منا حياته الخاصة وطريقته الخاصة في القيام بالأشياء». ومن جهته، لم يسألنا والدي، قط، عما يجري في منزل والدتي، وكان استفساره عنها مهذباً على الدوام: «كيف حال والدتكما؟ آمل أنها على ما يرام. ماذا تفعل هذه الأيام؟ هل لديها جولة فنية؟».

وفي المدرسة كذلك، لم يتكلم أحد عن الطلاق. فقد كان فيها الكثير من أبناء المطلقين، وكان الطلاق أمراً مألوفاً لا يتوقف أحد عنده. وكان في المدرسة كذلك العديد من أبناء المشاهير، كوالدي ووالدتي- كان هناك جورج ابن الكاتب كين إنغلوند وولدا باستر كيتون وبول ويتمان جونيور وابن ماكس فاكتور. وعندما كنا نتحدث عن والدينا، فكان ذلك لتناول إنجازاتهما على خشبة المسرح أو في السينما. وكان أصدقاؤنا يقولون لنا: «يا لكما من محظوظين. فوالدكما كوميدي شهير ووالدتكما مغنية حسناء. هل سيتزوج والدكما بوليت؟ إنها كالدمية».

كنت، وسيدني، نشعر، عند إنصاتنا إلى ملاحظات أصدقائنا الحاسدة، بأن الحياة رفقت بنا ولم يدر في خلدنا أن لهذه القصة جانباً مظلماً إلّا عندما أخبرتني والدتي بذلك في الثامن والعشرين من شهر حزيران، في عيد ميلادي الحادي عشر- أو هذا، على الأقل، اليوم الذي اختاره على الدوام للاحتفال بذكرى ولادتي.

كنت، وسيدني، في ذلك الحين، في إجازة من المدرسة وكنا نوزع وقتنا بين منزل والدنا ومنزل

والدتنا في جادة فنتورا. في ذلك اليوم، دخلت إلى غرفة النوم حيث كانت والدتي ممددة. كنت أتسلل إلى هناك على الدوام والقلق يساورني بشأنها راجياً، كل مرة، أن أراها وقد تحسنت صحتها. لكنني كنت، في ذلك اليوم، أفكر في أمر خاص. فقد كان ذلك اليوم يصادف ذكرى ولادتي وكانت والدتي نائمة طيلة فترة الصباح، ولم تكن قد هنأتني بعد. كنت آمل أن أجدها مستيقظة وأن تتذكر هذه المناسبة، لكنها كانت لا تزال ممددة هناك هادئة تماماً. كنت على وشك المغادرة عندما نهضت فجأة وقالت بنبرة غامضة: «لديَّ أمر على غاية من الأهمية أودّ قوله لك يا تشارلز. أمر هام للغاية! قد يكون مسألة حياة أو موت».

لم ألقِ بالاً لما قالته في بادئ الأمر. فقد كانت والدتي تتميز، في تلك الأيام، بهذا الأسلوب الغريب في الكلام. لكن الأمر الذي لاحظته للمرة الأولى كان ذراعيها النحيلتين إلى حدّ يبعث على الشفقة. كانتا أشبه بأنبوبين وفكرت في نفسي أنني قادر على عقدهما بيد واحدة. كما لاحظت كم كانت عيناها سوداوين وواسعتين بالنسبة إلى وجهها النحيل. وكانت فيهما نظرة وحشية وشبحية.

ألحّت في القول، وقد رأت نظراتي الزائغة: «تشارلز. عليك أن تصغي».

ثم بدأت الكلمات تتزاحم على شفتيها وأخذت تنفس عن كل مشاعر الخوف والضيق التي ملأتها أثناء زواجها بوالدي. كنت الشخص الذي اختارت إخباره بذلك لمجرد كوني دخلت إلى غرفتها في تلك اللحظة المحددة ولأنني كنت، كذلك، محطّ اهتمامها في ذلك اليوم بسبب ذكرى ولادتي.

لكن والدتي صارت، بعد شفائها، تتذكر تلك المحنة بأسف شديد. أخبرتني أنها كانت، أثناء كلامها، مدركة تماماً أنه لا ينبغي لها أن تقول ما كانت تقوله، لكنها كانت عاجزة عن التوقف. فقد حطمت المسكنات كل إرادة لديها ففقدت السيطرة على لسانها، وبدا الأمر وكأن إنساناً آخر استعاره وأخذ يتكلم من خلالها.

انخرطت والدتي في وصف قاسٍ لوالدي. كانت مقتنعة أنه إنسان متوحش. لكن الرجل الذي وصفته، الرجل الذي رأته في تهويماتها كان مختلفاً عن ذلك الإنسان الذي عرفته بوصفه والدي. كان وحشاً، هائلاً كالأساطير ويتمتع بقدرات على التدمير لا تصدق، وكان يركز كل طاقاته عليها لسنوات، على حدّ قولها، من أجل تدميرها، وقد لاحقها جواسيسه حتى اسكتلندا وتسببوا بانهيارها، وهم الآن يحيطون بها وفي حوزتهم سموم مخيفة يسممون بها الهواء، وهي تتنشق رائحة هذه السموم بوضوح (استطاع الأطباء، في وقت لاحق، أن يفسروا لها أن منخريها الحساسين استطاعا التقاط الروائح الصادرة عن إفرازات غددها المفرطة) واستفاضت في الشرح كيف أنها نجحت في

النجاة من الموت حتى الآن لكنها لا تعلم مقدار قدرتها على الصمود.

كان لكلماتها القوية مفعول السحر عليَّ. فوقفت في مكاني عاجزاً عن الحراك في حين كانت والدتي تكرر أفكارها عن القدرات الشريرة التي يتمتع بها والدي.

«لديه الكثير من المال وهو قادر على استئجار أيّ شخص للقيام بما يريده. إن مقاومته ضرب من المستحيل تقريباً».

وقف الشبح الشرير الحاقد، الذي خلقته تهويمات والدتي المرضية، حائلاً بيننا في الغرفة المظلمة كجنيّ رهيب خرج من قمقمه. ثم انحنت والدتي نحوي وقالت بصوت خافت: «عليَّ أن أحذرك يا تشارلي. إنك تحمل اسمه وهو أمر لم يكن راغباً في حصوله. لقد أراد أن يحتفظ بكل شيء لنفسه بحيث لا يكون هناك سوى تشارلي شابلن واحد. أما الآن، فهناك اثنان. لذلك فهو ينوي تدميرك، أنت كذلك».

ثم بدأت أمي تبكي وأخذ جسدها كله ينتفض واستمرت في النشيج وهي تقول: «لا، إنه لم يرغب في وجودك قط يا تشارلي. لقد اضطر للزواج بي بسببك، لذلك فإنه لم يحببك منذ البداية. عليَّ أن أخبرك عن يوم ميلادك يا تشارلي. إنه ليس اليوم، الثامن والعشرين من حزيران. بل هو في الحقيقة الخامس من أيار. لقد تمّ تغيير السجلات. إنه يتمتع بكل هذا النفوذ كما ترى. لا يمكنك مقاومته. لا يمكنك مقاومته».

ارتفعت نبرة والدتي وصارت تنوح بطريقة هستيرية. وفجأة، دخلت نانا، وهرعت إلى الخارج بسرعة ومشيت في المنزل وكنت على قدر من الإرهاق منعني حتى من التفكير بما أخبرتني به والدتي للتو. لقد نجحت في جعل ما كانت تقوله واقعيّاً إلى درجة ما عدت معها واثقاً من أيّ شيء. كان عليَّ أن أتكلم مع أحد عن هذا الأمر فتذكرت سيدني وبدأت أبحث عنه إلى أن وجدته وأخبرته بكل شيء كما قالته والدتي تماماً.

كان سيدني قادراً على النظر إلى الأمر برمّته بطريقة أكثر موضوعية مني لأنه لم يكن حاضراً هناك بينما كانت أمي تبوح بأفكارها المخيفة. فقال: «لا تلقِ بالاً إلى أمك يا تشاك. إنها مريضة، مريضة للغاية. هذا أمر واضح. إنها تعجز في بعض الأحيان عن معرفة ما تقول. إنها تبالغ».

كانت كلمات سيدني كوخزة دبوس أصابت بالوناً عملاقاً. فانهارت الصورة الخيالية التي رسمتها والدتي بهذا القدر من الصفاء تحت تأثير كلماته المنطقية. وقد صادقت نانا، في وقت لاحق، على كلمات سيدني، عندما قالت شبه باكية، في محاولة لتهدئة روعي: «إنها تهذي يا تشارلي. انسَ كل

ما قالته لك».

صدقت سيدني ونانا بصورة ضمنية في بداية الأمر لأن أقوالهما جعلت الأمور تبدو أفضل في نظري. لكن الشك بدأ يتسرب إليَّ، من جديد، وبقيت أدور حول النقطة نفسها، وكنت كلّما فكرت فيها ازداد اقتناعي أن هناك أمراً واحداً، على الأقل، لم يكن خياليّاً. إنه الأمر المتعلق بذكرى ولادتي. لقد صمد هذا التفصيل لأنه بدا منطقيّاً في خضم كل التفصيلات الأخرى. وقد نجح في تسليط الضوء على كل ما يتعلق بي وبوالدي بطريقة مختلفة.

لم يعد الأمر، إذن، يقتصر على عدم الانسجام الذي عاشاه بعد زواجهما، بل إنهما لم يكونا أصلاً راغبين في الزواج، وكنت أنا من أرغمهما على ذلك، وهو أمر جعلني، دون شك، مصدر كل التعاسة التي عاشاها، بل وربما سبب مرض والدتي. إن منطق الأطفال رهيب وحالما ينطلق، فإن إحساس الطفل بالذنب الذي يثقل كاهليه لا يقف عند حدود.

-18-

أيّ ردّ فعل يمكن أن يكون لطفل في الحادية عشرة من العمر عندما يعلم أن والده لا يحبّه ولم يكن راغباً في وجوده؟ عند عودتي إلى المنزل الواقع في أعلى التل، بدأت أدرس والدي بتمعن، كلماته، إيماءاته، تعبيرات وجهه، كي أرى إن كنت قادراً على اكتشاف مشاعره الحقيقية نحوي، سواء كانت باردة أم دافئة. لكنني لم أستطع الوصول إلى جواب حاسم لأنه كان الوالد نفسه الذي عرفته دائماً في حين كنت، أنا، من تغير. ودونما إدراك مني، بدأت أتصرف معه بطريقة رسمية تماماً. كان الأمر كأنني أصبحت غريباً في بيتي.

فكرت في نفسي ذات يوم أنني أستطيع حلّ المسألة برمّتها بمجرد سؤال والدي بطريقة مباشرة عن ظروف ولادتي. لكني كنت أخشى القيام بهذه الخطوة. كنت أخشى من ماذا؟ من اكتشاف أن الأمر صحيح تماماً؟ أم من أن يصدني؟

كان حضور بوليت، في الأسرة، رائعاً على نحو خاص. لم تكن مجرد امرأة جميلة، بل كانت تتمتع بالدفء والحماسة تجاه كل شيء وكانت تهوى ممازحة والدي. كانت، بالنسبة إلى والدي، أشبه بجمهور رائع، فكان يقوم، من أجلها، بمئة قفشة في اليوم يصل بعضها إلى درجة من الابتذال لا تصدق. كان يمكنك، مثلاً، أن تراه يقفز فجأة من الأريكة أو الكرسي الذي يجلس عليه ويصفف شعره كي يغطي جبهته ويضع يده في معطفه ويختال في المنزل كنابليون بونابرت الذي يعشقه. وفي أحيان أخرى، وفيما الأمسية تمضي ببطء وتثاقل، تجده يهبّ على قدميه، فجأة، ويقول بوقار: «أنا جاهز للنوم. تصبحان على خير يا حبيبي الحلوين» ثم يبدأ بالسير خلف الأريكة وهو يجثو بالتدريج مع كل خطوة فيبدو كأنه يهبط درجات سلم وهمي راسماً على وجهه أكثر التعبيرات بلاهة. وكان آخر ما يمكن للمرء رؤيته، قبل أن يختفي، وجهه الذي لا تزال أمارات السذاجة بادية عليه.

ومع حضور بوليت إلى المنزل، بدأنا نقوم بالمزيد من الأمور بصورة مشتركة. كان والدي طيباً تجاهنا لكنه غالباً ما كان ينشغل عنا تحت تأثير ضغوط العمل أو بسبب فكرة لمعت في رأسه على حين غرة. أما بوليت فحرصت على إشراكنا في خطط عطلة نهاية الأسبوع، فكانت تجرّ والدي بعيداً عن طاولة الكتابة من أجل مرافقتنا لحضور فيلم أو الخروج في نزهة إلى الأميوزمنت بيير أو إلى حديقة الحيوانات، التي كانت القرود، فيها، تذكره بحيوانات الغوريلا التي صادفها في

سومطرة (كان، على الدوام، يتذكر أمراً مذهلاً ما صادفه، هنا أو هناك، أثناء رحلاته إلى الشرق). كان يتحدث عن غوريلات سومطرة، برؤوسها الكبيرة وأجسادها العملاقة، بتهيب. لكن المدهش في الأمر أنني لا أتذكّر أن والدي، الذي لم يدع شيئاً أو أحداً إلَّا قلّده، بما في ذلك النسر الذي اعتبره أحد أكثر المخلوقات جمالاً، قد حاكى قرداً.

كان اليوم، في غالبية الأحوال، ينتهي بعشاء في أحد المطاعم الصغيرة في الحيّ الصيني أو في مكان آخر بعيد عن مسار عودتنا المباشرة إلى المنزل. وكانت والدة بوليت تأتي أحياناً لملاقاتنا. كانت السيدة غودارد تشبه بوليت في العديد من الجوانب. كانتا تضحكان بالطريقة نفسها وتتمتعان ببريق العينين نفسه والروح المرحة نفسها. وقد استطاع والدي أن ينسجم مع السيدة غودارد بطريقة جيدة. بل إنه كان، في الواقع، نموذجاً للرجل القادر على إرساء السلم مع الحماة لأنه كان على علاقة حسنة مع أمهات زوجاته، بل إنه نجح في استئناف ما انقطع من صداقته الحميمية مع نانا بعد قصة انفصاله المرير عن والدتي وهو يتعامل بلطف بالغ مع السيدة أغنيس أونيل، والدة أونا.

لكن المشاريع الترفيهية، في فصل الصيف ذاك، لم تقتصر على بوليت. فقد كان تطرأ على ذهن والدي، بين الفينة والأخرى، فكرة الخروج في نزهة قصيرة بالسيارة، وهو نشاط ترويحي مألوف للكثير من الأسر، إذا جاز لنا إطلاق صفة المألوف على أسلوب والدي في قيادة السيارة. كان يستخدم في هذه النزهات سيارة الفورد السوداء ذات الأبواب الأربعة التي احتفظ بها لسنوات طويلة لأن أسماء الطرازات الأخرى الأحدث عهداً كانت تربكه. تعلم والدي قيادة السيارة عندما كان في الخامسة والثلاثين وكان فخوراً بهذا الإنجاز. كان يرتدي، من أجل القيادة، ما كنت أعتبره الزيّ الخاص بقيادة السيارات- نظارات ذات زجاج بني وسترة من التويد وقبعة بنية من اللباد كان يميلها بزاوية توحي بالخيلاء.

كنا نخرج إلى السيارة، فيساعد والدي بوليت على الجلوس في المقعد الأمامي في حين أقفز، وسيدني، إلى الخلف قبل أن يركب السيارة بنفسه. يضع المفتاح ويشغل السيارة ثم ينتصب ظهره ويرمي بكتفيه إلى الوراء ويرفع رأسه ويبرز ذقنه ويمسك المقود بأسلوب الخبير. وأخيراً، تنطلق السيارة.

تبدأ النزهة بسرعة معتدلة. ثم ينهمك والدي بتأمل المشاهد المحيطة به فيزداد ضغط قدمه على دواسة السرعة بشكل لاواعٍ. وفجأة يتذكر نفسه فيرفع الضغط عن الدواسة. كانت النزهة أقرب إلى أن تكون سلسلة من الاندفاعات المفاجئة في حين يتلفت والدي حوله باستمرار دون أن يركز على

الطريق، إلَّا لماماً على ما أذكر.

كان والدي يستمتع بالتظاهر أننا سياح نقوم بجولة على منازل نجوم هوليوود وكان في حينا الكثير منهم. فبالإضافة إلى منزل آل بيكفير الواقع فوقنا مباشرة ومنزل آل لويد الواقع تحتنا مباشرة، كان كاي فرنسيس ورونالد كولمان وفريد أستير وتوم ميكس يعيشون بالقرب منا. ولدى مرورنا بجوار منزل ميكس كنت، وسيدني، نخرج رأسينا من نافذة السيارة آملين أن نراه هناك بزيّ رعاة البقر. لكن ذلك لم يحدث قط.

وما إن نصل إلى تخوم منزلنا حتى يشير والدي إليه بتباهٍ مضاعف. وعندما نقابل دعابته المسرفة هذه بالضحك تظهر عليه ملامح الأسى ويشتكينا لبوليت قائلاً: «لقد أوشكا على السقوط من السيارة وهما يحاولان إلقاء نظرة على منزل توم ميكس. أما أنا، أعظم كوميديي العالم بنظر الكثير من الناس، فيتعاملان معي كأنني أمر مسلّم به».

يستعيض والدي، وفي بعض الأحيان، عن النزهة في أرجاء البلدة برحلة طويلة بالسيارة إلى الريف. ويا لها من رحلات! كانت خضرة الأرض وإشراق الأزهار وجلال الأشجار كفيلة بجعل والدي ينأى بنفسه عن واجبه الرئيس. كان يسهو، أحياناً، عن إشارات المرور الضوئية فتصيح بوليت: «تشارلي، تشارلي! الضوء أحمر!»، لكن بعد فوات الأوان لأن والدي يكون في تلك اللحظة قد خلف الإشارة الضوئية وراءه بالفعل. فيقول لها مستفسراً: «أيّ ضوء؟» فتجيبه بوليت، وهي بالمناسبة، سائقة بارعة بالفعل: «عليك أن تنتبه يا تشارلي». لكن والدي، الذين ينتمي إلى ذلك الصنف من الناس الذين لا يقبلون أن يخطئهم أحد، كان يعود على الفور إلى تأمل المناظر الطبيعية على جانبي الطريق ساهياً عن قدمه التي تبدأ، من جديد، بالضغط على دواسة السرعة، فتصرخ بوليت فجأة: «يا إلهي يا تشارلي! انظر إلى الطريق أمامك!»، فتعود عيناه للتركيز على الطريق ويضبط المقود في الوقت المناسب قبل أن يصطدم بالسيارة القادمة من الاتجاه الآخر. فتقول بوليت بحسرة: «يا لك من سائق أخرق» ثم تنفجر بالضحك، لأن الموقف يكون مضحكاً بالفعل، قبل أن أنضم، وسيدني، إليها.

كان والدي، على الدوام، يغضّ الطرف عن تعليقات بوليت اللاذعة على قيادته الرديئة. وأظن أنه تلقى من الانتقادات الساخرة منها حول هذا الموضوع ما يفوق بكثير ما تلقاه من أيّ إنسان آخر، لأنه لم يستسغ يوماً أن يتمّ اعتباره سائقاً من الدرجة الثانية. بل إنه لم يكن يتقبل أن تتجاوزه أية سيارة أخرى على الطريق، لأنه كان يعتبر ذلك انعكاساً لمعدل سرعة قيادته. أما صوت البوق- الذي يطلقه سائقو السيارات، عادة، لجعله يعود إلى الجانب المخصص له من الطريق- فكان يقوده

إلى الجنون. فكنت تراه يقفز في مكانه كما لو أن أحدهم قد أطلق النار عليه ويهتف باستغراب: «يا لهؤلاء المجانين. لماذا ينبحون بهذا الشكل؟ أنا أجيد قيادة السيارة».

ومن الأمور الأخرى التي لم يكن والدي يتحملها أثناء قيادة السيارة أن يدلّه أحد إلى الطريق الصحيح. إذ كان يعتبر ذلك إهانة لإحساسه بالاتجاهات، وهو، بالمناسبة، إحساس ضعيف للغاية على الرغم من إيمانه الراسخ به. وقد وصل تجاهله المطلق لنصائح الآخرين ذروته ذات يوم كان يقود السيارة فيه، وبرفقته تيم ديورانت، في جادة سانسيت وسط ضباب كثيف. كان تيم يطل برأسه بقلق من نافذة السيارة. وفجأة، لمح وسط الضباب شاخصة مرورية تشير إلى أنهما وصلا إلى الطريق الذي يقود إلى منزل والدي فهتف تيم: «ها نحن ذا، يجب أن ننعطف هنا». هزّ والدي رأسه وقال بحسم: «ليس بعد، ليس بعد». فاحتج تيم: «لكن هذا هو الطريق». إلّا أن ردّ والدي كان أن استمر في القيادة قدماً بعناد. ثم هتف تيم، فجأة، بذعر: «انظر يا تشارلي. لم نعد في جادة سانسيت على الإطلاق. لقد أصبحنا نسير على المنصف. وها هو سياج الأشجار المحيط به». فألقى والدي نظرة سريعة من النافذة وقال برباطة الجأش نفسها التي تميز السيد ماغو ذو البصر الحسير: «هراء. إنه سياج أحد المنازل. سوف نصل إلى المنعطف قريباً» ثم استمر في القيادة على المنصف الذي يقسم جادة سانسيت وقد أصبح يعلم بالتأكيد أنه لم يعد يسير على الطريق، إلّا أنه لم يستطع الإقرار بارتكابه خطأ، وهو الأمر الذي لم يقم به قط. وبعد مسافة تزيد على الكيلومتر، وصل إلى نهاية المنصف وعاد إلى جادة سانسيت من جديد واستمر في القيادة قدماً وكأن شيئاً لم يحصل.

قادتنا مغامراتنا إلى أماكن أبعد من نزهات السيارة تلك بالطبع. فقد استخدمنا اليخت مراراً في ذلك الصيف، كما أمضينا في الجبال عدة أيام علمتنا بوليت خلالها التزلج وهي رياضة كانت بارعة فيها. وكان والدي متزلجاً بارعاً كذلك، على الرغم من أنني لم أره يتزلج يوماً. كما كانت بوليت تصطحبني، وسيدني، إلى بحيرة أروهيد أو إلى البيغ بير عندما يكون والدي مشغولاً. وقد تحولت الحكايات التي تقصها بوليت علينا قبل الذهاب إلى النوم إلى طقس دائم.

عشنا في فصل الصيف ذاك الكثير من المرح. لكن إن كان المرء يعاني من مشكلة، فإن المرح قادر على إظهارها بوضوح أكبر. حاولت لأسابيع أن أبعد عن تفكيري ما قالته لي والدتي وأن أندمج في النشاطات التي كانت تدور حولي. لكن سرعان ما كانت تحاصرني فكرة أنني موجود هنا في منزل والدي رغماً عنه. هل كان يتعامل معي من باب غضّ الطرف عن وجودي؟ كان السؤال رهيباً لأنني كنت أحبّه حقّاً وكنت أرغب في أن يحبّني بالمقابل. لكنني لم أعد، في ذلك

الوقت واثقاً من ذلك. والواقع أنني لم أعد واثقاً من أيّ شيء يتعلق به. وذات يوم، بلغت مرحلة أصبحت عاجزاً معها عن التعايش مع هذه الشكوك.

أتذكّر ذلك اليوم جيداً. كانت بوليت قد خرجت من أجل درس في الرقص أو في الغناء وكنت، وسيدني، نلعب مع الأشقاء كرايزل بالقرب من حوض السباحة. وفجأة، باغتني شعور بالانشداد إلى المنزل وإلى والدي، كما كان يحصل مراراً في فترة طفولتي، وأخذت أتساءل عمّا يحدث. غادرت بركة السباحة وذهبت إلى البيت ونظرت في غرفة المعيشة. كان والدي جالساً إلى طاولة الكتابة. كنت قد لاحظت أنه أصبح، بعد زواجه ببوليت، يميل إلى العمل في الطابق الأرضي.

دخلت إلى الغرفة ووقفت أراقبه بهدوء وبإحساس بالدفء والوحدة في الآن عينه، وهو إحساس أصبح، في وقت لاحق، مألوفاً لي بصورة مؤلمة. كان على مسافة طول غرفة مني لكنه بدا ذاهلاً عني تماماً. وأخيراً انتهى مما كان يكتبه ورفع رأسه ورآني للمرة الأولى وقال: «تشارلز، هل ترغب في شيء يا بني». فأجبته: «أبي...». ثم دخلت إلى الغرفة ووقفت أمام الطاولة متردداً ثم اندفعت الكلمات من فمي على حين غرة: «أريد أن أسألك عن شيء يا أبي، وأنا آسف لإزعاجك. لكن والدتي أخبرتني الكثير من الأمور عن ذلك الزواج. أقصد زواجكما. أريد أن أعلم». نظر والدي إليَّ بتمعن وقد ارتسمت علامات الدهشة على محياه وقال بجدية بعد صمت قصير: «كان هناك الكثير من الأمور غير السعيدة بشأنه يا بني. كان هناك الكثير من المشاكل في المحكمة ولم يكن ذلك خطأ أيّ منا بالفعل. لقد كنت أكبر من والدتك بكثير وكنا على قدر كبير من الاختلاف. كان الأمر سيئاً لكلينا». ألححت في القول: «لكن، تاريخ ميلادي يا أبي. لقد أخبرتني أمي أنه ليس في شهر حزيران، بل في الخامس من أيار. وأنك اضطررت إلى الزواج بها بسببي». فقال والدي، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مفاجئة: «حسناً. لم تكن ولادتك مخططاً لها تماماً يا بني، إن كان ذلك ما تعنيه. لكنه من تلك الأمور التي تحصل في الحياة». ثم نهض واقفاً واقترب مني وأحاط كتفي بذراعه، في التفاتة دافئة وعفوية مفاجئة في صدورها عنه، هو الذي لم يكن منذوراً للاستعراضات العاطفية، ثم قال محاولاً تهدئة روعي، وأنا عالم بمقدار ما أصابه من حزن بسبب التعاسة والشكوك التي أصابتني: «أنت هنا. أنت ولدي وأنا والدك. أما تاريخ الولادة فلا يعني شيئاً».

بدأ والدي يتكلم في حين أخذت البقايا الأخيرة لتهويمات والدتي الغريبة بالتلاشي. فسألته بسرعة خشية أن أفقد جرأتي، والأمل يراودني في الحصول على تأكيد أخير: «لكن يا أبي، لقد قالت إنك تكرهها وإنك تطاردها وإن جواسيسك في كل مكان». فهزّ والدي رأسه وقال: «غير صحيح

بالطبع حتى ولو أننا عانينا من المشاكل في يوم مضى. أنت تعلم يا بني أن العقل غريب. فعندما يصيبك جرح عميق وتصبح مشاكلك أكبر من قدرتك على احتمالها، يبدأ عقلك بخداعك ويجعلك تؤمن بأشياء غير صحيحة وتقول أشياء غير صحيحة. والدتك امرأة مريضة للغاية يا تشارلز. تذكّر ذلك!».

كان يتكلم عنها برقة وقد بدا اضطرابه وحزنه بسبب مرضها واضحين للغاية- كما هو شأنه دائماً مع الحزن. «أرغب في رؤيتها. قد أنجح في مساعدتها. فقط لو استطعت التحدث معها...».

وفيما كنت أصغي إلى صوت والدي المتردد والقلق، فكرت في أنهما عاشا فترة حبّ، قد تكون قصيرة، بمعزل عمّا حدث بينهما في الماضي وأنني كنت، أنا نفسي، ثمرة لهذا الحبّ. والواقع أنني تشبثت، طيلة فترة طفولتي، بهذا الافتراض لأنه ضروري للغاية من أجل إحساسي بالأمن. لكنني وجدت نفسي، بعد سنوات من ذلك، مضطرّاً إلى الحصول على تأكيد جديد لهذه الحقيقة عندما عانت والدتي من انهيار عصبي جديد.

هكذا حصلت من والدي على الإجابة التي كنت أبحث عنها وأصبحت قادراً، من حيث المبدأ، على الاسترخاء والاستمتاع برفقته. المشكلة هي أنه نادراً ما يكتفي الطفل بسماع الإجابة مرة واحدة. هكذا، وجدت نفسي أتساءل ما إذا كان والدي يعني حقّاً ما قاله، أم إنه قال ما قاله لمجرد مراعاة مشاعري. لكنني لم أجد في نفسي ما يكفي من الشجاعة كي أثير معه الموضوع من جديد، كما أن والدي لم يتناول هذه المسألة من جديد.

انقضى فصل الصيف ووالدتي تتحسن باستمرار على الرغم من أن حالتها كانت أسوأ مما تبدو عليه. هكذا، لم يقتضِ الأمر من راقص تعرفت إليه واسمه هنري أغواير جونيور سوى أسبوعين خاطفين من التودد كي ينجح بإقناعها أنه الرجل المناسب. وفي شهر أيلول 1936، فرّت برفقة السيد أغواير إلى سان فرنسيسكو دون إخبار أحد، بما في ذلك نانا. وعند عودتهما، استأجرا منزلاً صغيراً في البيتشوود درايف زرناهما فيه بضع مرات خلال إجازات نهاية الأسبوع. لكن نانا بقيت في المزرعة حيث كنا نعودها في الأيام التي لا نكون فيها برفقة والدي. ولذلك فإن ذكرياتي عن السيد أغواير ضبابية، إلَّا أنني أتذكّره رجلاً دمثاً معتدل الطبع. وبعد ثلاثة أشهر، انفصل عن والدتي ولم أره منذ ذلك الحين.

كان هنالك، بالنسبة إليَّ وإلى سيدني، مناخ من التقلب واللاواقعية سادا علاقتنا بوالدتنا طيلة تلك المرحلة التراجيدية. فقد كانت، من الناحية العملية، غريبة بالنسبة إلينا لأننا لم نكن نراها إلَّا لماماً ولأنها كانت تمضي الأيام التي تعود فيها إلى المنزل وهي مريضة للغاية. أما الآن، وقد أصبحت تعيش منفصلة عن نانا، فقد كانت ثلاثة منازل تتنازعنا- منزلها ومنزل نانا ومنزل والدي. وكان المنزل الواقع في أعلى التل أكثر الأماكن الثلاثة استقراراً في نظرنا، حيث كان والدي وبوليت مستعدين على الدوام لاستقبالنا وللضحك معنا وممازحتنا والتناوب على حكايات ما قبل النوم.

كنت، في بعض الأحيان، أستيقظ في الليل مدفوعاً بتوق طفلي للالتصاق بهما. فكنت أتسلل إلى غرفة نومهما كي أجدها مقفلة بالرتاج. هناك، في الرواق الساكن، تحت المصباح الليلي الباهت الذي كان والدي يتركه مناراً، كنت أقف وحدي وأتساءل عن دواعي خوفهما وكنت أحسّ بنفسي منبوذاً من دائرة أمنهما. ثم كنت أسمع أصوات صرير ألواح الأرضية الخشبية وفرقعتها الناتجة عن تقلص الخشب تحت تأثير الانخفاض الكبير للحرارة في الليل وهي ظاهرة مألوفة في

كاليفورنيا التي تعرف بالتفاوت الكبير في درجات الحرارة بين النهار والليل. لكن تلك الأصوات المتكررة كانت، في ذلك الوقت توحي لي أن المنزل مسكون بمخلوقات غامضة وشريرة لم تكن الحياة تدبّ فيها إلّا عندما نخلد إلى النوم.

لكن ذلك الضجيج الليلي الماكر كان كفيلاً باستنفار والدي. فقد كان خياله الخصب يصور له أن أمراً ما يحدث. فكان، في بعض الأحيان، يغادر غرفته ويجول في أنحاء المنزل متحرياً الأمر. فتحت باب غرفتنا، في المرة الأولى التي سمعت فيها صوت حركته في الردهة، وخرجت كي أرى ما كان يفعل، فاستطعت أن أراه، على ضوء المصباح الليلي، برداء نومه ومسدسه في يده ويتحرك بهدوء باتجاه الدرج. فهمست: «ماذا يحدث يا أبي؟» فردّ هامساً: «صه. أظن أنني سمعت أحداً وأنا أتحقق من الأمر. عد إلى سريرك». لكنني لم أفعل، بل بقيت واقفاً في مكاني وقد سمرني الرعب وأنا أسمع والدي يتحرك، في الأسفل، من غرفة إلى غرفة يضيء أنواراً ويفتح أبواباً ويغلق أخرى. ثم عاد إلى الطابق الأعلى ورآني أنتظره فقال: «لا يوجد أحد يا بني. عد إلى سريرك» ثم دخل إلى غرفته وسمعت صوت إغلاق الباب وحركة المفتاح في القفل، فشعرت بالوحدة والخوف وركضت عائداً إلى غرفتنا وأغلقت الباب بسرعة وأدرت المفتاح. وفي تلك اللحظة، تنفست الصعداء. تلمّست طريقي إلى السرير وقفزت إلى الداخل. أما سيدني فلم يوقظه ما حدث. إذ كنت قادراً على سماع صوت تنفسه المنتظم. فجأة أحسست بالأمان وغزتني موجة من العاطفة القوية الدافئة تجاهه. يا له من أمر رائع أن يكون موجوداً بالقرب مني. يا له من أمر رائع أن نكون شقيقين. لقد كان لدينا انتماء مشترك. لقد كنا أبناء تشارلي شابلن.

-20-

مع وصول بوليت إلى المنزل الواقع في أعلى التل، ارتسمت خطوط معركة حاذقة بين حياة العزوبية المريحة التي كان والدي يعيشها حتى تلك اللحظة وعزم بوليت على تغيير سلوكه بما ينسجم مع وضعه الجديد كرجل متزوج. أضفت على الفور لمستها الأنثوية على كل غرف المنزل مخففة بذلك من طابعه الذكوري الطاغي. فظهرت الأزهار على الطاولة الموجودة في غرفة الطعام وأزهار أخرى على البيانو بجوار الصورة الضوئية التي تجمعني وسيدني والكثير من الأزهار في غرفة نوم بوليت في الأعلى. أما غرفة نوم والدي، فلم يكن فيها أزهار على الرغم من حبّه لها لأن أحدهم أخبره أنها تستهلك الأكسيجين.

لكن لم يكن أريج الأزهار وحده ما ذكرنا، نحن الرجال، بوجود امرأة في المنزل. فقد تضوعت في غرفة النوم الوسطى التي احتلتها بوليت روائح عطور مثيرة وغرائبية انتشرت آثارها في كل أرجاء المنزل وزاحمت عطر الميتسوكو الذكوري الذي يستخدمه والدي.

كما حدث اختراق آخر طاول طاقم الخدم الذكوري مع إحضار بوليت وصيفتها وهي فتاة اسكندينافية لا أتذكّر عنها شيئاً باستثناء أنها تدعى جيني. ثم كان هناك بادلز، وهو الكلب الأول الذي يدخل إلى المنزل ولم يكن الأخير. إذ كانت الكلاب تصل إلى المنزل، في حقبة بوليت، أزواجاً. فكلّما فكرت بوليت في إهدائنا شيئاً، كان تفكيرها يقودها إلى الكلاب بصورة تلقائية.

يحبّ والدي كل المخلوقات الصغيرة، لكني أميل إلى الظن أن ولعه بها نظريّ أكثر منه عمليّاً. إذ لم يسبق لي أن رأيته يتعامل مع الكلاب براحة على الرغم من أنه كان قد كتب نصّاً رائعاً حول الكلبة الصغيرة وجرائها الخمسة التي رافقته عندما كان، في سني مراهقته، يعمل في فرقة شرلوك هولمز. لكن لا بُدَّ أنه تغير كثيراً عن تلك الأيام التي احتفظ فيها بالكلاب الستة في الشقة الصغيرة التي استأجرها لأنه لم يقبل، مذ عرفته، بوجود الكلاب في المنزل بسبب إيمانه أن فراء الكلب مصدر للجراثيم، كما أنه يشمئز من لعابه ويبغض الملمس الخشن للسانه عندما يلعق يده. وعلى الرغم من أنك كنت تراه يداعب الكلاب بين الفينة والأخرى، إلَّا أنه كان يفعل ذلك بحذر شديد.

أما القطط، فكان شعور والدي تجاهها مختلفاً. إذ قد قال لي ذات مرة، وكنت طفلاً: «يتمتع القط باعتزاز بالنفس وروح استقلال لا يمكن أن تجدهما في الكلاب. فإن أحسّ القط بالجوع، سيشرب الحليب الذي تعرضه عليه، لكنه لا يشعر، ولو لدقيقة واحدة، بأنه مدين لك بشيء. فهو لا يمكن أن

يقايض حريته. بل إنه يكفيك مجرد النظر إلى رشاقته وجماله!».

وفيما كان والدي يطنب في الإشادة بمزايا القط، هبَّ على قدميه وأخذ يجول كالقط وتحولت يداه إلى قائمتين أماميتين وأخذ يسير برشاقة واضعاً إحداهما أمام الأخرى ثم وضع إحدى يديه خلفه وصار يهزّها كأنها ذيل ومدّ رأسه إلى الأمام وأخذ يحدق بعينين مشقوقتين وارتسمت ابتسامة ماكرة على وجهه. كان كالقط تماماً. بل كان في الواقع قطّاً.

أما بادلز، وهي كلبة سوداء صغيرة قصيرة القوائم، فكانت جرواً عندما أحضرتها بوليت إلى منزلنا للمرة الأولى ولم تكن مروضة بعد، كما يشير إلى ذلك اسمها. لكن بوليت أصرت على إبقاء الكلبة الصغيرة معها في غرفة الجلوس خلال الأمسيات وكان مؤكداً أنها ستسلك في البيت بمقتضى اسمها إن عاجلاً أو آجلاً. في تلك اللحظات، لم يكن والدي يجد ما هو مسلٍ في قيام الكلبة بما كان يثير الضحك في مسارح لندن عندما كان هو نفسه يحاكي الكلاب. فكنت تجده يصرخ بذعر: «انظروا إلى ما فعلته الكلبة. أخرجوها من هنا في الحال!» فكانت بوليت تمتثل بخضوع على الرغم من أن الأمر كان يتكرر بحذافيره في الليلة التالية.

بدأ والدي يكتشف بالتدريج أن الأمور لم تعد بالسهولة التي كانت عليها في أيام العزوبية عندما كانت كل كلمة ينطق بها تصبح قانوناً. وقد بدأ الخدم بدورهم يدركون هذا الفرق. فلم تعد يد جورج طليقة في إعداد وجباته الإنكليزية اللذيذة على الرغم من افتقارها إلى التنوع. إذ بدأت بوليت تأمره بإعداد وجبات شهية، فكان فرانك يهرع إلى المتجر على الفور ويبدأ جورج بإضفاء لمساته البارعة على الأطباق الغريبة الجديدة التي غزت المائدة. فصار كل يوم يحمل معه طبقاً جديداً وأصناف توابل غريبة.

كانت بوليت، بلا ريب، بمثابة التوابل التي اقتحمت حياتنا وطيبتها. فبدأ البيت يخرج من حالة السكون التي كانت تهيمن عليه إلى حياة اجتماعية أكثر فرحاً على الرغم من أنه بقي، على وجه العموم، أكثر هدوءاً من معظم الدور المماثلة في هوليوود. عشقت بوليت حفلات الاستقبال. أما والدي، الذي لم ينظم الكثير من هذه المناسبات من قبل لأنه لم يكن يستطيع تحمل الانشغال بالتفصيلات المنزلية، فقد اكتشف الآن أنه يستطيع أن يتكل على بوليت في كل تلك الترتيبات المرهقة، وأن يدع نفسه ينخرط في هذا العالم بكل جوارحه.

كان كل من في هوليوود يعتبرونه مضيفاً رائعاً. وأظن أن أداء دور المضيف كان بالنسبة إليه شكلاً من أشكال الدراما. كان يتمتع بسلوكيات الطبقات الراقية والملكية على الطريقة الإنكليزية.

فكان يلتزم بالشكليات مع الحرص على الكياسة واللطف. كما كان حريصاً على جعل ضيوفه يشعرون وكأنهم في بيوتهم. لكن والدي، لم يكن مجرد رجل مضياف، ولا يمكنه أن يكون كذلك، بل كان أولاً، وعلى وجه الخصوص، رجل ترفيه. فلم يكن، إلَّا فيما ندر، يدع الفرصة تفوته دون تقديم فاصل ترفيهي، سواء في منزله أم لدى أصدقائه.

فعندما عاد والدي مع بوليت من الصين، نظم لهما دوغلاس فيربانكس، وعروسه الجديدة ليدي سيلفيا آشلي، حفلاً للترحيب بهما. ولدى وصول والدي إلى الحفل كان في استقباله خادم دوغلاس فيربانكس الصيني. فهمس والدي في أذنه: «سأتكلم معك بالصينية بعد قليل وعليك أن تجيبني حتى ولو لم تفهم شيئاً مما أقوله». فانخرط الصيني في اللعبة وأمضى الأمسية يجيب عن هراء والدي بلغة صينية سليمة دون أن يشك الضيوف حوله بأيّ شيء، بل أخذوا يتهامسون بإعجاب عن عبقرية والدي الذي استطاع النطق بالصينية كأهلها على الرغم من أن الفترة التي قضاها في الصين لم تزد عن أسبوعين أو ثلاثة.

لكن جرأة والدي كانت تصل إلى آفاق أبعد في الحفلات التي كان ينظمها. فذات مرة، وجد نفسه، خلال إحدى هذه الحفلات، جالساً بجوار سيدة إنكليزية ثرية لم تتوقف عن الكلام بأسلوب المثقفين. والواقع أن نبرة الصوت الرتيبة هي، بالنسبة إلى والدي، من أشكال التعذيب الذي لا يستطيع تحمله فترة طويلة.

هكذا قال لها بتهذيب أثناء مرور النادل بالقرب منه وفي يده قدر السلطة: «اعذريني دقيقة». ثم غمس يده بفظاظة في القدر وأخذ حفنة من السلطة ووضعها في طبقه ثم مسح يده بمنديله بعناية واستأنف حواره معها: «والآن. ماذا كنت تقولين بالضبط يا سيدة...». لكنها لم تكن، في الواقع، تقول أيّ شيء، بل كانت تضحك بطريقة هستيرية. وقد وضعت تلك اللحظة حدّاً للشكليات في الحفلة.

كانت شخصيتا بوليت ووالدي متكاملتين في العديد من النواحي. أحبّ والدي الحياة الهادئة وكان يجد متعته في قضاء فترة المساء في القراءة والكتابة. وبدورها، عشقت بوليت القراءة وكانت تهوى قضاء بعض الأمسيات في العمل على بعض المشاغل الصغيرة. لكنها لم تكن قادرة على تحمل الهدوء ليلة تلو أخرى، فكانت، لدى إحساسها بالملل، تطلب من والدي اصطحابها إلى الخارج لقضاء بعض الوقت في المرح.

بدت بوليت مسكونة بالبهجة وهو أمر لم تستطع تعكيره نوبات الصمت المفاجئة التي كانت تنتاب

والدي إلَّا قليلاً. فكانت بوليت تشغل نفسها بدروس الرقص والغناء وقضاء الوقت معي ومع سيدني إلى أن يصبح والدي جاهزاً للخروج من قوقعته.

كما كان اللباس مجالاً آخر للتباين بين الاثنين. ففي حين كان والدي متحفظاً للغاية، عشقت بوليت البهرجة والإسراف. فقد أحبّت المجوهرات الثمينة واقتنت أطقماً من القلادات والأساور والخواتم في حين لم يكن والدي يطيق أن يثقله أيّ شيء، بل إنه لم يكن يحمل الكثير من المال معه- لم يكن يحمل في جيبه عادة أكثر من خمسة وعشرين دولاراً. كما أنه، على حدّ علمي، لم يضع في إصبعه خاتماً ولم يعلق في معصمه ساعة يد وكان يقول لي باستمرار إنه لا يطيق أن يعلق شيئاً في يده. فكان يحمل ساعته في صداره طيلة الفترة التي كان الصدار فيها من الأزياء الرائجة.

كانت خزانة ملابس بوليت دوامة من الألوان وكانت ترتدي ملابس نوم فاخرة تتبع أحدث خطوط الموضة. أما والدي، فكان لديه، إن لم تخني الذاكرة، ثلاث سترات رسمية احتفظ بها لفترة طويلة كما احتفظ بوشاحين قديمي الطراز لم أره يستخدمهما قط ورداء واحداً لركوب الخيل وحذاء عالياً بنيّاً مصنوعاً من الجلد. أما ملابس ركوب الخيل فلا بُدَّ أنها عائدة إلى تلك الحقبة من حياته حين دعاه دوغلاس فيربانكس إلى الانضمام إليه في رياضة ركوب الخيل على الرغم من أن والدي لم يأبه يوماً بالخيول، وكان يظن أنه يمكن للحصان أن يخرج عن نطاق السيطرة ويعدو بعيداً وهو على صهوته. لم تكن خزانة ملابس والدي مسرفة، تماماً كما كان يقال في هوليوود. فقد كانت بذلاته تميل إلى المحافظة من حيث الطراز والألوان التي تراوحت بين الرمادي والبني والأزرق وكان يحتفظ بالبذلة ثلاثة أعوام أو أربعة قبل أن يهبها لأحد ما ويخيط غيرها- دون أن أفهم سبب قيامه بذلك لأن بذالته الجديدة بدت، على الدوام، مطابقة لتلك التي تخلص منها.

وعلى الرغم من أن والدي كان محافظاً في ملبسه، إلَّا أنه كان متابعاً جيداً لتقليعات الموضة باستثناء تفصيل واحد، هو الأحذية ذات الكعب العالي التي تعقد بزر في الأعلى التي دأب على انتعالها في المناسبات الخاصة، سواء بعد الظهر أم في المساء. كان هذا النوع من الأحذية مكسوّاً بالجلد من الأسفل وبنوع من القماش الوبري في الأعلى بحيث يبدو المرء وكأنه ينتعل طماق كاحل.

كان لولع والدي بهذا النوع من الأحذية جذور عاطفية. فقد قال لي ذات مرة: «عندما كنت مجرد صبي صغير يؤدي أدواراً صغيرة في المسرحيات الغنائية، كان رجال، كالسير هنري إيرفينغ، ينتعلون أحذية كهذه. وقد كان الحلم الذي راودني على امتداد طفولتي أن أنتعل مثلها عندما أنجح».

لسوء الحظ، كان هذا النوع من الأحذية، في الوقت الذي أحسّ به والدي أنه قد «نجح»، أثناء الحرب العالمية الأولى، في طريقه إلى الأفول. لكن ذلك لم يعنِ له شيئاً، بل بدأ على الفور في انتعال الأحذية التي لطالما حلم بها وداوم على استخدامها سنوات طويلة حتى في سنوات الحرب العالمية الثانية الأمر الذي أذهل جيلاً كاملاً من الرجال لم يسمع قط بهذه الموضة. كان، على الدوام، يحتفظ بثلاثة أزواج من هذه الأحذية التي كانت تصنع في إنكلترا خصيصاً من أجله. وعندما يشعر بأن معالم الاهتراء قد بدأت تظهر على أحدها كان يطلب من فرانك أن يشحن الجلد إلى إنكلترا كي يتمّ صنع حذاء جديد، بحيث لا تفرغ جعبته منها. وبالطبع، كانت هذه الأحذية باهظة الثمن للغاية، إلَّا أن ذلك لم يجعل والدي، المقتر في العديد من الأمور، يفكر في الاستغناء عنها.

كنت أعتبر أن والدي يتمتع بمظهر مثير للاهتمام، بل مميز، بشعره الرمادي وبذلته الصوفية الزرقاء وحذائه ذي الزر المرتفع. لكن بوليت لم تطق مشاهدة هذه الأحذية التي اعتبرتها عتيقة للغاية وصممت على التخلص منها. كانت، في بداية الأمر، تلمح إلى قدم عهدها، لكن والدي كان يتجاهل تلميحاتها، فبدأت تتناولها بصراحة أكبر وكانت ترجوه قائلة: «عزيزي، أرجوك، هذه المرة من أجلي، أن تنتعل حذاء آخر».

كانت بوليت بارعة. وقد استطاعت الحصول من والدي على الكثير من التنازلات. لكنها عجزت عن تحقيق أيّ قدر من النجاح فيما يتعلق بهذه الأحذية. هكذا، أقدمت بوليت، ذات يوم، على خطوة أكثر جرأة. فقد قامت، ببساطة شديدة، بإخفاء الأحذية- بأزواجها الثلاثة معاً. في تلك الليلة، ذهب والدي لانتعال حذائه فلم يجده. سمعناه يغمغم لنفسه ويزيح الأشياء الموجودة في غرفته. ثم قرع جرسه وهرع فرانك فقابله والدي في الرواق وقال له بنبرة من لا يصدق ما يحصل معه: «أين أحذيتي يا فرانك؟» فأجابه فرانك بدهشة: «أليست هناك سيد شابلن؟» ودخل إلى الغرفة كي يراها بنفسه، فتبعه والدي ثم خرج ثانية وقد بدا عليه الضياع، وعندما رآني، وسيدني، نادانا قائلاً برجاء: «تشارلز! سيدني! هل رأيتما حذائي؟...» وأضاف بنفاد صبر واضح دون انتظار أن نجيبه: «آه... بالطبع لا. اللعنة. أين اختفى؟».

ثم سأل بوليت المنهمكة باستعداداتها الخاصة للخروج فأجابته بطريقة مراوغة. فقال: «اللعنة. يجب أن يكون في مكان ما». ثم اندفع هابطاً السلم ولحقناه ونحن نشعر بالحيرة مثله ثم خرج فرانك من الغرفة وانضم إلينا وهو يهزّ رأسه.

تبعناه، نحن الثلاثة، وهو يطوف كالإعصار في غرف الطابق الأرضي بحثاً عن حذائه. قلب كل

شيء رأساً على عقب وأفرغ ما في الخزائن وأزاح قطع الأثاث وأخذ يبحث خلف البيانو والأرغن. فتش في كل الأماكن، المعقولة منها وغير المعقولة، وكان، مع كل لحظة تمضي، يزداد قنوطاً وهو يغمغم باستمرار: «اللعنة! ألف لعنة! أين يمكن أن يكون قد ذهب؟» كان يتكلم وكأن للحذاء عقلاً يقرر بنفسه المكان الذي يذهب إليه. «أين هو يا فرانك؟» لكن فرانك لم ينبس ببنت شفة، بل أخذ يساعد والدي في البحث برباطة جأش شرقية حقيقية.

وأخيراً انتهت بوليت من ارتداء ملابسها وبدت كاملة كإحدى لوحات رينولدز وخرجت من غرفتها وقالت: «هيا بنا يا تشارلي. ألم تستعدّ بعد؟ سنتأخر». فصاح والدي، وقد بلغ نقطة الغليان: «حذائي! لقد سرق ابن عاهرة ما حذائي. لا أستطيع أن أذهب دون حذائي». فأجابته بوليت بهدوء: «ستجده في الغد هنا أو هناك. انتعل حذاء آخر يا تشارلي ودعنا نذهب. هيّا! لقد تأخرنا». لم تكن بوليت تطيق التأخر عن الحفلات. لكن استجداءها لم يجدِ نفعاً. فقد كرر والدي كلامه: «لا أستطيع الذهاب دون حذائي» واستمر في قلب المنزل رأساً على عقب في خضم حملته اليائسة. أدركت بوليت، في نهاية المطاف، أن خطتها لن تقودها إلى أيّ مكان وأخبرت والدي بمكان الحذاء- الأحذية الثلاثة في الواقع- بطريقة مقنعة. فانتعل والدي أحدها دون أن يقول كلمة وغادر المنزل وبرفقته بوليت.

هكذا انتصر والدي في تلك المعركة الصغيرة، لكن البريق في عيني بوليت كان يشي بوضوح أنها لم تستسلم في شأن الحذاء ولا في شأن أيّ أمر آخر. لقد كانت عازمة على الاستمرار في الضغط على والدي حتى تغيير عاداته المفرطة في محافظتها والتي لم تكن الأحذية إلّا مجرد رمز لها.

كان عيناها تلمعان كلّما نظرت إلى غرفة المعيشة. وذات يوم قالت: «آه يا تشارلي. تعلم أنه يجدر بنا التخلص من الكثير من الأشياء الموجودة هنا. الغرفة مزدحمة للغاية». كان والدي، في تلك اللحظة، يقرأ، لكنه رفع رأسه بسرعة قائلاً: «لماذا؟ ما العيب فيها؟ أنا لا أرى أيّ شيء معيب». ثم رنا بحنان إلى تذكاراته وصوره الضوئية والأشياء الأخرى الموجودة هناك منذ فترة طويلة. لكن بوليت استمرت في التملق: «آه، لكن تشارلي، إنها غرفة جميلة بالفعل- لو أننا نزودها بستائر جديدة وبسجادة جميلة وبأثاث عصري. أستطيع أن أتخيلها!». فأجابها والدي بسرعة: «اللعنة يا بوليت! الغرفة رائعة كما هي». لم يبدُ على بوليت أنها سمعت ملاحظة والدي الأخيرة، فتوسعت في الشرح: «نعم يا تشارلي. علينا تجديد المنزل برمّته. إنه بحاجة إلى ورق جدران جديد وإلى طلاء جديد وسجاد جديد. نستطيع جعله صالة عرض». اجتاح الغضب والدي فجأة وقد أصبح على وشك الانفجار: «صالة عرض! ألف لعنة. هل تحاولين تحطيمي بإسرافك يا بوليت؟».

لكن لم يكن إنفاق المال ما يؤلم والدي بحقّ. لقد قام ببناء البيت بنفسه وكبرت الأغراض الموجودة فيه معه وهي تكاد تصبح جزءاً منه حتى إنه كان يشعر بالضيق لمجرد نقل غرض من مكانه، ناهيك عن التخلص منه. لقد كان، ببساطة، عاجزاً عن تحمل حدوث تغييرات جذرية في حياته.

كفَّت بوليت عن إثارة الموضوع في ذلك اليوم، لكن كان واضحاً لكل ذي بصيرة أنها لم تستسلم. فقد استمرت في تأمل غرفة المعيشة حولها وكأنها تفكر في أمر ما. أما والدي، الذي كان على وشك العودة إلى الكتاب الذي كان يقرؤه، فقد رأى ذلك التعبير في عينيها. لقد كان النصر حليفه ونجح في وضع بوليت عند حدّها وطرد، مرة واحدة وإلى الأبد، شبح التغيير لكنه كان، على الرغم من ذلك، يتحرك في كرسيه بضيق.

لم تمضِ بوليت بعيداً في خطط تجديد المنزل في خريف ذلك العام، باستثناء إزالة أكثر الأشياء قبحاً من الغرفة. واستمر والدي يرفض بعناد كل أفكارها. لم تكن بوليت، نفسها، ربة منزل تقليدية تحمل على عاتقها مهمة ترويض الرجل الذي تزوجته حديثاً. فقد كانت، إلى جانب ذلك، ممثلة تطمح إلى المضيّ في مهنتها قدماً وكان ذلك أكبر شواغلها طيلة خريف عام 1936.

كان النجاح الذي حققته في فيلم «الأزمنة الحديثة» لحظيّاً وكانت تعرف، كما يعرف الجميع، أنها تحتاج إلى تعزيز ذلك النجاح بفيلم آخر. وقد استطاع والدي، نفسه، أن يرى المنطق في حجتها. هكذا، أمضى والدي معظم وقته على متن السفينة التي أقلتهما في رحلتهما إلى الخارج في قمرته يعمل على مشروع ما كفيل بإبرازها- فيلم ناطق كان يخطط لإخراجه دون أن يظهر فيه. وكان يتوقع أن يكون النص جاهزاً لدى عودته، لكن ذلك لم يتحقق.

انكبّ على أبحاثه طيلة فصل الصيف والخريف الذي تلاه يقلب الأفكار حتى يقع على واحدة تبدو واعدة قبل أن يتخلى عنها على الفور تقريباً. وعلى الرغم من إلحاح بوليت عليه بضرورة إخراجها إلى الأضواء، من جديد، قبل أن ينساها الناس، فقد تطلّب الأمر ثلاث سنوات تقريباً قبل أن يصبح جاهزاً لتصوير ذلك الفيلم الذي أحدث صدمة في أوساط الناس حول العالم، في ذلك الوقت وبعد الحرب العالمية الثانية على حدّ سواء، والذي حمل اسم «الديكتاتور الكبير». كان من سخريات العبقرية التي يتمتع بها والدي أنه لم يكن قادراً على استعجالها، مهما فعل. فلم يكن الإلهام يزوره بإحدى الأفكار اللامعة إلّا في الوقت الذي تراه تلك العبقرية مناسباً.

كان والدي لا يزال في خضم مطاردته الحثيثة لقصة لبوليت عندما حلّ عيد الميلاد في ذلك العام. رسمت أعياد الميلاد في منزل والدي صورة مركبة في ذهني، لأن أعياد الميلاد كانت متماثلة تقريباً من حيث الأسلوب والتركيب. بل إن الطقس الذي كان يسود فترة الأعياد لم يتغير ولو مرة واحدة، وكان، كما أتذكّر، مشمساً ومعتدل الحرارة.

وصلت، وسيدني، إلى منزل والدي برفقة نانا في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً- كانت وجبة ما قبل الغداء في الثانية عشرة. يشبه السير إلى المنزل، في ذلك اليوم، التجول بين أوراق رواية ديكنزية لأن عيد الميلاد، بالنسبة إلى والدي، مؤسسة إنكليزية بامتياز. استطعنا، عند وصولنا إلى الباب الأمامي، أن نرى شجرة الميلاد منتصبة في الجهة البعيدة من الرواق. اتخذت

شجرة الميلاد على الدوام شكل شجرة بيضاء مهيبة ترتفع حتى تكاد تمسّ السقف. وكان الخدم اليابانيون لدى والدي يزينونها قبل أسبوع من حلول عيد الميلاد بإشراف فرانك. وكان يوم العيد يوم احتفال بالنسبة إليهم كذلك، لأن والدي لم يكن يغفل عن نفحهم مكافآت مجزية.

وعلى الرغم من جمال الشجرة، إلّا أنها لم تكن تستحق منا أكثر من نظرة سريعة لأن تركيزنا يكون منصبّاً، عادة، على الهدايا المكدسة عند قاعدتها. بدأنا عبور الرواق حين ظهر والدنا وتقدم نحونا كي يهنئنا، بمظهر الوالد الجذل الذي لا يعكر صفوه شيء. كان عيد الميلاد بالنسبة لوالدي دراما حقيقية كان يحرص على تقديمها، طيلة سنوات طفولتنا، مع إدخال تعديلات طفيفة عليها كل مرة.

كان يبادرنا بالقول، وقد رأى نظراتنا معلقة بالعلب: «حسناً أيها الصبيان. أنا آسف، لكن هداياكما هذا العام قليلة. هنالك القليل من الأشياء فحسب. لقد كان عاماً مرهقاً». فكنت، وسيدني، نكتشف الدور الذي يؤديه ونجاريه فيه وقد تلون صوتنا بخيبة أمل مقنعة: «لا بأس يا أبي». فكان والدي يجيب بنبرة الفلاسفة وهو يفرك يديه، مع تكشف فصول الدراما، بسرور يحاول منعه من التجلي في صوته: «حسناً. لا يمكن لعيد الميلاد أن يكون عظيماً في كل عام. أليس كذلك أيها الصبيان؟» فنجيبه وقد ازددنا براعة في أداء الدور الموكل إلينا: «لا تقلق يا والدي».

يتقاطر الأصدقاء والأقارب إلى المنزل طيلة فترة الصباح من أجل وجبة ما قبل الغداء. كان هنالك عمنا الممثل ويلر درايدن، وهو أخ والدي نصف الشقيق، الذي كان، في ذلك الوقت، قد التحق بوالدي في كاليفورنيا. كان ابنه سبنسر أصغر منا سنّاً لكنه كان قادراً على سرد صفحات من شكسبير لأن والده كان يضغط عليه في هذا الاتجاه إلى درجة جعلت سبنسر ينبذ، فيما بعد، كل ما يمتّ إلى الثقافة بصلة ويختار الجاز مهنة له. وهو يعزف الطبل اليوم ببراعة.

كانت معرفة سبنسر بشكسبير تدخل السرور إلى قلب والدي، وكان في بعض الأحيان يتباهى بإنجازاته. ربما كان يأمل، بهذه الطريقة، أن يحثنا على القيام طوعاً بما جعل ويلر ابنه يحققه بالإكراه. لكنني، وسيدني، لم نشعر بالغيرة من سبنسر الذي كان صبيّاً رقيقاً حلو المعشر، ناهيك عن أننا كنا نعرف حق المعرفة أننا فزنا بالصفقة الأفضل، أي بوالد لم يجبرنا على تعلم كلمة واحدة من أيّ شيء.

وكان العم سيدني شابلن حاضراً هناك بدوره، كما ضيف والدي الرهيب إلى موائد العشاء، الدكتور رينولدز وصديقاه القديمان آمي وآلف ريفز. وجاء تيم ديورانت، الذي كان والدي قد تعرف إليه

للتوّ في ذلك العام عن طريق المخرج كينغ فيدور، مع ابنته. وكان كل من مارجوري كونستانس كوليبه وآنيتا لوس وكينغ فيدور ودوغلاس فيربانكس، حتى وفاته عام 1939، وزوجته ليدي سيلفيا آشلي من ضيوف عيد الميلاد الدائمين. وقد أحضر كل من هؤلاء هدايا لي ولسيدني وضعوها عند قاعدة الشجرة مع الهدايا الأخرى.

وفي الساعة الثانية عشرة، جلسنا إلى الطاولة الكبيرة في غرفة الطعام. وكان طعام يوم عيد الميلاد مناسبة يتخلى فيها والدي عن إلزامنا بالشكليات. فكنت، وسيدني، قادرين على التحدث بحرية ومقاطعة الآخرين في اللحظة التي نختارها والضحك ما شئنا. وكانت قائمة الطعام في تلك المناسبة ثابتة لا تتغير: تفتتح بلحم البقر المشوي وتنتهي بكعكة يوركشاير- وهي كعكة من ثمر البرقوق مع الروم كانت تحط على الطاولة عندما يحين وقت الحلوى- والشمبانيا. وكان والدي يجعلنا، بعد انتهاء الطعام نتذوق شمبانيا العيد.

تحلقنا حول الشجرة لفتح هدايانا حيث وجدنا أنفسنا، مرة أخرى، في قلب الدراما. فارتسمت على وجهينا علامات الجدية وبدأنا بالبحث وسط الركام عن الهدايا التي تخصنا وأخذنا نرتبها بفتحها. ومع النموّ التدريجي لأكداس الهدايا المخصصة لنا، بدأت أساريرنا بالانفراج وارتسمت على وجوهنا أمارات الذهول، وقلنا بلهفة: «كل هذه الهدايا لنا يا والدي؟» فأطلق والدي ضحكة خافتة وقال: «نعم، إنها لكما يا ولدي». بدأت الكلمات تتدافع على شفتينا وقلنا بنبرة ذهول: «لكنك قلت...». لقد كنا نشعر بسعادة حقيقية بسبب الهدايا التي تلقيناها والتي كانت سخية على الدوام. لكن سعادتنا الأكبر كانت بمشاركة والدنا التمثيلية الصغيرة التي أعدّها لنا.

أتذكّر اثنتين من هدايا عيد الميلاد عام 1936. كانت الهدية الأولى ألبوم كونشيرتو تشايكوفسكي الأول. فذات ليلة كنت فيها في منزل والدي، شغلت المذياع وأخذت أستمع إلى تلك المقطوعة قبل أن أغطّ في نوم عميق. لا بُدَّ أن والدي وبوليت تذكرا تلك الليلة فأحضرا لي ذلك الألبوم. أما الهدية الثانية، فهي الهدية التي يتوقعها المرء من بوليت، ولم تكن موجودة عند قاعدة شجرة عيد الميلاد. فقد انسلت بوليت خارجة من الغرفة ثم عادت إليها متأبطة جروين من نوع بيدلينغتون- واحد لكل منا. هكذا، وجد والدي نفسه، من جديد، في مواجهة معضلة الكلاب، وقد أصبح عددها الآن ثلاثة بدلاً من واحد، إذا أضفنا إلى الجروين الكلبة بادلز التي أصبحت مروضة في النهاية على الرغم من العقل الخاص الذي يميزها.

رأى والدي في جروي البيدلينغتون كائنين لطيفين بآذانهما الطويلة ووجهيهما الأنيقين اللذين يشبهان وجوه الأغنام، على الرغم من أنه لم يرضَ بوجودهما داخل المنزل. لكن الجروين تعلّما،

بمساعدة مكتومة مني ومن سيدني، التسلل إلى الداخل وكنا نجري معاً من غرفة إلى غرفة حتى ينتبه والدي إلى ما يجري حوله، ويأمرنا بنبرة قاطعة: «أخرجا هذين الشيئين القذرين من هنا»، فكنت، وسيدني والكلبان اللذان أصبحنا ندعوهما بانش وجودي، نطير باتجاه الباب الخارجي.

مع انتهاء موسم عيد الميلاد، عاد والدي إلى الجدّ، حتى إنه لم يجد ما يكفي من الوقت لمرافقة بوليت إلى عطلة ممتعة نظمها كينغ فيدور في منزل العطلات الذي يملكه في جبال سان برناردينو. وعند عودتها بعد ستة أيام وجدت والدي منكبّاً على أحدث قصصه. كان والدي منهمكاً، في العام الماضي، في قصة ذات خلفية شرقية ثم في أخرى تجري أحداثها في جزر البحر الجنوبي وقصص أخرى وحده الله يعلم عددها. لكنه بدا مقتنعاً، هذه المرة، أن قصته الجديدة، المقتبسة عن رواية لـ د. ل. موراي بعنوان «الوصاية»، هي ما كان يبحث عنه منذ زمن طويل. كانت حماسة والدي للقصة في ذروتها، كما هي الحال معه دائماً، إلى درجة جعلت بوليت تصدق أن الأمور تسير على السكة الصحيحة. ثم حصل شيء في فصل الربيع ذاك جعلها تصاب بالدوار. فقد اتصل ديفيد سيلزنيك، الذي كان يبحث عن أحد يجسد شخصية سكارليت أوهارا في فيلمه الجديد «ذهب مع الريح» الذي تقدر كلفة إنتاجه ببضعة ملايين من الدولارات، ببوليت عارضاً عليها أن تقوم بتجربة أداء لهذه الشخصية. فلم يكن من العسير على المرء، إذن، أن يتوقع مقدار الإثارة التي انتابتها. إذ كانت بوليت قد وصلت إلى هوليوود كفتاة كورس صغير مجهولة قبل أن تلعب دورها السينمائي الوحيد، حتى ذلك الوقت، في فيلم صامت هو «الأزمنة الحديثة». أما الآن، فقد أعرب السيد سيلزنيك عن اهتمامه بمنحها أحد أضخم أدوار البطولة في تاريخ السينما. لكن والدي لم يشارك بوليت حماستها. فقد كانت، بالإضافة إلى كونها زوجته، مرتبطة بعقد معه ولم يكن راغباً في جعلها تعمل لصالح أحد آخر. هكذا، استمر والدي في العمل على نصّه بإصرار.

هذا ما كان عليه الوضع لدى عائلة شابلن عند حلول عيد الفصح. ومرة أخرى، ترك والدي كل ما كان يشغله كي يحتفل بالعيد. لم أكن، وسيدني، حتى ذلك العام، قد شاركنا في احتفال تلوين البيض. لكنه سمح لنا الآن بمساعدة بوليت فأخذنا ثلاثتنا نعمل في غرفة المعيشة، في حين احتفظ والدي لنفسه بمهمة إخفاء البيض، وهو عمل كان يهواه بسبب طبيعته التآمرية. والواقع أنني لم أكفّ، للحظة، عن الدهشة من بساطة الأشياء التي كان والدي يجد متعته فيها. أستطيع تذكّر تعبيرات المكر على وجهه وهو يقتادنا إلى الفراش باكراً كي يكون قادراً على العمل بحرية. فكان يخفي البيض في الكراسي والأريكة في غرفة المعيشة وفي غرفة الطعام وفي الخارج.

وصبيحة عيد الفصح، تناولنا إفطاراً متأخراً على الشرفة وساد جوّ من الاسترخاء كان بمثابة

إشراق جديد للشمس بعد أشهر من التوتر عاشها والدي. ولم تمضِ سوى فترة قصيرة حتى تجمعنا مع أصدقائنا استعداداً للصيد. وسرعان ما انتشر الأطفال في كل مكان يصرخون ويهتفون ويقلبون الأشياء في خضم بحثهم المحموم. وها هو والدي يتبعنا من مكان إلى آخر ويداه معقودتان خلف ظهره، وكأنه يحاول الامتناع عن استخراج البيض من مخبئه بنفسه، ويقودنا بنبرة رتيبة مستخدماً عبارات مثل: «أنت ساخن الآن! الآن أصبحت بارداً! أنت فاتر الآن!». واستمر الأمر على هذا المنوال حتى عثرنا على البيض كله.

وبعد انقضاء العيد، عاد والدي إلى نص «الوصاية» وعادت بوليت إلى الانتظار. لكنها كانت قد بدأت تدرك، بقلب منكسر، أن الأمور في طريقها إلى العودة إلى نقطة البداية من جديد. فقد بدأت حماسة والدي للنص تفتر قبل أن تتلاشى القصة كالقصص التي سبقتها.

استولى على بوليت إحساس بالقنوط. فقد انقضى، حتى ذلك الحين، عام كامل على العرض الأول لفيلم «الأزمنة الحديثة» الذي قدمها للجمهور، وأصبحت تخشى الآن أن الجمهور سينساها بالتأكيد إن انتظرت وقتاً أطول. وبدأت تظهر لهفة أكبر إلى دور سكارليت أوهارا الذي كان السيد سيلزنيك لا يزال يلوح لها به. لكن والدي كان قاسياً في رفضه السماح لها بإجراء تجربة أداء الدور.

لم تساهم تلك الأحداث في تعزيز التناغم في منزل آل شابلن وبدأت الصحف تثرثر، من جديد، حول مشاكل بين والدي وبوليت. لكننا، نحن الصبيين، لم نكن مدركين لوجود أيّ شرخ بينهما. فقد استمرّا في حرصهما على إبقاء خلافاتهما بعيدة عنا.

كنت، وسيدني، في تلك المرحلة الفاصلة، أكثر سعادة بالتحولات التي عرفتها اهتمامات الطفولة من أن يزعجنا أيّ شيء يجري في عالم الراشدين. فقد كنا في سنّ أوشكنا، معها، على الدخول بقوة في ذلك العالم المخيف الذي قدمته لنا قصص الأشباح التي كان والدي يرويها لنا، ولم تكن كميات الدماء والعنف وأعداد الغيلان التي كانت تقدم لنا قادرة على إرواء نهمنا.

وسرعان ما أدرك الخدم اليابانيون أنهم أصبحوا في حاجة إلى ما يزيد عن النكات والحكايات التقليدية من أجل تسليتنا، فأخذوا، في المرات التي كنا نتناول طعامنا فيها برفقتهم، يصفون لنا حياة الفرسان اليابانيين وصاروا يتنافسون في ذكر التفاصيل الدموية لعمليات الإعدام في اليابان التي لعب سيف الساموراي دوراً رئيساً فيها. فكان فرانك يقول: «خذ ذلك السيف الكبير مثلاً. إن ضربة واحدة منه كفيلة بجعل الرأس ينفصل عن الجسد. كانت الرؤوس تتراكم في الشوارع وكانت الدماء في كل مكان. هكذا هي الإعدامات العلنية في اليابان. هكذا كانت تجري الأمور هناك». فيوافقه جورج قائلاً: «نعم، نعم»، محاكياً حركة قطع الرأس ويقول: «لا رأس! هكذا!». ثم يطفق فرانك في ذكر المزيد من التفاصيل المرعبة التي كان كل من جورج وكاي وكل من يتفق وجوده من أقاربهم يدخل عليها تفسيراته المثيرة. ثم ينتقلون من وصف عمليات الإعدام إلى حكايات دموية أخرى. أما أنا، وسيدني، فكنا نضغط عليهم بجشع وبلا هوادة من أجل الحصول على كل ما في حوزتهم من أشباح ومصارعي سومو.

وكنا، فيما بعد، نخبر والدي بتلك القصص متكلين على كونه مستمعاً رائعاً يبدي قدراً كبيراً من البهجة بما اختار أن يعتبره اهتماماً نبديه بقصص الشعوب وعاداتها. لكنه عجز عن الاحتفاظ بسكونه عند وصولنا إلى مصارعي السومو. فكان يقول: «نعم، لقد رأيتهم من قبل. إنهم ضخام الجثة يصل طول واحدهم إلى ست أقدام وبطونهم كبيرة- إنهم رجال أقوياء بحق». ثم يتحول والدي فجأة إلى مصارع سومو، على الرغم من ضعف بنيته وقامته التي لا تزيد عن خمس أقدام وستة إنشات، ويحاكي حركة فرك اليدين بالملح ثم يحني قامته ويحاول رفع نفسه من حزامه ويسير على محيط دائرة بالطريقة الاحتفالية التي تبدأ بها مباراة السومو. وفجأة، يشنّ هجوماً على عدوّ وهمي وقد أومضت عيناه ببريق قاتل كان كفيلاً ببثّ الرهبة في قلوبنا. وعلى الرغم من قامة والدي القصيرة، إلّا أنه كان يتحول، عند تجسيده شخصية مصارع السومو، إلى رجل ضخم بصورة مخيفة وكان يبدو قادراً على ملء الغرفة برمّتها.

وبعد انتهائه من تقديم فقرة السومو، كان والدي يمضي إلى وصف المصارعة التي شاهدها في تايلند. فقد قال: «إنهم يستخدمون في الملاكمة أقدامهم كذلك». وفجأة تحول إلى ملاكم من تايلند، باستثناء أن محاكاته بدت أشبه بنوع من الرقص، فكان يقفز في الهواء قاذفاً قدمه إلى الأمام. وكان يؤدي ببساطة لا تصدق حركات لم ندرك مقدار صعوبتها، بل قل استحالتها تقريباً، إلّا عندما اختبرناها بأنفسنا.

لم نستطع يوماً التفوق عليه. فمهما تكن القصة التي نرويها له مثيرة، كان قادراً على إخبارنا بأخرى أفضل بقليل. فبدأنا نقتني أكداساً من مجلات الرعب كنا نشتريها من المتجر الموجود في الجهة المقابلة من شارع مدرستنا. كما قرأنا كل قصص الخيال العلمي وكل القصص الغريبة التي طالتها أيدينا في خضم سعينا للتفوق عليه.

وأخيراً، ظننا أننا استطعنا الوصول إلى مرادنا. كانت القصة التي وقعنا عليها قادرة على جعل فرائصنا ترتعد، وكنا واثقين أنه سيكون لها المفعول نفسه على والدي. هكذا، انتظرنا اللحظة التي سنقصها فيها عليه على أحرّ من الجمر وكنا، على الدوام، قادرين على الاعتماد على حسن انتباهه عندما يكون لدينا شيء مخيف نعرضه عليه.

انتهينا من إخباره بالقصة فأبدى إعجابه بها قائلاً: «آه، إنها رائعة للغاية» على الرغم من أنني أعجز اليوم عن تذكر أيّ جزء منها، لغرابة الأمر. ثم فرك يديه بترقب وأضاف: «الآن... دعاني أروي لكما أمراً فعلته، والدكتور رينولدز، ذات مرة». كان يكفي والدي ذكر اسم الدكتور رينولدز حتى يبثّ في جسدينا قشعريرة مفعمة بالتشويق والترقب.

بدأ والدي قصته: «ذات مساء كنتما فيه في المدرسة، قدم الدكتور رينولدز لبعض ضيوفي درس تشريح مثير للغاية». وعلى الفور، غرقت، وسيدني، في الحدث، تحت تأثير سحر وصفه ووجدنا أنفسنا، فجأة، في غرفة الطعام التي تنيرها الشموع بشكل خافت وقد تحلقت حول الطاولة مجموعة من الضيوف الممسوسين، في حين كان والدي والدكتور رينولدز جالسين على رأس الطاولة وقد تمدد أمام الدكتور رينولدز شيء ما على لوح كبير يستند إلى حوامل. وكان ذلك الشيء، بطبيعة الحال، جثة بشرية.

ومنذ تلك اللحظة، روى والدي القصة لنا على شكل مسرحية منتقلاً من دور إلى آخر بسرعة البرق. إنه الطبيب، الآن، برزانته وبراعته يغمس أصابعه في وعاء وهمي لغسل الأصابع ثم ينفضها في الهواء ويجففها بمنديله بأناقة. ثم يمسك مبضعاً وهميّاً ويشق بعناية الجثة غير المرئية

الممددة أمامه، ويبدأ بإخراج القلب والدماغ والكليتين والرئتين والمعدة واللسان، واحداً تلو الآخر، ويحمل كل عضو بين يديه بعناية تحت ضوء الشمعة مقدماً وصفاً مختصراً عن وظائفه (كان والدي قد حصل على أكبر قدر ممكن من المعلومات الطبية من الدكتور رينولدز، في حين كان الطبيب ينتزع منه أسرار فن التمثيل).

وفي ختام الدرس الموجز، بدأ والدي، مجسداً هذه المرة شخصية الدكتور رينولدز، يمرر الأعضاء إلى الآخرين. وفجأة، عاد والدي إلى شخصيته الأصلية وأخذ يفحص هذه الأعضاء وقد ارتسمت تعبيرات الرقة على وجهه قبل أن يمررها للشخص الجالس إلى جانبه. هكذا أخذ والدي يحاكي شخصيات الضيوف الجالسين إلى الطاولة، الواحد تلو الآخر، مجسداً شخصية الفضولي ثم المتبجح فالمرأة الخائفة، قبل أن تعود الأعضاء، في نهاية المطاف، إلى الدكتور رينولدز الذي كان يضعها جانباً بعناية مشكلاً منها كومة غير مرئية من الأعضاء البشرية أمام أعيننا.

لم يكن والدي قد وصل، بعد، إلى ختام قصته حين جحظت عيوننا. ثم قال لنا وهو يغسل يديه للمرة الأخيرة: «والآن يا تشارلز. سوف أنظم معك ومع سيدني والدكتور رينولدز عشاء كهذا ذات يوم. هل ترغبان في ذلك؟». فحدقت، وسيدني، فيه، وقد عقد الخوف لسانينا، فضحك بصوت مرتفع وقد رأى أمارات الشك على وجهينا: «إنها مجرد تمثيلية. إنها مجرد قصة رعب أنافسكما بها».

وعلى الرغم من إقرار والدي بأن كل ما أخبرنا به هو محض خيال، فقد سكن ذلك العشاء المروع خيالي فلم أعد، لمدة طويلة، قادراً على الدخول إلى غرفة الطعام تلك دون أن ترتعد فرائصي لدى وصولي إلى المكان الذي كانت الجثة الوهمية ممددة فيه.

كان كل ما في المنزل الواقع في أعلى التل رائعاً، بالنسبة إليَّ وإلى سيدني، إلى درجة كرهنا معها العودة إلى مدرسة البلاك فوكس المملة في أمسيات الأحد. فمع اقتراب ساعة مغادرة المنزل، كنا نزداد عبوساً، فيحدثنا والدي بكلام كان القصد منه تحسين مزاجنا. فكان يقول: «تعلمان أيها الصبيان كم أنكما محظوظان. انظرا إليَّ. كنت في مثل سنّكما أهيم على وجهي الشارع ويعضني البرد والجوع. أما أنتما، فلا حاجة بكما إلى القلق من تلك الأمور. فلديكما مصدر دخل ثابت ومنزل وثلاث وجبات يومية. أما المدرسة! فلم أحظَ بالفرصة لتجاوز الصف الرابع. اعتبرا نفسيكما محظوظين».

كان والدي يتحدث عن طفولته قبل عودتنا إلى المدرسة كي أعود إليها وفي ذهني أني في الحياة التي أعيشها حقّ قدرها وأن أجتهد في الدرس وأن أستغل الفرص الرائعة المتوفرة لي التي

افتقدها، هو نفسه، في طفولته. فكنت أنام على وقع الشفقة على الصبي الذي كانه والدي. وفي اليوم التالي، أنهض من السرير بنشاط وعزيمة قبل أن أجد نفسي، على الفور تقريباً، مقيداً بالواقع القاسي الذي تمثله الحياة العسكرية في المدرسة، فتتلاشى صور صبي كينينغتون المثيرة للشفقة من ذهني على الفور. بل إني كنت أكتشف أنني أحسده، بصورة مثيرة للسخرية، على الحرية التي عرفها في تحصيل قوت يومه وشق طريقه في المسارح وفي كونه سيد نفسه دون أن يوجد من يملي عليه ما يفعله.

الاثنين الأزرق! إنه الاسم الذي يطلقه كل الفتية في المدرسة على ذلك اليوم، بسبب كونه يوماً يصعب تحمله بعد الحرية التي عاشوها خلال عطلة نهاية الأسبوع. لم يكن هنالك شيء في يوم الاثنين الأزرق يمكن أن يشعر التلميذ نحوه بالامتنان، ولا أعلم إن كان سيدني يساوره الشعور نفسه، إذ كنا شخصين مختلفين تماماً على الرغم من الصلة الوثيقة بيننا بوصفنا شقيقين. فقد اختار كل منا سلوكاً متمايزاً في المدرسة. فكنت، من جهتي، أضبط تصرفاتي كي أفلت من عقوبة قضاء عطلة نهاية الأسبوع في المدرسة، الأمر الذي أكسبني سمعة التلميذ النموذجي. لكن ثمن السلوك المثالي هذا كان كبيراً. إذ كنت أعيش حالة مستمرة من التوتر طيلة أيام مكوثي في المدرسة. أما سيدني، فلم يزعج نفسه بذلك، بل عاش حياته هناك بالطول والعرض واستمر في تحدّي الراشدين، ولم يكن قادراً على السلوك خلافاً لذلك. إذ كان يتمرد بصورة تلقائية محولاً كل شيء إلى نكتة كبيرة. وعندما كان الأستاذ يحاول ضربه على يده بالعصا، كان، بدلاً من تلقي الضربة بهدوء ثم الانصراف، يرتمي على الأرض دون خجل ويبدأ بالأنين والتلوي والنواح: «لا تضربني! سأعترف! سأعترف!» فيجد الأستاذ نفسه عاجزاً عن عدم الضحك. لكن سيدني كان، على الرغم من ذلك، يتلقى نصيبه من الضرب وعلامات سوء السلوك. فكان يبدأ يوم الاثنين بسجل نظيف. لكن ما إن يحلّ يوم الجمعة حتى يكون قد نال من علامات سوء السلوك ما يكفي لاحتجازه في المدرسة في عطلة نهاية الأسبوع. يتراءى لي، في بعض الأحيان، أن سيدني أمضى من عطلات نهاية الأسبوع في المدرسة أكثر مما أمضى منها في البيت. وعلى الرغم من أن والدي لم يناقش مشاعره معنا بصورة مفتوحة خشية أن يهدد ذلك سلطته، إلَّا أنك كنت تستطيع أن ترى بوضوح أن احتجاز سيدني في المدرسة كان يزعجه لأنه كان يحبّ أن نزوره معاً.

كنت أفتقد سيدني عند خلودي إلى النوم وحيداً في غرفة النوم وخيالي المتوثب رفيقي الوحيد. أتذكّر الليلة الأولى التي راودتني فيها تلك الفكرة. كانت ليلة موحشة على نحو خاص ورياح كاليفورنيا العاصفة ترعد في الخارج. وكان صوت ارتطام أغصان الأشجار المتكرر بالنوافذ مسموعاً. أخذت أفكر في سيدني في سريره في البلاك فوكس. وفكرت في بوليت ووالدي القابعين

خلف باب غرفتهما المقفل، وفي الخدم في غرفهم الواقعة في القبو، فشعرت بأنهم نبذوني جميعاً. ثم تذكرت مسدس والدي الذي يضعه بالقرب من فراشه وسيفي الساموراي الرائعين المعروضين في الخزانة الموجودة في غرفة المعيشة. فكرت في هذين السيفين وهما ممددان، في غمديهما، واحدهما بجوار الآخر، محنيين وحادّين. كان والدي يكرر علينا القول: «لا تمساهما، لا تعبثا بهما أبداً. لماذا؟ لأنه يمكن أن تجرحا أيديكما». فكرت في الأمر الذي أصدره وفي مدى كرهه للعصيان، ثم عدت إلى التفكير في سيفي الساموراي. مشيت إلى باب غرفتي بحذر وفتحته ونظرت في الرواق. بدا كل شيء هادئاً. سارعت إلى الرواق وهبطت السلالم ووجدت نفسي وحيداً في الطابق الأرضي لمنزلنا المظلم والغامض. وجدت مفتاح النور وأدرته فصار الرواق الأرضي مضاء. مشيت بقدمي الحافيتين إلى غرفة المعيشة مروراً بغرفة الطعام بفيها الفاغر- الغرفة المظلمة التي كانت الجثة التي أحضرها الدكتور رينولدز ممددة فيها، وربما كان شبحها لا يزال ممدداً هناك على أهبة الاستعداد للخروج منها واعتراض طريقي.

وصلت إلى غرفة المعيشة أدرت مفتاح النور وركضت إلى الخزانة. كانت أنفاسي متقطعة. فتحت باب الخزانة. بدا السيف الكبير في يد محارب ساموراي عملاق أكبر من أن يكون صالحاً لعمليات الإعدام، لكنه كان كذلك، على وجه الخصوص، أكبر من أن يكون عمليّاً بالنسبة إليَّ. أطبقت أصابعي على مقبض السيف الأصغر وأخرجته من غمده تاركاً الغمد في مكانه على الرف بحيث لا ينتبه أحد إلى اختفاء السيف.

أغلقت باب الخزانة واختبرت شفرة السيف الحادة على أصابعي بحذر. ثم لوحت به بضع مرات فوق رأسي. وفجأة شعرت بالأمان. من يستطيع التغلب عليَّ بوجود هذا السلاح؟ أطفأت النور في غرفة المعيشة، وارتعدت قليلاً بسبب الظلمة التي حلّت فجأة. مددت سيفي باتجاه غرفة الطعام نحو شبح الجثة المتربص هناك. قفزت إلى سريري ووضعت السيف على الطاولة الصغيرة بجواري وغرقت على الفور في نوم خلا من الأحلام.

استيقظت مع حلول الفجر وأعدت السيف إلى مكانه قبل أن يكتشف أحد اختفاءه. وبالفعل، لم يكتشف أحد ما فعلت على الرغم من أنها لم تكن المرة الأخيرة.

لم يكن والدي ليعلم أن خريف عام 1937 سيكون مصدراً لإزعاجات كثيرة تزيد عن مجرد الصعوبات التي كان يعاني منها في سبيل العثور على نصّ مناسب لبوليت. فقد وصلت، وسيدني، دون أن يلاحظ والدي، إلى «تلك السنّ»، كما يدعوه بقنوط الكثير من أولياء الأمر. إذ كنا قد بلغنا، في ذلك الوقت، الحادية عشرة والثانية عشرة من العمر وأصبحنا مملوءين بقدر من التبجح يكفي لدفعنا إلى تجربة أيّ شيء وكل شيء على الرغم من نصائح والدي وتحذيراته. بل إننا جرؤنا، في يوم الرابع من تموز من ذلك العام، على تحدي الحظر الذي فرضه على المفرقعات.

لم يحتفل والدي بيوم الرابع من تموز بنفسه قط، كما لم يحتفل قط بيوم غاي فاوكس، العيد الوطني الإنكليزي، كما لم يكن والدي من هواة حمل الأعلام، وقد أثبت افتقاره الاهتمام بالميول السياسية للأفراد أنه كان مصدراً للمشاكل بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. لكنه، في المقابل، أحبّ مشاهدة الألعاب النارية، بل إنه عانى، في إحدى السنوات، من ضغط الحشود لمجرد إيصالنا إلى ملعب لوس أنجلوس كوليسيوم لمتابعة العرض. أما المفرقعات، فكانت شأناً آخر. فقد كان والدي يكرهها بسبب الأصوات الحادة التي تصدرها عند انفجارها، على الرغم من أنه كان يعبر عن كرهه لها من خلال الإشارة إلى خطرها علينا. فكان يحذرنا بصرامة، بغلوّ شابلني حاضر دائماً: «لا تطلقا المفرقعات لأنها يمكن أن تنسف أيديكما أو ربما تصبحان ضريرين مدى الحياة». لكن تلك التحذيرات لم تعد تؤثر فينا، بل كان حرصنا يقتصر على أن لا يكون موجوداً بالقرب منا حتى لا يرانا ونحن نطلقها.

كما أن رفضه للعنف، عموماً، لم يعد يؤثر فينا كذلك، فصرنا نتبجح، لدى عودتنا إلى المنزل، بالشجارات التي انتهت بانتصارنا. أتذكّر يوماً أخبرته فيه عن مشادة جمعتني ببوبي كيتون، ابن باستر كيتون حيث وبخني والدي قائلاً: «عليك أن لا تتشاجر مع أحد». لكن ما إن بدأت بسرد تفاصيل الشجار حتى بدأ والدي يزداد اهتماماً وبدا أنه نسي كل ما قاله حول العنف.

وعندما انتهيت من القصة، هزّ رأسه وقال: «هذا تقليد شابلني عريق. أنت تعلم أن والدك خاض شجاراً ذات مرة». وبدأ يروي قصة ذلك الشجار بأسلوب بصري. كان والدي، كما قال، في أحد مطاعم نيويورك برفقة عدد من الأصدقاء عندما لفت انتباهه رجل ضخم الجثة يجلس في الجهة المقابلة له من القاعة. كان طول هذا الرجل يصل، وفقاً لما قاله أبي، إلى ست أقدام على الأقل

ويتمتع ببنية جسدية قوية. كان الرجل يشرب. ثم تقدم باتجاه والدي وفي يده كأس من المارتيني وسأله: «هل أنت تشارلي شابلن؟»، فردّ والدي بتهذيب: «نعم»، فقال الرجل بنبرة مستفزة: «حسناً. أنا لا أحبّ وجهك». فأجابه والدي: «لم لا تعود، إذن، إلى طاولتك؟» فزمجر الرجل: «ربما يجدر بي أن ألكمك على أسنانك» ورشق والدي بالمارتيني الموجود في كأسه. عندئذٍ، غضب والدي وهبَّ على قدميه دون تفكير فصار رأسه عند مستوى الفك السفلي للرجل وقال له: «لم يكن هذا لطيفاً» وأمسك الرجل من ربطة عنقه وقفز بطريقة خاطفة ولطم وجهه برأسه الكبير، وكان والدي في تلك اللحظة ينفذ الحركات التي يتحدث عنها. والواقع أن والدي قادر على التحرك بسرعة البرق كما أن حركاته مفعمة بالكثير من الطاقة. كانت النتيجة أن كسر أنف الرجل وحطم اثنين من أسنانه الأمامية وارتمى على الأرض. ثم رأى والدي أصدقاء الرجل، الذين كانوا جميعهم من الرجال ضخام الجثة، يتحركون باتجاهه بطريقة تنذر بالسوء. ولحسن الحظ، تدخل رجال الشرطة قبل أن يكون والدي مضطرّاً لاستخدام رأس الكبش الذي يحمله من جديد، فنفض يديه اللتين لم يكن قد استخدمهما وعاد إلى تناول عشائه.

أدرك والدي أنه ذهب بعيداً في قصته، فعاد إلى جادة الصواب وخلص إلى القول: «والدكما، كما تريان، قادر على القيام بهذه الأمور. والانتصار أمر حسن. لكن تذكرا أن لا تتشاجرا مع أحد من جديد. الشجار أمر سخيف. لماذا تغامران بتشويه معالمكما؟».

لكن الأمر لم يقتصر على الجرأة والولع بالقتال. فقد بدأت، بشكل مفاجئ، تنتابنا أمور غير مألوفة، ولا سيما في حالة سيدني. فقد استطاع سيدني، ذات مرة، أن يضيع في اليخت الذي كان يبحر في قناة كاتالينا في يوم عاصف. كان سيدني نائماً بهدوء بين قاربي نجاة في حين كان الجميع يبحثون عنه وقد جنّ جنونهم. بل إن والدي فقد صوابه كليّاً حتى إنه صار يقلب الجوارير كي يرى إن كان موجوداً في أحدها.

لكن سيدني لم يكن ضحية الظروف في جميع الحالات. فقد كان فتى مفكراً. وكانت غالبية أفكاره تتمحور حول طرق زيادة مصروفنا الأسبوعي البالغ خمسين سنتاً الذي كنا نحصل عليه من والدتي أو من نانا. كان والدي في بعض الأحيان يأتي لنجدتنا. فقد كنا قادرين، على الدوام، على الاعتماد على الهدايا النقدية التي يقدمها لنا في أعياد ميلادنا والتي تراوحت بين خمسين دولاراً وخمس مئة دولار. كما كان على الدوام يستخرج من محفظته ورقة نقدية بقيمة خمسة دولارات أو عشرة ينفحنا إياها دون مناسبة مع تنبيهنا إلى ضرورة إنفاقها بحكمة. لكننا لم نكن قادرين على الاعتماد على نوبات الكرم المفاجئ هذه على الدوام. فكنا نقوم، أحياناً، في سبيل زيادة غلتنا،

بتنظيم جولات سياحية في الأرض المحيطة بمنزلنا مقابل خمسة وعشرين سنتاً للرأس. لكن سياح ساميت درايف كانوا قليلين ولم نكن نحصل عليهم إلَّا في فترات متباعدة.

هكذا، قال لي سيدني عند عودتنا إلى المنزل، في أحد أيام الجمعة: «لماذا لا نقف في الخارج كالأطفال الذين يبيعون عصير الليمون؟» قلت له: «ولكن يا سيدني. من سيشتري منا عصير الليمون هناك؟» فأجاب: «ليس عصير الليمون يا تشاك. بل المشروبات الكحولية. تعال كي أريك» وانطلق إلى المطبخ.

لا بُدَّ أن ذلك اليوم كان يوم عطلة للخدم لأننا لم نجد أحداً هناك. عثر سيدني على مفتاح خزانة مشروبات والدي وفتحها. وهناك، انتصبت أمامنا صفوف من الزجاجات التي أمضى والدي سنوات في جمعها.

قال سيدني: «جميع الراشدين يشربون هذه الأشياء. نستطيع أن نعدّ منصة في الأسفل عند نهاية طريق المنزل وسنبيع الزجاجات للعابرين بخمسين سنتاً للزجاجة. سنصبح أثرياء يا تشاك». بدت فكرة الحصول على المال حسنة، لكنني قلت له: «لكن... والدي... يا سيدني». فلوّح سيدني بيده: «لديه الكثير منها وهو لن يلاحظ اختفاء بعضها على الأرجح. إنه رجل ثري يا تشاك. هيا بنا».

غلبتني حجة سيدني فساعدته في نقل أربعين زجاجة تقريباً إلى منصة العرض التي أقمناها في نهاية الطريق ووقفنا في انتظار زبوننا الأول الذي لم يتأخر طويلاً عن الوصول ولم يكن، كي تكتمل الحبكة، سوى ديفيد سيلزنيك الذي قاطع صوت دراجتنا النارية نومه مراراً وتكراراً. خرج بسيارته ببطء من مدخل منزله وتوجه إلى حيث كنا واقفين مع منصة المشروبات وخرج من السيارة وأخذ يتفحص الزجاجات وقد لمعت عيناه: «بكم تبيعان هذه الزجاجات أيها الصبيان؟». أجبناه على الفور: «بخمسين سنتاً للزجاجة». فقال: «سأشتريها كلها». وهكذا كان. فحصلنا على عشرين دولاراً ثمناً للصفقة وساعدنا السيد سيلزنيك على حمل مشترياته إلى السيارة- المشتريات التي يزيد ثمنها عن مئتي دولار من الويسكي الفاخر والبوربون وغيرها من المشروبات النفيسة. بدا السيد سيلزنيك مستعجلاً، فعاد بسيارته إلى منزله وحمل المشروبات إلى الداخل بسرعة.

عاد والدي إلى المنزل بعد برهة وجيزة. ولم يمضِ وقت طويل حتى نادانا، فذهبنا إليه ووجدنا عينيه الزرقاوين تنخراننا. سألنا: «هل كنتما تشربان أيها الصبيان؟ اقتربا ودعاني أشم رائحتكما». ثم فكر قليلاً واكتشف عبثية سؤاله: «حسناً. لم أقصد ذلك. لكن ماذا فعلتما بزجاجات الخمر التي كانت موجودة في الخزانة؟».

كنا نظن، في الماضي، أننا قادرون على تضليله بسهولة. لكننا أدركنا الآن أننا كنا على خطأ. فقد كانت الأمور التي تفوته في المنزل قليلة. لقد اكتشف على الفور تقريباً الزجاجات المفقودة. فأجبناه بتلعثم: «حسناً... لقد بعناها للحصول على بعض المال». فانفجر قائلاً: «ماذا؟ ألف لعنة. كيف تقومان بذلك؟ كيف تأخذان مقتنيات ذويكما وتبيعانها؟» ثم غمغم وهو يكاد لا يصدق جحودنا تجاه والدنا الذي حرص، دائماً، على عدم المسّ بمقتنياتنا.

عاد إلى سؤالنا بعد أن استعاد صوته نبرته الطبيعية: «هل تعلمان من اشتراها؟».

فأجبناه بصوت مرتجف: «آه... شخص واحد. السيد سيلزنيك في الجهة الأخرى من الشارع».

«هل اشتراها كلها؟».

«نعم يا سيدي. لقد اشتراها كلها».

تجاوز والدي بغضه للهاتف في ذلك اليوم، فرفع السماعة واتصل بالسيد سيلزنيك وأخبره أننا أخذنا الزجاجات دون إذنه وسأله: «هل لك أن تعيدها؟ إنها نادرة للغاية والعديد منها مستورد وقد استغرق الأمر مني زمناً طويلاً حتى جمعتها».

لكن السيد سيلزنيك كان أكثر استمتاعاً بالموقف من أن يعيد الزجاجات على الفور. لا أدري كم استغرق الأمر بين والدي والسيد سيلزنيك لتسوية المسألة، أو إن كانت قد سويت أصلاً، لكن ما أعلمه أنه كان عليَّ وعلى سيدني أن ندفع ثمن رغبتنا البائسة في الثراء السريع. فقد التفت إلينا والدي وألقى علينا خطاباً طويلاً كان أشبه بمرافعة مدعٍ عام في المحكمة. وكنا، مع تقدم الخطاب، نزداد انكماشاً. ولدى وصول والدي إلى سرد لائحة العقوبات التي نستحقها، أحسسنا كأننا مذنبون حقيقيون.

«يمكنني أن أبقيكما في سريريكما طيلة العطلة. وهذا ما سوف أفعله. سأحتجزكما. نعم، هذا مصير اللصوص، السجن. سأعد سجناً خاصّاً هنا من أجلكما لأنكما كنتما تسرقان أيها الصبيان».

كان غاضباً للغاية وكنا خائفين بالطبع، لكن الأمر كان أكثر من ذلك. لقد انتابنا إحساس مبهم بأننا قد آذيناه وخذّناه وهو ما زاد الطين بلة. شاور والدي نفسه حتى استقر على العقوبة المناسبة التي كانت، كما كنا نتوقع، قاسية. أن نذهب اليوم إلى الفراش على الفور وفي السادسة مساء يومي السبت والأحد. كما حرمنا من العشاء طيلة الأيام الثلاثة ومن مشاهدة الأفلام في المنزل ومن اللعب مع الأصدقاء. كانت عطلة نهاية أسبوع موحشة.

صعدت وسيدني إلى الطابق العلوي بهدوء وارتدينا البيجاما بصمت وأوينا إلى السرير. أحسسنا بالقهر وتبادرت إلى ذهننا فداحة فعلتنا حتى إن بوليت، نفسها، التي كانت حاضرة، لم تبادر إلى الدفاع عنا ولم تقل كلمة واحدة في صالحنا. مضى النهار طويلاً حتى حلّ المغيب وجاء الليل ومعه حضر الجوع ولم ينفع في شيء علمنا أنهم كانوا يتناولون الطعام في الأسفل. أما نحن، فانتابنا شعور قاتل بالوحدة في عتمة الليل.

ثم فتح الباب فجأة، وتلمس أحدهم طريقه إلى مفتاح الإنارة وأداره. كانت بوليت وفي يدها صينية عليها بعض أطباق جورج الساخنة التي ملأت الغرفة برائحتها الشهية. أغلقت بوليت الباب بهدوء وقالت: «صه. والدكما لا يعلم. لقد أحسست بالأسف لكما أيها الصبيان». اقتربت بصينية الطعام ووضعتها على الطاولة بجوار السرير وأضافت: «لكنكما أخطأتما بالطبع ببيع الكحول بهذه الطريقة. والدكما غاضب للغاية». ماذا كنا نستطيع أن نقول لبوليت أفضل من جعلها ترى الامتنان في عيوننا وأن نبدأ في التهام الطعام؟

داومت بوليت، في كل ليلة من الليالي الثلاث، على سرقة الطعام وتقديمه لنا وهي تهمس برقة: «صه. والدكما لا يعلم. لكني ظننت أنه يجب أن تأكلا شيئاً».

يا لشجاعة بوليت التي جرؤت على تحدي غضب والدي. يا لها من حليف وفيّ. لكننا لم نكتشف الحقيقة إلَّا بعد سنوات. لا بُدَّ، بالتأكيد، من أن يكون والدي، الذي يملك عيني صقر ولا يفوته شيء، عارفاً بما كانت بوليت تقوم به كل ليلة من تلطيف لعقوبة جعلها مفرطة في القسوة. لقد كان يعلم ولم يمنعها.

أعجز عن تحديد عدد الأفكار التي قلبها والدي في رأسه في خضم بحثه الطويل عن قصة فيلم تلعب بوليت بطولته، لكنني أتذكّر بعض التفاصيل المثيرة عن واحدة من هذه الأفكار. استوحى والدي تلك الفكرة من خبر قصير مثير اقتطعه أحدهم من صحيفة وأرسله له بالبريد. كان الخبر يتعلق بمرسوم أصدره أدولف هتلر يمنع دخول أفلام شابلن إلى ألمانيا لأن والدي كان يشبهه كثيراً.

لمعت الفكرة في عقل والدي بمجرد قراءته الخبر. فالصعلوك بمظهره العام وشاربيه المضحكين يشبه هتلر بالفعل. وعندما أمعن النظر، وجد نقاط تشابه أخرى بينه وبين الديكتاتور الألماني. فقد ولد الاثنان في السنة نفسها وفي الشهر نفسه، بفاصل بينهما يبلغ أربعة أيام وعاش الاثنان طفولة ميزها فقر مدقع. لكن الأقدار شاءت لهما أن يكونا على طرفي نقيض. فقد قدّر للأول أن يُبكي ملايين الناس في حين قدّر للثاني أن يضحك العالم بأسره. لم يكن والدي يستطيع التفكير بهتلر دون أن تنتابه الرعشة وشعور فيه مزيج من الخوف والافتتان.

كان يقول بضيق: «فقط فكر في الأمر. هو رجل مجنون وأنا كوميدي. لكن كان يمكن لي أن أكون الشخص الذي يقف في الطرف المقابل». ولم يكن يستطيع منع نفسه من أن اقتباس القول المعروف: «نعمة الله تحفظني»[1].

كان والدي يمعن التفكير في الحظر الذي فرضه الطاغية على أفلامه وفي شبهه بهتلر، وكانت حماسته للفكرة ككل تزداد باستمرار. وبدأ ينسج حبكة القصة وأحداثها في رأسه. وفي تلك الفترة، التقى والدي بكونراد بيركوفيشي الذي كان لتبجحه بدمائه الغجرية مفعول رسالة توصية لوالدي وكان كفيلاً بجعله، لفترة من الزمن، ضيفاً دائماً في منزله ناهيكم عن أن بيركوفيشي أشار، بدوره، إلى شبه والدي بهتلر وكان كلا الأمرين يغذي الآخر، ولم تمضِ فترة طويلة حتى صار والدي وبيركوفيشي يتداولان الأفكار. تلكم هي الطريقة التي كان والدي يستمزج، من خلالها، آراء أصدقائه ومعارفه حول أفكاره الجديدة.

لكن حماسته لبيركوفيشي بدأت تخبو قبل فترة طويلة من شروعه بأيّ عمل جدّيّ على فكرة هتلر، وهو أمر اختبره الكثير من الناس الذين عرفوه. إذ يتمتع والدي بروح من الاندفاع لا شفاء منها يدفعه إلى الإعراب عن حماسته تجاه شخص ما بصدق كلّي بحيث يخال المرء نفسه أنه أصبح لا غنى عنه بالنسبة إليه. أما والدي، فلا تزيد حماسته هذه عن مجرد كونها عارضاً انفعاليّاً مؤقتاً.

فحالما يصبح الشخص المعني خارج نطاق اهتماماته، ينساه والدي كليّاً، أو قل يصيبه الملل منه وينسحب من رفقته.

هكذا، كفَّ والدي عن رؤية بيركوفيشي بصورة كلية وتخلى، في الوقت نفسه، تقريباً، عن فكرة صنع أيّ شيء يدور حول هتلر، بعد أن قرر، في نهاية المطاف، أن هتلر شخصية أكثر ترويعاً من أن تصلح كي تكون مادة كوميدية جيدة.

حلّ عام 1938 وكان والدي لما يزل خالي الوفاض من أيّ نص يقدمه لبوليت. وكي تزيد الأمور تعقيداً، كان السيد سيلزنيك لا يزال يبدي اهتمامه بإشراكها في العمل معه. والواقع أنني أظن أن العقد طويل الأمد الذي كانت بوليت قد وقّعته معه كان نذير شؤم بنهاية زواجهما. لكن المشكلة كانت، بالطبع، أعمق من حكاية السيد سيلزنيك. إذ كانت جذور المشكلة بينهما تعود إلى مصدر الخلافات الدائم السائد بين أزواج هوليوود: ألا وهو التنافس المهني. كان والدي قانعاً بالمكانة التي حققها في حين كان بوليت في حاجة إلى أن تثبت للعالم أنها قادرة على أن تكون أكثر من مجرد زوجة نجم عالمي ومحميته.

بلغ النقاش بين والدي وبوليت، في شباط، درجة من الاحتدام دفعت والدي إلى مغادرة المدينة في إحدى عطلات نهاية الأسبوع كي يرتاح منها حيث دعا تيم ديورانت للانضمام إليه في العطلة التي قرر قضاءها على شاطئ بيبل الواقع إلى الشمال. كان تيم، الذي سوف يصبح فيما بعد ممثله الشخصي في شركة يونايتد أرتيستس، الخيار المنطقي بالنسبة إليه في تلك العطلة. فقد كان والدي معجباً بنزاهته ووفائه لتقاليد نيو إنغلاند، بل إني أتذكّر كيف كان والدي يشير إليه بصفته «اليانكي العنيد». وقد أحبّ رفقته لا لمجرد سهولة الاتفاق معه بل لأنه كان رائعاً في تداول الأفكار وكرات التنس على حدّ سواء. لذلك لم يكن مفاجئاً أن يصبح تيم، في السنوات المقبلة، أقرب أصدقاء والدي وأكثرهم وفاء.

لكن ما كان مفترضاً به أن يكون مجرد رحلة نهاية أسبوع امتد إلى خمسة أشهر. فقد استأجر والدي، من خلال تيم ديورانت، منزلاً يطل على المحيط من السيدة إيستيل مونتيغل، وهي من الوجوه البارزة في مجتمع بيبل بيتش. وسرعان ما أرسل في طلب جورج وكاي واستقر هناك بعيداً عن بوليت وعنا وعن كل الناس في هوليوود.

افتقدته كما افتقده سيدني وافتقدنا جوّ السحر والإثارة في المنزل الواقع في أعلى التل. لكننا وجدنا بعض التعويض في بوليت، التي كانت لا تزال تواظب على اصطحابنا في بعض الرحلات، كما

في والدتي التي استعادت عافيتها ومرحها، فكانت لدينا الحرية الكاملة في اختيار المكان الذي نقيم فيه. كما أننا وجدنا بديلاً لوالدي- حسناً... لم يكن بديلاً تامّاً، حيث إننا لم نتعامل معه بهذه الصفة على الإطلاق. أما المعني بهذا الكلام، فهو أرثر داي وهو رجل مبيعات من لوس أنجلوس تزوجته والدتي في الصيف التالي. كان رجلاً لطيفاً مرحاً حرص على اصطحابنا إلى مباريات الكرة وإلى غير ذلك من أنشطة الهواء الطلق. وقد اعتبرناه، في ذلك الوقت، مجرد صديق، وهي صفة لم يفقدها حتى بعد زواجه بأمنا. لكنه ساعدنا، بالفعل، في فصل الربيع ذاك، على ملء الفراغ الذي خلفه رحيل والدنا.

وهذا ما يقودني إلى الكلام عن الفصل الذي عاشه والدي في شاطئ بيبل بيتش الواقع بالقرب من كارميل، مستوطنة الفنانين الشهيرة. يقع هذا الشاطئ شمال ولاية كاليفورنيا وتحفّه منازل جميلة يقطنها أثرياء سان فرنسيسكو الذين راكم أسلافهم ثرواتهم الكبيرة خلال الأيام التي كانت الضرائب فيها بالغة الانخفاض. وهم أناس رأسماليون، بكل ما للكلمة من معنى، ولدوا لأسر موسرة وترعرعوا في أجواء مترفة ولم تواجه أحدهم أية مشكلة اقتصادية تهدد أمانه.

عاش والدي، في بداية الأمر، وسط هؤلاء الناس حياة اعتزال كلي مولياً اهتمامه لنصه المتعثر رافضاً رؤية أحد. لكن لم تمضِ أسابيع قليلة حتى لجأ تيم ديورانت إلى أحد أصدقائه القدامى، بيغي بروكاو، فتاة المجتمع النيويوركي التي تزوجت أحد أفراد عائلة كروكر النافذة وكانت في رحلة إلى الساحل الغربي لقضاء شهر عسلها. ومن خلالها، بدأ والدي يختلط، بالتدريج، بمجتمع بيبل بيتش وينخرط في جولات الترفيه التي كانت تعتبر جزءاً أساسيّاً من الحياة هناك. هكذا، حقق والدي شعبية كبيرة في أوساط سكان بيبل بيتش فلم يعد أحد ينظم حفلة إلا ويدعوه إليها. بل إنهم صاروا يدعونه إلى منازلهم في سان فرنسيسكو.

وخلال إقامتهما في بيبل بيتش، أوفى والدي وتيم ديورانت بالتزاماتهما الاجتماعية من خلال تنظيم حفل عشاء ضخم في منتجع بيبل بيتش لودج أحيته فرقة موسيقية وعرضت خلاله أفلام أجنبية وقدمت فيه الشمبانيا وحضره الجميع، وكان حدثاً اجتماعيّاً بارزاً لا يزال الناس يذكرونه حتى بعض انقضاء عشرين عاماً عليه.

الشمبانيا والكافيار- أحبّهما والدي كثيراً كما أحبّ ما يمثلان: الترف وراحة البال وفرصة الانغماس في متع الحياة وتذوق أطايبها. وكانت تربطه بأثرياء بيبل بيتش علاقة انجذاب متبادل. كان والدي، في جميع الأحوال، قادراً على الانسجام مع الأثرياء، في لوس أنجلوس كما في نيويورك. فقد كان هو نفسه ثريّاً يملك بضعة ملايين من الدولارات وكان يصف نفسه، باعتزاز

بالغ، بالرأسمالي.

لكن الفرق بينه وبين معظم الأثرياء الذين عاشرهم كان معرفته الجانب الآخر من الحياة حقّ المعرفة وكان يجد في الفكرة التي يحملها المجتمع هناك عن معنى الفقر ما يبعث على الدهشة والضحك. وكان من قصصه المفضلة التي تظهر فيها وجهة النظر هذه بوضوح تلك التي تتناول أسرة هاريسون ويليامز التي أمضى لديها، مع تيم ديورانت، أسبوعاً كاملاً في لونغ آيلند. كان أفراد الأسرة يتداولون قصة انهيار أسواق الأسهم عام 1929، وهو حدث كان تيم ديورانت شاهد عيان عليه بحكم عمله، في ذلك الوقت، في الهيئة الناظمة لسوق الأسهم. وأثناء النقاش، تذكرت السيدة ويليامز كيف نقل زوجها الخبر إليها. أما ما أضحك والدي، فهو أنها روت القصة بعفوية بالغة دون أن ترى وجه الطرافة فيها. فقد جاء زوجها، في أحد الأيام، إلى المنزل وكان مزاجه سوداويّاً للغاية وقال لزوجته: «لقد انهارت الأسواق وخسرنا ثلاثين مليون دولار ولم يبقَ لدينا سوى سبعين مليوناً». لم يستطع والدي الإعراض عن كلمة «سوى».

وكان والدي، نفسه، قد خسر بعض المال نتيجة الانهيار، لكنه لم يفلس لأنه كان أذكى من أن يبيع كل ما في حوزته من أسهم، بل احتفظ بها حتى استعادت قيمتها من جديد. وعلى الرغم من أنه وقع ذات يوم ضحية لصفقة مكسيكية احتيالية، إلّا أن تلك الخديعة علمته أن لا يغامر مرة أخرى وصارت تداولاته تقتصر على أسهم الشركات المعروفة مثل شركة آي. تي. أند تي. وكان في الواقع يتمتع بعقل تجاري بارع بالنسبة إلى فنان.

لكنه كان فناناً قبل كل شيء. وكان يلعب، في مجتمع بيبل بيتش، دور المراقب والمعلق. وسرعان ما لاحظ أنه على الرغم من أن أصدقاءه الجدد لم يكونوا يعانون من أية مشكلات اقتصادية خطيرة، إلّا أنهم كانوا يعانون من المشاكل العاطفية كالآخرين، الأمر الذي أثار فضول والدي بحسّه الدرامي المرهف، فنفذ دراسات موثقة لأفراد هذا المجتمع كي تكون مادة يستخدمها في المستقبل ولم يكن يتردد في تقليدهم كلّما سنحت له الفرصة.

لم يجعل والدي نفسه أسير مجتمع بيبل بيتش، بل أبدى، كذلك، اهتماماً بمستوطنة كارميل البوهيمية. وهناك كذلك، كان حكمه على الناس ينطلق من حقيقة ما هم عليه. فكما أن الثروة وحدها لا تجعل الإنسان يتمتع بضيق الأفق بالضرورة، فإن الميول الفنية لا تكفيه، كذلك، كي يكون جديراً بالاهتمام. فقد لاحظ والدي أن نسبة ضيقي الأفق في أوساط بوهيميي كارميل ليست أقل منها في أيّ مجتمع آخر وكان يظن أن العديدين منهم لا يتمتعون بالنضج- فكلامهم كثير، أما أفعالهم فقليلة، في حين إنه لم يتسامح قط مع أيّ سلوك غير احترافي تجاه العمل الإبداعي. فهو

أسير فنّه ويتوقع أن يتمتع جميع العاملين في هذا الحقل بالتفاني ذاته.

وقد اكتشف والدي هذا النوع من التفاني في شاعر كاليفورنيا العظيم، روبنسون جيفرز، الذي يعيش في منزل كبير مبني من الحجر في البوان سور. وكان والدي قد تعرف إلى الشاعر من خلال صديق مشترك دعاهما ذات مرة إلى العشاء وزاره عدة مرات بعد ذلك. وقد أعجب والدي بنضج الشاعر وبنزاهة مقاصده، لكني أظن أن جيفرز، كان، بالإجمال، أكثر جموداً من أن يتفق معه والدي بروحه المحبّة للمرح.

كما أعجب والدي بالمهارات التمثيلية الأصيلة لممثلة مغمورة رآها تمثل على خشبة المسرح في كارميل هي الممثلة السيئة الطالع دوروثي كومينغور التي سوف تحقق الشهرة في عالم السينما بعد عدة سنوات من خلال تجسيدها الشخصية النسائية الرئيسة في فيلم «المواطن كين» لأورسون ويلز. وسوف يبدي والدي إعجابه، بالطريقة نفسها، في سنوات لاحقة، بفتاة ذات شعر أحمر تتمتع بالمواهب التمثيلية نفسها وبالشخصية المختلة نفسها هي جوان باري.

وكان هنالك اسم ارتبط بوالدي عاطفيّاً في بيبل بيتش هو جيرالدين سبريكلز، سليلة ملوك السكر. فعلى الرغم من أن والدي كان متزوجاً بالفعل ببوليت، إلَّا أن أيّاً منهما لم يكن قد صرح بذلك الأمر علناً بعد- شاءت سخرية الأقدار أن يصدر أول تأكيد علني لزواجهما قبيل انفصالهما- الأمر الذي جعل المراسلين الصحفيين يشنون حملة مطاردة مسعورة للآنسة سبريكلز، التي زاد ردّها، في إحدى المقابلات الصحفية، الأمور بلبلة: «لم نناقش مسألة الزواج بالتحديد. دعوة إلى الشاي هنا ومأدبة غداء هناك ونزهة صغيرة على متن اليخت أو على الشاطئ في الكارميل... هذا كل ما رأيته منه حتى الآن... نعم، أنا أحبّ السيد شابلن كثيراً وأظن أن أية امرأة ترغب في أن تحمل لقب السيدة شابلن».

خلال إقامته في الشمال، لم يترك والدي نفسه حبيس شاطئ بيبل بيتش ومحيطه. فقد كان معجباً كثيراً برجل مجد آخر هو جون شتاينبيك وزاره في منزله في لوس أنجلوس. أدهشت كتب شتاينبيك والدي واعتاد القيام بنزهات ريفية بالسيارة هناك، حيث تجري أحداث قصصه محاولاً وضع شخصيات كتبه في السياق المكاني الذي عاشت فيه.

لكن والدي لم ينفق كل وقته في النزهات والزيارات والترفيه. بل كان يمضي قسماً طويلاً من اليوم وهو يعمل. كان يمضي ساعات طويلة يقلب الأفكار مع تيم ويكتب. كان لا يزال غاضباً من بوليت إلى درجة امتناعه عن الردّ على مكالماتها الهاتفية عندما كانت تتصل به وتتوسل إليه كي يتكلم

معها، بل كان يقول: «فلتذهب إلى الجحيم» على الرغم من أنه كان يكتب الدور الرئيس من أجلها.

كانت القصة هذه المرة تتناول مليونيراً شابّاً يقوم برحلة إلى الصين ويقع هناك في حبّ امرأة جميلة من روسيا البيضاء تعمل في صالة للرقص. وكان يفترض بالفيلم أن يكون كوميديّاً مع لمسة اجتماعية وكان والدي يفكر، أثناء كتابته، في إسناد الدور الذكوري الرئيس إلى غاري كوبر. فقد كان معجباً به كثيراً، لا لأنه كان يعتبره ممثلاً رائعاً فحسب، بل لأن غاري كوبر لم يتعمد التمثيل قط، بل كان هو نفسه على الدوام، الأمر الذي كان يجعل أدواره مقنعة. وكان والدي متحمساً جداً للنص الذي يكتبه.

لكن الأفكار حول فيلم هتلر، الذي سبق له وتخلى عنه، كانت تراوده باستمرار وتتمحور حول شبهه بالديكتاتور. ناقش هذه الأفكار مع تيم كذلك على سبيل التسلية مقلباً إياها معه كما قلبها من قبل مع بيركوفيشي. ولسبب غير مفهوم، استخرج والدي من محفوظاته حبكة قصة قديمة كانت في حوزته منذ فترة طويلة لكنه لم يحولها إلى فيلم. وكانت الحبكة تدور حول محتال يحتل مكان نابليون.

أحبّ والدي قصة نابليون هذه كثيراً على ما أذكر لما رآه فيها من سخرية لاذعة إن تمّ تطبيقها على العريف الصغير. فكر، للحظة، في لعب الدور بنفسه، ثم فكر في جيمس كاغني الذي لم يبدِ أيّ اهتمام بالدور. وبعد خروج فيلم «الديكتاتور الكبير» إلى الصالات، بدأ والدي يتكلم عن تحويل قصة نابليون إلى فيلم تلعب غريتا غاربو دور البطولة النسائية فيه، في حين يحتفظ لنفسه بالبطولة الذكورية ويسند الإخراج إلى جان رينوار وكتابة السيناريو إلى الراحل دادلي نيكولز. لا أستطيع الامتناع عن تصور عظمة ذلك الفيلم لو أنه أبصر النور ببطولة مشتركة لوالدي ولغريتا غاربو. لكن الاجتماعات العديدة التي عقدت لم تفضِ إلى تجسيد هذه القصة والسبب، في رأيي، أن والدي كان قد اكتفى بإحلال هتلر محل نابوليون في فيلم «الديكتاتور الكبير».

في ذلك الوقت، بدأ اهتمام والدي بقصة هتلر يتجدد. فقد وصل بيركوفيشي في عطلة نهاية الأسبوع إلى بيبل بيتش مع ميلفين دوغلاس وتجاذب أطراف الحديث مع والدي في قصة «الديكتاتور الكبير» مرة أخرى. وقد كان تداول الأفكار الذي جرى، في وقت سابق، في بيفرلي هيلز ثم في تلك الليلة في بيبل بيتش هو ما استند إليه بيركوفيشي في دعوى السرقة الأدبية التي رفعها ضد والدي عام 1947 بعد سبع سنوات من فيلم «الديكتاتور الكبير». ربما يكون في تلك القضية أمر يزيد عن مجرد الزعم بحصول سرقة أدبية. ربما يكون والدي، في خضم حماسته المعهودة، قد قدم لبيركوفيشي عرضاً مبهماً يقضي بإسناد مهمة كتابة السيناريو له. لكن العروض على هذه الشاكلة

كانت شديدة الشيوع في هوليوود ولم يكن أحد ليأخذها على محمل الجدّ طالما أنها لم تبلغ مرحلة الالتزام المحدد. كما أن هتلر كان، من جهة أخرى، ينتمي إلى المجال العام، وكانت المسودات والقصاصات التي في حوزة والدي كفيلة بإثبات جدية بحثه في هذه الفكرة قبل تعرّفه إلى بيركوفيشي. وقد أخبرني تيم ديورانت، الذي شهد، في تلك القضية، لصالح والدي، أنه يظن أن بيركوفيشي كان يعاني من صعوبات جمة في سبيل الفوز بالقضية لو أن والدي قاوم حتى النهاية. لكن والدي كان قد اكتفى من الدعاوي القضائية، بعد أن أمضى فترات طويلة وهو يتردد إلى المحكمة بتهم تتعلق بتجارة الرقيق الأبيض ودعويا إثبات نسب رفعتهما ضده جوان باري. هكذا، قرر تسوية القضية قبل صدور الحكم فدفع لبيركوفيشي مبلغاً مقداره خمسة وتسعين ألف دولار مقابل إسقاط كافة المزاعم المتعلقة بمشاركته في كتابة نص «الديكتاتور الكبير».

وفي نهاية شهر حزيران، وصلت بوليت إلى بيبل بيتش لرؤية والدي وأحضرتنا معها كعرض سلام على وجه الاحتمال. في ذلك الوقت كان قد أصبح في حوزة أبي نص مكتمل تقريباً يصلح لعرضه عليها. لكنه كان لا يزال يقلب الأفكار المتعلقة بهتلر التي بدأت، كقطع الأحاجي، بالتراكب بعضها بجانب بعض. محتال... حلاق يهودي صغير... فتاة يهودية صغيرة... كانت الأفكار تتخذ مواقعها المناسبة في الإطار العام للقصة بسرعة وكانت تتوالد باستمرار.

وحال وصولنا، وضع والدي كل ما يشغله، من كوبر إلى هتلر، جانباً وانكبّ على واجب تسليتنا. ولم يستغرق الأمر طويلاً قبل أن تعود علاقته ببوليت إلى ما كانت عليه من متانة. وقد لاقت بوليت قبولاً كبيراً في مجتمع بيبل بيتش بوصفها زوجته. كما لاحظ الصحفيون اليقظون، كما هو عهدنا بهم، أنها وقعت، عند اشتراكها في إحدى دورات الغولف في النادي، باسم السيدة شابلن وهو أمر كان جديراً أن يتحول إلى خبر لأن تلك المناسبة كانت من المرات النادرة التي استخدمت فيها ذلك اللقب عوضاً عن اسمها الأصلي.

أما أنا وسيدني، فكانت إقامتنا في بيبل بيتش مصدر متعة. فقد قمنا بالرحلات البحرية نفسها على متن اليخت وخرجنا في نزهات ريفية عديدة بالسيارة كما امتطى والدي صهوة الجواد برفقتنا مرات عدة على الرغم من أنه لم يكن يحمل وداً حقيقيّاً لهذه الرياضة. ثم كان هنالك المنزل، المنزل المسكون الذي يلخص، في ذاكرتي، الرحلة بأسرها. كان منزلاً فارغاً لا يختلف كثيراً عن المكان الذي كنا نعيش فيه ولا بُدَّ أن والدي وتيم قد أمضيا ساعات طوالاً في التخطيط للعرض المروع الذي قدماه لنا.

فعند حلول ظلام الليلة التي سبقت عودتي، وسيدني، إلى هوليوود بالقطار، بدأ والدي يكلمنا عن

ذلك المنزل والأمور الغريبة التي تحدث فيه، فصدقنا كل كلمة قالها. لم يكن الأمر أننا كنا صبيين ساذجين، بل إن والدي كان يتمتع بمهارات خاصة في هذا المجال. بل إن تيم، نفسه، كان يعجز عن مقاومة براعته في الوصف التصويري، وهو لا يزال، بعد عشرين عاماً، يتذكر اللوحة اللفظية التي رسمها والدي له عن رجل في بيبل بيتش كان والدي مقتنعاً تماماً أن زوجته المتذمرة سوف تقتله في يوم من الأيام. فقد اعتاد والدي أن يقول لتيم كلّما عبرا مدخل المنزل في طريقهما إلى قرع جرس الباب: «سوف نذهب إلى ذلك المنزل ونجد رأسه المفصول عن جسده والملقى على أرضية المرمر يرحّب بنا. سوف يحدث ذلك عاجلاً أم آجلاً».

هكذا اجتمعنا، أنا وسيدني والأشباح التي كان والدي يصفها لنا بأسلوب ينضح بالحيوية، فلم ننتبه إلى أن تيم قد انسل خارجاً، بينما كان والدي يتكلم، وفي حوزته سلسلة معدنية ثقيلة واختبأ في الطابق العلوي من منزل الأشباح. ثم قال لنا والدي، بعد فسحة من الوقت كانت كافية كي يتخذ تيم موقعه: «إن لم تكونا تصدقاني، تعالا معي كي تريا الأمر بنفسيكما». هكذا، ذهبنا، مع والدي، إلى المنزل ودخلنا إلى غرفة المعيشة. وهناك، وسط أجواء نصف مظلمة، استأنف والدي سرد قصته الشبحية المخيفة. وفجأة قاطعه صراخ يشبه صرير الريح صادر من الطابق العلوي. فهمس والدي: «هل تسمعان ذلك؟» دبّت القشعريرة فينا في حين استأنف والدي قصته. وفجأة سمعنا صرخة أخرى مشابهة تلاها أنين خفيض موحش ثم بكاء مخنوق تلاه أنين آخر. أخذت، وسيدني، نرتعش خوفاً بالفعل، عند صدور صوت جرجرة سلسلة معدنية ثقيلة على البلاط فكان ذلك كافياً لجعلنا نندفع هاربين من الغرفة ووالدي يجري في أعقابنا متظاهراً بالخوف.

أمضينا تلك الليلة نتحدث عن المنزل المسكون حتى نال منا النعاس فنمنا. لكننا حلمنا به في تلك الليلة وكان موضوع حديثنا الوحيد في صباح اليوم التالي وهو أمر ملأ تيم ووالدي بالغبطة.

كان الكبار مشغولين بموعد ما في ذلك الصباح فلم يأخذونا إلى محطة القطار التي كانت على مرمى حجر، بل اكتفوا بوداعنا وذهبوا. كان لا يزال أمامنا بعض الوقت قبل انطلاق القطار وكانت أفكارنا لا تزال معلقة بمنزل الأشباح. فاقترح سيدني أن نلقي عليه نظرة في ضوء النهار ووافقت على الفور. مشينا إلى المنزل وجلنا حوله. بدا واضحاً أن المنزل مهجور ومسكون وبدت نوافذه متألقة تحت ضوء الشمس ويصدر عنها انعكاس مشؤوم.

وفجأة، هتف سيدني بحماسة: «فلنطرد الأشباح» فأجبته: «نعم، دعنا نتخلص منها». هكذا نصبنا أنفسنا طاردي أرواح وحملنا بعض الحجارة وأخذنا نرمي بها النوافذ الزجاجية. كان الأمر مسلياً. وقد قمنا بعمل مثالي، إذ نجحنا في تحطيم زجاج جميع النوافذ تقريباً قبل أن نسارع للحاق بالقطار.

كانت رحلتنا الطويلة إلى هوليوود كفيلة بتحريرنا من السحر الذي ألقاه والدنا علينا، فبدأنا نفكر في المنزل بطريقة عقلانية. كان المنزل خالياً بالفعل، لكنه لم يكن يبدو مهجوراً- فقد كان مظهره يدل على أنه موضع عناية. أما النوافذ، بألواحها الزجاجية الكبيرة، فكانت باهظة بحقّ.

وأخيراً قطع سيدني الصمت الطويل: «هل تظن أن المنزل يضم أشباحاً يا تشاك؟».

أجبته بتردد: «لا أعلم. ربما لم يكن علينا أن...».

«لا أظن أنه كان من الصائب أن نقوم بذلك يا تشاك».

اجتاحتنا موجة من الخوف عندما تذكرنا المنزل الأنيق منتصباً هناك كئيباً ومشوهاً بعد أن حطمنا كل نوافذه.

لخصت الموقف قائلاً: «سيجن جنون والدي... سيجن حقّاً».

أجابني سيدني: «لا أظن أنه من الحكمة أن نذهب لزيارته لدى عودته إلى المنزل إن كنا ندرك مصلحتنا».

أومأت موافقاً على هذا السلوك الحذر، لكن معدتي تشنجت لمجرد تفكيري بالأمر. فقد كنا أمضينا فصل الربيع منفيين عن منزله، بالفعل، وصار علينا، الآن، أن ننأى بأنفسنا عنه من جديد بعد ذلك اللقاء الرائع الذي جمعنا به في بيبل بيتش.

- في النص الأصلي: There but for the grace of God, go I وهو مثل إنكليزي شهير ينسب إلى المبشر الإنكليزي جون برادفورد (1510 - 1555)- المترجم

عاد والدي من بيبل بيتش في نهاية شهر تموز. علمنا من الصحف أنه عاد مع بوليت لكننا لم نجرؤ على الاتصال به على الرغم من شوقنا الشديد إليه. لم يتصل بنا، بدوره، على الرغم من أنه كان في السابق يواظب على الاتصال بنا. ربما ظن أننا صرنا أعضاء في إحدى العصابات ولم يعد راغباً في أنه يكون لنا أية صلة به.

مضى الصيف وعدت، وسيدني، إلى المدرسة قبل أن ينال منا الشوق إلى المنزل الواقع على قمة التل فقررنا الاتصال بوالدنا مهما تكن العواقب. كان فرانك هو من رفع سماعة الهاتف، بالطبع، وقال لنا بصوت ملؤه الفرح: «أين كنتما. يجب أن تأتيا لرؤيته. إنه أبوكما. أليس كذلك؟» وهكذا كان. إذ عدت، مع سيدني، إلى المنزل في يوم الجمعة التالي.

قال لنا والدي بنبرة لطيفة: «لقد مرّ زمن طويل». لكننا أدركنا، من خلال الطريقة التي كان يرمقنا بها، أنه كان يفكر في النوافذ المهشمة في منزل بيبل بيتش. لم نقل شيئاً، ولم يكن ذلك ضرورياً أصلاً. إذ مضى والدي في القول: «تعلمان أن تحطيم نوافذ البيوت كفيل بإرسال الأولاد إلى الإصلاحية. إنه أمر شائن. ناهيكم عن أن والدكما المسكين يعمل بجدّ هنا في حين تتسليان بخبث بتحطيم أملاك الغير». حاولنا تفسير موقفنا: «لم نقصد القيام بذلك يا أبي. كنا نظن أننا قادران على إخافة الأشباح وطردها». فأجابنا: «لست مهتمّاً بما تفكران فيه. لقد حطمتما أملاك الغير. تصوروا الآن ما كان يمكن أن يحصل لكما لو أنني لم أدفع ثمن الزجاج المحطم. كان يمكن للشرطة أن تلقي القبض عليكما...».

واستمر الدرس بلا توقف، وكان الموقف شبيهاً بما اختبرناه في ذلك اليوم الذي بعنا فيه زجاجات الخمر للسيد سيلزنيك، وكنا مدركين أن الحكم سيكون في النهاية: «مذنب!» فوقفنا ننتظر نهاية الجلسة وقد ملأ الخوف قلبنا.

وأخيراً قدّم المدعي العام مرافعته الختامية: «أيها الصبيان. لقد كلفتني فعلتكما مالاً. أكثر من ألف وخمس مئة دولار. فلا تعودا إلى ذلك، وإلّا فإن العقوبة ستكون شديدة».

كان ذلك كل شيء- لم يكن هناك من حكم ولا من عقوبة، بل مجرد ذلك الدرس الصارم، مع كونه هادئاً. كان ذلك الأمر جديداً بالنسبة إلينا فمضينا مذهولين. لكننا استطعنا، بعد التداول في المسألة، أن نكتشف مفتاحاً ثميناً يسمح لنا بفهم شخصية والدي: إن نجحت في تجنبه في اللحظة التي يكون

فيها في ذروة غضبه، فأنت آمن. كان غضبه شديداً ونافذاً بالفعل، لكن والدي لم يكن ممن يحملون الضغينة.

هكذا عدنا إلى المنزل الواقع في أعلى التل مع بوليت ووالدي. كانت شقة الخلاف بينهما، التي لم تكن مرئية، بالنسبة إليَّ وإلى سيدني، في أيّ يوم مضى، قد ضاقت وبدا زواجهما لنا راسخاً كالصخر.

كانت بوليت، التي عادت إليها الثقة في أن مسيرتها المهنية تسير، من جديد، على السكة الصحيحة، تشعر بالسعادة. فقد كانت قد لعبت دوراً صغيراً في فيلم «ذو القلب الفتي» الذي كانت أصداؤه طيبة في أوساط الجمهور. كما كانت بوليت قد وقّعت عقداً مع شركة ميترو غولدوين ماير يمنحها دوراً هامّاً في فيلم «المدرسة الدرامية»، مع لويز راينر، ويبقيها مشغولة طيلة فصل الخريف، بالإضافة إلى أنها كانت لا تزال مرشحة جدية لتجسيد شخصية سكارليت أوهارا. غير أن الأمر الأهم هو أن والدي كان قد نجح أخيراً في كتابة نصّ مكتمل كان يخطط لجعل بوليت وغاري كوبر يلعبان بطولته وصار جاهزاً لإطلاق عملية الإنتاج، وهو أمر يحصل للمرة الأولى طيلة العامين السابقين. بل إن والدي مضى بعيداً إلى درجة مقابلة غاري كوبر من أجل الدور.

بيدَ أن الأمور، من حيث ما يتعلق منها بوالدي، لم تكن تمضي بالسرعة التي تصورتها بوليت. إذ هال والدي، الذي كان قد اعتزل الصحافة والإذاعة طيلة فترة إقامته في بيبل بيتش، ما كان يحدث في العالم عند عودته إلى هوليوود. كان شبيهه هتلر ينشر الرعب خارج حدود ألمانيا. وفي داخلها، كانت محاكمات اليهود الرهيبة تجري على قدم وساق. وفجأة، رأى والدي في فيلمه الكوميدي القادم غاية تزيد عن مجرد إضحاك الناس. إذ إنه يستطيع، باستخدام السخرية، أن يلفت نظر الناس إلى رعب الديكتاتورية، وأصبحت مهمته أن يحمل مرآة السخرية ويضعها أمام بديله المجنون هتلر كي يرى فيها حقيقته كمهرج شرير. هكذا، وضع والدي جانباً النصّ الذي كان قد عمل، من أجل إنجازه، ستة أشهر مجهدة وعاد من جديد إلى فكرة هتلر التي أطلق عليها في ذلك الوقت اسماً مؤقتاً هو «الديكتاتور».

كان قد عاش سلسلة من نوبات الحماسة التي توالت عليه على مدى السنوات الثلاث السابقة. لكن الفرق بين ما كان يكتبه في تلك الحقبة وما أصبح يفعله الآن هو أنه كان السيد المطلق في مشاريعه السابقة. أما في فيلم «الديكتاتور الكبير»، فقد كانت عبقريته هي التي تقود العمل في حين تحول، هو نفسه، إلى مجرد راكب من الركاب.

كنا، جميعاً، معه، كذلك، في خضم تلك الاندفاعة. كنت أرغب دائماً، عندما كنت في سنّ أصغر، أن أكون جزءاً من عمله وأن أساعده بأية طريقة أقدر عليها. ولذلك ازداد إحساسي بأهميتي عندما أصبح يبحث عني في المنزل ويناديني قائلاً: «تشارلز، أين أنت؟ تشارلز، أصغِ إلى ما كتبت!». كنت مجرد صبي في الثالثة عشرة من العمر ومع ذلك صار والدي يعتمد عليَّ، على الرغم من أنني كنت مدركاً أنه لم يكن يلتمس الحصول على رأيي، بل كان في حاجة دائمة إلى التشجيع.

ومع تقدمي في السنّ، خسر والدي الخصائص السحرية التي كنت أراها فيه في طفولتي، لكنه أصبح، في الوقت نفسه، بالنسبة إليَّ، مصدراً لرهبة أكبر بوصفه شخصية عالمية. كان إنساناً عبقريّاً يتصل به رجال عظام، بعضهم عباقرة في حدّ ذاتهم، ويدعى إلى منازلهم عندما يكون خارج البلاد. كما أنه استضاف رجالاً من طينة ليون فوختفاغنر وهـ. ج. ويلز وجان كوكتو. وكان، باستمرار، يرينا الجوائز الجديدة التي يتلقاها من مجموعات سينمائية ومنظمات مختلفة حول العالم. كما أنه فاز بتكريم دول كثيرة وكان، في بعض الأوقات، يحضر الكؤوس التي فاز بها كي أراها وسيدني. وأرانا، كذلك، الشهادات والميداليات والأوشحة التي كان منها وسام الشرف الفرنسي.

وقد أخبرنا والدي قصة مضحكة تتعلق بواحدة من ميدالياته. في أثناء رحلته إلى إنكلترا، عام 1931، عقد أواصر صلة وثيقة بأمير ويلز، الذي يحمل، الآن، لقب دوق ويندسور، والذي يحتفي بوالدي كلّما سافر إلى هناك. وذات يوم دعاه الدوق إلى حفلة وقال له بطريقة عرضية: «علق أوسمتك. فهذا ما سيفعله الجميع». كان في حوزة والدي خمسة أوسمة كبيرة علّقها، جميعها، قبل ذهابه إلى الحفلة فبدا، وهو متسربل بدروعه، أميراً من أمراء القرون الوسطى- إذ كانت ميدالياته تقعقع وهي تتدلى على صدره. تلفّت حوله فلاحظ، بذعر، أن المدعوين اكتفوا بارتداء الأشرطة المرافقة للميداليات. فتسلل إلى الخارج محاولاً أن لا يثير الانتباه- وهي مهمة لم تكن سهلة على الإطلاق، إذا أخذنا بعين الاعتبار الضجيج الذي كانت تحدثه الأوسمة- واستبدلها بالأشرطة. بهذه الطريقة تلقى والدي درساً عسيراً حول ما قصده سموّ الأمير بقوله: «علِّق أوسمتك». وكانت تلك أكثر اللحظات التي عاشها والدي مدعاة للإحراج. لكن روح المرح التي يتمتع بها جعلته لا يجد غضاضة في روايتها، كشكل من أشكال السخرية من الذات.

أخبرنا والدي، كذلك، أنه تلقى، في إنكلترا، عرضاً بإمكانية منحه مرتبة فارس، لكنه رفض العرض لأنه لم يكن يؤمن بالألقاب، بل بالإنجازات التي يحققها الفرد. لكنني أحسست، وسيدني، بالفخر لأن والدنا كان مرشحاً لمرتبة الفروسية، وأظن أنه مرّت لحظات تمنينا فيها لو أنه أعرض،

في تلك المرة، عن ذلك النوع الغريب والمقلوب للكبرياء الذي يميزه، فقد كان ذلك كفيلاً بمنحنا متعة مناداته سير تشارلز. ذلك ما كان في ذلك الحين. أما فيما بعد، فقد لمناه على إغفاله أمراً آخر هو الحصول على الجنسية الأمريكية.

كانت الجوائز التي نالها والدي عن إنجازاته مدعاة لإعجابنا لأنه حققها دون أن تتاح له فرصة التحصيل الدراسي وكان ذلك درساً لنا أن ننتهز الفرص المتوفرة وأن نكون طلاباً مجدّين.

كانت الدراسة أمراً عسيراً إلى حدّ ما بالنسبة إليَّ. كنت أعسر كوالدي، لكنني تعرضت لإصابة قبل دخولي المدرسة أثرت على كفاءتي في التحصيل العلمي وعلى نطقي وهو الأمر الذي اكتشفته مربية المدرسة بحدسها. لم أكن، كطفل، أتأتئ عندما أستثار، بل كنت، ببساطة، أعجز عن الكلام وتعلق الكلمات في حلقي. كما كنت أبطأ في التعلم من غيري من التلاميذ فكان الأمر يستغرق مني وقتاً أطول في إنجاز ما كان يبدو أنهم قادرون على إنجازه بسهولة كنت أحسدهم عليها.

لكنني وجدت التعويض عن العمل المجهد الذي كنت أقوم به في الاهتمام الذي كان والدي يبديه للتقدم الذي أحققه في المدرسة. في تلك الفترة، التي صرت فيها، وسيدني، في مرحلة الدراسة الإعدادية، بدأنا نأخذ الدراسة على محمل الجد. وفي بعض الأحيان، عندما كنت أعود من المدرسة محملاً بكتبي، كان والدي يترك الكتابة جانباً وينظر إليها. كان يبدي اهتماماً خاصّاً بقواعد اللغة والبلاغة، فيقول، متقمصاً دور الوالد الذي يتحقق من تقدم ابنه: «فلنرَ ما تعلمته هذا الأسبوع. ما هذا يا بني؟»، ثم يطرح عليَّ سؤالاً حول أحد موضوعات قواعد اللغة فأجيبه عن سؤاله وكان، أحياناً، يهزّ رأسه مصححاً، ويومئ، أحياناً أخرى، بالموافقة: «حسناً، ممتاز يا بني».

ثم أطرح عليه، فجأة، سؤالاً من باب المزاح، فنتجادل، أحياناً، بصورة ودّية حول من منا على حق قبل أن نعود، في نهاية المطاف، إلى الكتاب للتحقق. في بعض الأحيان، كان والدي يهزّ رأسه بسرعة وبصورة متكررة: «لا، لا، لا، هذا خطأ بالطبع. دعني أرَ الآن. الجملة الشرطية هي كهذه». ثم ننخرط سويّاً في دراسة اللغة الإنكليزية عدة ساعات. وقد أدركت، حتى في تلك السنّ المبكرة، أن والدي كان يصقل إنكليزيته، تحت قناع التحقق مما أعرفه. وكنت أستغرب أن رجلاً بالغاً لم يعد في حاجة إلى إشغال نفسه بهذه الأمور يبدي كل هذا التعطش لما كنت أعتبره واجباً مملّاً. كان والدي يحاول استدراك ما فاته من تعليم. كان لديه كتاب قواعد لغة قديم درس فيه واحتفظ به كمرجع. كان يصرّ على أن يتكلم لغة إنكليزية كاملة،لا أقل من ذلك. تتذكر نانا كيف كانت، ووالدتي، تصححان له قواعد اللغة في بعض الأحيان عندما كانتا في المنزل. فكان والدي يقول ضاحكاً: «حسناً، من ذاك الذي اخترع اللغة الإنكليزية ووضع قواعدها؟». لكنه لم يكن يشذّ

عن القواعد ولم يكن يكرر ارتكاب الخطأ نفسه إلَّا نادراً. أما الآن، فلا يستطيع أحد أن يصحح له لغته التي أصبحت لا تشوبها شائبة.

وعلى الرغم من أن والدي يقرّ بأنه ليس بارعاً كثيراً في التهجئة، فإن مخزونه من الكلمات بدا لي هائلاً. وكنت أظن، في طفولتي، أنه يعرف كل كلمة في القاموس مع مشتقاتها. وقد اعتدت على أن أحمل معي قاموس جيب كي أمتحن براعته في الخفاء. لكنني لم أستطع يوماً أن أسجل عليه أيّ خطأ.

وكان هنالك أمر آخر أثار إعجابي هو عادة القراءة لديه. وقد أصبحت محاولاتي مجاراته في هذه العادة هاجساً جعل والدتي، التي كانت معتلة الصحة في ذلك الوقت، تخشى أن أؤذي نفسي فكانت تبعدني عن كتبي وتدفعني إلى الخارج كي ألعب.

في تلك الأيام، بدا لي أن معارف والدي لا قرار لها. فقد كان مطلعاً على الكتب الكلاسيكية- كان منها الكتاب المقدس ومسرحيات شكسبير وتراجم بلوتارخ، و«تشريح الكآبة» لبروتون، و«حياة صاموئيل جونسون» لبوزويل. كانت، من قصصه المفضلة التي تدل على اهتمامه بدقائق استخدام الكلمات، قصة تتناول الدكتور جونسون وسيدة شابة أنيقة كانت تجلس بجواره في العربة. كان الدكتور جونسون قذر المظهر، الأمر الذي جعل السيدة ترى أن من واجبها تنبيهه إلى ضرورة الاهتمام بنفسه. فقالت له ببرودة: «دكتور جونسون، رائحتك...» فأجابها الدكتور جونسون برزانة: «عذراً سيدتي... نتانتي... أما الرائحة فهي من نصيبك».

من كتاب الرواية، كان والدي يفضل تشارلز ديكنز وموباسان، ربما بسبب مزجهما الفريد للفكاهة والكآبة في أعمالهما. كما أحبّ إدغار ألن بو وأوسكار وايلد ومارك توين. أما الفلاسفة، فقرأ منهم نيتشه وإيمرسون وروبرت إنغرسول (الذي تعرّف إليه عندما كان في السابعة عشرة من عمره) وشوبنهاور لشبينغلر. أتذكّر يوماً كنت فيه أكبر سنّاً سحب والدي، فيه، من المكتبة مجلداً لشوبنهاور وأعطاني إياه قائلاً: «يجدر بك أن تقرأه يا بني. لكن لا حاجة بك إلى المبالغة في أخذه على محمل الجد- ولا سيما فيما يتعلق بما يقوله عن النساء- فهو ينضح مرارة ويعتبر من كبار المتشائمين لكنه مسلٍّ على الرغم من ذلك». وكان والدي معجباً بكتاب «انحطاط الغرب» لشبنغلر، وخصص جزءاً كبيراً من مكتبته لكتابات ألدوس هيكسلي وويل ديورانت، والرجلان كانا ممن استضافهم منزله.

وصف البعض والدي بأنه مثقف ووصفه آخرون بأنه هاوٍ، بل لم يتردد آخرون في الزعم أنه

يدّعي الثقافة مستعيناً بمواهبه التمثيلية الرائعة، إلى درجة أن المرء يحتاج إلى تركه قبل أن يدرك أن ثقافته ليست سوى واجهة براقة. لكن مهما تكن إنجازات والدي في مجال التعلم، فقد أكبرت فيه على الدوام تعطشه الشديد للمعرفة وحرصه على تعويض كل ما فاته في طفولته.

كانت الدرجات المنخفضة في سجلنا المدرسي تحزنه على الدوام. وذات مرة، أخفقت في مادة الرياضيات، فحاول تشجيعي مستحضراً الدكتور أينشتاين وقال لي، وهو الذي لم يبرع يوماً بالأرقام: «إنه أحد الرجال القلائل على سطح الأرض ممن يعرفون النظرية النسبية. وأنا أعرفه. لأنه يزورني في هذا المنزل بالذات كي يعزف لي على الكمان». والواقع أنني التقيت الدكتور أينشتاين مرة واحدة. أتذكّره رجلاً ضئيل القامة لطيفاً تميزه كومة كبيرة من الشعر الرمادي الجامح. نعم، لقد كنت شديد الإعجاب به لأنه فهم تعقيدات الرياضيات التي كانت، بالنسبة إليَّ وإلى والدي على حدّ سواء، سرّاً مستغلقاً لم نستطع فك ألغازه.

أما الموسيقى، فكانت، بالنسبة إليَّ وإلى والدي، تمثل أرضية أكثر رسوخاً. كنت، في ذلك الوقت، قد اكتشفت أن أساتذة مدرسة البلاك فوكس ليسوا على تلك الدرجة من السوء. بل إنني كنت قد صرت مولعاً، بصورة خاصة، بأستاذ بدا لي أكثر المعلمين روعة على الإطلاق هو أستاذ التربية البدنية السيد دوغلاس (أوليغ) مورات. كان يلتقي بنا في مجموعات صغيرة ويعلمنا، ببرودة، حقائق الحياة. كان يؤنبنا ويعاقبنا عند الضرورة ويخبرنا قصصاً مسلية عن طيرانه من روسيا وأبدى اهتماماً بشؤوننا الاجتماعية وشجعنا على تطوير مواهبنا. تقرب السيد مورات مني وعلمني كيف أصبح خيالاً على الطريقة القوزاقية. وقد كان هو من اكتشف أهليتي للموسيقى واقترح عليَّ أن آخذ دروساً فيها.

بدأت أدرس البيانو على يد عازفة بيانو روسية شهيرة هي العازفة الراحلة رايسا كوفمان التي كانت، كذلك، معلمة فتاة جميلة اسمها دولي لوهر احتلت، في وقت لاحق، مكاناً لها في هوليوود تحت اسم ديانا لين. اعتدت رؤية دولي، في بعض الأحيان، عندما أذهب إلى الدرس وقد جذبتني كثيراً لكنني لم أجد في نفسي ما يكفي من الشجاعة لطلب الخروج معها في موعد.

كان والدي فخوراً بمأثرتي الجديدة في مجال البيانو. فكان يرجوني أن أعزف له شيئاً، وعندما كنت أبدأ العزف، كان يقف خلفي واضعاً يديه خلف ظهره ويصغي بانتباه. وكان يقول لي بحماسة: «آه، لو أنك تتمرن يا تشارلز. كنت لتصبح عازفاً عظيماً». ولم أعلم، إلّا لاحقاً، من خلال قصاصة من صحيفة قديمة، أن والدي كان يصرح، حتى عندما كنت طفلاً رضيعاً، بأنني أتمتع بنبوغ موسيقي سوف يصبح، ذات يوم، علامة بارزة في العالم.

أمضيت حياتي أبحث عن طريقة تجعل والدي فخوراً بي. وفجأة، وجدتها ماثلة أمامي. كانت الموسيقى هي ذلك المفتاح السحري. لكنني اكتشفت بعد ستة أشهر من التدريب أنني لا أستطيع الجمع بين الموسيقى والدراسة. فقد كان منهاجي المدرسي بالغ الصعوبة وكنت، أنا نفسي، طالباً بطيء التعلم. فلم أستطع أن أجد الوقت اللازم كي أبرع في البيانو. وعلى الرغم من أن أصابعي كانت تتمتع بما يكفي من الرشاقة وأنني كنت قادراً على العزف السماعي، إلَّا أنني كنت بطيئاً في قراءة النوطة. لذلك تخلّيت عن دروس الموسيقى بشكل كلّيّ، الأمر الذي كان مصدر خيبة لوالدي على الرغم من أنه لم يحاول إرغامي على استئنافها.

لكنني عوضت عن عجزي عن الاستمرار في دروس العزف باتباع دروس في تذوق الموسيقى كنت قادراً على تمريرها مع منهاجي المدرسي خلال السنوات التي أمضيتها في المدرسة. فدرست حياة المؤلفين وأساليبهم وعاداتهم وكل شيء وقع تحت يدي يتعلق بهم. تعلمت التمييز بين المؤلفين من خلال جملة موسيقية واحدة من مقطوعة دون أن أعلم هذه المقطوعة بالضرورة. وبهذه الطريقة، استطعت الحفاظ على تقدير أبي الذي كان يتحدث، في بعض الأحيان، باعتزاز: «ابني تشارلز، هنا، يعرف كل شيء عن الموسيقى الكلاسيكية، كل المؤلفين. لمَ لا تعزف لنا شيئاً يا تشارلز؟».

لكني كنت أخشى، على الدوام، أن يطلب والدي، الذي يتحدث بلهجة من يقدم لضيوفه حفلاً موسيقيّاً ترفيهيّاً، أن يطلب مني أن أعزف إحدى مقطوعاتي الثلاث أمام الشخص غير المناسب. كان أرثر روبنشتاين وإيغور سترافينسكي من زوار المنزل. كما أن رخمانينوف زارنا مرة لكنني لم أقابله لأن زيارته كانت في وسط الأسبوع أثناء غيابي عن المنزل. وقد أخبرني والدي عنه عند زيارتي التالية وكانت خيبة أملي بالغة. تصوروا! رخمانينوف في منزل والدي! رخمانينوف الذي لم يكن لامعاً في حقل واحد، بل في ثلاثة معاً: كمؤلف وعازف على البيانو وقائد أوركسترا، والذي درس على يد تشايكوفسكي، دليلي الأول إلى عالم الموسيقى الكلاسيكية الجميل!

ألححت على والدي في الأسئلة عن رخمانينوف. كيف كان؟ عما تحدثا؟ كيف يبدو شكله؟ كان والدي سعيداً بأسئلتي فوصف لي رخمانينوف- رجل عجوز متعب بعينين غائرتين يتحدث بلغة إنكليزية مكسورة إلى درجة كان يحتاج معها إلى وجود مترجم. وفجأة، بدأ والدي يقلده- سيره البطيء والطريقة التي يجرجر بها قدميه على الأرض ثم التغير المفاجئ الذي يطرأ على حركته عندما يجلس وينخرط في النقاش في موضوعات عزيزة على قلبه.

وفي فترة لاحقة، ذهبت برفقة نانا لسماع رخمانينوف يعزف في القاعة الفيلهارمونية. وعندما

رأيت هيئته المتعبة وطريقة مشيه، ثم العودة المفاجئة للفتوة والنشاط إليه عندما يتخذ مكانه أمام البيانو، فكرت في والدي. فقد كانت محاكاته لذلك الفنان العظيم متقنة إلى درجة لم أرَ رخمانينوف وحده في تلك الأمسية، بل رأيت والدي فيه.

وكان فلاديمير هوروفيتز، كذلك، من زوار والدي في منزلنا. التقيت بهوروفيتز وزوجته واندا، ابنة توسكانيني وابنتهما الصغيرة سونيا ذات الأعوام الثمانية، عندما كنت في السادسة عشرة من عمري. طلب منها والدها أن تعزف على البيانو من أجلنا فكان عزفها كالنسيم، لكن هوروفيتز هزّ رأسه قائلاً بلكنته الروسية الثقيلة: «عليَّ أن أعتذر عن ابنتي لأنها لم تتمرن بما فيه الكفاية مؤخراً. تدربي أيتها السيدة الصغيرة!» لا تتدرب! يا إلهي. لقد كان أداؤها عبقريّاً! كنت، من جهتي، أتصبب عرقاً خشية أن يطلب والدي أن أعزف إحدى مقطوعاتي الثلاث، لأنني لن أكون قادراً على الوقوف ندّاً لها.

لم يكن والدي يكتفي من سماع عزف هوروفيتز وكان يقول بإعجاب: «عزفه كأوركسترا كاملة في الغرفة. إنه قادر على اقتلاع السقف». كان والدي يستمع إلى معزوفاته بصوت مرتفع. فعندما يدير المذياع، كنت تستطيع سماع الموسيقى تصدح في مختلف أرجاء المنزل. أما هو، فتراه يكاد يجلس على المذياع من فرط الابتهاج. كما ازدادت وتيرة تشغيل جهاز الاستماع، الذي يضم مذياعاً وجهاز فونوغراف، مذ بدأت أبدي اهتماماً بالموسيقى. كانت الموسيقى بمثابة رابط روحي يزيدنا اقتراباً واحدنا من الآخر، وكنا نتبادل الآراء بشأنها وكان والدي مأخوذاً، على وجه الخصوص، بمقطوعة الجمعة العظيمة من الحركة الثالثة من أوبرا «بارسيفال» لفاغنر. وأظن أنها المقطوعة المفضلة على الإطلاق، بالنسبة إليه. إذ كان يقول، وهو يهزّ رأسه من فرط السرور: «فقط أصغِ إلى ذلك. أصغ إليه. كيف استطاع هذا الوغد أن يكتب هذه الموسيقى الجميلة؟ لماذا هذه الموسيقى السماوية الخالدة وصاحبها لم يكن سوى ابن عاهرة على صعيد حياته الشخصية! انظر إلى ما فعله بابنة فرانز ليست وكيف فرّ من مدينته تاركاً خلفه ديوناً لم يسددها».

كان يعجز، في بعض الأحيان، عن البقاء جالساً في كرسيه فيما الموسيقى حوله تصدح كالرعد، فيهبّ على قدميه ويسير جيئة وذهاباً ويهزّ رأسه مثنياً على أعمال فاغنر للحظة، قبل أن يستغرق في شتمه في اللحظة التالية بسبب حياته الشخصية. ربما تكون سخرية الأقدار هي ما جعلني أشهد الرأي العام يدين والدي، بعد فضيحة جوان باري والاتهامات بالشيوعية التي انهالت عليه، بالطريقة نفسها التي كان، هو نفسه، يتحدث بها عن فاغنر في الأيام السابقة.

في شهر كانون الأول 1938، أنجز والدي نص فيلم «الديكتاتور الكبير». كانت معالم كافة الشخصيات قد ارتسمت بوضوح. كان الدور النسائي الرئيس، المتمثل في شخصية الفتاة اليهودية الفاتنة، قد كتب خصيصاً من أجل بوليت. وكان على والدي أن يجسد شخصية هتلر وشخصية الحلاق اليهودي الصغير، في الوقت نفسه. لكنه لم يتخلَّ، بصورة كلية، عن شخصية الصعلوك الذي اتخذ، في الفيلم، شخص الحلاق بسرواله المترهل وحذائه الكبير الذي يضطره إلى جرجرة قدميه. وقد أخبرني والدي أنه أبقى على شخصية الصعلوك، في هذا الفيلم، بوصفها تميمة لأنها كانت، بالنسبة إليه، على امتداد سني حياته، مصدراً لحسن الطالع والثروة والشهرة. كما أنه نجح، من خلال تلك الشخصية، في انتزاع ضحكات ملايين الناس حول العالم الذين كانوا يذهبون إلى صالات السينما لحضور أفلامه ويحتشدون لمشاهدته في حلّه وترحاله ويشاركون في عدد لا يحصى من مسابقات تقليد تشارلي شابلن.

أخبرني والدي عن واحدة من تلك المسابقات جرت قبل أن أولد. عقدت المنافسة في مسرح غرومان الصيني في هوليوود حيث تناوب على خشبة المسرح ثلاثون أو أربعون متبارياً كان كل منهم يبذل كل ما في وسعه من أجل محاكاته، وكان والدي واحداً من المشاركين. فقد ذهب إلى هناك متخفياً كي يختبر نفسه. لكنه حلّ في المرتبة الثالثة. وقد كان والدي، على الدوام، يرى في تلك المنافسة، واحدة من أكثر النكات التي لا تصدق إضحاكاً- سواء تعلق الأمر به شخصيّاً أم بالحكام.

يستطيع المرء، إذن، أن يفهم سبب إحساس والدي بالحاجة إلى الاحتفاظ بالصعلوك المرح بوصفه رمزاً لحسن الطالع في فيلم «الديكتاتور الكبير». كان والدي، كذلك، كغيره من الناس، يدرك مخاطر إنتاج فيلم كهذا في تلك الفترة بالذات. فقد كان نيفيل تشامبرلين، بمظلته الشهيرة، قد زار هتلر في ميونيخ، كما كان إقليم السوديت قد ضمّ إلى ألمانيا بالفعل، وكانت عينا هتلر تحدقان في تشيكوسلوفاكيا بشراهة وكانت نواياه واضحة وضوح حقيقة أنه لم تكن توجد، في ذلك الوقت، قوة غربية واحدة- لا إنكلترا ولا فرنسا ولا الولايات المتحدة بالتأكيد- معنية بالتدخل.

كان والدي يخطط لفعل ما كان الآخرون يتهيبون القيام به- جعل وحش أوروبا الصغير أضحوكة الناس. وكان، في ذلك، سابقاً للأحداث، تماماً كما كان سابقاً لها في فيلم «الأزمنة الحديثة» الذي

كان صرخة احتجاج ضد مكننة الإنسان. لكن التقدم البطيء لوالدي، في حالة فيلم «الديكتاتور الكبير»، كان السبب الوحيد الذي جعل الأحداث قادرة على مجاراته، في حين كان نظيره الأوروبي يتحرك بسرعة لا تصدق وقد شجعه على ذلك صمت الآخرين.

ولكونه الفيلم الناطق الأول الذي ينتجه، فقد أحضر والدي عدداً من الكتاب لمساعدته على كتابة حوار فيلم «الديكتاتور الكبير». أتذكّر المؤتمرات التي عقدت لمناقشة القصة والتي كان منزلنا محلّاً للعديد منها. كان الكتاب الذين استأجرهم والدي محترفين يتقنون عملهم، لكن العمل، بالإجمال، بقي استعراض رجل وحيد، هو والدي. إذ كنت تراه ينصت للآراء التي تطرح أمامه، ثم يعرض عن استخدامها عند عدم موافقته عليها. فإن أصرّ أحدهم على الجدال- وقد سمعت، في الواقع، العديد من النقاشات الحامية- كان والدي ينفجر غضباً. ومع اقتراب موعد انطلاق التصوير، عادت الاضطرابات التي ألفتها، منذ زمن فيلم «الأزمنة الحديثة»، إلى الظهور من جديد.

كان العمل على النص يتقدم باطراد، ومعه، بدأ والدي بدراسة موضوعه. فجمع الأشرطة الإخبارية التي تتناول هتلر وصار يشاهدها على مدار الساعة في مسرح المنزل أو في إحدى غرف العرض في الاستديو. هناك، كانت تعرض مشاهد لهتلر وهو يتكلم إلى الأطفال ويحتضن الرضع ويزور المرضى في المستشفيات ويستعرض مهاراته الجدلية في كل المناسبات الممكنة. درس والدي كافة وقفات الديكتاتور والتقط تصرفاته بأدقّ تفاصيلها وكان مفتوناً به. فقد اعتاد القول عنه بإعجاب أشياء مثل: «هذا الرجل ممثل عظيم. إنه أعظم الممثلين على الإطلاق».

أثمر الجهد الذي بذله أبي في دراسة هتلر. فقد بلغ تجسيده لشخصيته حدّاً من الكمال جعل الألمان الذين شاهدوا الفيلم يقولون إنه كان عليهم أن ينصتوا إلى الحوار بتمعن كي يدركوا أنه لا يتكلم لغتهم على طريقة هتلر، بل يقول لغواً لا معنى له.

كما بدأ والدي، في الوقت نفسه، باختيار بقية الممثلين. كان متلهفاً، بصورة خاصة، للعثور على الممثل المناسب لتجسيد شخصية نابالوني- أي بنيتو موسوليني في الواقع. كان والدي قد خطط، في الأصل، لتسميته بنزينو غازوليني. لكن عندما صار الفيلم جاهزاً للتصوير، كانت غيوم الحرب الداكنة قد تراكمت أكثر من أيّ وقت مضى وكان موسوليني لا يزال يتخذ موقف الحياد، لذلك قرر والدي استبعاد أية فرصة لاستفزاز الدوتشيه المتبجح، على الرغم من أنه كان قرر أن يسخر منه مهما كلفه ذلك وقرر إسناد الدور إلى جاك أوكي. وعند وصول أوكي إلى المقابلة وتعرفه إلى الدور المعروض عليه، اعتمر قبعته، من جديد، ووقف قائلاً: «انظر إليَّ. أنا فتى اسكتلندي

أيرلندي. أنت تحتاج إلى ممثل إيطالي». فصاح به والدي: «وما المضحك في إيطالي يجسد شخصية موسوليني؟». عندئذٍ، فهم أوكي مقصد أبي فانتزع قبعته ثانية وجلس ووافق، في نهاية المقابلة، على تأدية الدور.

كان اختيار والدي للممثلين الثانويين محكوماً، في بعض الأحيان، بما هو أكثر من مجرد انتقاء الشخص الأفضل للدور المطلوب. كان هنالك، في طبيعته، جانب عاطفي، بل قل شفقة، يصل إلى ذروته عندما يتعلق الأمر بالممثلين. فقد اكتشفت أنه لم يكن يؤثر فيه شيء أكثر من رؤية شخص كان نجماً في يوم مضى قبل أن ينتهي الأمر به إلى العوز، ربما لأن العمر أفسد ذاكرته. وأنا أعلم أن أبي استأجر ممثلين كهؤلاء ودفع لهم أجوراً جيدة مقابل لاشيء تقريباً.

لكن والدي لم يكن، بالطبع، يسمح للعاطفة بالتدخل في اختيار الممثلين أو الممثلات عندما يدور الأمر حول أدوار أكثر أهمية. فقد كان الاختيار، في تلك الحالة، يعتمد على المزايا فحسب. لكن التعاطف كان يبدو عليه بوضوح، حتى في هذه الحالات. إذ كانت مقابلة الممثلين واضطراره إلى رفضهم أمراً شديد الإيلام إلى درجة أنه كان يتمنى لو أن لديه غرفة مزودة بنافذة سرية تسمح له بمعاينة المرشحين، من خلالها، دون علمهم بوجوده كي يختار منهم الممثل المطلوب.

بدا والدي، عندما بدأ يدرب بوليت، أكثر مثابرة مما كان عليه في فيلم «الأزمنة الحديثة» لأن الأمر كان يتعلق، هذه المرة، بفيلم ناطق وكان ما هو مطلوب منها، الآن، أكثر بكثير مما قدمته في المرة السابقة. لا يمكنني تأكيد أن بوليت قد أسفت، عند عودتها إلى العمل مع والدي من جديد، على إلحاحها على المشاركة في فيلم آخر معه. لكنها لم تكن من النساء اللواتي يركنّ إلى الهدوء. فعلى الرغم من أنه كان عليها أن تتخلى، نهائيّاً، عن أحلامها بتجسيد شخصية سكارليت أوهارا، إلّا أنها توجهت، بمجرد حصولها على فسحة من الوقت بعد إنجاز فيلم «المدرسة الدرامية»، إلى شركة باراماونت للمشاركة في فيلم «القط والكناري» مع بوب هوب. لكن انهماكها في فيلم هوب هذا لم يكن كافياً لإشغال وقتها بأسره. فكان لديها بعض الوقت للاهتمام بمسألة تغيير الهندسة الداخلية للمنزل.

كان قد انقضى، في ذلك الحين، أكثر من عامين مذ أثارت بوليت، للمرة الأولى، قضية إعادة تشكيل هندسة المنزل الداخلية. وكانت، بين الفينة والأخرى، تعود إلى طرح هذا الاقتراح، لكن دون حماسة كبيرة لأنها كانت منهمكة بمسألة النهوض بحياتها المهنية من جديد. أما الآن، وقد صارت الأمور، بالنسبة إليها، تتقدم بصورة مرضية، فقد عادت، من جديد، إلى إثارة مشكلة المنزل بروح مشوبة بشيء من الثأر مستعينة، هذه المرة، بحليف فعال متمثل بزوجة السيد

فيربانكس الجديدة التي عقدت معها أواصر صداقة وثيقة.

كانت سيلفيا فيربانكس، نفسها، مصممة ديكور متوقدة وكانت قد أنجزت، للتوّ، أعمال إعادة تصميم هندسة منزل عائلة فيربانكس في سانتا مونيكا واتقدت عيناها عند معاينتها منزل والدي. وسرعان ما تحالفت مع بوليت ضد والدي. قاوم والدي الهجوم بكل الوسائل المتوفرة، تماماً كما فعل طيلة العامين المنصرمين، لكنه كان يقف، هذه المرة، في مواجهة امرأتين تتميزان بالعزيمة. وسرعان ما أخذ المنزل يتغير بالتدريج على الرغم من احتجاجاته العنيفة.

فقد اشتكى والدي من ارتفاع النفقات ومن التغييرات الجنونية كما لو أنه عصفور مهتاج ينتزع منه عشه. لكن بوليت أخذت، بالتدريج، تتخلص من كنوزه القديمة كي تحتل مكانها مفروشات أكثر عصرية. فظهر ورق جدران جديد وستائر جديدة وسجاد جديد، وبدا أن المنزل يبزغ كفراشة تخرج من شرنقتها الكئيبة. بيدَ أنه كان هنالك تعديل وحيد لم يتحقق. أنا واثق بأن أيّاً من المرأتين لم تعلم، في خضم أعمال تجديد الغرف وصقلها، ما الذي يخفيه الطلاء الأسود الذي كان يغطي حوامل الإنارة الأنيقة الممتدة على طول الجدار في الرواق السفلي. فقد تطلّب الأمر أن يقوم مالكو المنزل الجدد بكشط ذلك الطلاء كي يكتشفوا أن هذه الحوامل مصنوعة من الذهب الخالص.

وعلى الرغم من أن والدي لم يكن يكفّ عن الشكوى مع كل تعديل جديد، إلّا أنه كان، عادة، يبدي رضاه عن النتائج. فقد كان فخوراً للغاية بالثريا الكريستالية ذات الخمسة والعشرين ألف دولار التي نجحت بوليت أخيراً في إقناعه بشرائها كي توضع في الردهة الأمامية والتي قام بنقلها، فيما بعد، إلى منزله الجديد في فيفي. بل إنه بدأ بتشرب شيء من حماسة بوليت. وأظن أن الغرفة الشمسية المزججة التي أضيفت إلى غرفة المعيشة، والتي أصبحت مكان العمل المفضل له كانت فكرته بقدر ما كانت فكرتها. كما أنني أعلم، على وجه اليقين، أنه المسؤول عن البلاط الخشبي الذي غطى الردهة والغرفة الشمسية.

انتقلت بوليت، في خضم حمى تجديد المنزل، إلى الطابق العلوي وحولت غرفتها إلى مخدع نسائي فاتن. ثم وجد والدي نفسه يخوض آخر معاركه على خطوط دفاعه التي كانت تتراجع باستمرار. وكانت غرفة نومه موضوعاً لهذه المعركة. فقد حاولت بوليت اجتياح تلك القلعة دون نجاح. إذ دافع والدي عن غرفته بالشراسة نفسها التي يدافع الأسد فيها عن عرينه فكان يزمجر بغضب ضد أية محاولة لانتهاك حرمتها. لقد كانت غرفته التي أحبّها على ما هي عليه، حتى ببساطها الذاوي الذي كان يكسو أرضيتها، واحتفظ بكل ما فيها في مكانه عامداً. هكذا أصبحت غرفة نوم والدي، وسط ذلك المنزل الجميل، أشبه ما تكون بلطخة وصارت موضعاً لتساؤلات كل من رآها.

لكن ماذا عني وعن سيدني وسط أجواء التوتر والإثارة هذه التي سبقت الاندفاعة الكبرى المتمثلة في تحويل نص «الديكتاتور الكبير» إلى فيلم؟ كبر الطفلان بسرعة مخلفين وراءهما سنّ الطيش غير العقلانية. كنت أقترب من سنّ الرابعة عشرة وسيدني من سنّ الثالثة عشرة وأصبحت خطايانا أكثر خطورة من مجرد الكسل. وكان من حسن طالعنا أن دخل إلى حياتنا، في تلك الفترة، صديق جديد، أو بالأحرى أحد معارفنا القدامى الذي تجددت علاقتنا به وتطورت كي تصبح صداقة راسخة.

إنه فرانك أنتونيز جونيور، ابن مدير قسم النقل السابق في شركة والدي. اجتمعنا بفرانك، للمرة الأولى، في أثناء تصوير فيلم «الأزمنة الحديثة» وكنا نناديه تحبّباً باسم بانشو بسبب أصوله المكسيكية، وقد اعتدنا مشاركته دراجتينا في الاستديو. أما الآن، فقد أصبح بانشو، الذي بلغ السابعة عشرة من العمر، مكلفاً بالقيام بأعمال متفرقة في المنزل كرعاية ملعب التنس ومساعدة فرانك في تأدية الأعمال المنزلية في الداخل، كما كان، أحياناً، يقلّ والدي إلى الاستديو بالسيارة، وكثيراً ما كان يقلّنا إلى مدرسة بلاك فوكس. كنت، وسيدني، نعتبره شقيقاً أكبر وكنا نتعارك معه في غرفتنا ونقترض المال منه بلا حياء، عندما نكون مفلسين، لشراء المثلجات أو الذهاب إلى المسرح. كنا، ثلاثتنا، نذهب إلى السينما ونجلس متجاورين ونلتهم الفشار وعيوننا شاخصة إلى الشاشة.

صادفت فرانك أنتونيز، مؤخراً، وقد أصبح يعمل في قسم الصوت في شركة ميترو غولدوين ماير، واستذكرنا الأيام الماضية. قال لي فرانك أمراً أعتبره إطراء كبيراً: «كنت، وسيدني، مختلفين عن أبناء الكثير من المشاهير. لم يكن يبدو عليكما أنكما ابنا شخصية نافذة. بل كنتما كالصبية الآخرين. بيدَ أن والدكما كان على هذه الشاكلة كذلك. لم يكن يعاملني بتكبر لمجرد كوني أعمل لديه. بل إنه تذكّرني بعد سنوات من ذلك، الأمر الذي لا يفعله الكثير من الناس عندما تترك العمل لديهم».

ثم تذكّر فرانك أنتونيز كيف وقف، ذات مرة، وكان يعمل في تسليم البضائع في مختبرات باتيه، عند الباب الأمامي لأحد استديوهات التسجيل في هوليوود وأخذ يصفر كي يخرج أحدهم ويستلم حصة الاستديو اليومية من الأفلام فوجد نفسه في مواجهة مجموعة من الأشخاص من ذوي السحنة الرزينة الذين أمروه بالتزام الصمت لأن «السيد شابلن قادم!». أذهلت هذه الشكليات فرانك فابتلع صفيره. وفيما كان يحاول استعادة هدوئه، كان والدي يهبط الدرج بالسرعة المعروفة عنه فشاهد فرانك وسارع نحوه ومدّ يده مصافحاً إياه وسأله بحرارة: «كيف حالك يا فرانك وكيف حال عملك؟» وتجاذب معه أطراف الحديث لبعض اللحظات قبل أن يسارع إلى السيارة متجاهلاً مجموعة الأشخاص الآخرين الذين ملأتهم الدهشة في وقفتهم المتأهبة انتظاراً له.

«لم تكن الرزانة تعني له شيئاً»، أضاف فرانك. «كان على الدوام شخصاً كبقية الناس، أو هكذا كان، على الأقل، شأنه معي ومع والدي. فلم يعاملنا قط كمستخدمين. لقد كنا، بطريقة أو بأخرى، أفراداً من أسرتك».

كانت من مهمات بانشو، كفرد من أفراد الأسرة، أن يتحقق من جاهزيتي، وسيدني، عندما يكون والدي وبوليت مدعوين إلى عشاء ونكون مشمولين بالدعوة. لكن ذلك كان أكثر من مجرد مهمة روتينية، كما يمكن أن يبدو الأمر للوهلة الأولى لأننا كنا، كغيرنا من الصبية في ذلك العمر، نمقت ارتداء ملابسنا والذهاب إلى مناسبة لا تعجبنا. كان على بانشو أن يعقد ربطات عنقنا وكان يضطر، في كثير من الأحيان، إلى حشر سيدني ببذلته الزرقاء لأن سيدني لم يكن يزعج نفسه بارتدائها بنفسه. كان بانشو، في تلك المهمة، يمارس معنا مزيجاً من التملق والضغط والمزاح حتى نظهر، في اللحظة الأخيرة، بكامل أناقتنا.

ليت المناسبات التي كان والدي وبوليت يصطحباننا إليها كانت حفلات صاخبة تعجّ بنجوم السينما! لكن الأمر، في سنّنا الخرقاء تلك، لم يحدث، إلّا في مناسبات نادرة، كنا نشعر خلالها بالتخلي. كنا، في ذلك الوقت، على وشك الدخول في مرحلة جديدة. كنا في طريقنا إلى أن نتحول إلى معجبين حقيقيين بنجوم السينما.

كان جيم كاغني بطلي المفضل. وقد نجحت في لقائه أخيراً ذات ليلة في حفلة أقيمت في منزلنا. كان سيدني، في ذلك اليوم، محروماً من مغادرة المدرسة وكنت، أنا نفسي، مهدداً بهذا المصير بسبب إصابتي بحمى كانت كفيلة بجعلي ألازم الفراش. حاول والدي وبوليت تدبّر الأمر بوضعي في غرفة بوليت حيث أستطيع، على الأقل، سماع الضجيج في الأسفل. لكن ذلك لم يعجبني فأدرت ظهري للباب. وفجأة ظهرت بوليت وقالت: «أريدك أن تقابل أحداً». التفتّ ورأيت رجلاً يجتاز الباب إلى الداخل. بدا الرجل مألوفاً لكنني لم أستطع التعرف إليه، في الحال، لأنه بدا قصير القامة. ثم تعرّفت إليه فجأة: إنه جيمس كاغني، عدوّ الشعب رقم واحد. تحقق حلمي أخيراً، لكن الإحساس الوحيد الذي راودني، في تلك اللحظة، كان الشعور بالصدمة بسبب مكانته.

كما كنت أعيش حالة هيام عميق بهيدي لامار التي لم أعرفها إلّا من خلال الأفلام. وكنت، كذلك، مفتوناً ببوليت، التي لم تعد، بالنسبة إليَّ، مجرد زوجة أب جميلة تساندنا في وجه حنق والدي وتؤنبنا عندما نقصر في دروسنا، بل تحولت إلى سيدة فاتنة تنتمي إلينا. كان أمراً لطيفاً أن يكون لدينا زوجة والد جميلة وفتية إلى درجة يمكن لها، معها، أن تكون رفيقة لنا كذلك.

إنه الحبّ... الرومانسية! بدأت، وسيدني، دخول سنّ الفتوة والفروسية. سرقت، في إحدى الحفلات الخاصة، أولى القبلات من فتاة اسمها بيغي. إذ أطفأ أحدهم الأنوار وتوارت كل الفتيات وتكومت بيغي تحت البيانو وأقحمت رأسي في الأسفل بحماسة مفعمة. لكن بيغي لم تكن، في الواقع، تختبئ مني، بل إن وجهها كان هناك قريباً مني، فضغطت أسناني على أسنانها بقوة ساحقة. فقالت بيغي بألم: «لم تكن مضطرّاً لسحق أسناني بهذه الطريقة يا تشارلي. كنت لأقبلك في كل الأحوال».

وفي المنزل، كان الخدم اليابانيون يراقبون التغييرات التي تطرأ علينا بدهاء فكفّوا عن رواياتهم الدموية عن الأشباح وعمليات الإعدام. وصار فرانك يسأل: «هل تحبّان فتيات الغيشا؟» وكنا نجيب: «حسناً، أظن أنهن لطيفات للغاية» على الرغم من أننا لم نلتقِ بأية فتاة غيشا ولم نكن نعرف عنهن شيئاً. كان ذلك كافياً لجعل فرانك ينطلق. فكان يخبرنا قصصاً رومانسية عاصفة تتخللها مداخلات حماسية يقدمها جورج وكاي وكل من يكون حاضراً من أقربائهم. لقد بدوا، جميعاً، خبراء، في فتيات الغيشا.

ولم يتخلف والدي عن الخدم. لقد استطاع أن يرى أن الوقت قد حان كي يزود ولديه بالثقافة الجنسية. أتذكّر المرة الأولى التي طرح الموضوع، فيه، أمامنا. كانت الشمس في طريقها إلى المغيب وكنا نسير مع والدي في الأرض المحيطة بالمنزل ونتأمل الطبيعة حولنا. كان غروب الشمس هو الفترة من اليوم التي يبلغ والدي، خلالها، أقصى درجات الحميمية. كان يبدو، في تلك الفترة، وكأن شعوراً بالحنين قد استولى عليه مشجعاً إياه على توخي الصراحة. هكذا، اختار والدي تلك الساعة تحديداً، كي يكلمنا عن الجنس. تحدث، في البداية، بطريقة شاعرية، عن الأزهار وكيف تنمو. ثم، من الأزهار، انتقل إلى الطيور ثم إلى غيرها من الحيوانات. وأخيراً بدأ يشرح الأمر بالنسبة إلى الإنسان وكيف نأتي، جميعاً، دون أيّ استثناء، إلى العالم. أخبرنا كيف تلتقي في جسد المرأة الخلايا الذكرية بالخلايا الأنثوية وكيف تنشأ حياة جديدة من ذلك الاتحاد الغامض. قال لنا: «هنالك قوة ما تسبب ذلك. من يستطيع إخبارنا عن ماهية هذه القوة؟ لكن الأمر، في جميع الأحوال، جميل وغامض».

بيدَ أن والدي لم يمضِ قدماً كي يخبرنا كيف تحصل الخلايا الذكرية على فرصة الاجتماع بالخلايا الأنثوية. بدا عليه أنه تنفس الصعداء عندما أكدنا له أننا تعلمنا كل تلك التفاصيل من السيد مورات، فقد كان والدي يفضل الالتزام بوصفه الشعري لبزوغ الحياة، وكنا، أنا وسيدني، من جانبنا، نفضل سماعه يتحدث بهذه الطريقة. فقد كان كلامه يضفي مسحة من الجمال والغموض والشاعرية على موضوع كان السيد مورات يتعامل معه بطريقة واقعية أكثر منها جمالية.

بيدَ أن بوليت كانت هي من جعلنا ندرك أننا قد خلفنا مرحلة الطفولة وراءنا. حدث ذلك في إحدى الليالي في الجبال عندما حاولت الصعود إلى سريرها كما كنت أفعل دائماً. لكنها أزالت الغطاء عني هذه المرة. سألتها: «لماذا؟»، فأجابتني: «لقد أصبحت، الآن، صبيّاً كبيراً يا تشارلي». ألححت في السؤال: «ما الذي تعنينه؟» فضحكت بوليت: «أنت! يا تشارلي، حقّاً! سوف تكون مثل والدك عندما تكبر. أستطيع أن أرى ذلك الآن». هكذا كان عليَّ أن أكتفي بالجلوس على السرير وغطاؤه العلوي يحيط بي. وفي اليوم التالي، أخبرت بوليت والدي بما جرى وضحك الاثنان.

لكن الأمر تطلب أكثر من مجرد المرح لمساعدتي على النموّ بطريقة مختلفة- من الناحية العقلية وعلى نيل فهم أعمق لطبيعة الأشياء التي تخصني. حدث ذلك في شهر آذار عندما أصبت بالتهاب في الزائدة الدودية أثناء وجودي في المدرسة. أحسست بنفسي بطلاً حين نقلت إلى المستشفى. لكن الأمر، بعد وصولي، كفّ عن كونه مسلياً. إذ وجدت نفسي ممدداً على طاولة العمليات مدة ساعتين تلتها اختلاطات تنفسية بسبب الحبل السري الذي كان قد التفّ على رقبتي أثناء ولادتي وتركني مع جهاز تنفسي ضعيف. تطورت الحالة إلى ذات الرئة ودخلت في مرحلة حرجة استمرت بضعة أيام.

في ذلك الوقت كان والدي ووالدتي ونانا قد تلقوا أنباء نقلي إلى المستشفى فحضروا إلى هناك على الفور وجلسوا في غرفة الانتظار يتبادلون التشجيع حتى خرج الأطباء وأعلنوا نجاح العملية. ثم اصطحب والدي كلاًّ من والدتي ونانا لتناول طعام الإفطار في مطعم براون ديربي. وعندما خرجت من حالة التخدير، كانوا كلهم واقفين حول سريري وسمعتهم يتحدثون قبل أن أفتح عيني.

سمعت والدي يقول: «جميع من أعرفهم تقريباً استأصلوا الزائدة الدودية يا ليتا. لا تقلقي». تلاه صوت والدتي: «أعلم يا تشارلي».

فتحت عيني ورأيتهم ينظرون إليَّ باسمين ويسألونني عن حالي. وعلى الرغم من محاولته اصطناع الفرح، إلَّا أن والدي لم يستطع منع القلق من الظهور على وجهه. بل إنه لم ينجح في ذلك يوماً. وفجأة، أدركت أنني، في نهاية الأمر، لم آتِ إلى هذا العالم بالإكراه وأن كل ما حدث حتى الآن، كل تلك الخلافات التي كنت موضوعاً لها قد صارت جزءاً من الماضي. لقد كانا يهتمان لأمري حقّاً، وكان خط من الحرارة والصداقة يصل بينهما. في تلك اللحظة، فهمت ما عناه والدي عندما قال لي في غرفة المعيشة، في ذلك اليوم: «إنها من الأمور التي تحصل في الحياة». هذا ما كان الأمر عليه، لا أكثر ولا أقل. إنها الحياة وأنا جزء منها وها أنا ذا أنمو فيها.

-27-

تعرفت أخيراً، في سنّ الرابعة عشرة، في فصل الصيف، إلى فتاة أحلامي هيدي لامار في خضم كوميديا رومانسية خطط والدي لها بعناية.

حدث ذلك في جزيرة كاتالينا وكان يختنا الصغير راسياً بجوار يخت جين ماركي الكبير. علمت أن هيدي، التي كانت في ذلك الوقت متزوجة بماركي، موجودة على متن اليخت فتعلقت بحاجز يختنا آملاً أن ألمحها. كان والدي يراقبني بسرور. وأخيراً قال: «حسناً يا بني. سنذهب إلى هناك وستلتقي بهيدي لامار». تبعته دون أن أنبس ببنت شفة إلى القارب الآلي الصغير حيث انضم إلينا كل من سيدني وبوليت، وقادنا الكابتن أندرسون إلى هناك. صعدنا إلى متن يخت ماركي، وهناك رأيت جين ماركي يعتمر قبعة القبطان بطريقة مستهترة. كما كان هناك ضيوف آخرون أذكر منهم الراحل روبرت بنشلي. لكن شخصاً واحداً أتذكّره بوضوح، حتى اليوم، هو هيدي ببلوزتها البيضاء وسروالها الداكن وشعرها الطويل وشفتيها القرمزيتين. كانت تبتسم لي لكنني لم أستطع النظر في عينيها مباشرة.

كنت عالقاً في ذلك المأزق عندما أعلن جين ماركي، فجأة، عن مسابقة رفع الجسم على الجهاز الثابت على ظهر اليخت. (كان والدي هو من دفعه إلى الإعلان عن تلك المنافسة بالطبع لأنه يعلم مدى براعتي بهذا النوع من التمارين). وقد خصصت للفائز جائزة حذرنا والدي منها قائلاً: «إنها جائزة مالية. تذكّرا ما قلته لكما أيها الصبيان عن عدم قبول المال من الآخرين من خارج الأسرة». كنت أعلم جدية والدي في هذه المسألة التي كان واضحاً بشأنها في طفولتنا- لا مال ولا هدايا من أيّ إنسان. لكنني لم أكن أفكر في المال، بل في الفرصة السانحة للاستعراض أمام هيدي لامار. هكذا صعدت إلى ظهر المركب مع سيدني وبقية المتسابقين من الذكور وبدأنا نرفع أجسادنا. تفوقت على الجميع وكان من دواعي دهشتي أنني لم أشعر بالإرهاق على الرغم من أنني قمت بخمس وعشرين رفعة قبل أن أستسلم وأجلس على أحد المقاعد وقلبي يخفق.

تقدم جين ماركي مني وقال: «لقد فزت وهذه جائزتك». كانت الجائزة مالية بالطبع وبلغت عشرين دولاراً. أخذتها وجلست أنظر إليها. كان مبلغاً كبيراً من المال، لكنني كنت عالماً أن والدي ينظر إليَّ في انتظار أن أردّها وأنه لا يتمتع بأيّ قدر من المرونة فيما يخص الالتزام بالقواعد، فرددت الجائزة. وفجأة جلست هيدي لامار بجانبي وأحاطتني بذراعيها وقالت بلكنتها النمساوية الفاتنة:

«أوه، أرجوك يا تشارلي. لا تكن قاسياً على ابنك. إنه صبي لطيف».

لا بُدَّ أنني ذبت خجلاً، فعجزت عن القيام بأيّ شيء، بل أخفيت وجهي وابتسمت وأطلقت ضحكة خافتة. وبدأ جميع من حولي، بمن فيهم سيدني، بالضحك. لكنني لم أبالِ. ومضت هيدي في استجدائه: «أرجوك يا تشارلي. أرجوك أن تسمح له بأخذ المال» وفجأة وضعت شفتيها على خدي. لقد كانت هيدي لامار تقبلني!

سمح والدي لي باستعادة المال متأثراً، على ما يبدو، بالتماسات هيدي، لكنه نبهني قائلاً: «والآن، لا تنفق المال كله في مكان واحد».

لا أتذكّر ما حصل بعد ذلك، لكنني أتذكّر أنني بقيت عاجزاً عن النظر إلى هيدي عندما حان الوقت كي أودّعها. بيدَ أنني لم أنسَ قبلتها أبداً.

لم يقصر والدي جهوده، في ذلك الصيف، على تدريب بوليت، بل قام بالشيء نفسه مع البطل الثاني للفيلم وهو جاك أوكي الذي قال لي ذات مرة: «علمني والدك الكثير إلى درجة لم أصدق معها كم كان قليلاً ما كنت أعرفه من قبل. أحسست بأنني كنت، قبل أن يتدخل، مجرد هاوٍ».

ذهب والدي، في اليوم الأول من الاختبارات، لرؤية ما في حوزة جاك من حيل. أخذ جاك يسير أمام الكاميرا لتقديم عينة من حركة التيك أم- وهي نظرة خاصة مباشرة إلى الكاميرا تهدف إلى لفت انتباه الجمهور. كان جاك يمارس هذه الحركة منذ زمن طويل صار، معه، يظن أنه هو من ابتكرها. انتهى جاك من تنفيذ حركته لكن الكاميرا استمرت في الدوران وقال له والدي: «تابع». فأجابه جاك: «هذا كل شيء». لكن والدي ألح عليه بالقول: «آه، لا، لا بُدَّ من وجود المزيد» ثم بدأ يشجعه على مزج التيك أم- بكل ما يخطر في باله من زخرفات. وفي تلك اللحظة، اكتشف جاك أن والدي هو الأب الفعليّ لهذه الحركة كما هي حاله مع الكثير من الجوانب المتعلقة بالكوميديا. وشيئاً فشيئاً، أخذ جاك يظهر كل ما لديه من حيل. كان والدي يساعده على تحسينها بهدف انتزاع المزيد من الضحكات. كان والدي، في تلك اللحظات، يمارس الدور المفضل لديه، وهو دور المعلم، وقد وجد في جاك تلميذاً نجيباً.

في تلك الفترة التي كان والدي يعمل، فيها، على المزيد من التفاصيل التي يجب أخذها بالاعتبار قبل انطلاق التصوير، كان ظل النازية يزداد هيمنة باضطراد. فقد أثمرت سياسات الاسترضاء التي تبناها تشامبرلين وكانت الثمار مريرة للغاية. فعلى الرغم من تأكيدات هتلر على أن إقليم السوديت يمثل أقصى طموحاته التوسعية، إلّا أنه غزا تشيكوسلوفاكيا في منتصف شهر آذار وكان

هدفه التالي بولندا. عندئذٍ، استنفر رئيس الوزراء البريطاني بقوة وأعلن، في الحادي والثلاثين من آذار 1939، أن بريطانيا العظمى ستأتي لنجدة بولندا إذا تعرضت للهجوم. ومنذ ذلك الإعلان، عاش العالم حالة من السلم المضطرب الذي انكسر في الأول من أيلول عندما غزت قوات هتلر بولندا مطلقة حرباً ابتلعت كل الأمم المتحضرة تقريباً وقادتني، وسيدني، والكثير من الشبان الآخرين، في رحلة إلى الضفة الأخرى من العالم. ففي الثالث من أيلول، أعلنت كل من إنكلترا وفرنسا، بشكل رسمي، الحرب على ألمانيا. وبعد بضعة أيام، انطلقت عمليات تصوير فيلم «الديكتاتور الكبير».

كانت قد انقضت، في ذلك الوقت، على بدء تصوير فيلم «الأزمنة الحديثة» خمس سنوات تخللتها تصريحات دورية حول عزمه على إنتاج فيلم واحد في السنة- كان يطلق على هذا النوع من الأفلام، في هوليوود، اسم «الأفلام الخفيفة». لكن، بحلول اللحظة التي بدأ، فيها، تصوير فيلم «الديكتاتور الكبير»، كان والدي قد استسلم لقيود الوقت التي فرضتها عبقريته عليه وكانت قراءة أخبار «الأفلام الخفيفة» في الاستديوهات الأخرى تصيبه بالصدمة. فقد نشرت صحيفة الديلي فارايتي أن داريل زانوك يعتزم إنتاج ثمانية وأربعين فيلماً خفيفاً في ذلك العام، الأمر الذي شكك والدي فيه ودفعه إلى الاحتجاج قائلاً: «هذه هي مشكلة المهنة. كيف يمكن لك أن تنتج ثمانية وأربعين فيلماً جيداً في عام واحد؟».

كان غياب والدي الطويل عن الإنتاج، ناهيكم عن حقيقة أنه لم يكن، حتى ذلك الحين، قد أنتج أيّ فيلم ناطق، قد وضعه في موقف مماثل لريب فان وينكل عند عودته إلى أرض الأحياء بعد غياب دام عشرين عاماً. إذ كانت النقابات قد رسخت حضورها في صناعة السينما. فإن رغب والدي في جعل موظفيه يعملون أكثر من ثماني ساعات يوميّاً- والواقع أن والدي كان معتاداً على تشغيلهم أربعاً وعشرين ساعة في اليوم- كان عليه أن يدفع لهم أجور ساعات العمل الإضافي. كان والدي معروفاً، في بعض الأوساط، بصفة البخل، لكن أحداً من موظفيه السابقين لم يكن يوافق على هذا الوصف. إذ كان كل المنتجين في هوليوود يستأجرون خدمات فنيين بدلاء لتوفير نفقات العمل الإضافي، لكن عندما فاتحه أحد خبراء الميزانية بضرورة اللجوء إلى هذه الممارسة، رفض والدي الأمر بشدة قائلاً بحزم: «لا. إياك أن تخادع العمال. دعهم يكسبون مالاً إضافيّاً».

وربما تكون المهن الجديدة التي أضيفت إلى أطقم الإنتاج والتي فرضت التشريعات النقابية حضورها أكثر الجوانب التي حيرت والدي، عند بدء تصوير فيلم «الديكتاتور الكبير». كان يتساءل عن فائدة التوسع بأعداد الفنيين، في حين يستطيع شخص نشيط واحد القيام بكل شيء

بنفسه. بل إنه عجز عن الاستفادة من المساعدة الإضافية التي كان وجودهم يقدمها له، وكان يتساءل وهو ينظر حوله كل صباح: «ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا؟». كان يستفسر مثلاً: «لكن ما معنى موظفة النصوص؟» لأنه كان، هو نفسه، «موظفة النصّ»، على الدوام، واستمر في أداء هذه الوظيفة حتى في وجودها.

وعندما ظهر المزين في غرفة ملابسه في أحد الأيام، حدق والدي فيه طويلاً. مزين لوالدي الذي يصنع زينته بنفسه لأنه يستمتع بهذا العمل؟ هكذا سدد والدي أجر المزين مقابل جلوسه ومراقبته العرض الذي استمتع والدي بتقديمه له، العرض نفسه الذي كنا نتابعه، بأنفسنا، عند قدومنا إلى الاستديو.

فقد التقط والدي خصلة شعر مستعار كثيفة بطول متر واحد تقريباً ووضع على شفته العليا مادة لاصقة وثبت الخصلة من منتصفها بحيث يتهدل جانباها على وجهه. ثم التقط مقصّاً كبيراً وبدأ يجزّ الشعر- من أحد الجانبين أولاً، ثم من الجانب الآخر، بإيقاع بالغ الدقة. وكان في تلك الأثناء يكلم نفسه.

«ما هو المزين بحق السماء أيها الصبيان؟» قالها بتكشيرة وأتبعها بضربة من المقص.

«وما الغاية من استئجاره، في جميع الأحوال؟» ثم ضربة مقص على الجانب الآخر تلتها تكشيرة.

«من يحتاج إلى مزين؟» ضربة مقص ثم أخرى- ومع كل ضربة مقص ترتسم تكشيرة يليها سؤال. وكان المقص يؤدي رقصة رشيقة على وجه والدي ويزداد اقتراباً منه إلى أن قام بضربة أنيقة أخيرة، شذّب، من خلالها، الشارب الصغير بحركة لا يقوى على تنفيذها سوى الخبراء.

بدوره، لم يستفد والدي كثيراً من رجل المونتاج. فقد كان يقوم بمعظم العمل بنفسه. أما أجر فني المونتاج، فكان والدي يدفعه، على ما أظن، لمجرد جعله يرى ما يستطيع معلم قديم القيام به. أخبرني أحد رجال المونتاج أن والدي لم يزعج نفسه بالوصول إلى المقص، في إحدى المرات، وكان صبره قد نفد، بل لفّ الفيلم حول عنقه وأخذ يستعرضه أمام الضوء. وعندما وصل إلى الموضع الذي يريد التخلص منه، مزقه بأصابعه تاركاً لفني المونتاج مهمة تشذيب الفيلم وإلصاق نهايتيه. وقد قال لي رجل المونتاج ذاك: «هل سمعت عن أحد يمزق الفيلم بهذه الطريقة؟ والدك قام بذلك».

لكن رجل المؤثرات الصوتية كان من الفنيين الذين احتاج والدي إلى خدماتهم، بحقّ، على الرغم من أنه لم يقرّ بذلك، لأنه لا يرغب في الاعتراف أن أحداً قادر على التفوق عليه في تنفيذ أية مهمة

من مهام الإنتاج. ففي إحدى المرات، أمضى والدي يومين كاملين محاولاً الحصول على صوت محرك طائرة. كان يجلس في مواجهة مروحة كهربائية ويضع قطعة من الورق في طريق شفراتها ويغير مقدار الضغط المطبق عليها ويدير رأسه إلى أحد الجانبين ويصغي بإمعان، ثم يغير قطعة الورق بأخرى تختلف عنها في السمك ويستبدل المروحة بأخرى ذات قياس مختلف، في حين كان فنيّ المؤثرات الصوتية يراقبه وهو يضحك. وأخيراً، استسلم والدي. أما فنيّ الصوت، فحصل على المؤثرات المطلوبة بمجرد الذهاب إلى المطار وتسجيل صوت محرك طائرة حقيقي.

لكن تركيز والدي لم يكن منصبّاً على توفير الوقت. فصناعة الأفلام لم تكن، بالنسبة إليه عملاً، بل لعبة إبداعية يعشق ممارستها. أتذكّر كيف جاء عمي سيدني إلى والدي، ذات يوم، والإثارة تملؤه بسبب عرض تلقاه من شخص أراد شراء الاستديو بمليوني دولار. بدت الصفقة لعمي رائعة لأن والدي لم يكن في حاجة إلى استديو إلَّا مرة واحدة كل خمس سنوات وكان يستطيع استئجار واحد بسهولة، فكان الاستديو الذي يملكه نوعاً من الترف المكلف. والواقع أن والدي أخبرني، ذات مرة، أن صيانة الاستديو تكلفه حوالي ألف دولار يوميّاً حتى عندما يكون في حالة بطالة.

كان والدي، في الوقت الذي كان عمي سيدني يقدم له عرضه، يجري اختباراً على مؤثر صوتي ما. انتظر عمّي ردّ فعل والدي بنفاد صبر، لكن والدي لم يرفع رأسه ولو للحظة. بل قال: «أوه. أخبره أن يدعنا وشأننا. أين أصور أفلامي إن لم يكن لديّ استديو؟».

لكن على الرغم من أن إنتاج الأفلام كان، بالنسبة إلى والدي، مجرد لعبة، إلَّا أنها لم تكن، بالتأكيد، من ذلك النوع من الألعاب التي تبعث على الاسترخاء، بل كانت مغامرة تشد الأعصاب.

كانت بوليت، على نحو خاص، تشعر بالضغوط. كانت زوجة والدي، بحقّ، إلَّا أن ذلك لم يصنع أيّ فرق، بالنسبة إليها، في موقع التصوير. فهي هناك حنة، الشخصية الرئيسة في الفيلم، وكان عليها أن تبذل من الجهد أكثر مما يبذله أيّ ممثل آخر- جهد كان يصل بها، في بعض الأحيان، إلى نقطة الانهيار. كان والدي معجباً بعملها الكامل. فقد أظهرت، في الفيلم، أفضل مزاياها كالاستقلالية وروح الشجاعة التي تميز الرجال. لكن الضغوط الكبيرة التي ساهمت في إظهار شخصية بوليت ساعدت، كذلك، على تحطيم الزواج الذي كان قد نجح في الصمود في وجه السكون الذي ساد بين الفيلمين.

لاحظت، وسيدني، عند زيارتنا الاستديو، مرة جديدة، برفقة والدي، التغيير الذي طرأ على الجوّ منذ أيام تصوير فيلم «الأزمنة الحديثة». فقد أصبح المكان أكثر صمتاً، دون أن يعني ذلك أن الجوّ

كان أكثر هدوءاً. فقد زالت كاميرا السينما الصامتة القديمة بأنينها الرقيق الذي كانت تتخلله أصوات نقر متقطعة. أحسّ والدي، في بداية الأمر، بشيء من الانزعاج من قيامه بالتمثيل أمام كاميرا لا تصدر أيّ صوت على الإطلاق. وقد اقتضى الأمر منه بعض الوقت قبل أن يدرك أنه كان يستخدم الصوت الذي تصدره الكاميرا الصامتة لضبط إيقاعه. أما الآن، فقد صار لزاماً عليه الاعتماد على ساعته الداخلية.

كما افتقد والدي ضحكات الفنيين الموجودين في موقع التصوير. فقد أصبح مضطرّاً الآن إلى أداء دوره وسط صمت مطبق كفيل بجعلك تسمع رنين الإبرة في حين يتحول طنين ذبابة إلى صوت قاذفة، ولا سيما في رأس والدي.

ففي يوم كنت، وسيدني، فيه، في موقع التصوير، تجرأت ذبابة على اختراق المعبد المقدس وسط جلسة تصوير مشهد بالغ الصعوبة كان قد تمّ تصويره مرات عديدة دون نجاح لأن أحد الممثلين لم يكن يقوم بدوره بطريقة ترضي والدي. وأخيراً حصل والدي على ما اعتبره مشهداً ناجحاً. لكنه طلب تصوير المشهد مرة إضافية، مدفوعاً بهوسه بالكمال. وما إن أصبحت الكاميرا جاهزة للدوران واستعد الجميع وسط أجواء من الترقب، حتى دخلت تلك الذبابة إلى الموقع وأخذت تحلق مصدرة أزيزاً خفيضاً. فانفجر والدي غضباً وكأن هذه الذبابة الصغيرة طائرة قاذفة وصاح: «ألف لعنة! أخرجوا هذا الطائر الحقير من هنا!».

وعلى الفور، ظهر خمسة رجال في يد كل منهم مضرب ذباب، ولا بُدَّ أن والدي قد احتفظ بعشرات من هذه الأشياء في كل مكان من الاستديو، وبدؤوا يطاردون الذبابة ويثبون وينقلبون ويجرون ويلوحون بمضاربهم في الهواء بقوة. أما والدي، فقد كان، وسط كل هذا الجنون، يذرع المكان جيئة وذهاباً، جيئة وذهاباً، مطرقاً ويداه خلف ظهره متجاهلاً الفوضى المحيطة به. وكان يتمتم باستمرار: «يجب أن يصبح المشهد أفضل. يجب أن يصبح أفضل».

وبعد مطاردة استمرت عشرين دقيقة تقريباً، قضى الرجال على الذبابة واستؤنف التصوير ومضى المشهد بسلاسة. وفجأة بدأ أحدهم بالضحك. تلت ذلك ضحكة، ثم ضحكة أخرى، وسرعان ما ساد الهرج والمرج في الاستديو وكان والدي يضحك مع الآخرين. فقد كان والدي قادراً، مهما تكن درجة غضبه ومهما يكن موقفه محرجاً، على استعادة روح المرح المعهودة فيه حالما تهدأ الأمور.

لكن المذنب، في أحد المواقف الأخرى، لم يكن ذبابة، بل سيدني. كان موضوع المشهد، هذه المرة، إطلاق المدفع الألماني المعروف باسم بيغ بيرتا. كان المشهد قد خضع لعدد من البروفات شهدت

الكثير من المرح، وكان على والدي الاستعداد لسحب زناد المدفع بعد أن يؤدي ما يشبه رقصة سريعة جذلة يليها صوت إطلاق المدفع يؤدي والدي، بعده، بعض الشقلبات المفاجئة وغير ذلك من الحركات الكفيلة بجعل المرء ينفجر من شدة الضحك. كان الجميع يكتمون أنفاسهم كي لا يضحكوا من أجل إنجاز المشهد.

استعد الجميع للتصوير ودارت الكاميرا وأخذ والدي يؤدي حركاته المضحكة. وفجأة انطلقت ضحكة وسط الصمت المطبق. كان ذلك سيدني. وبطرفة عين، أصبح أكثر الرجال الأحياء مرحاً أكثرهم غضباً، وصرخ قائلاً: «من ضحك؟» لم يجب أحد. أظن أن سيدني كان يأمل أن يخمد غضب والدي، كما يحدث دائماً. لكن والدي ألحّ في السؤال: «حسناً. من ضحك؟ من ضحك؟». فأجابه سيدني، أخيراً، وقد استجمع شجاعته: «أنا». هتف والدي: «هل تعلم أن ضحكتك كلفتني خمسة عشر ألف دولار؟» ثم رفع يده وخيل إليَّ أنه سيقدم على ضرب سيدني، فذعرت لأنني استطعت أن أدرك أن تركيزه الكلي على المشهد سينسيه، ولو للحظة، من هو أو أين هو. ثم أنزل يده وقال: «لقد... لقد ضحكت مني!» وفجأة، وجد نفسه يضحك واستدار نحو الفنيين قائلاً، وكأنه تلقى لتوّه وساماً استثنائيّاً: «حتى ابني يظن أنني مضحك». والتفت ثانية إلى سيدني وقال: «حسناً. ضحكة واحدة بخمسة عشر ألف دولار. لكن إن كنت قد استحسنت المشهد إلى هذه الدرجة، فلا بأس». وتوقف للحظة ورمق سيدني بنظرة ذات مغزى وأضاف: «فقط لا تدع ذلك يتكرر يا بني». وصدقوا أو لا تصدقوا أن سيدني لم يفعلها مرة أخرى.

كان التوتر الذي عرفه والدي في بداية تصوير فيلم «الديكتاتور الكبير» أكبر بكثير من ذلك الذي عاشه في فيلم «الأزمنة الحديثة». كان مصدر قلقه، بالنسبة إلى فيلم «الأزمنة الحديثة»، أنه يصور فيلماً صامتاً في عالم الصوت. أما في فيلم «الديكتاتور الكبير»، فكان مصدر خوفه أكثر إيجابية. لقد كان عليه أن يثبت براعته في استخدام التقنيات الجديدة، بوصفه مستجدّاً في حقل أصبح من منسيات المنتجين الآخرين. بيدَ أنه لم يمضِ وقت طويل قبل أن يدرك والدي أن السينما الناطقة ليست طلاسم كما كان يتخيل، وبدأ يستمتع بذلك الوسيط الجديد إلى درجة بدأ، معها، يعرب عن أسفه لأنه لم يجعل فيلم «الأزمنة الحديثة» ناطقاً، دون أن ينسى أن يضيف: «بالطبع، لم يكن الفيلم سيئاً». والواقع أن ذلك الفيلم بالذات، كان لا يزال يجني الملايين منذ إطلاقه للمرة الأولى.

كانت العلاقة الدافئة بين والدي وجاك أوكي أحد أطرف الأشياء في الفيلم الجديد. كان جلد جاك سميكاً وكان قادراً على التعامل مع أسلوب والدي في العمل بسعة صدر. من جهته، كان والدي يبدي تقديره الكبير لجاك الذي كان، بصفته واحداً من أكثر الكوميديين مرحاً في السينما، يشكل

نظيراً رائعاً لموسوليني المفعم بالعاطفة. بل إنه كان، من حيث الشكل، يشبه الطاغية المكتنز. لكن جاك كان، في زمن تصوير الفيلم، يخضع لحمية غذائية، الأمر الذي أقلق والدي. فكيف يمكن لموسوليني نحيل أن يكون مضحكاً؟ بيدَ أنه نجح في معالجة هذه المشكلة بأسلوبه المميز. فقد دأب على إحضار جورج إلى الاستديو كي يعدّ طعام الغداء وأمره بالتركيز على الأطباق الحافلة بالدهون. ثم بدأ يدعو جاك إلى غرفة تبديل الملابس كي يشاركه تناول الطعام.

أتذكّر أنني كنت حاضراً في إحدى تلك الجلسات التي كانت تنتهي على الدوام بشكل مضحك كان يجعلني، وسيدني، عاجزين عن الإبقاء على تعبيرات وجوهنا حيادية. لم يكن والدي، بطبيعته، يلتهم كميات كبيرة من الطعام، لكنه كان يغري جاك بأطباق وافرة كفيلة بجعل هواة الأكل يهللون ابتهاجاً. لكن جاك كان يحتج بقنوط قائلاً: «تشارلي. لا يمكنني تناول هذا الطعام. لقد أخبرتك أنني أتبع حمية. ربما أتناول القليل من الفاكهة وقطعة صغيرة من الجبن». لكن ردّ والدي كان يتخذ شكل ملعقة مليئة بالطعام يضعها في فمه ويتذوقها بلذة فكان جاك يحدق فيه بذهول ويئنّ: «أدرك ما تحاول القيام به يا تشارلي. لكنني لن أقع في الفخ. أنا أخضع لحمية وأنا ملتزم بها». فيستجديه والدي وهو يلتهم ملعقة أخرى: «هيا يا جاك. كل هذه فحسب». وفي نهاية المطاف، تنكسر مقاومة جاك ويلتهم كل ما تقع عليه عيناه. هكذا، لم يحافظ جاك على وزنه فحسب، بل إنه أضاف إليه بضعة كيلوغرامات أخرى.

لعب جاك، طيلة فترة تصوير فيلم «الديكتاتور الكبير»، دور التلميذ، في حين لعب والدي دور المعلم. لكنني أعلم أن جاك نجح، مرة واحدة على الأقل، في تلقين والدي شيئاً. أعلم ذلك لأن جاك كان فخوراً بهذه المناسبة إلى درجة لم يكفّ عن الحديث عنها.

كانت أساليب والدي الإخراجية تعتمد على البدهة بالدرجة الأولى، كما هي الحال في الكثير مما يخصّه. فهو يعلم متى يكون المشهد صحيحاً. لكن جاك لاحظ أنه يعاني، في بعض الأحيان، من صعوبات في إفهام الآخرين ما يريد الحصول عليه. وذات يوم، استهلك والدي فيلماً كاملاً في تصوير مشهد تقوم خلاله نادلة شقراء بإحضار صينية من السباغيتي إلى طاولة يجلس إليها جاك. استمرت الفتاة في تأدية دورها بطريقة غير صحيحة وازداد توترها تحت إلحاح والدي الذي لا هوادة فيه حتى أوشكت على البكاء. لكن جاك أدرك مصدر المشكلة بسبب زاوية جلوسه إلى الطاولة. لقد كان المخطئ هو والدي وليس الفتاة. هكذا قال جاك: «تشارلي. أنت تدير المشهد من الجهة اليسرى في حين إن الفتاة تستخدم يدها اليمنى». أشرق وجه والدي، في الحال، وانتقل إلى الجهة الأخرى من موقع التصوير. وعند وصول الفتاة إلى الطاولة، هذه المرة، رأى والدي

المشكلة في الحال ومضى التصوير على خير ما يرام.

وعلى الرغم من أنني لا أظن أن جاك لعب دور الأستاذ أكثر من تلك المرة الوحيدة- أو أنه، على الأقل، لم يبلغني بأية حادثة أخرى- إلّا أنه أثبت، بالفعل، أنه لم يكن مجرد تلميذ نجيب فحسب، بل كان تلميذاً طموحاً كذلك. فقد صار، بعد أن أصبحت أسرار والدي بين يديه، يسعى بكل جهده إلى أن يسرق من ملك الكوميديا مشهداً واحداً، على الأقل، مستخدماً، في سبيل ذلك، كل ما في حوزته، لكنه لم يكن كافياً، لأن والدي كان قادراً على الاستحواذ على كافة المشاهد.

وفي أحد الأيام، وفي خضم محاولات جاك اليائسة، التفت والدي إلى تلميذه المجدّ وواجهه بتكشيرة وأفشى له بسرّه الأخير قائلاً بلطف: «إذا أردت حقّاً أن تسرق مشهداً مني يا ابن العاهرة، فعليك بالتحديق بالكاميرا مباشرة. هذا ما أفعله في كل مرة».

كان والدي قادراً على العيش دون أسرار. كان يعلم، كما يعلم الجميع، أنه سيد الكوميديا الحية. وأقول «الحية» لأن والدي أقرّ بالتحدي الجدّيّ الذي فرضه عليه مجال فنيّ آخر. وقد تحدثنا عن هذا التحدي مطولاً بعد متابعتنا فيلم «بيضاء الثلج» لوالت ديزني في ذلك العام. فخلال العرض، أخذ والدي بتحليل تقنيات ديزني باحثاً عمّا يمكن أن يتبناه منها في أعماله. كان والدي قادراً على التعلم من الرسوم المتحركة وكان من كبار المعجبين بوالت ديزني كفنان وكتقني مبدع. وقد دأب والدي على القول وهو يهزّ رأسه: «ديزني يجعل الأمور بالنسبة إلينا، نحن الكوميديين، صعبة. فتوقيت شخصياته ممتاز دائماً لأنها ليست بحاجة إلى التوقف والتقاط أنفاسها».

في الثاني عشر من تموز من ذلك العام، وقع حادث مأساوي ألقى بظلاله على موسم الميلاد. فقد توفي دوغلاس فيربانكس عن ستة وخمسين عاماً بصورة غير متوقعة إثر أزمة قلبية أصابته وهو في منزله الشاطئي. كان فيربانكس أقدم أصدقاء والدي في عالم التمثيل وأحبّهم إليه. كان والدي واحداً ممن حملوا النعش، ولا بُدَّ أن ذلك الأمر أثقل كاهله من الناحية العاطفية، من حيث إنه كان يحاول على الدوام تجنب حضور الجنازات. بل إنه قال لي ذات مرة باتقاد: «يجب أن تمنع الجنازات مع كل ذلك الأسى الذي تصاب به العائلة المكلومة. أنا لا أجرؤ على حضور الجنازات».

قدم والدي في الجنازة مزهرية فيها بسلات بيض وورد أحمر وأوركيد. أما البطاقة، فكتب فيها: «إلى ذكرى صديقي العزيز دوغلاس. سأخلد ذكراه إلى الأبد».

ويا لها من ذكريات! كان والدي ودوغلاس معاً على الدوام كتلميذي مدرسة، جاهزين على الدوام للمزاح المعتدل والضحك، وكانا يجدان متعتهما في أصغر الأشياء. اعتادا، في أيام السينما الصامتة، قبل أن يتعرف الناس إلى صوتيهما، على قيادة السيارة ببطء حول بيفرلي هيلز إلى أن يعثرا على مجموعة من السياح حيث يتوقفان بالقرب منهم ويمدّ والدي رأسه خارج السيارة ويسأل السياح بصوت حادّ: «أقول... هلا دللتمونا على تقاطع سانسيت بولفارد وبنيديكت كانيون؟» فيبدأ السياح، الذين أربكهم حضور اثنين من كبار النجوم، بإرشادهم دون أن يتساءلوا كيف يتيهان في المدينة التي يعيشان فيها. فيشكرهم والدي بصوته الحادّ المتهدج في حين يتدخل دوغلاس بصوت على القدر نفسه من الحدة: «هلا مضينا يا تشارلي؟» ويمضيان ببطء وهما مشدودان إلى ما سيقوله السياح الذين يبدون خيبة أمل: «لم أكن أظن أن تشارلي شابلن ودوغلاس فيربانكس يتمتعان بصوت على هذا القدر من الحدة»، فينفجر الاثنان ضحكاً ويمضيان في طريقهما وقد أحسّا بأن يومهما قد كلل بالنجاح.

كانا يعدان القفشات، في بعض الأحيان، بشكل مسبق. فكان دوغلاس فيربانكس يأتي إلى إحدى الحفلات وهو يرتدي قميص حيلة تحت سترته الرسمية، فيتظاهر والدي باندلاع شجار بينهما ويصرخ فيه: «سأمزق قميصك إن لم تصمت». فيجيبه فيربانكس بنظرة ملؤها التحدي: «هيا... لمَ لا تحاول؟!» فينقض عليه والدي ويمسكه من قميصه وينتزعه تماماً، بما في ذلك الكمين، فيجلس

فيربانكس محدقاً في أبي، الذي يحدق، بدوره، بذهول، في القميص قائلاً بتهذيب، وكأن ما حدث كان مجرد غلطة: «آه... آسف... لم أكن أعلم!» قبل أن يلتفت إلى الحضور المصدومين شارحاً لهم الموقف: «لم يحدث شيء- إنه مجرد جدال بسيط».

وكانت هنالك، كذلك، جولات البوكر في منزل فيربانكس الشاطئي. لا بُدَّ أن الكثيرين من الناس قد سمعوا بالمثل المعروف عن وجه لاعب البوكر، لكن جلسات البوكر هناك لم تشهد، لفترات طويلة، وجه لاعب بوكر واحد. كان والدي يعجز عن مقاومة الرغبة في محاكاة لاعب البوكر التقليدي عندما يتأمل أوراقه ثم يدعمه دوغلاس ببعض الحركات الكاريكاتورية إلى أن يتحول ما كان، في بداية الأمر، لعبة ورق رصينة إلى أمسية ضاحكة. أما الآن، فقد فات زمن تلك الألعاب كما فات معه زمن الكثير مما كان والدي يستمتع بالقيام به برفقة دوغلاس.

لا بُدَّ من أن تكون وفاة ذلك الصديق قد بدت لوالدي وكأن عالم هوليوود الذي عرفه حتى تلك اللحظة كان يتداعى أمام عينيه. والواقع أن ذلك كان صحيحاً لأن فيربانكس كان رمزاً من رموز السينما في سني طفولتها الوافرة.

تلقيت، وسيدني، من بوليت، بمناسبة عيد الميلاد في ذلك العام، كلبين إضافيين، كانا جروين من نوع السان برنار أطلقنا عليهما اسمي شمشون ودليلة. هكذا صار في المنزل، لبالغ ذعر والدي، أربعة كلاب (لأن كلبي البادل تركا المنزل أو أنهما اختطفا). كان كلبا السان برنار هذان أسوأ الكلاب التي عرفها المنزل على الرغم من أنهما كانا، في البداية، مخلوقين لطيفين. إلَّا أنهما تحولا، مع مرور الوقت، إلى وحشين وكانا يجوسان في كل مكان ويتجولان في الحديقة ويستغلان أيّ باب منفرج كي يتسللا إلى داخل المنزل.

كان والدي يقترح بجزع: «الأفضل أن تأخذاهما إلى والدتكما، فربما تكون في حاجة إلى كلاب حراسة». وبالفعل، نقلنا الكلبين إلى المزرعة على الرغم من أن أحداً فيها لم يبدِ الامتنان لهدية بوليت.

لم يكن موسم الميلاد، في ذلك العام، أكثر من استراحة محارب قصيرة في منزل آل شابلن. فقد كان كاهل المنزل مثقلاً بفيلم «الديكتاتور الكبير» الذي كان يجرف كل شيء أمامه كرياح شيلي الغربية. أتذكّر رؤية بوليت، في معظم الأوقات، تعيسة، بل وعيناها مغرورقتان بالدموع. لم يكن الأمر بفعل ضغوط العمل فحسب، فقد كان هنالك، كذلك، ما يجرح كبرياءها. لم تعد بوليت، في ذلك الوقت، القادم الجديد الغرّ الذي كانت عليه عندما تلقت بامتنان بالغ التدريب الذي أخضعها

والدي له في فيلم «الأزمنة الحديثة». فقد أصبح ينظر إليها، اليوم، في هوليوود، كممثلة شابة واعدة. وكانت الدروس المرهقة التي تفتقر، في الكثير من الأحيان، إلى الصبر التي كانت تتلقاها في موقع التصوير على مرأى من الممثلين الآخرين تجعلها في بعض الأحيان تحسّ بالمهانة. فكانت تصل من العمل، أحياناً، ومعالم الكرب بادية على وجهها. فكنت، وسيدني، نسأل والدي عنها بقلق، وكان والدي يقول: «زوجة أبيكما عملت بمشقة اليوم، وكان عليَّ أن ألقنها بعض الأشياء عن التمثيل، وهو عمل صعب». ثم يحاول والدي أن يشرح لبوليت مواضع الخطأ في المشهد الذي أثار المشكلة أصلاً، فتنفجر بوليت قائلة: «أوه. لا تقل المزيد عن ذلك يا تشارلي. أنت مجرد قائد عبيد». ثم تنهار على الأريكة وتشرع في البكاء. عندئذٍ، يلتفت والدي صوبنا طالباً منا أن نغادر وندع بوليت ترتاح ثم يقوم بمعالجة الموقف معها. بيدَ أن بوليت كانت أكثر مرحاً من أن تبقى كئيبة فترة طويلة، ولذلك لا يمضي وقت طويل حتى يظهرا من جديد كعاشقين كما هو عهدنا بهما. والواقع أنه لم يحدث أن بدت هذه الشجارات، بالنسبة إلينا، أكثر من اضطرابات مؤقتة، يمكن أن تعزى إلى التوتر الناتج عن التصوير، سرعان ما تزول عند إنجاز الفيلم.

وأخيراً، تنفست بوليت، والممثلون الآخرون، الصعداء بعد إنجاز عمليات التصوير عام 1940، لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى والدي الذي التفت إلى تأليف الموسيقى الخاصة بفيلم «الديكتاتور الكبير». ولكون الكثير من الجلسات مع الموسيقيين عقدت في المنزل، فقد سنحت لي الفرصة لمراقبة رجل جاهل بقراءة النوطة الموسيقية وبكل ما يتعلق بتقنيات هذا الفن يحاول أن يصبح مؤلفاً- ويقود الرجال إلى الجنون كما حدث مع آل نيومان منذ سنوات مضت. كان والدي يقول مثلاً: «هذا الجزء جيد. لكن هنالك ما يعيبه. انتظر لحظة» ثم يرفع درجة تركيزه ويدندن الجملة الموسيقية من جديد ويملي اللحن على الموسيقيين. وكان الأمر يستغرق عدة جولات قبل أن يبدي والدي رضاه عن النغمة.

لم تكن ساعات العمل الطويلة التي كان والدي يقضيها مع الموسيقيين تقتصر على المنزل، بل كانوا يعملون ساعات أطول في الاستديو حيث يستخدمون هناك جهاز الموفيولا لعرض المشهد مرة تلو الأخرى حتى ينطبع اللحن في عقل والدي. وحالما ينال اللحن بكليته، يبدأ والدي بوصف كيفية تنفيذه في كل مشهد- من حيث الزمن والإيقاع والأسلوب. وعلى الرغم من سعة اطلاع والدي على بعض الأشكال الموسيقية وقدرته على استخدام الكثير من المصطلحات الموسيقية بطريقة صحيحة، إلَّا أنه كان يفضل إيضاح ما يريده باستخدام أسماء المؤلفين الموسيقيين أو الآلات الموسيقية كأن يقول: «علينا أن نجعل العزف فاغنريّاً»، أو «ينبغي لهذا الجزء أن يكون أكثر شوبانية. فلنجعله خفيفاً باستخدام الكثير من الكمان. أظن أننا نستطيع استخدام تأثير المزمار

في هذه الجملة».

كان الموسيقيون، بعد أن يشرح والدي لهم ما يريده، يهزّون رؤوسهم أحياناً. لكن زمن الجملة الموسيقية الذي يعتبره والدي مناسباً كان، في بعض الأحيان، يتخذ أشكالاً غير تقليدية تخرجهم عن طورهم. فكانوا يعرضون له المبررات التقنية التي تجعلهم عاجزين عن تزويده بما يرغب فيه. فيكون ردّ والدي: «حسناً. لا يعنيني ذلك. اعزفوا بالطريقة التي تناسبني». وكان الأمر يتطلب أن ينجحوا في تنفيذ المطلوب كي يدركوا أن الغريزة الدرامية لوالدي، فيما يتعلق بالموسيقى، رائعة على الرغم من كونها غير تقليدية. هكذا، شقّ والدي، مع موسيقييه البواسل، دربهم جملة إثر جملة، نوطة إثر نوطة، حتى أوشك الموسيقيون على الانهيار في اللحظة التي اكتمل، فيها، العمل الموسيقي. لكنهم لم يكونوا قادرين على القول إن العمل مع والدي يتميز بالبلادة على الرغم من العذاب الذي عرفوه. إذ كان، في كل جلسة، يمنحهم حرية العزف بمجرد أن يكفّ عن الغناء والدندنة والنقر على البيانو. لكنه كان يعجز عن البقاء ساكناً مدة طويلة. فسرعان ما يبدأ بمحاكاة الموسيقى من خلال الإيماء مؤدياً أجزاء من أدوار الممثلين في المشهد موضوع الجلسة بأسلوب فيه شيء من المبالغة الكاريكاتورية من أجل استحضار الاستجابة الموسيقية المناسبة. وكان أداؤه، في تلك اللحظات، أقرب إلى رقص الباليه.

تشبه كوميديا والدي، على وجه العموم، رقص الباليه أكثر مما تشبه أيّ فنّ آخر. وهو يتمتع بحركات الراقص وتكلفه الذي يكاد يكون أنثويّاً وليس مخنثاً. فقدماه خفيفتان وحساسيته للتوقيت جديرة بلاعب أكروبات ويداه الصغيرتان والرشيقتان قادرتان، إن تابعت حركتهما، على جعلك تفهم الفكرة التي يريد إيصالها. والواقع أن راقصي الباليه هم أكثر من يقرّون ببراعة والدي في مجال اختصاصهم. إذ يقول أغلب من يتابعون أداءه إنه راقص بارع قدر براعتهم. بل إن روبرت هيلبمان، أحد نجوم فرقة الباليه الشهيرة سادلرز ويلز، قال، ذات مرة، لكاتب السيناريو دادلي نيكولز إن والدي أفضل منه بكثير.

يحبّ والدي الباليه. وهو يعرف كل الراقصين، حتى الثانويين منهم. وقد اعتاد أن يبدي إعجابه بأليسيا ماركوفا وألكسندرا دانيلوفا على وجه الخصوص. أما راقصو الباليه من الذكور، فأتذكّر إشارته إلى فيدور لانسكي وإيغور يوسكيفيتش وفريدريك فرانكلين. أما نيجينسكي، فكان والدي قد التقى به منذ سنوات طويلة، واستمر يشيد بأدائه في باليه «طيف الوردة». كان والدي يقص عليّ حبكة المسرحية وعندما يصل إلى الجزء الذي يندفع نيجينسكي فيه من النافذة حاملاً وردة في فمه، كان يبدأ بتقليد حركته واضعاً وردة وهمية بين أسنانه ثم يقول: «لا بُدَّ أنه بصق دماً في

الكواليس». وكنت أستطيع أن أرى من نبرة صوته مقدار إعجابه بهذا الفنان الذي كرس نفسه لفنّه بإخلاص آذى صحته.

كان والدي، عند ذكره نيجينسكي، يعرج باستمرار على الاكتئاب الذي أودى به إلى الجنون. فكان يهتف: «آه كم كان مجنوناً». بدا ذلك الأمر، بالنسبة إليه، مدهشاً ومحزناً، وكان يضيف على الدوام، في معرض حديثه عن الجنون: «وأنت تعرف بالطبع أنه يوجد شيء من الجنون في عائلتنا كذلك».

لم يكن والدي يأبه كثيراً بذلك الخيط الرفيع الذي يعتقد الكثير من الناس أنه يفصل بين العبقرية والجنون. فهو، على حدّ علمي، لم يقرّ يوماً أنه عبقري على الرغم من أنه كان يتبجح بكونه شخصية متمحورة حول الذات. فكان يقول ضاحكاً: «يقولون إني عبقري. لكنني لم أطمح إلى أن أكون عبقريّاً. أنا، ببساطة، أصنع الأشياء كما أراها وأشعر بها».

كان والدي يحضر كل عروض الباليه التي تقدمها الفرق التي تزور المدينة، لا مرة واحدة، بل مرات عدة. كان يحفظ القصة والموسيقى وكافة أجزاء المسرحية عن ظهر قلب. وكان، عادة، يزور الفرقة بعد انتهاء العرض في الكواليس ويدعو أفرادها لزيارته في المنزل، حيث حلّ أفراد فرقة باليه روز دو مونت كارلو وفرقة سادلرز ويلز التي تعادلها شهرة ضيوفاً عليه. كان يمضي برفقة راقصي الباليه الذين يزورونه أوقاتاً ممتعة. فعلى الرغم من أنه لم يدرس فنّ الباليه قط، إلّا أنه كان قادراً على محاكاة حركاتهم بامتياز. فكان يقول لإحدى الراقصات مثلاً: «آه. لقد قدمت حركة أرابيسك رائعة في الفصل الثاني من بحيرة البجع». ثم يؤدي الحركة قبل أن يضيف: «لقد فعلت هذا». مقلداً إياها، ويقول: «آه، كم كان رائعاً!». ويدور برشاقة ثم يشيد بالوثبة: «آه من تلك الوثبة». ويؤدي مثلها بأسلوب مضخم. ومنذ تلك اللحظة، تستحيل كل خطوة في مسرحية الباليه موضوعاً للمحاكاة بإيقاع يزداد استعاراً إلى أن يتحول الراقصون الحاضرون إلى مجموعة من الممسوسين.

لم أكن حاضراً في الأمسية التي كادت تتحول فيها زيارة إحدى فرق الباليه إلى مأساة حقيقية، لكن والدي أخبرني عنها، تمثيلاً بالطبع. يوجد إلى الجانب الأيمن من الدرب الدائري المفضي إلى المنزل، إن كنت تتجه إلى الداخل، شرفة ترتفع من الجانب المحاذي للطريق الدائري حوالي نصف متر، أما من الجهة الأخرى فهي ترتفع ما يزيد عن ثلاثة أمتار وتشرف على منحدر حادّ الانحدار مكسوّ بالأشجار.

كانت أمسية ممتعة تخللها الكثير من الشرب والرقص والنكات والقفشات. وعندما أوشكت الأمسية على الانتهاء، تجمع الضيوف عند الدرب الدائري استعداداً لوداع والدي وكان مزاج الجميع يتميز بالمرح. وفجأة قفز كازيمير كوكيتش من الشرفة دون أن ينظر إلى الأسفل قائلاً: «هكذا نفعل» ووقف هناك بلا حراك كالطائر وأضاف: «ثم قفزة كبيرة» وقفز في الفراغ قبل أن يتمكن والدي من إيقافه واختفى عن الأنظار. تجمع الحاضرون عند السياج ونظروا إلى الأسفل. وهناك، كان كازيمير المسكين ممدداً دون حراك. كان الرجل بارعاً في أداء القفزات، لكن ليس قفزات كهذه من ارتفاع يزيد عن ثلاثة أمتار نحو منحدر حادّ. بدأت بعض النساء بالصراخ وصاح والدي: «يا إلهي»، وفي رأسه صورة كازيمير وقد حطمت كافة العظام في جسده، وطلب من فرانك الاتصال بالطبيب. ثم شقّ الجميع طريقهم إلى أسفل الجدار وتجمعوا حول الرجل الفاقد الوعي والخشية من تحريكه تملؤهم. أخذت النساء بالبكاء وبدأ الجميع بتخمين أيّ عظم في جسده قد كسر، أم لعله ظهره، أو عنقه أو ربما يعاني من جروح داخلية أو من جمجمة مكسورة- دارت في رؤوسهم كل الأفكار بما فيها الفكرة المفزعة أن كوكيتش قد يكون مشارفاً على الموت، في حين كان والدي يتمتم: «اللعنة. أين الطبيب؟ أين ذلك الأحمق؟ لماذا لم يأتِ؟». وفجأة، فتح كازيمير عينيه وهزّ نفسه ووقف على قدميه وأخذ يتلفت حوله متسائلاً. بدا للواقفين حوله أنه لم يصب بأذى. كانت الخمرة قد عبثت برأسه ودفعته إلى تنفيذ عمل جريء ما كان له أن يقوم به لو أنه كان في كامل وعيه.

شرعت النساء اللواتي كن يبكين بالضحك ثم انضم إليهن جميع الحاضرين كما ضحك كوكيتش بدوره، وإن بشيء من الخجل. عاد الجميع إلى الدرب الدائري وكان عليهم، بالطبع، القيام بجولة جديدة من الشرب احتفالاً بنجاته. أما الطبيب، فقد وصل في الوقت المناسب كي ينضم إلى شاربي الأنخاب.

كان والدي يحبّ أن يروي هذه القصة كمثال عن الفرق بين الملهاة والمأساة. وقد اعتاد أن يقول لي: «إن ركلت أحداً في مؤخرته، دون أن تكون الركلة مفرطة في الشدة، وأخذ الرجل يتدحرج دون أن يصاب بأذى، فهذا أمر مسلٍّ. أما إن كانت ركلتك أشد مما ينبغي، فهذه هي المأساة. الأمر هنا يتعلق بالمقدار».

والواقع أن والدي نجح، على الدوام، في مشاهده الكوميدية، في البقاء على الحدود الفاصلة بين الملهاة والمأساة. وكان جاك أوكي يطلق على النتيجة اسم «الدراميديا». وقد قال لي ذات مرة: «يتمتع والدك بموهبة إيصال الدمعة إلى حلقك ثم يجعلك تتقيؤها بضحكة».

في ربيع عام 1940 وصيفه، دخلت، وسيدني، مرحلة جديدة في حياتنا المراهقة، إذ كنا قد بلغنا الرابعة عشرة والخامسة عشرة من العمر وأخلت مشاعر الحبّ الحيي الأولى المكان لسلوك أكثر وعياً بقليل. كانت مشاهد القبلات الطويلة والحارة بين بطل الفيلم وبطلته تخلف فينا إحساساً مؤسفاً بالعجز في هذا الفنّ. كان توقنا إلى اكتساب مواهب عشاق الشاشة يدفعنا، في بعض الأحيان، إلى معانقة بوليت وتقبيلها كنوع من التدريب. لكن بوليت كانت تضحك ساخرة من محاولاتنا الخرقاء: «آه. يا لها من قبلة سيئة». وفجأة توجه سخريتها إلى والدي كما هي العادة: «ولداك يزدادان شبهاً بك يا تشارلي».

ربما كنا نزداد شبهاً بوالدنا. أما في طول القامة، فقد كنا متفوقين عليه. وصارت بوليت، التي كانت، منذ زمن طويل، تنادي والدي «تشارلي الكبير» وتناديني «تشارلي الصغير» كي لا نهرع نحوها معاً، تنادينا باسمين يناسبان الوضع الجديد بدرجة أكبر. فأصبح اسمي تشارلي جونيور.

لكنني، وسيدني، لم نكن ننمو في الطول فحسب. بل أصبحنا، كذلك، أكثر مكراً- فيما يتعلق بأمور المال مثلاً. كان مصروف جيبنا قد ارتفع إلى دولار واحد أسبوعيّاً، لكنه بقي، على الرغم من ذلك، قاصراً عن تلبية متطلباتنا. لكننا كنا قد اكتشفنا أن والدي يصبح أسهل منالاً عندما يكون في مزاج مبتهج وإبداعي. فقد نجح سيدني، وهو أكثر جرأة مني، في اقتراض اليخت منه بضع مرات بمجرد اختياره التوقيت المناسب لطلبه. لكن المال كان هو الشيء الذي كنا نفتقر إليه عادة، وقد تعلمنا أن نطلب مثلي المبلغ الذي نتوقع الحصول عليه.

كما أدركنا، كذلك، حساسية والدي تجاه واحدة من خصوصياته وهي ضعف ذاكرته فيما يتعلق بالأسماء. فقد كان عاجزاً عن حفظ الأسماء، حتى حين يتعلق الأمر بأسماء الناس الذين يحظون بتقديره. وكان يستعيض عن ذلك بنسبة الناس إلى الوظائف التي يشغلونها. بل إني أتذكّر مرة كان والدي، فيها، على وشك تقديم فلاديمير هوروفيتز ووجد نفسه عالقاً في الشرك. فقال بصوت خفيض ونبرة رتيبة حتى يكاد المرء لا يفهم ما يقوله: «أوه، آه، أممم، هذا ابني تشارلي جونيور. وهذا إيه- آه- نعم، أنت تذكر بلا شك عازف البيانو العظيم يا تشارلي. ابني هذا شديد الاهتمام بالموسيقى الكلاسيكية». أعجبني أسلوبه في الإفلات من الورطة، لكنه لم يكن قادراً، على الدوام، على إخفاء عجزه بسهولة. أتذكّر كيف أنه بقي عدة ساعات محتجزاً في مطعم براون ديربي في

هوليوود بسبب خجله من المرور بجوار الممثل الكوميدي جو براون الذي حياه لدى دخوله بالقول بأسلوبه الفذ في الخلط بين الأسماء: «كيف حالك يا هاري» مستبدلاً باسم جو اسم المنتج هاري جو براون.

والحال نفسها تنطبق على أرقام الهواتف، بما فيها رقم هاتف منزله الذي يملكه منذ سنوات. كان بمقدور المرء سماعه يقول: «حسناً. دعني أملي عليك رقم هاتفي... أنا...» ثم يلتفت إليَّ أو إلى سيدني أو بوليت ويقول: «ما هو رقم الهاتف من جديد؟». بل إنه كان عاجزاً عن تذكر عنوان المنزل على الرغم من أنه يعرف جيداً كيفية الوصول إليه.

وقد فسّر لي والدي، ذات مرة، سبب ضعفه في استظهار الأسماء والأرقام. فقد كان، على حدّ قوله، قارئاً بطيئاً وكان مضطرّاً للعمل على استظهار كل شيء. وهكذا أنفق وقته في ما يحبّه حقّاً. والواقع أن ذاكرة والدي تحفظ مجلدات كاملة من أعمال شكسبير.

في ذلك الوقت، كنت، وسيدني، قد بلغنا سنّاً تؤهلنا لحضور حفلات العشاء التي كان والدي ينظمها. كانت المناسبات الكبيرة قليلة للغاية، في حين كان المنزل يستضيف، عادة، تجمعات صغيرة منتقاة بعناية. وعندما يكون مزاج والدي في القمة، تجده يهبّ على قدميه، في منتصف العشاء، كي يقلد أمراً ما. وحين يضم العشاء ممثلين كوميديين، يستطيع المرء أن يتوقع مهرجاناً حقيقيّاً يحاول كل منهم، فيه، أن يقدم فيه أفضل ما عنده.

ثم يستمر المرح بعد العشاء حتى ساعات متأخرة من الليل. وفي بعض الأحيان، يشغل والدي إحدى الأسطوانات الموسيقية ويبدأ في الرقص لضيوفه. وكان، أحياناً، يقلد منفرداً مصارعي الثيران. كما كنت تجده، بين الفينة والأخرى، يمضي الأمسية في تقديم قصة كتبها أو قصة من الواقع بأسلوب تمثيلي. كان الدكتور رينولدز لما يزل من موضوعاته المفضلة. وقد أحبّ، على وجه الخصوص، تقليد المرة التي قدم فيها الدكتور رينولدز مسرحية هاملت في صالة محلية. جسد الدكتور رينولدز، في تلك الأمسية، شخصية هاملت مقدماً إياه كشخص ذهاني خطر. أمضى والدي العرض المسرحي وهو يتلوى من شدة الضيق ثم كان عليه أن يتجه، بعد اختتام العرض، إلى الكواليس لتهنئة الطبيب.

كان الطبيب، بردائه الأسود المحكم، يقف، في انتظار والدي، بطريقة متكلفة، مقاطعاً ساقيه ومسنداً ظهره إلى الباب وممسكاً بمبسم طويل ينتهي بسيجارة خفيفة، متصنّعاً عدم الاكتراث. يتميز والدي بالصدق في إصدار الحكم على أداء الممثل حتى لو كان الممثل حاضراً. لكن الدكتور رينولدز لم

يكن ممثلاً، وكان بالإضافة إلى ذلك صديقاً يظن نفسه ممثلاً. يقول والدي إن النطق بأية كلمة في تلك المناسبة كان واحداً من أكثر التجارب إيلاماً في حياته. بدأ بالقول: حسسسسناً... كان... كما تعلم.... لطيف». ألحّ عليه الدكتور رينولدز: «هل كنت جيداً؟ هل أحببته إلى هذه الدرجة؟». كان والدي يتأوّه كل مرة يقدم فيها هذا المشهد.

كان والدي، في بعض الأحيان، يقلد مغني الأوبرا المختلفين بلكناتهم الأصلية، ترافقه في ذلك على البيانو الراحلة ليونور كوتون، زوجة الممثل جوزيف كوتون. وفي إحدى المرات، ردّ والدي بلامبالاة على استحسان الحاضرين ودهشتهم عندما قدم محاكاة جميلة لإحدى الأوبرات الروسية: «إني لا أستطيع الغناء. كل ما في الأمر أنني كنت أحاكي غناء تشاليابين».

أما الغناء الأحبّ على قلب أبي، فهو الغناء الشعبي الأيرلندي (كان ينحاز على الدوام إلى الأيرلنديين ويباهي بكون والده متحدراً جزئيّاً من أصول أيرلندية). كان يجلس على الأرض، وسط ضيوفه، عاقداً ساقيه ويغني إحدى تلك القصائد بأسلوب جون مكورماك الذي كان شديد الإعجاب به وكان واحداً من أصدقائه.

أما أفضل المستمعين في تلك الولائم الغنائية فلم يكن أيرلنديّاً، بل سويدي. كانت غريتا غاربو. كانت تجلس هناك بنظرة الوحدة الجادة، بل الكالحة التي صارت علامة مميزة لها وفي يدها كأس من الخمر تقلبه بلا توقف دون أن تشرب الكثير. ثم تبدأ ملامحها في الاسترخاء مع مضيّ والدي في الغناء، وقد أخلت ملامح الانطواء البادية على وجهها المكان للتألق. ولا تكاد الأمسية تنقضي حتى تراها وهي تقهقه وتحتفل كأية تلميذة مدرسة وتنضم، مع غيرها من الضيوف، إلى والدي في الغناء.

لم يواعد والدي غريتا غاربو، على حدّ علمي، قبل زواجه ببوليت ولا بعد طلاقه منها، بل كانا مجرد صديقين. كان والدي معجباً بذكائها كما بجمالها، وكانت نبرة صوته تشي بالاحترام عندما يتحدث عنها. كانت أحاديثه معها تتمحور، عادة، حول الجوانب الإبداعية في صناعة السينما وحول الفنون الجميلة أو الباليه وكان، في ختام كل حوار معها، يخرج بفكرة فيلم يرغب في تصويره معها. وعلى العكس من كل من يأخذون حماسة والدي المفاجئة على محمل الجد ويغضبون أو يتألمون لعدم حصول أيّ شيء، تقبلت غاربو طبيعة والدي برحابة صدر.

كانت تقول له مثلاً: «أرغب في تصوير فيلم معك يا تشارلي» ثم تشرع في نقاش الفكرة معه دون أن تنتظر منه بعد ذلك شيئاً. كان الأمر بمثابة لعبة صغيرة تدور بينهما.

دخل والدي، من جديد، مع نهاية الصيف، المرحلة الختامية الأكثر إيلاماً في إنتاج الأفلام. إنها مرحلة القلق التي تجتاح المنتج في انتظاره حكم الجمهور على جهوده. راودت والدي مشاعر قلق خاصة من فيلم «الديكتاتور الكبير» بسبب اختلافه، من حيث النوع، عن أفلامه السابقة التي كان يتوقع منها على الدوام أمرين، هما جعل الجمهور يضحك وتحقيق الربح. أما مع فيلم «الديكتاتور الكبير» فقد كان هنالك أمر آخر يثير قلقه: لقد كان ضرورياً، بالنسبة، إليه أن تكون الصرخة التي أطلقها ضد جحيم الحرب وشرور القمع مسموعة. هكذا، سمعت والدي، للمرة الأولى يتكلم عن الصلاة بجدية. فقد توجه إليَّ، ذات يوم، بالحديث على نحو مفاجئ: «أصلي يا بني كي يحمل هذا الفيلم رسالة طيبة، كي يقدم مساعدة صغيرة للجنس البشري». لكنه لم ينسَ أن يضيف بمرح، كي يثبت أنه والدي بحقّ: «كما أصلي كذلك كي ينجح قليلاً لأنني أنفقت عليه الكثير من المال».

كان والدي غامضاً فيما يتعلق بمن يتجه إليه بصلواته. لم أسمعه يوماً يتكلم عن الله كقوة شخصية أو يتكهن عما يمكن أن يكون الأمر عليه بعد الموت. بل إنه، بقدر ما أذكر، لم يشر إلى الموت يوماً. لم يكن من هؤلاء الذين يعتنقون ديناً منظماً، ولا كان ممن يأبهون بالطقوس على الرغم من أنه كان يعرب عن إعجابه الكبير بهندسة الكنائس والكنس. كما أنه لم يفرض معتقداته عليَّ وعلى سيدني على الرغم من أنه كان يحدثنا بها في أوقات متفرقة. أتذكّر أنه قال أكثر من مرة: «أنا لست بملحد. أنا لاأدري بالمطلق. يقول بعض العلماء إنه إن قدر للأرض أن تتوقف عن الدوران، فإننا جميعاً معرضون للتفكك. لكن الأرض لا تزال تدور. لا بُدَّ أن شيئاً ما يحافظ علينا- قوة عليا ما. أما كنه هذه القوة، فهذا ما أعجز عن إخباركم به».

تنوع رأي والدي بتلك القوة العلوية بحسب مزاجه. كان يمكن لخبر يقرؤه عن معركة دموية تدور في أوروبا أن يجعله يهزّ رأسه ويقول: «لا بُدَّ له من أن يكون كائناً شريراً للغاية كي يسمح للناس بقتل بعضهم بهذه الطريقة». ثم يتكلم عن هذه القوة العليا، في مناسبات أخرى يكون جالساً فيها على شاطئ البحر أو في الجبل، بأسلوب فيه الكثير من الحنان، بوصفها أمراً رائع الجمال يعكس نفسه بأناقة على الثلوج المتهاطلة على الصخور الوقورة والأشجار العتيقة. إلى ذلك الشيء، تحديداً، توجه والدي بصلواته من أجل نجاح «الديكتاتور الكبير».

لم يسافر أبي وبوليت إلى نيويورك لحضور العرض الافتتاحي للفيلم معاً. كان يمكن لذلك أن يبدو

غريباً لي ولسيدني لو أننا توقفنا عنده للحظة. كانت بوليت في مكسيكو، في زيارتها الثانية إلى هناك في غضون أشهر. فقد كانت هناك في زيارة سابقة مع أمها حيث عقدت أواصر صداقة مع دييغو ريفيرا، الرسام المكسيكي الشهير. إذ كانت بوليت مولعة بلقاء أصحاب الموهبة، وكانت، على الدوام، تدعوهم إلى العشاء في المنزل.

وعلى الرغم من أن بوليت لم تكن ذاهبة مع أبي، إلّا أنها خططت للطيران من مكسيكو إلى نيويورك لحضور العرض. أما والدي، فقد غادر هوليوود على متن القطار برفقة تيم ديورانت. كان والدي يفضل القطار على الطائرة حيث يكون ذلك ممكناً. إذ لم تكن الطائرة تشعره بالراحة التامة، ولا سيما بعد أن عاش تجربة اقشعر لها بدنه عندما هوت الطائرة، ذات يوم، مخترقة الغيوم فوق نيويورك «وفجأة نظرت من النافذة فرأيت السكرتيرات يطبعن على الآلة الكاتبة في بناء الإمباير ستايت. وبعد ذلك أصبحت أكره الطيران».

لكن كان في سفر والدي، بالطائرة أو بالسفينة أو بالقطار على حدّ سواء، عنصر ميلودرامي. فقد كان من أولئك المسافرين الذين يصلون إلى محطة الانطلاق في اللحظة الأخيرة. لم يكن يهتم بحزم حقائبه لأن فرانك كان يقوم بذلك قبل وقت طويل من موعد السفر، ثم ينطلق إلى المحطة لتسجيل الأمتعة ويقف، بعد ذلك، في انتظار وصول والدي الذي يقوم كاي بإقلاله. أعجز عن ذكر عدد المرات التي كان فرانك يذرع المحطة، فيها، جيئة وذهاباً ينظر في ساعته ثم في ساعة المحطة ثم يعود إلى التحقق من ساعته من جديد وينظر إلى المدخل الذي يتوقع دخول والدي منه. لكن ما أعلمه تماماً هو أنه كان يتساءل، في كل مرة، عما إذا كانت الأمتعة سترحل دونه.

لا أعلم ما الذي كان يؤخر والدي على الدوام، باستثناء أنها كانت أشياء صغيرة في العادة. كان يخرج من الباب مثلاً وينظر إلى السماء ويقول: «آه، يجب أن ألبس المعطف» ويهرع إلى الداخل لإحضاره ويخرج من جديد ثم يقول: «لا، أظن أنني لست في حاجة إليه» فيعود إلى الداخل من جديد للتخلص منه. ثم يطوف في أرجاء المنزل بحثاً عن أشيائه الصغيرة كي يقرر فيما بعد أنه ليس بحاجة إليها. وعند حلول نهاية هذه المناورات، يبدأ كاي، الذي يكون حتى تلك اللحظة لا يزال يسير في أعقابه، بحثّه على الإسراع بصوت قلق: «سيد شابيلين، سيد شابيلين، قطارك» ثم يرفع ذراعه وينظر في ساعته ويقول: «سيد شابيلين. ستتأخر. يجب أن تسرع الآن». وفي النهاية، يسحب والدي ساعته من صداره ويضع نظارتيه على عينيه وينظر إلى الوقت بنفسه ويقول بذعر: «لماذا لم تنبهني يا كاي؟ لقد تأخر بنا الوقت».

ثم يجريان إلى السيارة ويشقّ كاي طريقه وسط الزحام إلى المحطة في حين يجلس والدي على

حافة المقعد الخلفي يحثّه بقلق على الإسراع. ولدى الوصول إلى المحطة، يقفز الاثنان من السيارة ويبدآن بالجري ووالدي في المقدمة. ثم يسرع فرانك، الذي يتصبب عرقاً، نحوه ويرحّب به قائلاً: «بسرعة! بسرعة يا سيد شابلن! ألا ترى أن القطار يغادر؟» ويأخذ ذراع والدي ويجره نحو القطار الذي يكون قد بدأ يتحرك ويدفعه إلى الداخل. ذلك بالضبط ما حصل لأبي وتيم عندما استقلّا القطار أخيراً، في ذلك اليوم من شهر تشرين الأول، في طريقهما إلى نيويورك لحضور العرض الافتتاحي لفيلم «الديكتاتور الكبير».

كان العرض الافتتاحي حدثاً استثنائيّاً، كما العروض الافتتاحية لأفلام والدي. أحاط جمع كبير من المعجبين بصالتي أستور وكابيتول اللتين كانتا ستعرضان الفيلم بشكل متزامن، وازدحم المكانان بالنجوم داخل صالة العرض وخارجها. وبالطبع كان النقاد مستعدين. وكما هي العادة، كانت ردود فعلهم على فيلم والدي متباينة. فقد اعتبروا أن الصعلوك قد تفوق على نفسه بعد أن أنجز شيئاً يتجاوز قدراته. بيدَ أنهم اعترضوا على الخطاب الختامي، الذي يمثل الصرخة التي أطلقها والدي لصالح المقموعين، بوصفه متكلفاً وأطول مما ينبغي. وربما تكون ماري بيكفورد، التي تطلق على الصعلوك الصغير لقب الفيلسوف الصغير، خير من يعبّر عن هذه المدرسة في التفكير عندما قالت: «إنه لمما يبعث على الأسى أن يدير من منح العالم الشيء الكثير ظهره للصعلوك ويدخل عالم السياسة عبر إقحام موضوعات كهذه في أفلامه. إن قيامه بذلك قد جعله يخسرني».

لكن رأي النقاد والمحترفين من أمثال ماري بيكفورد لم يلقَ دعماً من هؤلاء الذين كان والدي ينظر إليهم على الدوام بوصفهم لجنة التحكيم النهائية- الناس. فقد استقبل فيلم «الديكتاتور الكبير» بحماسة في أوساط الجمهور في الولايات المتحدة أولاً، ثم حول العالم.

يقول جاك أوكي معلقاً على هذه الظاهرة: «لقد صنعت ما يزيد عن مئة فيلم، لكن الفيلم الوحيد الذي يتذكرونه هو الديكتاتور الكبير. بل إن الناس، في رحلتي الأخيرة إلى المكسيك، أدّوا لي، وأنا على متن الطائرة، التحية الفاشية».

هكذا اجتاز والدي بفيلم «الديكتاتور الكبير» العائق الأول من خلال عرضه على الشاشة. بيدَ أنه صار يشعر، بعد ذلك، بأنه كلفه الكثير. وكان مقتنعاً تماماً أن هذا الفيلم هو سبب مشاكله اللاحقة زاعماً أنه أثار حنق بعض مجموعات البروباغندا المؤيدة للنازية الأمر الذي دفعها إلى العمل ضده. أما أنا، فأعلم حق العلم أن فيلم «الديكتاتور الكبير» تعرض للحظر، في العديد من الأسواق الأجنبية في تلك الحقبة، بسبب موضوعه المثير للجدل. كما عمل الديبلوماسيون الألمان والإيطاليون بلا هوادة على منعه من الدخول إلى أمريكا اللاتينية.

لكن الفيلم اجتذب، عندما أعيد عرضه في أوروبا عام 1958، حشوداً من المتفرجين في إنكلترا وفرنسا وألمانيا. بل إن النقاد حيّوا الفيلم لدى عرضه في ألمانيا بوصفه «تحفة حزينة». وحدهم صغار السنّ كانوا قادرين على الضحك من الفيلم على حدّ قول النقاد. أما الكبار فبكوا بمرارة كما يبكي المرء عندما يتذكر خطاياه.

وفي العرض الافتتاحي للفيلم في صالة الكابيتول، صعق والدي الحاضرين بتقديم معلومة عنه وعن بوليت سعى الصحفيون وراءها لسنوات. فمع ختام الفيلم، صعد والدي إلى المنصة وألقى خطاباً قصيراً قدم بوليت خلاله بوصفها «زوجتي». وكانت تلك هي المرة الأولى التي يسبغ والدي، فيها، هذا اللقب عليها علناً في إعلان جعل الصحفيين يغادرون مقاعدهم ويهرعون إلى نقل القصة عبر الهاتف.

سادت، في تلك الفترة وبعدها، تكهنات كثيرة حول أسباب اختيار والدي لتلك اللحظة المحددة، في الوقت الذي كان انفصاله عن بوليت وشيكاً، لإطلاق هذا الإعلان. كانت هناك، بالطبع، الثرثرات التي تناولت وضع بوليت بشكل جعل والدي يخشى أن تضر الأقاويل بموقفه في شباك التذاكر. لكن، على الرغم من أن والدي كان مدفوعاً بقوة بخشيته على شباك التذاكر، إلّا أنه كان لديه، كما هي العادة، أكثر من دافع واحد للقيام بما قام به، وأعتقد أنه ربما كان يظن أن إعلانه المتأخر هذا قد يساعد في إنقاذ زواجه.

بقي والدي في الساحل الشرقي بعد انتهاء العرض الافتتاحي، ظاهريّاً، من أجل افتتاح فيلم «الديكتاتور الكبير» في المدن الرئيسة الأخرى، في حين عادت بوليت إلى هوليوود كي تلعب دور المضيفة لهـ. ج. ويلز الذي كان في جولة دراسية وكان مقرراً أن يقيم في منزل والدي مدة أسبوعين. لكن بوليت لم تبقَ طويلاً في المنزل. فقد انتقلت، في أحد أيام النصف الأول من شهر كانون الأول، إلى المنزل الشاطئي الخاوي الذي يملكه وكيل أعمالها مايرون سيلزنيك.

كان بانشو هو من ساعد بوليت على الانتقال. أظن أننا نستطيع اعتبار بانشو الضحية الأولى في أسرتنا المتشابكة لأنه جاء إلى المنزل ذات يوم قبيل افتتاح فيلم «الديكتاتور الكبير» كي يعلن بتكشيرة اعتزاز أنه قد تزوج، فكانت الهدية التي تلقاها من والدي وبوليت تعنيفاً شديداً. أما أنا وسيدني، فلم نعد نعتبره ينتمي إلى صفنا، وقد صار متزوجاً، بل أصبح يحتل، بالنسبة إلينا، منزلة فرانك. وفي غضون خمسة أشهر، صار الانفصال ناجزاً عندما ترك العمل مع والدي وانضم إلى الجيش. وعندما عاد، عام 1946، للعمل بصفة سائق في شركة والدي كانت العلاقة القديمة التي تربطنا به قد تلاشت لأننا، نحن كذلك، لم نعد أطفالاً. كان كل منا، نحن الثلاثة، قد عاش حرباً نجا

منها كي يتكلم عنها- وكانت هذه هي العلاقة التي نشأت بيننا، منذ ذلك الحين.

أظن أن بوليت أخذت كلبي البدلينغتون معها عند انتقالها إلى منزل سليزنيك الشاطئي لأنها كانت متعلقة بهما على العكس من والدي وكانت تعلم أنني، وسيدني، لم نعد قادرين على رعايتهما لأنه كان مقرراً أن نذهب، في العام التالي، إلى لورنسفيل في نيوجرسي استعداداً للالتحاق بجامعة برينستون. كان رحيل كلبي البدلينغتون اللذين عشت، وسيدني، برفقتهما سنوات من المرح إصابة أخرى تعرضت لها دائرتنا الأسرية.

لم يكن والدي قد عاد إلى المنزل عندما غادرته بوليت، على الرغم من أن الأمر تناهى إلى علمه لأن آلف ريفز كان يحرص على إطلاعه على كل المستجدات. أما أنا وسيدني، فلم نعلم بما يدور حولنا. وعندما عاد والدي إلى المنزل من جولته في الشرق، وبدأنا نزوره، من جديد، في عطلات نهاية الأسبوع، لم نجد بوليت في المنزل. كان أبي يخبرنا أنها ذهبت في رحلة عمل، لكن الأمر بدا لنا غريباً لأنها لم تغب عن المنزل فترة مماثلة من قبل. كما تساءلنا عن أسباب عدم ذهاب بوليت مع والدي عندما ذهب لحضور مراسم تنصيب الرئيس روزفلت في كانون الثاني 1941. إذ كان والدي، بوصفه من مواطني هوليوود النافذين، قد ترأس وفداً من الممثلين الذين كانوا ذاهبين إلى هناك لتأدية بعض الفقرات الترفيهية.

كانت تلك المناسبة ذروة علاقة طويلة ربطته بالرئيس روزفلت بدأت، بالنسبة إلى والدي، خلال الحرب العالمية الأولى. وكان والدي يؤكد على الدوام أن الرئيس روزفلت هو من أعظم الرؤساء الذين عرفتهم الولايات المتحدة على الدوام. بل إنه يضعه في مرتبة أعلى من مرتبة لينكولن، على الرغم من أنه، في هذه الجزئية، يجد نفسه وحيداً تقريباً في أوروبا. وكان والدي يحمل التقدير نفسه للسيدة إليانور روزفلت حيث اعتاد أن يقول: «هذه المرأة طبيعية للغاية. إنها بالغة الجمال».

أضفى والدي على الحفلة السابقة للقسم، التي جرت في التاسع عشر من كانون الأول، والتي حضرتها السيدة روزفلت مع أعضاء آخرين من أسرة الرئيس، جوّاً خاصّاً بإلقائه الخطاب الختامي من فيلم «الديكتاتور الكبير». كان النقاد يعتبرون الخطاب متكلفاً، لكن والدي كان يعني كل كلمة فيه. وعند منتصف دعوته إلى حرية العالم تهدج صوته وطلب كأساً من الماء. وأثناء انتظاره دوغلاس فيربانكس جونيور كي يحضر له الكأس، انفجر الحاضرون بتصفيق دام أكثر من دقيقة. يمكن اعتبار ظهور والدي في هذا الاحتفال والتصفيق الحار الذي استحقته كلماته الجادة قمة نجاحه الجماهيري في هذه البلاد. ومنذ ذلك الحين، بدأ المسار الذي اتخذه بالانحدار المستمر الذي انتهى به، في نهاية المطاف، إلى ما يشبه المنفى الاختياري.

عند عودة والدي من حفل التنصيب، كان عقله قد امتلأ بالكثير من الأفكار من أجل فيلم جديد كان مقرراً، كما قال، أن يتناول قصة مهاجرين يعيشون في نيويورك وتلعب بوليت دور البطولة فيه. ولا بُدَّ أن هذه القصة هي التي طورها والدي، بعد سنوات من ذلك، في أوروبا، إلى فيلم حمل اسم «الملك في نيويورك». وكمارتن تشوزليفيت في قصة تشارلز ديكنز التي تحمل الاسم نفسه، حمل الفيلم سخرية مريرة من الطريقة التي عامله بها أبناء عمومته الأمريكيون. لكن الواقع أن أموراً كثيرة كانت قد حصلت قبل وصول هذا الفيلم إلى مرحلة النضج.

وبينما كان والدي يقلب فكرة إنتاج فيلم عن قصة مهاجرين، كان في الوقت نفسه يعمل على أفكار أخرى. بدا الأمر، كما في فيلم «الديكتاتور الكبير»، كأن حرباً قد اندلعت بين الأفكار المتنافسة كان مسرحها رأس أبي، ولم يكن للفكرة الأقوى أن تنتصر إلَّا بعد صراع مرير. أما الفكرة الظافرة، التي باح بها والدي لويلا بارسونز في فصل الربيع من ذلك العام، فكانت قصة سكير تضعه الأقدار في درب فتاة كورس لم تكن متنبهة لمجرد وجوده، لكن الرجل، في عتمة وحدته، يقع في حبّها. وتطورت بذرة القصة، فيما بعد، إلى فيلم بعنوان «بريق الشهرة» الذي كان آخر الأفلام التي أنتجها والدي في أمريكا. لكن الاختلاف الذي عرفته الحبكة كان أن فتاة الكورس، في فيلم «بريق الشهرة»، أدركت وجود الرجل وأحبّته على ما كان عليه على الرغم من أنه كان يفوقها سنّاً بكثير. ربما كان زواج والدي السعيد بأونا هو العامل الذي غير الحبكة بهذه الطريقة.

وكانت هناك فكرة ثالثة في رأس والدي، في ذلك الوقت. كانت الفكرة تدور حول المسيو لاندرو، الفرنسي ذي اللحية الزرقاء. وقد قدر لهذه الفكرة أن تنتصر على الفكرتين الأخريين على الرغم من أنها لم تبصر النور إلَّا بعد ست سنوات.

في نهاية شهر آذار، عاد والدي إلى الساحل الشرقي من جديد، وهذه المرة كي يمثل كشاهد دفاع لصالح جوزيف شينك في القضية التي رفعتها الحكومة الاتحادية ضده بتهمة التهرب الضريبي.

بقي والدي في الشرق مدة طويلة. أظن أنه كان، في تلك الفترة، أكثر انحيازاً لقصة المهاجرين منه إلى الفكرتين الأخريين وكان يفكر، جديّاً، في البقاء في نيويورك لتنفيذ الفيلم. وإنه لمما يدعو للسخرية أنه ربما كان قد تجنب الأحداث المؤسفة التي بدأت في شهر حزيران عندما التقى فتاة اسمها جوان باري لو أنه بقي في نيويورك.

وفي الفترة التي كان قد عاد، فيها، إلى هوليوود، كان الانفصال بينه وبين بوليت قد أصبح ناجزاً بحيث لم يبقَ ما يمكن فعله سوى إبلاغنا، أنا وسيدني. قال لنا: «حسناً. أنا وزوجة أبيكما لم نعد

نتحدث مع بعضنا، لذلك فقد انفصلنا». كان وقع إعلان والدي هذا بمثابة صدمة. فعلى الرغم من أننا كنا، على وجه الاحتمال، ننتظر هذا النوع من الحلول للمشاكل المنزلية بسبب قصة والدتنا، التي كانت زيجتاها الأخيرتان لا تزالان حيتين في أذهاننا، إلَّا أننا لم نحلم أن يعاني والدي وبوليت من هذا المصير.

حاولت استرجاع الأحداث كي أحدد اللحظة التي بدأ عندها عدم التوافق بينهما، والطريقة التي ظهر بها. كانت هناك لحظات البكاء التي مرّت أثناء تصوير فيلم «الديكتاتور الكبير»، لكن لم تحصل، في تلك الفترة، أية خلافات أستطيع أن أتذكّرها. افترضت وجود شجارات كانت تجري في الخفاء لأن بوليت كانت، في بعض الأحيان، تنزل إلى الطابق الأرضي ومعالم الغضب على محياها وتقول: «والدكما عنيد للغاية» دون أن تضيف المزيد، وسرعان ما تعود بعدها إلى طبيعتها المرحة. لكن ذلك كله لم يزد عن كونه نوعاً من الأخذ والردّ المنزلي الذي لم يتخطَّ الحدود الطبيعية. بل إنني لم أستطع أن أتذكّر أية حادثة تدل على وجود غيرة جدية. قد يقول والدي لبوليت في الصباح الذي يلي إحدى الحفلات مثلاً: «تعلمين أن الكثير من الرجال كانوا ينظرون إليك في الليلة الماضية»، فتجيبه: «حسناً، ربما لم تكن النساء يتجاهلنك يا تشارلي»، ثم يضحك الاثنان، فقد كان بينهما الكثير من المزاح. بيدَ أن كل شيء حدث على حين غرة. كيف يمكنك بعد الآن أن تتكل على عامل الاستقرار في أيّ شيء؟ بدأت الحياة، في عيني، تتخذ شكل ما هو زائل. بدا كل شيء عابراً ولم يعد هنالك ما هو دائم ولا سيما حين يتعلق الأمر بالسعادة الزوجية.

بدا المنزل الواقع في أعلى التل حزيناً بعد أن فارقته روح المرح التي كانت بوليت تشيعها فيه. كنت أقول لوالدي أثناء قيامنا بواحد من تلك النشاطات التي كنا نستمتع، أربعتنا، في القيام بها: «محزن أن لا تكون بوليت بيننا». فيجيبني والدي: «إنها واحدة من الأشياء الحزينة يا بني. هذه هي الحياة». كانت تلك هي الإجابة نفسها تقريباً التي أعطاها وهو يفسر لي مسألة تغيير تاريخ ميلادي. تلك كانت فلسفة والدي حيال كل ما يصعب التنبؤ به.

أنا واثق أنه لم يكن سهلاً، بالنسبة إلى والدي، أن يجد نفسه وحيداً من جديد بعد زواج دام خمس سنوات. فبعد مغادرة بوليت، بدا أن نوبات الاكتئاب صارت أكثر تكراراً وأصبح، عندما يفلسف الأمور المتعلقة بطبيعة الإنسان والعالم ويعبر عن خيباته وأوهامه، يتكلم بتعاسة عن الإخفاقات التي عرفها في حياته. لم يكن يتحدث عن زواجه، على الرغم من أنني أستطيع التخمين أنه كان من الأمور التي أثارت الاضطراب فيه، بل كان يحدثني، بدلاً من ذلك، عن كيف كان يحلم أن يصبح عازف كمان وكيف أن هذا الحلم لم يتحقق. بل إنه تكلم عن إخفاق أفلامه بصورة أو بأخرى. كان من المستغرب سماعه يتكلم عن الإخفاقات وهو في قمة نجاحه، لكنني كنت أتعاطف معه لإدراكي مقدار حزنه واضطرابه.

تغيرت مكانتنا، بالنسبة إلى والدنا، فلم نعد بعد مجرد أطفال، بل صرنا رفاقاً له وصار اعتماده علينا، في الفترة التي عاش فيها وحيداً، كبيراً. لم أدرك، في ذلك الحين، مقدار تعويل والدي على رابطة الدم التي كانت، في الواقع، توحي له بمشاعر الوحدة والتضامن. كان ذلك ما دفعه إلى استدعاء والدته على جناح السرعة حالما صار يتمتع بمصدر للدخل واستقبال أخويه نصف الشقيقين، العم سيدني والعم ويلر، وتقديم الرعاية لي ولسيدني. وبالمقابل، كانت كيمياء الدم هي العامل الذي اعتمد عليه للحصول على ولائنا وحبّنا. أتذكّر ذلك اليوم الذي أفصح فيه عن مكنونات صدره تجاهنا. كان ذلك اليوم، ولا يزال، يعني الكثير لي. كان والدي، في ذلك اليوم، غارقاً في أفكاره عندما راودته رغبة مفاجئة بالكلام. التفت إلينا وقال: «أفكر، في بعض الأحيان، أنكما، أنتما الاثنين، تشارلز وسيدني، الشخصان الوحيدان في العالم اللذان يحبّاني بحق». لم يقل المزيد، لكن تلك الجملة كشفت لنا عمق وحدته الداخلية ومقدار اتكاله علينا.

أما الآن، وقد صار والدي أعزب من الناحية العملية، فقد أصبح حرّاً في الخروج مع الفتيات. بيدَ أنه كان يقوم بذلك في السرّ لأن آخر ما كان يتمناه هو أن يجتذب الدعاية السلبية. ولذلك، لعبت، وسيدني، في الكثير من الأحيان، دور المرافق، كلّما كان يخرج في موعد.

أتذكّر أنني لعبت ذلك الدور في موعده الأول مع كارول لانديس. صعقتني كارول في تلك الفترة على الرغم من أنها كانت في الثانية والعشرين في حين لم أكن، في ذلك الحين، أتجاوز السادسة عشرة، ولذلك لم أتردد للحظة في قبول دعوة والدي لتناول العشاء معهما، لكن دعوته تلك كانت

مشروطة: «سآخذ كارول، بعد ذلك، إلى حفلة صغيرة يحضرها بعض الأصدقاء المقربين. لذلك عليك أن تقول لها، بعد العشاء، إنك متعب للغاية ويجب أن تذهب إلى النوم باكراً». فقلت له: «حسناً. حسناً يا والدي».

هكذا لبست بذلتي المفضلة القاتمة ووضعت ربطة عنق وصففت شعري كأنني ذاهب إلى حفل استقبال كبير. ثم قادنا كاي بالسيارة إلى حيث تقيم كارول. لن أنسى ما حييت كيف بدت، تحت الضوء، في تلك الليلة عندما دعاها والدي لركوب سيارة الليموزين. فقد ارتدت ثوباً أسود يساير خطوط وجهها الرائع في حين كان شعرها الأشقر يتمايل على كتفيها. فهمت، عند رؤيتي لها، سبب منحها لقب الآنسة بينغ في ذلك العام، مع العلم أنها كانت، على الدوام، تمنح واحداً من تلك الألقاب الصغيرة المعبرة. فقد صار قلبي يدق بقوة عندما دخلت إلى السيارة كي تجلس بجواري.

قالت كارول: «آه. هذا هو ابنك» ثم التفتت نحوي عند جلوسها وقالت: «أنت جميل يا تشارلي». ها هي ذي قد جلست بجواري، تلك الشقراء التي تضحك، في حين إنني ذبت خجلاً ولم أردّ بكلمة، بل كنت جالساً هناك كصبي أبله أحاول منع مشاعري من الظهور. لكن كارول ذات القلب الدافئ لاحظت ما كان يعتريني وكانت عيناها ترقصان مرحاً في حين ارتسمت على وجه والدي، الذي كان جالساً في الناحية الأخرى، ابتسامة عريضة.

لم أستطع أن أبعد عيني عن كارول طيلة العشاء وكنت أركز على كل كلمة تقولها في حين لم أسمع، إلّا بالكاد، التلميح الذي وجهه والدي في أثناء تناول القهوة. وكان عليه أن يكرر الجملة مرتين: «حسناً يا بني، يجب أن نذهب...» قبل أن أستيقظ من أحلامي وأقول له بكلمات مخنوقة: «آه. هذا صحيح يا والدي. عليَّ أن أستيقظ باكراً في الغد للذهاب إلى الشاطئ. هل تمانع إن عدت إلى المنزل الآن؟».

خرج والدي مع كارول مرات عدة خلال بضعة شهور، لكنني لم أرها بعد ذلك إلّا مرة واحدة حين أحضرها إلى المنزل، في ختام إحدى الحفلات، مع زوج آخر من أجل كأس ليلية قبل أن يرافقها إلى بيتها. رقصا على أنغام التانغو لفترة من الوقت قبل أن أستجمع شجاعتي كي أقاطعهما قائلاً: «هل لي برقصة معك؟» ضحكت كارول ورقصت معي بطريقة طبيعية في حين كان رأسي يدور كالمغزل. كنت أفكر على الدوام في روعة مواعدتها والخروج معها من أجل مشاهدة فيلم أو تناول كأس من الصودا أو ما شابه، لكنني لم أحلم بمجرد طلب ذلك منها. فهي، في نهاية المطاف، فتاة والدي. ولم أخبر أبي بمشاعري نحوها إلّا بعد أن لاحظت أنه كفّ عن الخروج معها. وقد ضحك والدي قائلاً: «على حدّ علمي كانت كارول لترغب، بالتأكيد، في الخروج معك».

لكن الوقت كان قد فات مع اقتراب موعد سفري إلى الساحل الشرقي للدراسة ومثل ذلك تطوراً قاسياً، بالنسبة إليَّ، لأنني كنت أفكر في أنني يجب أن أخرج مع فتيات على شاكلة كارول. لكن والدي أرادني أن أكمل تعليمي ولم أكن راغباً في تخييب أمله. لذلك كففت عن أحلام اليقظة هذه ولم أعد إلى رؤية كارول. وكان خبر انتحارها عام 1948، أي بعد سبع سنوات من مواعدة والدي لها ووقوعي صريع دفئها وسحرها، صدمة كبيرة لنا جميعاً.

واعد والدي فتاة أخرى، في الفترة التي تلت انفصاله عن بوليت، هي هيدي لامار. كنت أظن أنها جميلة حتى لو أن قلبي كان معلقاً بكارول. أما والدي، فقد كان، على الدوام، يتمتع بالخبرة في شؤون سحر النساء، كل النساء وليس اللواتي كان يخرج معهن فحسب. كان يهوى استخراج الصفة الأفضل في كل امرأة ويعلق عليها. كان يفضل الشعر الطويل على الشعر القصير وأظن أنه كان يفضل السمراوات على الشقراوات. كان يعلق على سمرة والدتي الساحرة وعلى طريقة عنايتها بنفسها وكان يتحدث عن مظهر كارول لانديس الرائع وعن وجه هيدي لامار الشبيه بمريم العذراء، على حدّ قوله، القادر، عندما يكون منبسطاً، على أسر أيّ رجل في العالم، على الرغم من أنه كان يظن أن ابتسامة هيدي تفسد صفاء وجهها، وكان يرى أنها يجب أن لا تبتسم. كما أعجبه الجمال السماوي الذي تتمتع به ميرل أوبيرون التي اعتاد زوجها الراحل ألكسندر كوردا على زيارتنا. أما غاربو، فقد كانت روحها التي تشع من خلال الجسد الذي يغلفها هي العامل الذي جذبه إلى تلك الممثلة الفاتنة.

بيدَ أنه لم تكن الفتيات ما احتل المكانة الأفضل في حياة والدي بعد أن تركته بوليت، بل التنس. كان التنس الرياضة الوحيدة التي يمارسها باستغراق كلّيّ على الرغم من أنه كان، في الوقت نفسه، سباحاً ماهراً، كما كان يهوى إخبارنا بسباقات الماراتون التي كان يشارك في إنكلترا عندما كان يافعاً. أما كرة القدم، فقد كان يمقتها ويحذرنا من ممارستها لأنه كان واثقاً بأن من يمارس هذه الرياضة سيكسر بالتأكيد عظم ترقوته أو جمجمته. كما أنه لم يحبّ الملاكمة.

لكنني أعرضت عن رأي والدي في الملاكمة عندما التحقت بالجيش لأنه كان عليَّ، بوصفي ابن تشارلي شابلن، أن أثبت حضوري بشكل مضاعف. وفي حلبة ملاكمة عسكرية في فرنسا، كسرت أنفي، خلال مباراة خاسرة ضد ملاكم شبه محترف أقوى مني بكثير، واستحققت الاحترام لشخصي.

ولدى عودتي، لاحظ والدي أنفي المكسور على الفور وشعر بالحزن. كان يصرّ، على الدوام، أن التنس هي الرياضة الأنسب لي ولسيدني. لكنني لم أجاره في ذلك على الرغم من إلحاحه. فقد كنت

من ذلك الصنف من الناس الذي تشعره خسارة الكرة بالإحراج، وهو أمر يحصل كثيراً مع المبتدئين. وربما لم أكن أرغب في أن أنافس والدي- سواء تعلق الأمر بالفتيات أم بالتنس. أما سيدني، فكان أكثر جرأة مني. فعلى الرغم من أن شعوره تجاه فتيات والدي مماثل لشعوري، إلَّا أنه قبل تحديه في التنس وبدأ يتعلم ممارستها. أتذكّر، اليوم، تلك البدايات البائسة عندما بدأ سيدني يمارس التنس مع والدي الذي كان يهزمه بسهولة بمجموعتين كل منهما ستة أشواط مقابل شيء. ولم يتمكن سيدني من هزيمة والدي على الرغم من أن هذا الأخير كان يترك له بعض الكرات بين الفينة والأخرى لرفع معنوياته، على الرغم من أنه كان يقول إن مراعاة شعور شخص لا يجعل منه لاعب تنس جيد.

بيدَ أن صبيّاً كسيدني لم يكن يحتاج حقّاً إلى المزيد من المعنويات لدفعه إلى القيام بأيّ شيء. فهو لم يكن من النوع الذي يتراجع عندما يصمم على عمل شيء. أتذكّر، الآن، الفترة التي استولت لعبة البولينغ عليه. لم تكن والدتي قادرة على إبعاده عن صالات البولينغ على الرغم من الجهود المضنية التي بذلتها. فقد كان ينفق هناك كل وقته- وكل مصروف جيبه- ولم يكن يغادر إلَّا وقد بلغ منه الإرهاق مبلغاً.

هكذا كانت حال سيدني مع التنس. فقد واظب على التدريب. وأظن أن والدي ساعده بجعله يتدرب على يد بيل تيلدن. كما كان سيدني ينفق ماله الخاص على دروس التنس بعيداً عن المنزل حيث كان يوفر على نفسه مؤونة الإحراج لخسارة الكرة. وأخيراً، بدأ سيدني يأخذ من والدي شوطاً هنا وشوطاً هناك. لكن ذلك لم يكن كافياً بالنسبة إليه. فقد واظب لسنوات على التدريب إلى أن جاء اليوم الذي ألحق فيه بوالدي هزيمة قاسية جعلته يتعامل معه باحترام حقيقي.

كان إلحاق الهزيمة بأبي إنجازاً رائعاً. فقد كان والدي، في تلك المنطقة التي يعيش فيها أفضل لاعبي التنس، يحتل صدارة المصنفين، وكان المجتمع هناك يعتبره بطلاً ولا بُدَّ أنه كان كذلك. فقد كان يذهب إلى كل مباراة تنس تقام في النادي في بيفرلي هيلز وهو يعرف اللاعبين الماهرين. إذ كان هيلين ويلس وبولين بيتز وبيل تيلدن وفريد بيري ودون بادج ممن يترددون إلى المنزل وكانوا من الضيوف المرحّب بهم وقد لعب والدي معهم جميعاً، وكان يكسب منهم بعض النقاط. لم يكن والدي، بالطبع، قادراً على نيل شوط من لاعب محترف كبيل تيلدن إلَّا عندما لا يكون الأخير مستعدّاً أو عندما يدع والدي ينال شوطاً منه عن عمد. وكان والدي يباهي بهذا الإنجاز وإن بصورة ساخرة لأنه كان يدرك ما قام به تيلدن.

كالكثير من لاعبي التنس، بدا أن والدي يعزو إلى مضرب التنس الذي يستخدمه صفات سحرية.

أتذكّر يوماً اشترى فيه مضرباً جديداً مرتفع الثمن على الرغم من أنه لم يكن استثنائيّاً وفاز بشوط فور استخدامه فكان واثقاً بأن في المضرب أمراً خاصّاً ما. أما فوزه بالشوط الثاني، فكان كفيلاً برفع ذلك المضرب إلى مرتبة القداسة. ومنذ ذلك الحين، صار يلعب كل مبارياته بهذا المضرب واستمر، فترة طويلة، عصيّاً على الهزيمة بالفعل. وذات يوم، التقط والدي المضرب وبدأ يلعب. لكن لم تمضِ مدة طويلة حتى بدأ الحظ يعاكسه فقال فجأة: «لا أظن أنه مضربي» فأكد له تيم وفرانك أنه مضربه حقّاً، فمضى في اللعب إلى أن خسر. ثم لعب جولتين أخريين خسرهما فأصبح واثقاً بأصالة الدليل الذي لديه: «هذا ليس مضربي. لا بُدَّ أن أحدهم أخذه معه وترك هذا المضرب». وبناء على هذه النظرية، أرسل فرانك لسؤال كل من كان في المنزل يوم الأحد ذاك عما إذا كان أحدهم قد أخذ المضرب عن طريق الخطأ. بالطبع عاد فرانك من استقصائه الغريب خالي الوفاض، لكن والدي بقي مصرّاً على فرضيته. فكان يزمجر: «لا بُدَّ أن أحدهم سرق مضربي الجيد. لن أستطيع العثور على واحد مثله» وبدا كمن خسر صديقاً عزيزاً.

ومع مضيّ الوقت، بدأت دائرة لاعبي التنس الذين يأتون إلى المنزل في الاتساع. فتحولت أمسيات يوم الأحد الهادئة، كما عرفتها وسيدني في طفولتنا، التي يهيمن عليها الشاي والحلوى إلى مهرجان أسبوعي مفتوح كنت تستطيع أن تلتقي فيه بشخصيات مثل كاثرين هيبورن وغريتا غاربو ورونالد كولمان وغاري كوبر وجون غارفيلد وإيرول فلين وديفيد نيفن وجون مكورماك. واللائحة تطول.

بل بدأ حتى أولئك الذين لا يجيدون التنس يأتون إلى منزل والدي لمجرد الظهور. كان الناس يتنازعون الدعوات، وبدأ كل من هبّ ودبّ يأتي إلى المنزل بصفته ضيفاً لأحد الضيوف وكانوا، جميعاً، موضع ترحيب، لا سيما إذا كانوا يجيدون التنس. وبدأت، وسيدني، نحضر أصدقاءنا، وكان هناك على الدوام فتيات جميلات الغالبية العظمى منهن يحضرن على أمل أن يلفتن انتباه تشارلي شابلن فيشركهن في أحد أفلامه. ألم يكن أفضل من يحولون الفتيات المغمورات إلى نجمات؟

كان الضيوف يتجمعون في ملاعب التنس الواقعة في أسفل المنحدر العشبي كي يشاركوا في مباريات سريعة أو كانوا يجلسون في بيت التنس المجاور لتجاذب أطراف الحديث أو يتابعون المباريات من الشرفة. أما من لا يلعبون التنس، فكانوا يذهبون إلى بركة السباحة المجاورة، على الرغم من أن التنس كان، على الدوام، في تلك الأيام، محور الاهتمام.

كان الشاي يصبّ للضيوف من إبريق فضي عظيم بالإضافة إلى القهوة والشطائر- دجاج أبيض وديك حبش محشوّ بين شريحتي خبز أبيض. كانت الشطائر تجمع على شكل طبقات موضوعة

على صينية عملاقة يصل قطرها إلى متر واحد. وكان معظم الحاضرين يأكلون كما لو أنهم لم يأكلوا منذ أسابيع- كان والدي يتناول الطعام معهم- وكانت صينية الشطائر تملأ بضع مرات. ولم يبدُ أن مخزون الطعام كان ينفد مهما كان عدد الحاضرين كبيراً ومهما التهموا من الشطائر. وكان هنالك، كذلك، الكعك اللذيذ الذي يبرع جورج بإعداده.

كان والدي يحصر اهتمامه بالتنس طالما أن المباريات لا تزال قائمة، ثم يعقد جلسة في بيت التنس الصغير الذي يشهد، حينذاك، جولات نقاش حامية تتناول مختلف الموضوعات، بالإضافة إلى المزاح والقصص- كما هي حال والدي على الدوام. وعندما ينفضّ الحشد في نهاية الأمر، يمضي الجميع وفي أذهانهم انطباع بأنهم عاشوا تجربة عظيمة وفازوا بامتياز كبير حين أمضوا فترة بعد الظهر مع تشارلي شابلن.

كان واحداً من أيام الأحد المفتوحة تلك من فصل الصيف ذلك الذي تعرف والدي فيه على جوان بيري التي حملت الاسم الفني جوان باري. كانت جوان بيري قد جاءت من مدينة مكسيكو مسلحة برسالة تعريف موجهة إلى تيم ديورانت من الراحل أ.س. بلومنتال الذي تعرف إليها هناك. هكذا، توجهت بالرسالة إلى منزل تيم ديورانت حيث التقت بتيم ووالدته وتركت لديهما انطباعاً حسناً. كانت حسناء تتمتع بوجه أيرلندي هادئ مليء بالنمش وشعر أحمر جميل وبدت لتيم ككاتبة اختزال وقورة من بروكلين- وهي في الواقع متحدرة من هذا الجزء من البلاد. كانت جذابة وهادئة ومثقفة بوضوح. فدعاها إلى حضور أمسية أحد تختارها في منزل والدي. وكانت تلك طريقة سهلة لمسايرة صديقه الهوليوودي السيد بلومنتال.

هكذا جاءت جوان باري ووالدتها السيدة غيرترود بيري بعد ظهيرة أحد الأيام إلى منزل والدي الذي رحّب بهما بالحرارة نفسها التي يبديها حيال كل زواره.

-32-

في خريف عام 1941، توجهت، وسيدني، إلى لورنسفيل عازمين على أن نكون ناشطين في مدرستنا الجديدة وعلى أن نتلقى من العلم ما يكفي لجعل والدنا فخوراً بنا. كانت تلك هي المرة الأولى التي نكون فيها بعيدين إلى هذا الحدّ عن أسرتنا فأحسسنا بحنين كبير إلى بلدتنا. ربما كنا معتادين على البقاء بعيداً عن الأسرة، لكن ميناء بيرل هاربور كان قد تعرض للقصف في السابع من كانون الأول ودخلت بلادنا الحرب. بدأت جداول التجنيد تمتلئ بآلاف الأسماء وأدركت، مع سيدني، ومليون من الفتيان الآخرين الذين ينتمون إلى فئتنا العمرية أنه لن يمضي وقت طويل حتى نجد أنفسنا، بدورنا، في الجيش.

وبسبب الحرب، فقدنا ثلاثة آخرين من أفراد الأسرة هم فرانك وكاي وجورج، خادمو والدي الأوفياء ورفقاؤنا المحبّون طيلة سني طفولتنا. فقد أمرت الحكومة الرجال الثلاثة بالتوجه إلى معسكر اعتقال في مانزانار. أحسّ والدي بحزن شديد، لكن لم يكن هنالك، بالطبع، ما يمكن القيام به. كان على فرانك، القادم من هاواي، وجورج وكاي، مع الكثير من اليابانيين الآخرين أن يبيعوا أكبر قدر ممكن من مقتنياتهم وأن يتخلصوا من الباقي. وأخذ كل واحد منهم حقيبتي ملابس واستقلوا مع أفراد أسرهم الحافلة المتجهة إلى مانزانار مخلفين وراءهم فراغاً كبيراً في المنزل الواقع في أعلى التل. لم يكتب والدي رسائل إلى فرانك، لكنه لم ينسه كذلك. فكان فرانك يتلقى، بصورة شهرية، طيلة فترة إقامته في مانزانار، شيكاً بأجره الشهري. وعلى الرغم من أن والدي أصبح يقيم، اليوم، في فيفي، فإنه لا يزال يتذكر فرانك بالشيكات في عيد الميلاد.

وجدنا عند عودتنا من المدرسة إلى المنزل في صيف عام 1942، خدماً بريطانيين في منزلنا القديم. كانوا ماهرين، لكن متحفظين وعجزت، وسيدني، عن التآلف معهم بعد أن غادرنا أصدقاؤنا اليابانيون الذين كبرنا معهم والذين اعتبرناهم جزءاً من أسرتنا. كما افتقد والدي، بدوره، اليابانيين- بكفاءتهم وسرعة الإنجاز لديهم والرعاية الحدسية التي كان فرانك يغمره بها. كان، في بعض الأحيان، يقول عن الإنكليز: «إنهم جيدون. لكنهم في غاية البطء. لقد أصبح الأمر يتطلب اليوم ساعات من أجل إعداد بعض الكعك».

في ذلك الصيف، أصبح انفصال بوليت عن أبي ناجزاً بتلقيها، في أثناء وجودها في مكسيكو، حكم طلاق غيابي أصدره القاضي خافيير روزاس سيبالوس من المحكمة المدنية في خواريز. وكان هذا

القاضي هو من أماط اللثام عن تاريخ الطلاق كما كشف، كذلك، سنة زواجهما ومكانه، وهي معلومات كانا حريصين على إخفائها عن الصحافة. هكذا عرف العالم أنهما تزوجا عام 1936 في مدينة كانتون الصينية كما كان والدنا قد أخبرنا. أما تهمة بوليت فهي عدم جدارتها وانفصالها عن أبي مدة تزيد عن السنة.

وضع هذا الطلاق حدّاً لعلاقة عنت الكثير لي كما لسيدني طيلة سني طفولتنا. لكن رحيل بوليت لم يكن نهاية العلاقة التي ربطتنا بها والتي احتفظت بالودّ والحرارة اللتين كانت عليهما على الدوام. فقد اعتبرتها، وسيدني، على الدوام جزءاً من الأسرة ولا نزال نعتبرها كذلك. كما استمر والدي في رؤيتها. وعندما كانت بوليت تأتي إلى المدينة، ويكون والدنا مشغولاً عنا كانت تدعونا إلى العشاء أو إلى متابعة فيلم أو إلى حفلة صغيرة في منزلها. بل إنني، بعد تسريحي من الجيش وأثناء وجودي في نيويورك من أجل إحدى المسرحيات التي شاركت فيها بجانب فريدريك مارتش وفلورانس إيلدريدج، تلقيت، ذات يوم، اتصالاً منها. كانت بوليت قد تزوجت بورغيس ميريديث في شهر أيار من عام 1944 وطلقته في مكسيكو في حزيران 1949 وعادت كي تكون عزباء من جديد.

قالت لي: «أواعد أميرالاً في الجيش وهو كسول للغاية. لمَ لا تصطحبني في نزهة خارج المنزل يا تشارلي؟» أجبتها: «يسعدني ذلك يا بوليت لكنك تعلمين كيف هم الممثلون- مفلسون». فأجابت ضاحكة: «آه. لا تقلق من هذه الناحية. أنت تعلم أن امرأة أبيك السابقة قد خبأت بعض المال ولا سيما أنها كانت متزوجة من والدك».

كانت بوليت تهوى المزاح بشأن التسوية المالية التي عقدها والدي معها. فقد اعتادت القول: «أظن أن والدك خسر الكثير بزواجه بي. بل إنه خسر اليخت».

لم يخبرني أحد بمقدار المال الذي دفعه والدي لبوليت لكن الشائعات كان تقدر المبلغ بمليون دولار. كان والدي يمتدح بوليت بدوره كما كان يحبّ المزاح بشأن التسوية المالية فكان يقول مثلاً: «زوجة أبيك السابقة امرأة حسناء- وداهية. لقد استطاعت أن تتفوق عليَّ بعض الشيء». راودني شعور أن والدي كان يمزح بالفعل لكن مزاحه كان موجهاً. لقد أرادني، وسيدني، على الدوام أن نكون حذرين حيال النساء. كان يقول لنا إنه مهما تكن المرأة لطيفة لكنها تحاول، في بعض الأحيان، الحصول على كل ما في وسعها. كنت، وسيدني، في ذلك الوقت، قد بلغنا سنّاً بدأ والدي معه يقلق بشأن الفتيات اللواتي نواعدهن واللواتي كنا نحضرهن إلى المنزل للسباحة أو لنزهة بين الأشجار.

قابلت جوان باري في صيف عام 1942 في الغرفة المزججة. كانت ترتدي ثوباً داكناً وقد تدلى شعرها البالغ الحمرة على كتفيها كسحابة. كانت تتمتع بمظهر لطيف ووجه عذب وفتان، وبدت بين الحادية والعشرين والخامسة والعشرين.

قال لي والدي لدى وصولي: «هذه جوان باري يا بني. سوف تلعب دور البطولة النسائية في فيلمي التالي: الظل والجوهر». كان متحمساً بحق حيال الآنسة باري وكان، في بعض الأحيان يكلمني، وسيدني، عن مزاياها: «لديها ما يميزها، فيها شيء سماوي رائع بحق. إنها تتمتع بموهبة، هي من أعظم ما رأيت في حياتي. يمكنني، إن سارت الأمور على ما يرام، أن أصنع معها أروع أفلامي».

كان والدي صادقاً في رغبته في أن يصنع من الآنسة باري ممثلة عظيمة وهي حقيقة ضاعت وسط الصخب الذي أحاط بالمحاكمات اللاحقة التي حاول المدعون العامون، خلالها، أن يصموه بأنه متحرش بالأطفال لا يرحم. لكن نزاهة والدي الفنية كانت، في الواقع، تحتل المرتبة الأولى في حياته، وهو أمر سوف يشهد عليه هؤلاء الذين عملوا معه. فلم تستطع أية فتاة أن تشارك في أفلامه عبر إدخاله إلى مخدعها، بل كان عليها أن تتمتع بمواهب حقيقية قبل أن تجعله ينفق وقته وماله عليها.

هكذا، كان والدي، عند لقائه جوان باري، على قناعة تامة بأنها الشخص المناسب لأداء دور البطولة في مسرحية «الظل والجوهر» التي تتحدث عن فتاة أيرلندية ساذجة وكاهن شرير. وكان والدي قد دفع خمسة وعشرين ألف دولار، بالفعل، ثمناً لحقوق تحويل المسرحية إلى فيلم. كما تعاقد مع الآنسة باري بمبلغ خمسة وسبعين دولاراً ثم مئة دولار أسبوعيّاً، وأرسلها إلى مدرسة ماكس رينهارد الدرامية مدة ثلاثة أشهر، وصمم ملابسها التي سوف ترتديها في الفيلم ونفذها ودفع مبلغاً كبيراً لتجميل أسنانها، وغرق في كتابة النص الذي عمل عليه طيلة الصيف بكل ما أوتي من طاقة. وفي تلك الأثناء، كان والدي يدرب الآنسة باري. وكان يقدم معها مقاطع من مسرحيات شكسبير أمام الزوار وعلق الجميع على قدراتها الاستثنائية. لكن ذلك لم يكن سوى الجزء الظاهر من فنّ التمثيل. فالتمثيل الحقيقي ليس بهذه الفتنة كما يظن الكثير من الناس. لأن ما يبدو على الخشبة أشبه بفعل عفوي يتطلب ساعات طوالاً من العمل المجهد.

وعلى الرغم من أن الآنسة باري كانت تتمتع بالعديد من المزايا الرائعة، إلَّا أنها كانت، كذلك، تفتقر لخصائص بالغة الأهمية. فهي لم تكن تتمتع بالانضباط والإخلاص الكلي للمسرح، وهما شرطان أساسيان للممثل الجيد. وكانت عزيمتها أقل من ذلك بكثير من أجل تلبية إصرار والدي على الكمال. كانت من ذلك النوع الذي لا يمكن الاعتماد عليه. إذ كانت تصل إلى التدريب متأخرة

أحياناً أو كانت تغيب كليّاً. كانت، في بعض الأحيان، تبدو لامعة ثم تأتي فترات ترفض فيها التركيز على عملها أو تعجز عن ذلك.

بل إن تيم ديورانت وأصدقاء مقربين آخرين حثّوا والدي، منذ البداية، على التخلي عن الآنسة باري التي لمسوا فيها شيئاً من الاضطراب العاطفي. لكن والدي كان يشعر بأنه قادر على مساعدتها على التقدم في هذه المهنة. وأخيراً، بدأ والدي يدرك أنها ليست قادرة على أن تصبح ممثلة على الرغم من السجايا الجذابة والمحبّبة التي رآها فيها. والواقع أنها كانت وجهاً تراجيديّاً منذ البداية.

لكن ذلك الصيف لم يشهد أيّاً من الأحداث المؤسفة التي وقعت نتيجة صلة والدي بجوان باري. في ذلك الصيف، أمضيت أمسية معها بطلب من أبي الذي كان منهمكاً في العمل على فيلم «الظل والجوهر» وكان يرغب في أن لا يقاطعه أحد، كما هو شأنه عندما يكون مزاجه تجاه العمل مواتياً. هكذا، طلب مني ومن نانا أن نرافقها، في تلك الليلة، إلى حفل موسيقي في مسرح هوليوود باول. وجدتها نانا، كوالدة تيم ديورانت، شخصية ساحرة- شخصية محبّبة لا تتكلم عن شيء إلّا عن الفرصة التي منحها والدي إياها للعب دور البطولة في أحد أفلامه على الرغم من كونها مغمورة.

لم يبدُ لي، في ذلك الوقت، أنه توجد أية صلة عميقة تربط والدي بالآنسة باري، بل كانت مجرد فتاة وضعها تحت رعايته. بيدَ أنني ظننت بالطبع أنه كان يخرج معها بين الفينة والأخرى. لكنها كانت، بدورها، تواعد رجالاً آخرين. بل إنني، عندما ذهبت إلى منزلها، مع نانا، لاصطحابها إلى الأمسية الموسيقية، وجدت رجلاً في ضيافتها.

هكذا كانت الحال عندما عدت، في خريف ذلك العام، إلى لورنسفيل. لم يذهب سيدني معي لأنه كان قد أشبع من الانضباط ومدارس الفتيان وقرر الذهاب إلى مدرسة نورث هوليوود الثانوية في ذلك العام. أما أنا فقد كنت مصمماً على إرضاء والدي على الرغم من أنني أخذت أتمنى، على الفور تقريباً، لدى عودتي إلى هناك، لو أنني اتخذت مثال سيدني. فقد شعرت هناك بقدر من الوحدة والعزلة لم أشعر بهما من قبل كما انتابني إحساس بأن الحياة تمضي وبأن الجيش سيطلبني قريباً إلى إحدى جبهات الحرب الأوروبية.

فرحت عندما جاء والدي إلى الساحل الشرقي في شهر تشرين الأول لإلقاء خطاب فاستأذنت المدرسة لرؤيته ومضيت إليه على الفور. كان ذلك الخطاب واحداً من سلسلة من الخطب ألقاها

والدي للدفاع عن ضرورة فتح جبهة ثانية في بداية الحرب. أظن أن خطابه الأول كان في سان فرنسيسكو الذي تكلم فيه لصالح دعم المجهود الحربي الروسي، وكان قد حلّ محلّ السفير جوزيف ديفيس الذي كلفه الرئيس روزفلت بالتكلم، لكن المرض منعه من ذلك. كالعادة، أعدّ والدي الخطاب بكثير من العناية. لكنه أصيب، قبيل إلقاء الخطاب، بالنوبة العصبية المعهودة فهرع إلى الكواليس وأفرغ محتويات معدته وأضاع خطابه في خضم الفوضى وكان عليه أن يواجه ثمانية آلاف مستمع بخطاب مرتجل. تكلم والدي ساعة ونصفاً سحر خلالها ألباب الحاضرين حتى يكاد المرء يسمع صوت سقوط إبرة. كان ذلك هو الخطاب الذي طالب فيه بفتح جبهة ثانية.

أما خطاب الجبهة الثانية في نيويورك، فألقاه برعاية منظمة تدعى «فنانون من أجل الفوز بالحرب» فهمت أنها كانت تعتبر مقربة من الشيوعيين. وسواء صح ذلك الافتراض أم لا، فإن والدي، نفسه، لم يكن شيوعيّاً على الرغم من إعجابه بصمود روسيا في مواجهة ألمانيا واقتناعه بأن ما هو المطلوب لا يقتصر على تقديم المساعدة لها فحسب، بل يجب فتح جبهة ثانية للفوز بالحرب بأكبر سرعة ممكنة. وكالعادة، مضى والدي في حماسته بعيداً إلى درجة جعلت بعض الإنكليز يحتجون قائلين إنه كان ينبغي له أن يظهر قدراً أكبر من التقدير لمجهود بلاده الأم الحربي، في حين اعتبر بعض الأمريكيين أن نصيحته المجانية هذه خرق لقواعد اللياقة لأنه لم يكن مواطناً أمريكيّاً، وكان هنالك آخرون رأوا في إخباره الجيش بما عليه القيام به نوعاً من الغرور. ومن جهة أخرى، كان هناك الكثير من الناس الطيبين الذين وافقوه الرأي. وقد تطلب خطاب الجبهة الثانية فترة طويلة قبل أن يبعث من جديد، بعد إخراجه من سياقه الزمني حين كانت روسيا لا تزال حليفاً للولايات المتحدة، ويستخدم كدليل على أن والدي كان شيوعيّاً.

عند وصولي إلى الوالدورف تاورز وجدت والدي يذرع المكان جيئة وذهاباً ونظارتاه على عينيه يتمتم لنفسه جملاً من خطابه. كان، من جديد، مريضاً وعصبيّاً كما هي الحال معه دائماً في المناسبات العامة فسارع إلى الحمام وشعرت تجاهه بالأسى.

لم أستطع حضور خطابه لأنه كان عليَّ العودة قبل الغروب، وهو أمر أصابني بالخيبة وأحزنني أكثر عجزي عن الاستمتاع بنيويورك مع والدي وتيم ديورانت وبوليت التي كانت، بدورها، في المدينة. وقد حسدتهم على المتعة التي سيعيشونها بينما أنا عالق في المدرسة.

لكن والدي، في واقع الحال، لم يستمتع بالقدر الذي تصورته. فقد تحولت تلك الزيارة إلى نيويورك إلى حلقة أخرى في سلسلة الأحداث الطويلة التي بدا أنها تلتف حوله في تلك الحقبة من حياته. وكانت الآنسة باري القوة الدافعة في هذه الأحداث.

أتذكّر كيف كان والدي يتأمل في تراجيديا الأحداث العارضة في الحياة. إذ يمكن للمرء أن يتخذ المنعطف الخطأ أو أن يقدم على حركة صغيرة، حميدة بحدّ ذاتها، تكون نتيجتها أن يقضي بقية عمره يعيش العواقب المؤسفة لتلك اللحظة التي لا يمكن الرجوع عنها. كنت أفكر أحياناً، بعد أن بدأت فصول قصة جوان باري بالتكشف، في أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث لأبي. وكانت الحركة الصغيرة التي أقدم عليها مدفوعة بالكرم.

بعيد عودتي إلى المدرسة، قرر والدي وضع فيلم «الظل والجوهر» على الرفّ. كان قد أنفق على ذلك الفيلم ما يزيد عن خمس مئة ألف دولار، لكنه كان، بسبب عجزه عن التنبؤ بتصرفات الآنسة باري، غير قادر على تحمل إطلاق مشروع كلفته مليونان أو ثلاثة ملايين دولار تكون هي نجمته. وفي الوقت نفسه، كانت الآنسة باري، كذلك، قد خلصت إلى نتيجة مفادها أن حياة الممثلات لا تناسبها وأخبرت والدي برغبتها في فسخ عقدها معه والعودة إلى الساحل الشرقي إذا وافق على دفع نفقات سفرها. وبعد بعض الإلحاح، وافق والدي ورتب، من خلال الاستديو، شراء تذكرتي سفر بالقطار باتجاه واحد، الأولى للآنسة باري والأخرى لوالدتها كما أجرى تسوية لديونها البالغة حوالي خمس مئة دولار بحيث ترحل دون أن تعوقها الديون.

كانت الآنسة باري قد رحلت إلى الشرق مع والدتها قبل أسبوعين من إلقاء والدي خطاب الجبهة الثانية. وكان يفترض أنها خرجت من حياته إلى الأبد، وكانت بالتأكيد الشخص الأخير الذي يتمنى سماع صوته في نيويورك، وقد غضب للغاية عندما اتصلت به في الوالدورف تاورز. ألحّت على الاتصال به لكن والدي واظب على رفض التكلم إليها إلى أن أخبرته أنها في الطابق العشرين وسترمي نفسها إلى الأسفل إن لم يخرج لرؤيتها. كان ذلك التهديد بالانتحار الأول في سلسلة التهديدات التي أطلقتها الآنسة باري في الشهور التالية.

عندما رأى والدي الآنسة باري أخبرته أنها معدمة، فمنحها ثلاث مئة دولار كي تنصرف عنه. لكنها استخدمت المال للسفر إلى هوليوود. وكانت تلك الحادثة هي الأساس الذي تمّ الاستناد إليه في تهمة الاتجار بالرقيق الأبيض التي وجهت إلى والدي بموجب قانون مان والتي ألزمته، كما ألزمت الحكومة، بالانخراط في محاكمات حملت كل خصائص السيرك- على الرغم من أنها لم تبدُ كذلك، في ذلك الوقت، بالنسبة إلى والدي لأنه كان مهدداً بالسجن إذا صدر الحكم ضده.

بالطبع، كنت، في ذلك الوقت، غافلاً عن كل ما كان يجري. تلقيت، وسيدني، التلميح الأول إلى أن هنالك أمراً ما ليس على ما يرام خلال موسم الميلاد عندما كنا في منزل والدي أثناء عطلة الأعياد. ففي الثالث والعشرين من كانون الأول، كنت، وسيدني، في الخارج مع شلة من الأصدقاء. عدنا

إلى المنزل في الثانية صباحاً تقريباً ودخلنا من خلال المصطبة العشبية الخلفية كما نفعل عادة. لكننا توقفنا قبيل وصولنا إلى غرفة الدراسة المزججة لشعورنا بوجود أمر غير طبيعي. كان هنالك سلم مسنود إلى الجدار ودرجته العلوية تميل إلى عتبة نافذة غرفة نوم والدي ومحفظة وحذاء نسائي وزوج من الجوارب الحريرية النسائية مرمية على العشب في أسفل السلم. ثم شاهدنا زجاج غرفة الدراسة مكسوراً عند مقبض الباب الذي كان موارباً وكانت الستائر تتحرك على وقع النسيم.

وقفت هناك، وسيدني، نتفرج دون أن ننبس ببنت شفة. بدأت أتذكّر المسدس المحفوظ في درج الطاولة الصغيرة الموجودة بجوار سرير أبي وحركة والدي الخفيفة في المنزل أثناء بحثه عن المتطفلين. كان قد شرح لي ولسيدني مراراً وتكراراً أن المشاهير عرضة لكافة أشكال المعتوهين.

فكرنا في أنفسنا قائلين: «والدنا في ورطة، في ورطة حقيقية».

دخلنا من الباب وبدأنا نتحرى الأمر بهدوء وانتقلنا من غرفة الدراسة إلى غرفة المعيشة بخزانتها الشرقية التي تضم سيفي الساموراي اللذين لطالما وفرا لي الشعور بالأمان في طفولتي. ثم انتقلنا إلى الرواق مروراً بغرفة الطعام التي ألقت جثة الدكتور رينولدز الممددة فيها بظلالها المخيفة على خيالي الطفولي. بيدَ أنه كان هنالك الآن شيء مختلف ينذر بالشؤم يمكنك الإحساس به في سكون المنزل. ما سرّ هذا الهدوء؟

وصلنا إلى الدرج الذي يقود إلى الطابق العلوي. كانت الأنوار مضاءة في الأعلى، لكن الصمت كان يلفّ المكان هناك أيضاً. اجتاحنا، في هذه اللحظة، شعور حقيقي بالترقب لأننا لم نكن نعلم ما يمكن أن يواجهنا هناك. كنا في طريقنا لاستكشاف الأمر عندما ظهر والدي في الأعلى، وقد التقطت أذناه المرهفتان وقع خطانا على الدرج. استند إلى الدرابزين ونظر إلينا في الأسفل. كان يلبس قميصاً مع ربطة عنق وسروالاً وسترة مدخنة، وهو اللباس الذي يفضل ارتداءه من أجل حفل كوكتيل صغير في المنزل.

خاطبنا بحدة وكأنه لم يتعرف إلينا: «ماذا تفعلان هنا؟» ثم استجمع نفسه وأضاف: «آه. أنتما تعيشان هنا. لم أقصد أن...». لم يرغب والدي يوماً في إشعارنا بأننا غير مرحّب بنا في المنزل.

«أنا متوتر الآن... لديَّ أمر هام... اذهبا إلى النوم وأوصدا الباب. وسأخبركما كل شيء في الغد».

كان سلوكه يشي بأنه معرض للخطر. انتابنا القلق عليه ورغبنا في مساعدته لكننا لم نكن نعلم ما يمكن أن نقوم به بالضبط. كان الغموض سيد الموقف.

جازفت بالسؤال: «ماذا يحدث يا أبي؟».

هزّ رأسه بشدة: «لا تطرحا أية أسئلة. اذهبا إلى النوم وسأخبركما في الصباح».

لكننا لم نستطع النوم إلَّا بالكاد. تمددنا في سريرينا وأخذنا نتهامس ونصغي إلى الأصوات الآتية من الرواق ونتساءل بقلق. وفي الصباح الباكر، قرع والدي باب غرفتنا وقال: «إلى الأسفل يا بني».

خرجنا من الغرفة وتبعناه إلى الأسفل بصمت. أما والدي، فلم ينبس ببنت شفة حتى وصولنا إلى غرفة المعيشة، عندما بدأ فجأة بسرد القصة من منتصفها: «حسناً. لقد أخذت المسدس منها». فقلنا مصدومين: «مسدس؟ ما الذي تعنيه يا أبي؟ مسدس؟» أجاب: «أخذته من جوان». فقلت متذكراً: «آه. الآنسة باري. لكن ماذا حدث يا أبي؟». فأجاب بأسلوب غريب ينضح بالقلق جعله يروي القصة بعبارات مفككة: «حسناً. لقد قالت إنها ستقتل نفسها. تقتل نفسها هنا ويلقى باللائمة عليَّ. لقد أخذت المسدس». ثم أرانا المسدس. كان مسدساً نسائيّاً صغيراً علمنا مما قالته الصحف، فيما بعد، أنها اشترته من أحد متاجر الأسلحة في هوليوود قبل توجهها إلى منزل أبي.

«لقد تطلّب مني الأمر ساعات وساعات من الكلام معها لمنعها من الإقدام على ذلك». ثم قال بحزن: «إنها تحبّني. لكنني لا أحبّها والأمر ليس بيدي. هلا خرجتما من المنزل اليوم لزيارة بعض أصدقائكما؟».

لم يخبرنا أبي أن الآنسة باري كانت لا تزال في المنزل، لكننا استطعنا أن نخمن ذلك وأنه أراد أن نغادر المنزل خشية أن نكون شهوداً على نوبة هستيرية أخرى. أطعناه دون كلمة اعتراض وذهبنا لزيارة الأشقاء كريزل، ولم نعد إلى المنزل حتى حلول المساء وكان هدوء شديد يسود المنزل وكان والدي هناك. بدا تعيساً وكان لا يزال متوتراً ومصدوماً. لكن الآنسة باري كانت قد غادرت المنزل ولم نرها بعد ذلك قط.

لم يقل والدي المزيد عن الحادثة ولم نتطرق، بالطبع إليها. لكننا لاحظنا، في الشهور التالية، أن تغييراً طرأ عليه. كان يبدو، على الدوام، حزيناً ومهموماً. أرجعت، وسيدني، سبب اضطرابه إلى عجزه عن مبادلة الآنسة باري الحبّ. لكننا لم نعلم، إلَّا فيما بعد، من خلال إحدى الشهادات، أن قصة المسدس لم تكن سوى مجرد حلقة في سلسلة من المضايقات التي أخضعته الآنسة باري لها بعد عودتها إلى هوليوود من نيويورك. (شهد في المحكمة أنها حطمت نوافذ منزله في أربع مناسبات مختلفة، وأنه كان مضطرّاً لاستبدال أقفال الأبواب أربع مرات لأنها كانت تخلعها). كانت

تلك مشكلة لم يجد لها حلّاً، ولا سيما أنه كان يشعر بالأسف حيال الآنسة باري التي أدرك تماماً، في ذلك الوقت، أنها مضطربة. فقد استمرت في الإقدام على التصرفات الشاذة كالاستحمام بملابسها باستخدام مرشات الماء في المنزل وقيادة السيارة بسرعة جنونية في الطريق الدائري حتى تكاد السيارة تنقلب. وكانت هنالك لحظات يصبح خطابها مفككاً إلى درجة يستحيل معها فهم ما تقوله. وكما قلت من قبل، كانت المعاناة، التي تعبّر عن نفسها من خلال أعراض خارجية غريبة، من الأمور التي تؤثر في والدي، وتلك كانت حاله مع الآنسة باري.

-33-

بقي لي ستة أشهر قبل أن أبلغ الثامنة عشرة من العمر، وكنت أعلم أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن أستدعى إلى الخدمة. هكذا لم يبقَ لي من الحياة المدنية، في تلك الفترة، سوى مدة وجيزة لم أرد أن أضيعها بعيداً عن المنزل في مدرسة للفتيان مهما يكن رأي والدي في ذلك. وكان سيدني قد قدم روايات مثيرة حول مدرسة نورث هوليوود الثانوية جعلتني راغباً في البقاء في المنزل كي ألتحق بها بدوري.

لم أشعر بتغير الأجواء عمّا كانت عليه في الماضي حتى التحقت بالمدرسة الجديدة. كانت الحرب وانخراط البلاد فيها هي المسؤولة عن تلك الأجواء، ولا سيما حين كان الأمر يتعلق بوالدي. إذ لم تكن جنسيته البريطانية موضوع نقاش بين أصدقائنا في المدرسة من قبل. أما الآن، فقد بدأ البعض في السؤال عن ذلك الأمر بالتحديد.

لكن ماذا كان بمقدورنا أن نجيب؟ كنا مجرد فتيين يتوقعان أن يطلبا لأداء قسطهما من الحرب، وكانت طريقة طرح الأسئلة تجعلنا نشعر بأننا، بسبب عدم كون والدنا مواطناً أمريكيّاً، لسنا، بدورنا، أمريكيين مئة بالمئة. وكنا نجد في أنفسنا ما يكفي من التهور لتصعيد الأمر معه عند زيارتنا له في المنزل. وكانت تلك المسألة موضوع الجدال الوحيد. أما والدي، فكان يقدم دفوعه المعهودة التي لم تكن تصمد عندما ننقلها إلى أصدقائنا الملحاحين.

«أعتبر نفسي مواطناً عالميّاً. إن ولادتي في لندن هي مجرد صدفة. فقد كان يمكن أن أولد في بورما أو في الصين أو في تومبوكتو، ولم يكن لذلك أن يغير شيئاً. لقد احتفظت بجنسيتي لأن كون حصولي عليها كان مجرد صدفة جعلها لا تعني لي الكثير. لكنني ألتزم بالقواعد والقوانين السائدة في أيّ بلد أعيش فيه».

كانت تلك من قناعات والدي الجوهرية. لكنني أدركت، فيما بعد، أن رفضه الحصول على الجنسية كان مدفوعاً بما يتجاوز مجرد القناعات. فقد كان ردّه على الأصدقاء المقربين الذين يلحون عليه في الحصول على الجنسية الأمريكية مختلفاً. كان يطرح السؤال التالي: «إن كنت، كأمريكي، تعيش في لندن وتكسب قوت يومك فيها، هل كنت لتتخلى عن جنسيتك الأمريكية حتى لو عشت هناك لسنوات؟». وعندما يلتزم أصدقاؤه الصمت كان يجيب: «حسناً. هذا هو شعوري حيال إنكلترا».

وكان لدى والدي سبب آخر لعدم حصوله على الجنسية الأمريكية. فقد أسرّ لأحد أصدقائه أن خضوعه للامتحان يشعره بالذعر بسبب ذاكرته السيئة فيما يتعلق بالأرقام والتواريخ. كان يعلم أن إخفاقه في الامتحان سيصبح حدثاً تتناوله الصحف وكان مجرد تفكيره في ذلك كفيلاً بجعل فرائصه ترتعد.

صرت، وسيدني، وقد أصبحنا أكبر سنّاً، قادرين على الانقضاض عليه في المنزل متى شئنا. أو بالأحرى كان ذلك شأن سيدني. أما أنا، فكنت لا أزال أهاب أبي كما كنت من قبل فكنت أتحفظ في إزعاجه بزياراتي عندما يكون منهمكاً في العمل. فكنت أتصل به هاتفيّاً أولاً وأستأذنه المجيء. أما الخدم الإنكليز، الذين لم يكونوا معتادين على خصوصيات شخصيتي، فكانت المفاجأة، في كل مرة، تأخذهم على حين غرة.

كان هنالك شيء غريب في العلاقة التي تربطني بوالدي. لقد أحببته وأردت على الدوام أن أكون قريباً منه، لكن ما إن أكون معه وحدي حتى يراودني ذلك الإحساس، الذي رافقني منذ طفولتي، بأنه عليَّ الاهتمام بشؤوني. بيدَ أن شعوراً آخر بدأ يساورني وهو أن والدي كان يدرسني بعناية كما لو أنه يحاول استكشاف ما يدور في داخلي. بدا أن عينيه تتساءلان عن أسباب كل تلك الرهبة وذلك الالتزام بالشكليات المضجرة.

لكنني علمت، ذات يوم، أن أمراً آخر يقف خلف ما كان يبدو تقويماً غريباً. فقد قال، على حين غرة، بنبرة استغراب: «هل تعلم أنني أستطيع أن أرى الكثير مني فيك؟ يا إلهي. أنت تشبهني تماماً في حركاتك... في كل شيء». عليَّ الإقرار أنني ورثت الكثير منه، بل قل ما استطعت التقاطه من تلك العلاقة الوثيقة والطويلة التي جمعتنا منذ طفولتي عندما كنت ألاحقه في كل مكان دون أن ألوي على شيء خلاف أن أكون مثله. أما الآن، فقد كانت كلماته إثباتاً أن الحلم قد تحقق. شعرت، في تلك اللحظة، بأن كلامه كان أعظم ثناء تلقيته في حياتي.

بيدَ أن والدي كان مشغولاً، في شتاء عام 1943 وخريفه، بما هو أكثر أهمية من دراسة أبنائه. فقد كانت جديلتا خيوط متباينتا اللون تنسجان حياته، الأولى مشرقة والثانية داكنة. الجديلة الداكنة كانت الآنسة باري التي التقيت بها من قبل في فصل الصيف والتي لم أرها بعد ذلك عندما صارت زائراً مزعجاً لمنزلنا في شهر كانون الأول الذي فات. أما الجديلة المشرقة فكنت على وشك اللقاء بها.

أونا أونيل! يرن اسمها في مسامعك كنسمة ربيع- اسم سماوي محبّب كحاملته تماماً. وأونا هي ابنة الكاتب المسرحي الشهير يوجين أونيل وهي تعادلني في السنّ تماماً حتى على مستوى الشهر-

ولدنا، كلانا، في شهر أيار. وكانت أونا قد حازت، في فصل الربيع الماضي، على جائزة المبتدئة الأولى في نادي ستورك كلوب النيويوركي، كما اجتازت بنجاح امتحانات القبول في كلية فاسار للفنون لكنها استنكفت عن الالتحاق بالكلية بسبب اهتمامها بالتمثيل. هكذا وصلت أونا إلى هوليوود حيث تقيم والدتها وزوج والدتها والتقت بوالدي في أحد أيام شهر تشرين الثاني.

في ذلك الوقت، أقامت مينا واليس، وهي من صديقات تيم ديورانت المقربين، حفل عشاء صغير في منزلها دعت إليه والدي وتيم. وقد ارتأت أنه من المناسب دعوة أونا لأن والد تيم ديورانت كان من أصدقاء يوجين أونيل المقربين. بل إن تيم ديورانت، نفسه، كان معجباً بذلك الكاتب المسرحي وكان مهتمّاً بلقاء ابنته، كما أن يوجين كان قد أعرب من قبل عن تقديره البالغ لوالدي وأعماله، وكان والدي، بالمقابل، معجباً بيوجين أونيل وأعماله التراجيدية. هكذا اجتمع والدي وأونا وكانت تلك هي البداية.

رأيت أونا للمرة الأولى في إحدى أمسيات يوم الأحد المفتوحة، وقد جاءت برفقة تيم ديورانت وصغرى بناته مارجوري للعب التنس. لم أربط، كما لم يربط سيدني، اسم أونا بذلك الكاتب المسرحي العظيم. بل اقتصر ما رأيناه فيها على كونها فتاة جميلة تختلف تمام الاختلاف عن فاتنات هوليوود. كانت تتصرف على سجيتها- هادئة، تضحك بسرعة لكن دون تباهٍ وتتمتع بنوعية من الفتنة كانت كفيلة باجتذابنا إليها بشدة. كانت جذابة بطريقة غير مألوفة- قامتها الهيفاء الطويلة، أسلوب تصفيف شعرها الأسود، النظرة الحالمة في عينيها القاتمتين التي سرعان ما تتلألأ في ضحكة داخلية. كانت فتاة خجولة، بيدَ أنه كان فيها أمر رصين وعذوبة أصيلة سحرتني على الفور كما سحرت سيدني وظننا أنه سيكون أمراً لطيفاً أن نتعرف إليها أكثر.

لم تكن أونا تلعب التنس، أو أنها على الأقل لم تكن بارعة في هذه الرياضة. لم أكن من جهتي ألعب التنس على الإطلاق. أما سيدني، الذي يجيد اللعب، فكان مهتمّاً بأونا أكثر من اهتمامه بالتنس. كانت لطيفة، لكن خجولة. فعندما كنا نمازحها، كانت تردّ بمزحة لطيفة بطريقة مرتبكة كالأطفال. لكن ما إن يسيطر علينا الانطباع بأنها ساذجة، حتى تفاجئنا بملاحظة تجعلنا ندرك على الفور، وبطريقة محزنة، مقدار ذكائها، بل عمقها ونضجها بالنسبة إلينا في العديد من النواحي.

انخرطت، وسيدني، في الأسابيع الأولى، في منافسة ودّية صامتة تدور حول من سيفوز بالموعد الأول مع أونا. وبعد بضعة أسابيع، سجلنا ملاحظاتنا.

قال لي سيدني ممازحاً: «أنت ترغب فيها. أستطيع أن أرى ذلك» فرددت عليه: «وأنت كذلك يا

سيدني». لكن سيدني أجابني: «لن ينفعنا ذلك في شيء يا تشاك لأن أونا تسعى خلف والدك. ربما علينا أن نتنحى جانباً».

كان سيدني محقّاً وكان واضحاً أنه لا فائدة نجنيها من التهرب من الحقيقة. فقد كان الحبور يرتسم على وجه أونا كلّما اجتمعت بوالدي. كانت تجلس بهدوء وتنصت إلى كل ما يقوله. كثيرات هنّ النساء اللواتي يقعن في سحر أبي. لكن الأمر، في حالة أونا، كان مختلفاً. لقد كانت تعبده، بحق، وتتشرب كل كلمة ينطق بها، سواء تناولت آخر نصوصه أم الطقس أم قضية فلسفية. لم تكن تتكلم إلَّا نادراً، لكن عندما تفعل فلإبداء ملاحظة عميقة كفيلة بإبهار والدي نفسه. كان يقول مثلاً: «يا لها من فتاة لطيفة» دون أن يضيف شيئاً، بيدَ أنه كان واضحاً أنه لم تكن ثمة من حاجة به إلى قول المزيد. فقد كانت تعبيرات وجهه تشي بإعجابه بها بالقدر نفسه الذي كانت هي معجبة به.

وخلال الأشهر التالية أصبحت أونا ووالدتها من زوار والدي الدائمين حيث كان يقدم لها، في المنزل، دروساً في الدراما تساعدها على تحقيق حلمها في أن تكون ممثلة، وهو حلم لم تكن أونا تلقى أيّ تشجيع لتحقيقه من والدها، الذي كان يعيش، في ذلك الحين بالقرب من سان فرنسيسكو. وتشير كل الروايات إلى أنه كان قد نأى بنفسه عنها، كليّاً تقريباً، بسبب اهتمامها بالتمثيل على الرغم من أنه لم يستطع، حتى قبل ذلك، أن يتقرب منها كثيراً بسبب افتراقه عن والدتها عندما لم يكن عمرها يزيد عن سنتين.

بيدَ أن ما كان يجمع والدي بأونا كان أكبر من مجرد علاقة تلميذ بأستاذه. فقد بدأ يخرج معها علناً وأخذت الصحافة تتكهن عما إذا كان في طريقه إلى الزيجة الرابعة.

ثم بدأت الأمور تسوء. ففي الأيام الأولى من شهر حزيران، أطلقت جوان باري تصريحاً للصحافة مفاده أنها تنتظر مولوداً من والدي. فردّ عليها أبي ببيان مضاد قال فيه إنه ليس مسؤولاً بأيّ شكل من الأشكال عن حمل الآنسة باري التي كانت قد وجهت له هذه التهمة، للمرة الأولى، في شهر أيار مرفقة إياها بطلب تسوية مالية رفض بحثه على الفور.

أخبرني تيم ديورانت، الذي كان وسيطاً في القضية، أن عرض التسوية كان صادقاً وأن المحامي الذي حمل بنود هذه التسوية إليه كان محامياً معروفاً ونزيهاً. وقد ناشد تيم، الذي استطاع أن يرى، منذ البداية، عواقب خروج هذه القضية إلى العلن، والدي بقبول التسوية قائلاً: «حتى لو فزت، فأنت خاسر. أنت شخصية معروفة، ولذلك فإن القصة ستنتشر كالنار في الهشيم. كما أن الأمر لا يتعلق بك وحدك- فهنالك واجبات مترتبة عليك حيال ابنيك، ناهيك عن كل شيء آخر. لا تدع نفسك

تغرق في هذه المسألة».

لكن والدي لم يرضَ بتقديم أيّ تنازل، بل قال: «لا. الحق يقف بجانبي. فإن قبلت التسوية الآن، فإنهم سيعودون من جديد طلباً للمزيد. وسوف أمضي حياتي طريد هذه القضية. أنا لست والد هذا الطفل. ولو أن دمائي كانت تسري في عروقه لكنت تحملت مسؤوليته وأنت أدرى بذلك».

أنا واثق بأن والدي كان صادقاً في ما قاله لأن صلات الدم كانت تعني له الكثير. كما أنني لا أظن أن المال كان السبب الرئيس لرفضه عرض التسوية. أعلم أنه يتمتع بسمعة الرجل البخيل، لكنه، حتى على هذا الصعيد، لا بُدَّ من أن يكون قد أدرك أن نفقات المعركة القضائية إن وصل الأمر إلى المحاكم يفوق أية تسوية يتمّ التوصل إليها خارج المحكمة. كان ساخطاً لأنه كان، ببساطة شديدة، بريئاً. كان سلوكه جزءاً من خصلة النزاهة المستعصية التي يتمتع بها والتي تعتبر من سماته التي تثير الحنق وتدعو إلى الإعجاب في الوقت نفسه.

حصل، إثر الاتهامات التي أطلقتها جوان باري، ما توقعه تيم ديورانت بحذافيره. أصبحت القصة موضوعاً تتسلى به الصحافة. وشاعت قصة زيارة جوان باري لوالدي في الثالث والعشرين من كانون الأول مع مسدسها. وعلمت من الصحف بعمل الإحسان الطائش التالي الذي أبداه تجاهها. فقد كانت الشرطة قد ألقت القبض على جوان باري، في كانون الثاني الماضي، وهي تتجول في جادة الأولمبيك بخف وثوب سباحة رجالي، بتهمة التشرد وتمّ إيداعها السجن.

(بعد عشر سنوات من ذلك، أي في عام 1953، ألقي القبض على الآنسة باري تتجول حافية القدمين وبحالة ذهول في بلدة تورانس الكاليفورنية. فتمّ، هذه المرة، إخضاعها للمراقبة في القسم النفسي في مستشفى هاربور جنرال قبل أن يتمّ إطلاق سراحها. وبعد بضع ساعات، تمّ العثور عليها وهي تتجول في المكان نفسه تقريباً فأعيدت إلى المستشفى حيث فحصها الطبيب النفسي ف. ج. ميلر وشخص حالتها على أنها فصام مع أعراض اضطراب هذياني واضحة. ويعتبر أبرز أعراض هذا المرض النفسي الخطير أن المريض يعيش في عالم من الأوهام يخيل إليه أنه واقعي تماماً. وقد أدركت الآنسة باري حاجتها إلى العلاج ووقعت والدتها وثائق تلزمها بذلك فعهد بها قاضي المحكمة العليا ويليام هاوتون إلى مصحة الولاية النفسية الواقعة في باتون).

لكن حقيقة أن الآنسة باري كانت، على وجه الاحتمال، تعاني من أعراض فصام أولية عندما تمّ توقيفها للمرة الأولى عام 1943 لم تدر بخلد شرطة بيفرلي هيلز، بل كان الأمر، بالنسبة إليهم، مجرد عمل شرطي روتيني حيث قام القاضي تشارلز غريفين من محكمة بيفرلي هيلز بوقف

إجراءات القضية شرط مغادرتها البلدة بشكل نهائي.

وأثناء وجودها في السجن، سمح للآنسة باري بإجراء مكالمة هاتفية واحدة، فاتصلت بروبرت أردن، وهو معلق إذاعي كان صديقاً لوالدي، الذي اتصل بوالدي على الفور. وبوساطة من السيد أردن، عرض والدي دفع ديون الآنسة باري وتقديم تذكرة سفر بالقطار إلى مسقط رأسها في الساحل الشرقي. قبلت الآنسة باري العرض ورافقها إلى محطة القطار نقيب الشرطة دبليو دبليو وايت.

لكن عرض والدي السخي هذا كلفه غالياً. فقد تمّت مقاضاته، مع ستة آخرين- تيم ديورانت وروبرت أردن والملازم كلود ماربل التي سجنت الآنسة باري والقاضي غريفين والنقيب وايت والآنسة جيسي بيلي رينو التي تعمل في الشرطة بدوام جزئي- بتهمة انتهاك حقوق الآنسة باري المدنية عبر الحكم عليها بـ«التشرد»، وهي تهمة تصل عقوبتها إلى سنتي سجن أو غرامة مقدارها عشرة آلاف دولار أو العقوبتان معاً.

فقد قطعت الآنسة باري نصف الطريق عبر البلاد قبل أن تستدير، في أوماها، وتعود إلى بيفرلي هيلز حيث اقتحمت منزل والدي من جديد. طلب والدي الشرطة، في حركة يائسة، فتمّ القبض على الآنسة باري وأودعت السجن مرة أخرى وتلقت، هذه المرة، حكماً بالسجن تسعين يوماً. لكن والدي، الذي لم يطق يوماً فكرة السجن، تدخل، مرة أخرى، عبر إرسال محامٍ هو سيسيل هولاند، الذي أصبح، فيما بعد، قاضياً، للتوكل عنها. كانت الآنسة باري، في ذلك الوقت، قد أمضت في السجن خمسة أيام أبلغت خلالها عن حملها لكنها لم تكن قد ألقت باللائمة على والدي، بعد.

وحالما تناهى إلى مسامع السيد هولاند أن الآنسة باري تتهم والدي، انسحب من تمثيلها على الرغم من أنه حصل لها على إطلاق سراحها من السجن من أجل الاستشفاء. وكان ذلك هو الوقت الذي تولى فيه جون إيروين مهمة تمثيل الآنسة باري في دعوى إثبات النسب التي رفعتها ضد أبي.

تلك كانت الأحداث التي رسمت، في أواخر شهر أيار وبداية فصل الصيف، الخلفية المضطربة لمسيرة شابلن الناجحة. دبّ الارتباك في كل شيء وتناثرت التحقيقات ذات اليمين وذات الشمال، حتى إن أونا تعرضت للاستجواب على الرغم من أنها كانت قادرة على القول إنها لا تعلم شيئاً عن الآنسة باري، بل إنها لم تكن، هي نفسها، ووالدتها، سوى مجرد صديقين لوالدي. أما سيدني وأنا، فكنا ابنيه وكان طبيعيّاً، كما توقع تيم ديورانت، أن نكون في قلب العاصفة. وذات يوم، استدعينا إلى مكتب مدعي المقاطعة للاستجواب.

مثلت جلسة الاستجواب تلك صدمة لكلينا. لقد أحببنا والدنا. لم يكن الأمر متعلقاً بكونه طبيباً تجاهنا، بل لأنه، ببساطة شديدة، يبقى والدنا مهما كان ما فعله. يصعب شرح الأمر، لكننا كنا نشعر حياله بإخلاص قوي لا لبس فيه، وكنا مستعدين للقيام بكل ما يلزم، حتى ولو كان مصيرنا السجن. لكننا لم نكن مضطرين إلى ذلك لأنه لم يخرج يوماً عن سواء السبيل. لقد عشنا في منزله أياماً لا تحصى خلال عطلات نهاية الأسبوع لم نشهد خلالها أية ممارسات عربدة. بل إني لا أتذكّر يوماً رؤيته يقبل امرأة باستثناء بوليت.

لم يتوقف المحقق في مكتب مدعي المقاطعة عند قصة المسدس. بل كانت تلك القصة نقطة انطلاق نحو أسئلة حميمية محرجة عن والدنا صاغها بطريقة مراوغة كفيلة بجعلنا نفهم مقاصده دون أن يعرب عنها بكلمات صريحة. لم نكن نصدق آذاننا. كان يسألنا أن نشهد على أخلاقيات والدنا!

أحسست بالحنق وسألته: «بأيّ حق تطرح مثل هذه الأسئلة؟ لست مضطرّاً للإجابة عن أية أسئلة تتناول والدي!». لكنني، بالطبع، أجبت عن الأسئلة في نهاية المطاف: «لا. لم أرَ شيئاً. لا ملابس نسائية في خزانته ولا نساء ينمن في المنزل. لا شيء!».

كان سيدني متقداً مثلي وغادرنا مكتب مدعي المقاطعة يرافقنا إحساس بالعار والغضب وبقينا، لبرهة من الزمن، عاجزين عن أن ينظر واحدنا في عيني الآخر.

في ذلك الوقت، جاء محامو الآنسة باري، الذين كانوا قد رفعوا دعوى لصالحها، بصيغة اتفاق إلى محامي والدي. تتميز القوانين في ولاية كاليفورنيا، ولا سيما فيما يتعلق بالطلاق وإثبات النسب، بتحيز متطرف إلى المرأة. (يعتقد بعض المطلعين أن ذلك عائد إلى كون هذه القوانين لم تخضع لأية تعديلات، إلّا بالكاد، منذ عام 1849، عندما تمّ تشريعها بهدف حثّ النساء على المجيء إلى الولاية). إذ يكفي، في كاليفورنيا، أن تتهم امرأة أحد الرجال بأنه والد طفلها لإلزامه بإعالة المرأة والطفل حتى البتّ في قضية إثبات النسب. وبغضّ النظر عن نتيجة القضية، فإنه لا يستطيع استرداد المال الذي أنفقه في مهلة البتّ فيها.

وبسبب الاتهام الرسمي الذي وجهته الآنسة باري لوالدي، فإنه لم يكن أمامه سوى الالتزام بالقانون وتمّ الاتفاق على أن يدفع مئة دولار أسبوعيّاً كنفقة مؤقتة وألفين وخمس مئة دولار تدفع للآنسة باري على الفور من أجل رعايتها، يضاف إليها أربعة آلاف وست مئة دولار تسدد على دفعات لغايات طبية. وفي المقابل، اشترط محامو والدي أن يخضع الطفل للفحص الطبي بعد خمسة أشهر من ولادته لتحديد والده. فإن حكم طبيبان من ثلاثة أن أبي ليس والد الطفل، يتمّ صرف النظر عن

القضية. وحتى جلاء الأمر، لا يمكن أن تحمل شهادة ميلاد الطفل اسم شابلن. وقّع على هذا الاتفاق، الذي أقره القاضي ويليام بيرد، كل من والدي ومحاميه لويد رايت والآنسة باري ووالدتها السيدة غيرترود بيري ومحاميهم وعلى رأسهم جون إيروين.

ومع حلول شهر حزيران لجأ والدي، هرباً من الصحفيين ومحضري المحكمة إلى منزل صديقه يوجين فرينك، المنتج السينمائي المعروف، وزوجته آنا ستين، الواقع في منطقة لايتون درايف في غرب لوس أنجلوس، حيث كانت أونا تزوره، في الخفية، تجنباً للمزيد من الشائعات وتمضي الليل هناك، في بعض الأحيان، بدعوة من آنا ستين. وكان آل فرينك يطعمونه، ويطعمون أونا في بعض الأحيان، على حسابهم حيث اضطر الزوجان إلى إنفاق قسائم التقنين النفيسة على ضيفيهما.

كان منزل آل فرينك، كذلك، المكان الذي راجع والدي وأونا، فيه، خطط زواجهما. وكان الاثنان قد حددا تاريخ الأول من حزيران موعداً للزفاف لأن أونا تكون، في هذا التاريخ، قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها وتنتفي حاجتها إلى الحصول على موافقة ولي أمرها على الزواج، مع العلم أن والدة أونا، التي كانت الأخيرة قد اعترفت لها بحبّها لوالدي، كانت موافقة على الزواج، منذ البداية. لكن كان لدى أونا ما يكفي من الأسباب للاعتقاد أن والدها، الذي كان قد عارض طموحاتها الفنية بشراسة، سيتعامل بالطريقة نفسها مع اقترانها بوالدي الذي كان، في ذلك الوقت، متورطاً في فضيحة علنية كبيرة.

كانت قضية باري، بكل ما تحمله من وعود بالإطالة، قد أفسدت كل شيء. وكانت هناك مدرستان في التفكير حول ما ينبغي القيام به ضمن هذه الظروف. كان تيم ديورانت يرى أنه على والدي إرسال أونا إلى الساحل الشرقي حتى تخمد الفضيحة بحيث لا تجد نفسها متورطة بها. أما أونا، نفسها، فقد عارضت هذا الاقتراح قائلة: «عندما يتعرض الرجل للمشاكل، يجب على المرأة التي تحبّه أن تقف إلى جانبه».

هكذا حدد الاثنان تاريخ زفافهما في السادس عشر من حزيران. وفي الليلة التي سبقت مغادرتهما، ذهبت أونا لمقابلة الزوجين فرينك وقالت لهما: «سأتزوج تشارلي شابلن غداً. فشكراً لكما على كل شيء. أما قسائم التقنين، فستستردانها حال إتمام الزواج». بيدَ أن فرينك يؤكد أن العروس كثيرة النسيان لم تفِ بوعدها. وهو يقول اليوم: «لقد سامحتهما منذ زمن طويل. أما زوجتي آنا، فهي دقيقة للغاية ولا تقبل بالتنازلات! وهي لم تسامح تشارلي شابلن على قسائم التقنين حتى اليوم».

هكذا توجه والدي وأونا بالسيارة إلى سانتا بربارة برفقة كاثرين هنتر، سكرتيرة أبي والكاتب

الصحفي الراحل هاري كروكر حيث وصلوا إلى محكمة سانتا بربارة قبيل التاسعة صباحاً ودخل كل من والدي وأونا بشكل منفرد وكان والدي سعيداً بالكتمان الذي يشبه أسلوبه الكوميدي إلى حدّ بعيد. لكن السعادة التي غمرته تبخرت فور دخوله إلى مكتب الكاتب بالعدل الذي تحول، فيه، إلى مجرد عريس مرتبك آخر فنسي إزالة قبعته وأخذت يده ترتعش عندما حان وقت التوقيع على السجل، حتى إنه لم يستطع إمساك القلم إلّا بصعوبة بالغة.

ربما أدرك والدي، في تلك اللحظة، أنه على وشك التورط في زيجة رابعة بعد ثلاث زيجات انتهت، جميعها، بطريقة كارثية. أما أونا، فكانت، على العكس من ذلك، سعيدة ومفعمة بالحيوية، لأنها كانت قد اتخذت قرارها، منذ البداية، على الرغم من كونها فتاة خجولة وهادئة لا يزيد عمرها عن الثامنة عشرة.

وعندما سأل الكاتب بالعدل أونا عن شهادة ميلادها، بدا والدي الذي كان، في ذلك الوقت، في الرابعة والخمسين، مستنفراً: «يا إلهي، هل كان عليَّ أن أصطحب شهادة ميلادي؟». فكان عليهم أن يشرحوا له أن شهادة الميلاد مطلوبة من أونا وحدها بسبب مظهرها اليافع كوثيقة تثبت كونها في سنّ تسمح لها بالزواج. وحالما كتبت شهادة الزواج، أخذها والدي دون أن ينبس ببنت شفة وغادر تاركاً السيد كروكر كي يدفع الرسوم.

ثم توجه الجميع إلى بلدة كاربنتاريا المجاورة حيث أجريت مراسم الزفاف في منزل القاضي كلينتون بانكوست مور وهو قس ميثودي متقاعد كان في الثامنة والسبعين من العمر في ذلك الحين، وكان، بمحض الصدفة، جاراً سابقاً لوالدي في بيفرلي هيلز. وأثناء المراسم المقتضبة، تشابكت يدا والدي وأونا. ثم قدم هاري كروكر لوالدي خاتم الزواج الذهبي البسيط الذي كان قد اشتراه في اليوم السابق، فوضعه في إصبع أونا وتمّ إعلانهما زوجاً وزوجة ومنحها قبلة سريعة ونال شهادة الزواج من السيد مور. لكن والدي لم يقرأ محتويات الشهادة إلّا بعد خروجه وانتبه إلى اسم تشابمان المكتوب عليها، وهو الاسم نفسه الذي ظهر، قبل سنوات مضت، في البرقية التي استدعت والدي للمرة الأولى إلى عالم الثروة والشهرة في هوليوود. فأقفل والدي عائداً وطلب من السيد مور تعديل الشهادة.

أصيبت الآنسة باري بحالة من الهستيريا عندما تناهت إلى أسماعها أنباء زواج والدي، لكن الأمور كانت قد هدأت عند عودة والدي وأونا من رحلة شهر العسل في سانتا بربارة التي دامت أسبوعين، حيث استطاع والدي إحضار عروسه الجديدة إلى منزله الواقع في أعلى التل بهدوء نسبي. هكذا، عاد المنزل، وقد شغلته امرأة الآن، كي يكون مسكناً أسريّاً من جديد.

أمضيت صيف عام 1943 وأنا أحصي الدقائق كغيري من الفتية الذين يماثلونني في السن. كنت، كأونا، قد بلغت الثامنة عشرة للتوّ وصرت أنتظر أن يربت العم سام على كتفي. كنت قد تخرجت في المدرسة الثانوية بالفعل لكن مجرد التفكير بالالتحاق بالجامعة في مثل هذه الظروف كان ضرباً من السخف. هكذا أمضيت الوقت باصطحاب الفتيات إلى الاستعراضات والحفلات وأكثرت من شرب منقوع الشعير على الرغم من أنني لم أكن أدخن أو أعاقر المشروبات الكحولية بعد.

تلقيت تحية العم سام في السابع من تشرين الأول وودعني سيدني وصديقتي لدى صعودي إلى الترام. وقد أخبرني سيدني أنه بكى بعد مغادرتي. والواقع أنني لم أرَ سيدني يبكي قط باستثناء تلك المرة الوحيدة التي سمعت منه أنه بكى فيها.

وصلت إلى قاعدة فورت ماك أرثر فوجدت زوج أمي، أرثر داي، في استقبالي، حيث إنه كان قد استدعي للخدمة في الشرطة العسكرية. وبعد بضعة أسابيع، نقلت من فورت ماك أرثر إلى قاعدة كامب هان بالقرب من ريفرسايد وكنت هناك واحداً من اثنين من الجنود الأصغر سنّاً. كنت أرغب في إثبات رجولتي هناك، لكن الأمر انتهى بي، بسبب إتقاني اللغة الفرنسية، إلى التطوع في مكتب الخدمات الاستراتيجية على الرغم من أن الجميع نصحوني بعدم الخدمة في هذا المكتب لأن فرص خروجي حيّاً من الخدمة في هذا الفرع معدومة تقريباً، إن قيّض لي النجاة من التدريب فيه أصلاً.

لكن البطل الموجود في داخلي استولى عليّ، فخضت الفحوص اللازمة واجتزتها بنجاح. كنت أظن أنني في طريقي إلى الخوض في غمار حياة الجواسيس، لكن الكولونيل أعادني إلى أرض الواقع لأن وزني البالغ ستين كيلوغراماً لم يكن متناسباً مع طولي وكان عليّ أن أقنع بإطلاق شاربي كي أبدو أكبر سنّاً وبدأت أدخن وأعاقر الجعة لأنني ظننت أن الشرب يجعل مني رجلاً، بالإضافة إلى أنه لم يكن لديّ ما يشغلني. كنت أحسّ بالوحدة والحنين إلى المنزل وقد انفصلت عن سيدني وعن أفراد أسرتي وأنا أتعلم مشقات الحرب.

وفي أحد الأيام، سمعت عزف موسيقى، أثناء مروري أمام غرفة الاستجمام، فهرعت إلى الداخل حيث وجدت شابّاً في الثالثة والعشرين يعزف على البيانو ببراعة. اتجهت نحوه وتجاذبت أطراف الحديث معه ثم تعارفنا. كان اسمه ستان كيافا وهو آتٍ من بلدة تشيكو الصغيرة الوادعة الواقعة في شمال كاليفورنيا. كان، كما أخبرني، الأكبر سنّاً بين سبعة أشقاء وكان، قبل استدعائه إلى الخدمة،

عازفاً في فرقة موسيقية في سان فرنسيسكو.

أصبحت وستان صديقين واصطحبته، في المغادرة الأولى، إلى هوليوود حيث أمضى مع والدي ساعتين بعد الظهر في نقاش حول الموسيقى. ولم تكد الزيارة تنتهي حتى كان والدي قد حصل على كل المعلومات الممكنة عن ستان ووالديه وأشقائه وشقيقاته الستة وأقاربه. كان والدي، الذي لم يعش حياة عائلية حقيقية في صغره، تواقاً إلى التعرف إلى ما يمكن للحياة أن تكون عليه في أسرة كبيرة، وهي معرفة لم يتح له تحصيلها إلَّا فيما بعد.

وعندما حان موعد مغادرتي مع ستان، كان والدي قد بدأ يتعامل معه كصديق قديم بالفعل مطالباً إياه بإحضار والديه كي يتعرف إليهما عندما يأتيان إلى هوليوود. وبعد ذلك صار ستان يرافقني، باستمرار، إلى المنزل الواقع في أعلى التل.

وعلى الرغم من أن والدي كان يحبّ أن يطلق على نفسه لقب كبير دعاة السلام في العالم، إلَّا أنه كان فخوراً بارتدائي الزيّ العسكري، وكان يحثني على أداء واجباتي بجدية بحيث إنني لم أغادر المنزل مرة في طريقي إلى المعسكر دون أن يحيطني بذراعه ويقدم خطاباً تشجيعيّاً. كان يمكن أن يقول على سبيل المثال: «تشارلي. أريدك أن تكون جنديّاً جيداً. حتى لو لم تقم بأيّ شيء آخر، كن جنديّاً جيداً».

لكن فكرة والدي عن الحياة العسكرية كانت، في الكثير من جوانبها، تفتقر إلى الواقعية، تماماً كما صورها في فيلم «سلاح المشاة» المبكر الذي تناول الحرب فيه بطريقة ساخرة. كان يحذرني على الدوام من النوم على الأرض في العراء لأن ذلك، على حدّ قوله، قد يصيبني بذات الرئة، وكأنني أملك الخيار في ذلك. وكان الرعب يصيبه حين نصف له تدريبات التسلل. فقد كان يحسّ بقلق عميق عندما نشرح له كيف نزحف تحت الأسلاك الشائكة تحت وابل من رصاص المدفع الرشاش. لكنه لم يكن، حتى في تلك اللحظات، يستطيع الامتناع عن المزاح. فقد كان يحذرنا على الدوام قائلاً: «انتبها أيها الفتيان. احرصا على عدم رفع ذيليكما!».

وفي خريف هذا العام، عشت حزناً آخر عندما عانت والدتي، التي أصبحت وحيدة، بعد التحاق زوجها اللطيف أرثر داي بالجيش، من انهيار عصبي آخر، كان السبب الرئيس لانفصالها عن أرثر عام 1948. ومرة أخرى صارت والدتي نحيلة وتائهة بصورة تدعو للشفقة. كانت مشاعر اليأس تملؤها في بعض الأحيان وتدفعها إلى التفكير بالانتحار. لكن خوفها القديم من والدي كان قد أصبح، بالفعل، من الماضي. ففي أحد الأيام، اتصلت بوالدي، وكان مزاجها سوداويّاً للغاية،

ورجته أن يقابلها للتباحث في مستقبلي ومستقبل سيدني بسبب شعورها أنها على وشك أن تموت.

كان قد مضى خمس سنوات مذ رآها والدي للمرة الأخيرة- كان الاثنان يقفان، حينها، بجوار سريري في المستشفى عندما أجريت عملاً جراحياً لإزالة الزائدة- لكنه انطلق لرؤيتها في الحال واصطحبها في نزهة طويلة بالسيارة وقدم لها النصح وحاول تهدئة روعها. وقد أخبرني والدي بكل ما جرى، خلال عطلة نهاية الأسبوع تلك أثناء زيارتي له برفقة ستان: «رأيت والدتك منذ بضعة أيام. إنها مريضة للغاية». تذكرت، فجأة، أنه استخدم الكلمات نفسها تقريباً ذات مرة عندما كنت طفلاً في مسعى منه، على ما يبدو، لمساعدتي على فهم حالتها. «لقد تكلمت بصورة دراماتيكية للغاية وأفصحت عن نزعات انتحارية. حاولت جعلها تدرك أنه مهما تكن الأمور مظلمة، فإنها ستمضي في نهاية الأمر». ثم توقف والدي عن الكلام واكتسى وجهه بتعبير رجاء وبدا وكأن ذاكرته عادت به إلى أيام خلت لم أكن، أنا ابنه، جزءاً منها. وفجأة، أضاف برقة: «لقد اعتقدت على الدوام أن أمك كانت أجمل الفتيات اللواتي عرفتهن في حياتي».

وفي وقت لاحق، حدثتني والدتي، بدورها، عن لقائها الأخير بوالدي. كانت إحدى ملاحظاته قد علقت في ذاكرتها وربما ساعدتها على التخلص من معظم الحزن الذي رافق زواجها الأول التعس. قالت لي إنها أخبرته بمقدار أسفها للكيفية التي بدأت الأمور بينهما ولطريقة انتهائها، فالتفت إليها والدي ورنا إليها برهة طويلة وقال: «إن كان ذلك كفيلاً بجعلك تشعرين بطريقة أفضل يا ليتا، فأودّ أن تعلمي أنني لم أحبّ بحق سوى امرأتين- أنت والفتاة التي هي زوجتي الآن».

نعم. لقد أحبّ والدي أونا بحق وهو أمر لاحظه كل من رآهما سوية. كانت مختلفة عن زوجاته الثلاث السابقات. فعندما تزوجته، تخلّت عن كل طموحاتها في مجال التمثيل على الرغم من أن نجاحها في ذلك المجال كان مضموناً. فقد كان يوجين فرينك، الذي كانت مرتبطة معه بعقد، راغباً في جعلها تلعب دوراً هامّاً في فيلم «فتاة من لينينغراد». وقد أحسّ والدي بأنه لا بُدَّ لأونا من أن تنال فرصتها بسبب مزاياها الاستثنائية أمام الكاميرا، لكنه سرّ عندما طلبت أونا من فرينك أن يحلّها من التزاماتها. كانت قد جاءت إلى هوليوود كي تصنع لنفسها حياة مهنية، أما الآن، وقد تزوجت والدي، فقد صارت لديها مهنة أخرى تكفيها. لم أسمع في صوتها أية نبرة أسف على أن زواجها كان مسؤولاً عن قطع آخر أواصر الصلة بوالدها. وقد سألت والدي، ذات يوم، عما إذا كان يوجين أونيل قد تواصل معه فأجابني باقتضاب: «آه، نحن لا نتكلم مع بعضنا» وهذا كل شيء. لم أسمعه يوماً يناقش قضية يوجين أونيل، كما لم أسمع أونا تقوم بذلك على الرغم من أن والدي كان يتكلم عن أعماله، في بعض الأحيان، بإعجاب. إذ إنه، بصفته فناناً، لم يكن ليسمح لأية

ضغائن أو نفور أن تقف في وجه حسن تقديره للعمل الفني. وأظن أن ذلك كان كل ما يطلبه من أيّ إنسان.

تمتعت أونا، منذ الأيام الأولى، بلمسة سحرية في كل ما يخص أبي! فالأحذية ذات الزر المرتفع، التي كانت بوليت قد كافحت لسنوات من أجل إقناعه بالتخلص منها، اختفت تماماً في اللحظة التي بدأ والدي، فيها، بمواعدة أونا، ولم أرها منذ ذلك الحين.

وكان هناك الكثير من التغييرات كذلك، تغييرات دقيقة يصعب وصفها، لكنها كانت كافية كي تؤكد لي، أنا الذي راقبت والدي بعناية على مدى سنوات، مقدار السعادة التي عاشها للمرة الأولى في حياته وجعلته، أخيراً يطمئن إلى حبّ المرأة، وهو أمر عبّر عنه، ذات يوم، لتيم ديورانت في بيت التنس. فقد قال بنبرة فيها مسحة من المرارة: «فقط لو أنني عرفت أونا أو أية فتاة مثلها منذ زمن طويل، لما عانيت من أية مشاكل مع النساء. لقد أمضيت حياتي في انتظارها دون أن أدرك ذلك حتى التقيتها».

كان فصل الخريف ذاك فترة من الهدوء النسبي عاشتها عائلة شابلن. كانت دعوى إثبات النسب التي رفعتها جوان باري ضد أبي قد علقت، ولم يثر إنجاب الآنسة باري، في شهر تشرين الأول، طفلة أنثى أطلقت عليها اسم كارول آن، ضجة كبيرة. لكن الأنواء كانت تتراكم من جهة أخرى. ففي وقت ما بين الصيف والخريف، تقدم أصدقاء للآنسة باري بشكويين خطيرتين ضد والدي في مكتب المدعي العام الفيدرالي. كان مفاد الشكوى الأولى أن والدي خطط لحرمانها من حقوقها المدنية عندما اشترى لها تذكرة سفر إلى الشرق على أثر توقيفها بتهمة التشرد. أما الشكوى الثانية فكانت أنه انتهك قانون مان المتعلق بتجارة الرقيق الأبيض بنقله إياها عبر الولايات لغايات غير أخلاقية لأنه سدد لها أجور سفرها المزعوم إلى نيويورك وعودتها منها حيث إنها كانت قد استخدمت ماله للعودة إلى هوليوود.

ومرة أخرى، وبأوامر من واشنطن، قام مكتب التحقيقات الفيدرالي بواجبه الروتيني في التحقيق بالقضية والحصول على الأدلة. ومع حلول شهر كانون الثاني، كانت دزينة من الشهود، كانت الآنسة باري جزءاً منهم، قد تمّ استدعاؤها للشهادة أمام لجنة المحلفين الفيدرالية الكبرى. وطيلة تلك الفترة التي امتدت إلى شهر نيسان، تحولت حياة والدي الخاصة إلى مادة للعناوين الرئيسة للصحف حول العالم، كما كان عليه الأمر تماماً أثناء طلاقه من والدتي. بل إن الجنود على جبهات القتال استطاعوا الاطلاع على مجريات القضية من خلال الصحف العسكرية.

وفي الحادي عشر من شباط، وجه الاتهام بصورة رسمية إلى والدي وستة آخرين من المتورطين بالمؤامرة المزعومة لتجريد الآنسة باري من حقوقها المدنية. وباستثناء قاضي الشرطة تشارلز غريفين والنقيب دبليو دبليو وايت، اللذين أطلق سراحهما بكفالتهما الشخصية، فرضت على المتهمين الآخرين كفالة مالية قدرها ألف دولار لكل منهم. كما وجهت لوالدي، بصورة منفصلة، تهمة انتهاك قانون مان. ولو أنه أدين بكل التهم التي وجهت إليه، لكان يمكن أن يتلقى حكماً بالسجن عشرين عاماً على الأقل وغرامة مالية مقدارها ستة وعشرون ألف دولار.

فلا غرابة، إذن، أن يبدو شاحباً ومتوتراً في الخامس عشر من شباط لدى وصوله إلى المبنى الفيدرالي برفقة جيري جيزلر، المحامي المعروف من لوس أنجلوس الذي ترافع عنه في القضية. كانت الموظفات في المبنى يخرجن رؤوسهن من الأبواب لمشاهدة والدي، على امتداد طريقه إلى الطابق الخامس. وفي مكتب مارشال الولايات المتحدة، كانت عدسات التصوير في الانتظار كالمعتاد، حيث أخذت الفلاشات تومض ومغاليق العدسات تطقطق بينما كانت أنامل والدي تضغط على لوحة الحبر ثم على إحدى البطاقات. وعند انتهاء الإجراءات، مشى والدي نحو المغسلة وغسل يديه تحت العيون الفاحصة لحشد من الموظفين الفيدراليين الذين تجمعوا لمشاهدة العرض.

وعند وصوله إلى الديوان للتوقيع على بطاقة التوقيف، حاول غمس ريشة القلم في دواة الحبر المغلقة عدة مرات إلى أن انتبه إلى خطئه وابتسم على حين غرة في اعتراف، هو الوحيد، بالكوميديا الكامنة التي تكتنف الموقف. وقد احتفظ لنفسه بمشهد أخذ بصمات الأصابع واستخدمه بالتفصيل الممل، كما سمعت، في فيلم «الملك في نيويورك».

أما المحاكمة، نفسها، فلم تبدأ إلّا في نهاية شهر آذار واستغرقت عشرة أيام واتخذ فيها محامي الولايات المتحدة تشارلز كار صفة الادعاء العام وجلس القاضي الفيدرالي ج. ف. ت. أوكونور على المنصة. كانت شهادة الآنسة باري صادمة، أحياناً، إلى حدّ كان وجه والدي يمتقع من شدة الإحراج. فقد وصفت بدقة وبأسلوب تصويري مشهد غرفة النوم الذي زعمت أنه جرى في غرفة فندق نيويوركي أثناء وجود والدي في الساحل الشرقي لإلقاء خطابه. وتضمنت الشهادة تفصيلات حميمية وتخيلية في وصفها للمشهد الذي دار في منزلنا عندما واجهت والدي وفي يدها مسدس.

وعندما اعتلى والدي منصة الشهود، أنكر بشدة المشهدين اللذين وصفتهما وقدم الرواية الكاملة لعلاقته بالآنسة باري مقرّاً، بصراحة، أنه تورط عاطفيّاً معها في إحدى المرات مؤكداً أن كل ذلك انتهى عند تخليه عن فيلم «الظل والجوهر» ورحيلها من هوليوود.

وعندما وصل في روايته لحادثة المسدس إلى لحظة وصولي، وسيدني، إلى المنزل، تهدج صوته وهو يصف كيف تكلم معنا، في حين كانت الآنسة باري تقف في الممر المقنطر وبيدها مسدس. اعتبر بعض الصحفيين أداءه في تلك اللحظة مبهراً في حين إنني أعرف، أنا ابنه، كم كانت انفعالاته صادقة. لقد كنت، وسيدني، وحدنا من أدرك مقدار الإحراج الذي كان يساوره أثناء عودته للعب دور الأب الصالح.

وباستثناء مشهدي غرفة النوم الصادمين اللذين قدمتهما الآنسة باري، اللتين أقسم والدي من منصة الشهود على عدم حصولهما، فإن روايتها للأحداث تطابقت مع رواية والدي. أما السيد جيزلر، فقد أثار ببراعة السؤال عمن يطارد من في هذه القصة الرومانسية.

كما علق أشخاص آخرون في شراك هذه القصة، إذ تمّ استدعاء صحفي ومليونير من ملوك النفط إلى منصة الشهود. وقد أقرّ الكاتب بخروجه مع الآنسة باري وبأنها زارته مرات عدة في شقته. (شهدت مالكة الشقة، أثناء البحث، لاحقاً، في دعوى إثبات النسب، أن الآنسة باري أسرّت لها أنها تعتبره عبقريّاً وأنها تعيش قصة حبّ معه). كما قال المليونير، بدوره، إنه رأى الآنسة باري مراراً في لوس أنجلوس وفي مدينة تولسا في ولاية أوكلاهوما التي زارتها في شهر تشرين الأول 1942 فور عودتها من نيويورك إلى هوليوود مستعينة بدولارات والدي الثلاث مئة. (كما زارت تولسا في بداية شهر كانون الثاني 1943). وقد أثبت وجود شيكات ملغاة أن عدداً من فواتيرها الهائلة قد سددتها شركة قانونية في تولسا ضمت لائحة زبائنها اسم ذلك المليونير. (وفي محاكمة لاحقة، شهدت الآنسة باري أن المليونير اهتم بفاتورتها المستحقة لفندق مايو في تولسا أثناء وجودها في المدينة).

كما وصفت إحدى الشهادات جولة غريبة قامت بها الآنسة باري في ليل الثلاثين من كانون الأول والساعات الأولى من صبيحة الحادي والثلاثين منه عمل الشاهد سائقاً خلال جزء منها. بدأت الجولة في الثامنة مساء عندما توجهت الآنسة باري إلى مطعم بلايرز برفقة الكاتب حيث شاهدت والدي هناك وتمّ التعارف بين الرجلين. ثم غادرت المطعم مع الكاتب، لكنهما انفصلا في الخارج حيث توجهت الآنسة باري إلى شقة الكاتب، الذي انضم إليها بعد ذلك بفترة وجيزة. بيدَ أن مرافقها غادر على الفور تقريباً، فقادها سائقها المتطوع في جولة حول المدينة دامت فترة طويلة من الليل في محاولة منه للعثور عليه من أجلها. وعندما نامت الآنسة باري في السيارة، عاد السائق إلى شقته وتركها في الخارج ودخل للحصول على قسط من النوم. ثم خرج بعد ساعة كي يجد الآنسة باري ممددة على الرصيف، فساعدها على النهوض واكتشف أنها مشوشة الذهن. إذ كان كلامها

غير مترابط وجواربها ممزقة ويوجد خدش على جبهتها. طلبت منه أن يقودها إلى منزل والدي، ففعل ذلك وتركها هناك. وبحسب رواية الآنسة باري، أخذها والدي إلى قسم شرطة بيفرلي هيلز وهو أمر كان مفهوماً بالنسبة إليَّ لأن حادثة المسدس جعلته يتخذ جانب الحذر منها، فكان عليه أن يطلب حماية القانون. لكنه لم يقدم شكوى ضدها، بل كانت الآنسة باري هي التي ورطت نفسها.

وقال الملازم كلود ماربل، الذي كان مناوباً في القسم، إن الآنسة باري بدت في حالة هستيرية وكانت تشرب على الرغم من أنها لم تكن ثملة ولم يلاحظ في مظهرها ما يسترعي الانتباه. إذ كانت قد لفت جسدها بمعطف من فرو الثعلب الفضي. كانت الساعة الواحدة والنصف صباحاً حين قادها الملازم ماربل إلى شقة الكاتب بناء على طلبها وتركها هناك. وقد شهد الكاتب، نفسه، أن شعرها كان أشعث وملابسها مغبرة وكأنها كانت ممددة فوق التراب. كما كان هنالك جرح في رأسها وكانت جواربها ممزقة وركبتاها مغطاتين بالدم وأحد كعبي حذائها مفقوداً. وقد أثار استخدامه عبارة «كانت في إحدى حالاتها»، التي تدل أنه كان قد رآها على هذه الحال من قبل، موجة من الضحك في قاعة المحكمة.

وفي صبيحة الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول، طلت الآنسة باري شفتيها، في شقته، باليود كي تحاكي الانتحار فنقلت إلى المستشفى لتلقي العلاج. ولم تمضِ سوى فترة قصيرة، حتى عثرت عليها الشرطة هائمة على وجهها في جادة أوليمبيك فأودعت سجن بيفرلي هيلز بتهمة التشرد حيث تلقت هناك مساعدة والدي المالية المشؤومة.

لا أخوض في هذه التفاصيل لمجرد نبش هذا الماضي التعيس، بل لإظهار الاضطراب العاطفي العميق الذي كانت تعاني منه هذه الفتاة المريضة التي كان مصير والدي رهن سلوكها، ولإعطاء فكرة عن جوّ الإثارة الذي كان يلفّ عائلة شابلن في تلك الفترة المبكرة من حياتنا حيث كانت الأنوار، في تلك المرحلة، مسلطة على كل خطوة نخطوها.

أصبحت أجواء التوتر تهيمن على المنزل. فعندما كنت أزور المنزل مع ستان، كنت كثيراً ما أجد جيري جيزلر جالساً على واحد من كراسي القصب الموجودة في غرفة الدراسة. كان يبدو هادئاً على العكس من والدي الذي يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، كما يفعل عادة عندما يكون مضطرباً، ويستعجل جيزلر ويشد معطفه سائلاً إياه عن نقطة ما، فيجيبه جيزلر بتمهل وبنبرة مطمئنة: «آه. لا تقلق من هذه الناحية يا تشارلي. فقط دعني أعمل وسوف يكون كل شيء على ما يرام». ثم ينهض جيزلر ويخطو بضع خطوات مسترخية في حين يجلس والدي على الكرسي محاولاً استرجاع هدوئه. لكن نظرته كانت تشي، على الدوام، أنه على شفير الانفجار. لم يكن والدي قلقاً

على نفسه فحسب، بل عليَّ وعلى سيدني اللذين كانت الأضواء مسلطة علينا، كذلك، بصفتنا نجليه. وعندما تحين ساعة مغادرتي مع ستان، كان أبي يقترب منا ويضع يده على كتف ستان بقلق راجياً إياه: «حاول قدر استطاعتك إبعاد الصحف عن تشارلي. لا تدعه يفلت منك ولو خطوة واحدة كي لا يمزقوه إرباً». وقد نفذ ستان المهمة الموكلة إليه بجدية مؤدياً دور راعٍ. فقد راقب كل كأس جعة أتناوله في الحانة كما حاول فرض الرقابة على كل أحاديثي خشية أن أتورط في شجار. بل إن الأمر تحول، بالنسبة إليه، إلى كابوس.

بيدَ أن الاسم الذي تناولته أقلام الصحفيين كان اسم سيدني، لا اسمي. حدث ذلك ليلة السبت وكنت، وقد عدت من المعسكر وحيداً، مقيماً في منزل نانا، في حين كان سيدني يعيش مع أحد أصدقائه وكان، في تلك الليلة، مريضاً يرتاح في السرير. لكن رفيق مدرستنا السابق جورج إنغلوند، وهو اليوم واحد من أفضل منتجي الأفلام الشبان، زاره. وفجأة انتابت سيدني رغبة قوية في تناول شطيرة من الهامبرغر وكأس من منقوع الشعير. فنهض من الفراش ولبس سترة قديمة وسروالاً ولم يهتم بترتيب شعره. كما لم تكن ملابس جورج نفسه أنيقة. إذ كان يرتدي سترة وبنطالاً ولم يعنَ بحلاقة لحيته فبديا كائنين من السكارى. لكن الأمر لم يعنِ لهما شيئاً لأنهما لم يتوقعا رؤية أحد.

هكذا ذهب الاثنان في جولة بالسيارة. وبينما كانا يطلبان الطعام، وقفت بجانبهما سيارة دورية خرج منها شرطي واستل مسدسه وأشار إلى سيدني وجورج. ثم كبلهما، دون أن يقدم أيّ تفسير، وأمرهما بالجلوس في المقعد الخلفي لسيارة الدورية. وعندما سألاه عما يجري أمرهما أن يلتزما الصمت.

وفجأة تحولت المسألة، في نظر سيدني، إلى مادة للتسلية فلم يستطع أن يمنع نفسه من السخرية، تماماً كما كان يفعل في المدرسة، فقال بنبرة تذمر: «لن أتكلم إلَّا عن طريق الناطق باسمي. لست راغباً في أن أشوى على هذا المقعد». فنظر الشرطي إليه شذراً ولكزه جورج كي يلتزم الصمت. مضت السيارة بهما لبرهة من الوقت لم يتكلم أحد خلالها. ثم زودهما الشرطي الذي كان يقود السيارة ببعض المعلومات: «لقد تمّ الاعتداء على امرأة في الشارع». غمغم شقيقي محاكياً لهجته: «اعتدي عليها؟» فحملق الشرطي به بغضب وكانت تلك هي الأجواء التي سادت خلال رحلتهما إلى منزل المرأة. كانت المرأة ممددة على الأريكة وتصرخ بطريقة هستيرية وقد أحاطت بها مجموعة من أصدقائها محاولين تهدئة روعها. كان سيدني، الذي نسي ما كانت عليه هيئته بسترته القديمة وشعره الأسود الأشعث، واثقاً أنها ستكتشف، في الحال، أنه ليس الشخص المذنب. لكن المرأة ألقت عليه نظرة سريعة وصرخت وهي تشير إليه: «هذا هو الرجل». فشحب وجه سيدني

لأن الأمر لم يعد مادة للضحك. فقد تمّ التعرف عليه واقتيد إلى الحجز.

وفي حوالي الساعة الثالثة وعشرين دقيقة صباحاً، تلقيت اتصالاً هاتفيّاً وكان المتكلم سيدني الذي قال لي بنبرة تقريرية: «تشاك. لقد أودعت السجن بتهمة الاغتصاب». انتظرت برهة لكنه لم يقل المزيد. فسألته أخيراً وقد استولت عليَّ أجواء محاكمة والدي: «حسناً. هل فعلتها؟». فأجابني مستنكراً: «ماذا تقصد بقول هل فعلتها؟ الأمر مجرد التباس. اتصل بوالدي». فكان عليَّ أن أزعج والدي الذي كان لديه من الهموم ما يكفيه. انتظرت حتى السادسة صباحاً ثم انطلقت كي أراه. تذكرت كم كان والدي يحبّ، في طفولتي، البقاء في السرير حتى الحادية عشرة أو الثانية عشرة صباحاً على الرغم من أن النوم جافاه منذ قضية قانون مان. هكذا وجدته برداء نومه يذرع الطابق الأرضي جيئة وذهاباً يكلم نفسه ويتمرن على ما سوف يقوله في المحكمة في ذلك اليوم.

قلت له بارتباك: «والدي» فأجاب: «لا تزعجني الآن يا بني. ألا ترى كم أنا مشغول؟ لقد جافاني النوم بسبب هذه المحاكمة وكل شيء...». لكنني قلت له بإلحاح: ««حسناً يا أبي. هذه المسألة هامة للغاية». لكنه لم يجب وبدا أنه نسيني. وعاد إلى التجول والتكلم مع نفسه. كان الوقت يمضي وسيدني في السجن. انتابني اليأس. ثم قلت بصوت مرتفع: «أبي. لقد وضعوا سيدني في السجن لاتهامه خطأ بالاغتصاب». فأجابني والدي وكأنه لم يسمعني بعد، بل يضع المعلومة التي قدمتها في رتل الأفكار التي تشغله: «حسناً. سأرسل له جيزلر. سوف يهتم بالأمر». لكنني صرخت: «لكنه بريء يا والدي». فأجاب: «لا يعنيني الأمر يا بني. سوف نهتم...» وفجأة كفّ عن الكلام وحملق في وصرخ: «اغتصاب! التباس! بريء!».

اشتعل غضباً كما لم أره من قبل وكأن أعصابه المشدودة التهبت على حين غرة. أخذ يصرخ وهو يومئ في كل الاتجاهات في الآن عينه: «يا إلهي. سأقاضي قسم الشرطة اللعين، إن وصل الأمر إلى الصحافة. سأقاضي كافة الصحف. سأقاضيهم حتى ولو كانت التهمة صحيحة. التباس في قضية اغتصاب! لن يروا جانب الالتباس في القضية، بل سينصبّ اهتمامهم على كلمة اغتصاب. هل تدرك ما يعنيه ذلك يا بني؟ سوف يأخذون عائلة شابلن ككل ويمزقونها إرباً ويطردونها من البلدة».

وأخيراً، اتجه والدي نحو الهاتف. في تلك الأثناء، في حوالي الثامنة صباحاً، وصلت المرأة إلى السجن لإجراء عملية تعرف أكثر دقة. ألقت نظرة واحدة ثم قالت: «آسفة. إنه ليس ذلك الشاب». وسرعان ما خرج سيدني من السجن دون أن يبالي بنا. لكن الاتصالات التي أجراها والدي فعلت فعلها. فلم تجد القصة طريقها إلى الصحف ولم يروها أحد حتى هذه اللحظة.

وفي الرابع من نيسان، وفي ختام خمس ساعات ودقيقة واحدة من المداولات، أعلنت هيئة المحلفين المؤلفة من سبع نساء وخمسة رجال براءة والدي من تهمة الاتجار بالرقيق الأبيض. وقد قال أحد المحلفين، روان سنجر، وهو موظف في مصرف في باسادينا، فيما بعد، إنه حصل، في صفوف المحلفين، إجماع أن والدي كان مدفوعاً باللطف وحده عندما اشترى للآنسة باري ووالدتها تذكرتي قطار إلى نيويورك وعندما زودها بالمال فيما بعد.

أما الآن وقد انزاحت الغمامة، فقد غالب والدي دموعه بصعوبة فصار يبلع ريقه باستمرار ويشغل نفسه بربطة عنقه في حين عمّ التصفيق قاعة المحكمة إلى درجة جعلت القاضي يهدد بإخلائها لاستعادة النظام. وأخيراً، شق والدي طريقه وسط المهنئين نحو مقاعد المحلفين بمساعدة جيزلر الذي وجد نفسه، على حدّ قول الصحف، يغالب دموعه وصافح كلّاً منهم قائلاً: فليباركم الله. كنت على الدوام أملك إيماناً أعمى بالشعب الأمريكي وبالعدالة الأمريكية... والصحافة بدورها كانت منصفة، منصفة للغاية- فالشكر لكم جميعاً».

أما أونا، التي كانت تنتظر مولوداً في شهر آب، فقد تنفست الصعداء لدى تلقيها الأنباء عبر الهاتف وقالت: «أنا سعيدة للغاية حتى أكاد أعجز عن الكلام». ثم أضافت بنبرة اعتذار عن تخليها الظاهري عن والدي: «لم أذهب إلى المحكمة مع تشارلي لأنه أراد أن يجنبني ذلك، لكني كنت لأكون معه هناك لو أنه سمح لي بذلك».

وبُعيد محاكمة الاتجار بالرقيق الأبيض، أطلق القاضي أوكونر سراح جميع المتهمين بقضية حرمان الآنسة باري من حقوقها المدنية. لكن محاكمات والدي لم تكن قد انتهت بعد. ففي ذلك الوقت، كانت اختبارات الدم، التي أخضع لها كما أخضعت لها كل من الآنسة باري وكارول، قد أجريت على يد ثلاثة اختصاصيين مرموقين هم الدكتور روي هاماك والدكتور نيوتن إيفانز والدكتور فرنون أندروز. وقد خلص الأطباء الثلاثة، الذين عمل كل منهم بمعزل عن الاثنين الآخرين، إلى النتيجة نفسها. فقد أعلنوا، بالإجماع، أنه لا يمكن، بموجب هذه الاختبارات العلمية الدقيقة، أن يكون والدي أباً للطفلة لأن زمرة دمها تختلف عن زمرة دمه وزمرة دم الآنسة باري على حدّ سواء. هكذا، كان ينبغي لهذه الخلاصة، بموجب الاتفاق بين الآنسة باري ووالدي، أن تضع حدّاً لأية ملاحقات قضائية إضافية. فتنحى جون إيروين، محامي الآنسة باري، والسرور يغمره لخروجه من الصورة، وحلّ محلّه المحامي جوزيف سكوت. في ذلك الوقت، ردّ القاضي ستانلي موسك التماس محامي والدي بصرف النظر عن القضية مشيراً إلى أنه على الرغم من كون اختبارات الزمر الدموية مقبولة في المحاكم بصفتها من الأدلة الداعمة، إلَّا أنه لم يتخذ في

الولايات المتحدة قرار باعتبارها دليلاً قطعيّاً، وهي لا تعتبر كذلك في ولاية كاليفورنيا. ولذلك، فقد خلص إلى أن «العدالة تتحقق بصورة أفضل من خلال محاكمة عادلة وكاملة».

كان القاضي موسك يدلي بوجهة نظر قانونية محضة. لكن المحامي جوزيف سكوت أشاد بالحكم بوصفه «قراراً بطوليّاً وشجاعاً». كان من الواضح أن السيد سكوت لن ينظر إلى القضية بوصفها مجرد محاكمة إثبات نسب، بل كقضية ستحقق له الشهرة.

بدأت حياة والدي تستعيد الاستقرار بعد قضية الاتجار بالرقيق الأبيض. ففي شهر آب، وضعت أونا، إثر عملية قيصرية، أختي نصف الشقيقة الساحرة جيرالدين. هكذا، نال والدي الفتاة التي كان يصبو إليها بعد أن تسببت له ولادة سيدني بالخيبة.

وبعد ولادة جيرالدين بتسعة عشر يوماً، توفيت زوجة والدي الأولى، ميلدريد هاريس، عن ثلاثة وأربعين عاماً إثر عملية جراحية في مستشفى أرزة لبنان في لوس أنجلوس. فأرسل والدي باقة من الأوركيد والأزهار إلى الجنازة التي أقيمت مراسمها في مقبرة هوليوود في الوداع الأخير للفتاة الأولى التي فازت بقلبه في أمريكا.

لكن فترة الصيف تلك لم تكن، بالنسبة إلى والدي، سوى هدنة حذرة. فقد كانت السيدة غيرترود بيري، جدة آن والوصية عليها، تضغط على والدي من أجل تسوية مبكرة لقضية إثبات النسب. ولم يمضِ شهر حزيران، إلَّا وكان والدي قد أنفق ما يزيد عن عشرة آلاف دولار على الطفلة الصغيرة، وهو مبلغ اعتبره أكثر من كافٍ كي ينفق على طفلة رضيعة في سنة واحدة. إلَّا أنه لم تبدر منه أية إشارة احتجاج على مساعدة الطفلة حتى حلول موعد المحاكمة. فدافعه الرئيس لم يكن التهرب من مسؤولياته المالية، كما سبقت الإشارة إليه، بل مقاومة ما اعتبره ابتزازاً.

في ذلك الوقت، سادت معسكر كامب هان أجواء من عدم اليقين. كانت الحرب تزداد شراسة في أوروبا، كما في الشرق وكنا، جميعنا، نعلم أن الأمر مجرد مسألة وقت قبل أن ننخرط، بدورنا، في القتال. ومع مضيّ الوقت، بدأ رفاقي يتوزعون هنا وهناك. وذات يوم، تلقى ستان أوامره فانفصلنا ولم يرَ واحدنا الآخر إلَّا بعد انتهاء الحرب. كنت في ذلك الوقت أعتمد عليه كشقيق أكبر. فأشعرني رحيله بالاكتئاب والوحدة وبدأت أكثر من تناول المشروبات الكحولية والتفكير في ما ينتظرني.

نقلت، في أحد أيام الشتاء، من معسكر كامب هان إلى فرقة المشاة التاسعة والثمانين في معسكر كامب بونتر في نورث كارولينا وشاهدت، للمرة الأولى هناك، أسرى ألماناً وإيطاليين وفوجئت بكونهم بشراً يتمتعون باللطف والتهذيب. كانت فكرة أنني ذاهب لقتال أناس كهؤلاء وقتلهم وأنهم سوف يبذلون كل ما في وسعهم لقتلي بمثابة صدمة بالنسبة إليَّ.

ومن كامب بونتر، نقلت إلى معسكر كامب مايلز ستانديش في بوسطن استعداداً للصعود إلى متن السفينة. وكنت هناك عندما بدأت محاكمة إثبات النسب. أسند والدي، الذي أحسّ بأن نتائج

اختبارات الدم كفيلة بجعل قضية إثبات النسب شأناً روتينيّاً، القضية إلى مجموعة محاميه الخاصين وتولى تشارلز (بات) ميليكان الدفاع عنه في المحكمة. لكن والدي كان قد اتخذ قراره دون أن يأخذ عاملين بالحسبان. الأول أن محامي الآنسة باري الجديد، جوزيف سكوت، كان عازماً بوضوح، منذ الاستئناف الأول الذي قدمه للقاضي ستانلي موسك، على الاعتماد على الجوانب العاطفية على العكس من المقاربة النزيهة والمنطقية للمدعي العام كار. أما العامل الثاني فكان أن جهة الادعاء لم تكن حكومة الولايات المتحدة بكامل جلالها، التي لم يكن والدي أمامها أكثر من مجرد رجل صغير، بل طفلة جميلة وبريئة لا يزيد عمرها عن ثمانية عشر شهراً ووالدتها الفتية الحسناء اللتان سيقدم حضورهما دفعاً قويّاً لدور الضحية.

في موقف كهذا، كان والدي يحتاج، دون شك، إلى المهارات الاستعراضية التي يتمتع بها المحامي الداهية السيد جيزلر، من أجل حماية سمعته، لا مصالحه فحسب. فعلى الرغم من أن بات ميليكان يتمتع بالمهارة والقوة، إلّا أنه كان يفتقر إلى الحسّ الدرامي المذهل الذي يتمتع به السيد جيزلر في محاكمة كانت، منذ لحظتها الأولى وحتى النهاية، دراما حقيقية، أو بكلمة أدق ميلودراما.

بدأت الجلسات قبيل عيد الميلاد وكنت أتابعها بصورة يومية من خلال الصحف. إذ لم يكن تجنبها ممكناً. كانت المواد المضافة إلى ما سبق تقديمه في قضية الاتجار بالرقيق الأبيض قليلة. فالدليل الحقيقي الوحيد كان شهادات الأطباء الثلاثة الذين أجمعوا على أن البينة العلمية التي قدمتها اختبارات الدم أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن والدي لا يمكن أن يكون والد الطفلة. كانت شهادة الأطباء الثلاثة مبهرة إلى درجة جعلت الصحفيين الحاضرين يخالون أن والدي قد ربح القضية. وقد لاحظوا، بسرعة، أن هذا ما كان يبدو أن السيد سكوت يظنه، من حيث إنه انتهك كل الممنوعات في الهجوم العاطفي الذي شنّه على والدي متناسياً، على ما يبدو، مفارقة قيامه بتشويه سمعة الرجل الذي كان يكافح لإثبات أبوّته للطفل الذي يدافع عنه. بل إن قدامى الصحفيين أعربوا عن بالغ صدمتهم من اللغة القوية التي استخدمها قائلين إنهم لم يسمعوا طيلة السنوات التي غطوا محاكمات فيها هذا القدر من الإفراط.

فقد عمل السيد سكوت على الإقلال من شأن أبي بلا هوادة واصفاً إياه بكلمات مثل «العجوز الأشيب الجبان»، أو «القزم الصغير»، أو «الفاسق»، أو «الكلب الداعر»، الذي «يكذب كأيّ نذل رخيص من أنذال لندن». لم تكن النعوت التي ألصقها السيد سكوت بوالدي مبررة في الواقع. إذ لم يكن والدي قد تورط في أية فضيحة، منذ العناوين المثيرة التي تصدرت الصفحات الأولى من الصحف في الفترة التي سبقت طلاقه من والدتي عام 1937. فلم توجه إليه أية تهمة غير أخلاقية

حتى اتهامه الأخير بقضية الاتجار بالرقيق الأبيض والتي تمّت تبرئته منها بصورة لا لبس فيها.

وأثناء إلقاء السيد سكوت لخطبته الرنانة، التفت والدي، بطريقة لاإرادية، نحو القاضي هنري ويليس معترضاً بقوة: «سيدي القاضي. أنا لم أرتكب أية جريمة. أنا مجرد إنسان. لكن هذا الرجل يحاول أن يجعل مني وحشاً». ربما كان بمقدور والدي الحفاظ على القليل من روح الدعابة لو أنه تذكر، في تلك اللحظة، ذلك الفصل من رواية «أوراق بيكويك» الذي يصور مرافعة الرقيب بازفاز أمام المحلفين في دعوى الحنث بالوعد الشهيرة التي رفعها بارديل ضد بيكويك. ربما كان قد احتفظ، بوصفه ممثلاً كبيراً، بما يكفي من رباطة الجأش لأداء دوره بإبداع وإقناع. لكن والدي لم يكن قادراً على الاحتفاظ ببرودة أعصابه حتى في لحظات التوتر الثانوي هذه.

فكيف نجح في الحفاظ على توازنه على منصة الشهود في وقت لم يكن السيد سكوت، فيه، يكتفي بالسخرية منه واستفزازه، بل كان يتهمه بتجاهل المواعيد والأمكنة عن عمد؟ فلم تكن لدى هيئة المحلفين أية طريقة لمعرفة عيوب ذاكرة والدي في الأرقام والأسماء وهو أمر أبدى تجاهه حساسية مفرطة، على الدوام. فقد اكتفى والدي بالتحديق فيهم كشرير وقع في الشرك أثناء ارتكابه جريمة وهو يحاول التملص منها.

جرف إحساس والدي العميق بالجور والاستبداد كل أشكال المنطق بعيداً، فقد أصابه السيد سكوت في عقب أخيل- تلك الانفعالات القاسية التي ربما تعود إلى يوم عيد الميلاد البعيد في الميتم الذي عاش فيه في لندن. كان والدي يحدثني، في بعض الأحيان، عن ذلك اليوم حين يرغب في جعلي أدرك، بطريقة تصويرية، كم كنت محظوظاً أكثر منه. وقد اعتدت على التفكير في ذلك اليوم عندما كنت، وسيدني، نفتح أكوام الألعاب التي كان والدي يغمرنا بها على الدوام. كنت أتخيل صبيّاً جالساً على دكة إلى طاولة طعام مقفرة يبكي وحيداً في حين يتلقى بقية الأطفال هدايا الميلاد الصغيرة والنفيسة إلى جانب بعض الحلوى وبرتقالة لكل منهم. أما الطفل الصغير، فقد عوقب بحرمانه من الهدايا بسبب خطأ صغير اقترفه. ولا بُدَّ أن الإحساس بتلقيه عقوبة مجحفة، في ذلك اليوم، قد عاوده خلال جلسات قضية إثبات النسب. بل إن التمعن في القضية برمّتها بعقل بارد يجعلها تبدو أشبه بعقوبة منها بتحقيق عادي يهدف إلى تحديد مسؤولياته الفعلية في القضية المنظور فيها.

صرخ سكوت في هيئة المحلفين: «لم يخرج أحد، طيلة السنين التي مضت، كي يردع شابلن عن سلوكه الفاسق- باستثنائكم. الزوجات والأزواج في كل أرجاء البلاد يراقبون كي يروكم توقفونه عند حدّه. لن تستطيعوا النوم إلّا في الليلة التي تمنحون فيها هذه الطفلة الرضيعة اسماً، الليلة التي

تجعلونه فيها يرى كيف يطاله القانون كما يطال أيّ نذل من أنذال سكيد رو».

عجزت هيئة المحلفين، في المحاكمة الأولى، عن الوصول إلى قرار على الرغم من أن سبعة منهم صوتوا لصالح والدي مقابل خمسة صوتوا ضده. وإنه لمما يثير الاهتمام أن نتمعن في مواقف المحلفين. فعلى الرغم من الشهادات المهنية التي قدمها الأطباء، فقد تمّ تجاهل النتائج السلبية لاختبارات الدم منذ البداية. ولم يستسغ أيّ من المحلفين تصرفات والدي في قاعة المحكمة. أما أولئك الذين صوتوا لصالحه فكان ذلك لأنهم أحسّوا بأن الآنسة باري عجزت عن إثبات مزاعمها.

عند هذه النقطة، اقترح القاضي كلارنس كينكايد، الذي تولى المحاكمة التالية، لجوء الطرفين إلى التحكيم. وافق السيد سكوت على الاقتراح مدفوعاً، دون شك، بإحساسه بأن الموقف لا يميل لصالحه بدلالة قرار هيئة المحلفين الأولى. أما والدي فرفض. كان قراره الاستمرار في المحاكمة حتى إثبات براءته جزءاً من نزاهته المستحكمة. وخلال المحاكمة الثانية، تابع السيد سكوت هجومه العاطفي في حين امتنع والدي، الذي تعلم الدرس من المحاكمة السابقة، عن الشهادة، مستخدماً الحق الممنوح له في المحاكمات المدنية، ولم يكن، كذلك، حاضراً في قاعة المحكمة عندما توصلت هيئة المحلفين إلى قرار. تجاهلت هذه الهيئة، بدورها، اختبارات الدم التي زعم الأطباء أنه لا يمكن نقضها كما كانت انطباعاتها عن والدي أقل إيجابية من انطباعات هيئة المحلفين التي سبقتها. فكان قرارها أن والدي مذنب بغالبية أحد عشر صوتاً مقابل صوت وحيد.

نتيجة لذلك الحكم الأولي، ألزم القاضي كينكايد والدي أن يدفع لكارول آن خمسة وسبعين دولار أسبوعيّاً على أن يزداد المبلغ إلى مئة دولار أسبوعيّاً مع ارتفاع مصاريفها. كما أنها صارت مؤهلة، بموجب الحكم، لحمل اسم شابلن. هكذا، فازت الآنسة باري بالقضية، لكن المحاكمة لم تكن مفيدة لها، على الصعيد الشخصي، بسبب ما أصابها من مهانة وإحراج نتيجة التفاصيل الكثيرة التي قدمتها عن علاقتها الحميمية المزعومة بوالدي.

أما والدي، فقد أصيبت سمعته في البلاد بانتكاسة كبيرة لما يبرأ منها كليّاً بعد. فقد ألقت صورة الرجل الفاجر، التي جعلها السيد سكوت تهيمن على سنوات من الحياة المنزلية الوادعة قبل زواجه ببوليت وخلاله، بظلالها على زواجه السعيد بأونا. بيدَ أنني لا أستطيع أن أرى كيف لرجل أن يثبت نفسه كزوج مخلص ووالد صالح بأفضل مما فعله والدي من خلال علاقته بأونا وبأبنائهما السبعة.

كما آذت المحاكمة أشخاصاً آخرين. فقد جللتني، وسيدني، الروايات التي كانت تظهر يوميّاً على صفحات الجرائد بالعار وكان على طفلة أونا أن تستهل حياتها في ظل الفضيحة. لكنني أظن أن

أكثر الضحايا مدعاة للشفقة كانت المدعية الصغيرة كارول آن ذات الثمانية عشر شهراً التي كانت تأتي إلى قاعة المحكمة يومياً وتتعرض للنظرات الفضولية وتحولت إلى مادة تلوكها الألسن حول العالم. أظن أن حق الطفل في أن يستهل حياته بطريقة لا تسيء لها أخطاء الراشدين يتمتع بالأهمية نفسها التي يحملها حقه في أن يتمتع بالرعاية الجسدية. لقد صار لديَّ، الآن، شقيقة صغيرة، ولم أكن أرغب في رؤيتها تتعرض لمثل ما تعرضت له كارول آن. فعلى الرغم من أنني لست بقاضٍ ولا بمحامٍ، إلَّا أنني أشعر بأنه ينبغي فعل شيء لحماية الأطفال، عندما يكونون موضوع نزاع قضائي بين ذويهم، من العلانية البغيضة أو، على الأقل، أن يتمّ تخصيص جلسات مغلقة لهم.

أما هيئتا المحلفين، فلم ينج أعضاؤهما من الانتقادات اللاذعة التي وجهتها لهم الهيئات القانونية والطبية بسبب الحكم الذي أصدروه. ففي كتاب عنوانه «دعاوى خصومات إثبات النسب» نشر عام 1953، يقول سيدني شوتكين، وهو اختصاصي قانوني من نيويورك: «الحكم في قضية شابلن مناف للعلم والطبيعة والحقيقة». ويوافقه في ذلك الدكتور فلاديمير إيلياسبرغ، وهو عالم نفس معروف، عندما كتب في عدد شهر تموز 1946 من مجلة «مجلة جنوب كاليفورنيا القانونية»: «باختصار، جعل المحلفون في قضية شابلن الاعتبارات العاطفية تطرد المنطق وأخفقوا، بطريقة محزنة، في واجب تقييم الأدلة المتوفرة». أما المحامي يوجين تروب، من لوس أنجلوس الذي صار مرجعاً في قضية تشارلي شابلن في عمله الطويل في الترافع من المهتمين في قضايا إثبات النسب، فيقول: «قضية شابلن هي مثال صارخ على الإخفاق في إحقاق العدالة. إذ كان يستحيل، إنسانيّاً وعلميّاً، أن يكون تشارلي شابلن والد طفلة جوان باري». ويقول السيد تروب، الذي نجح، عام 1959، في استصدار حكم البراءة في القضية التي نالت مقداراً كبيراً من الدعاية والتي وقف، خلالها، نجم الروديو كيسي تيبس في وجه ليا كونور، إن محاكمة والدي أفادت، على الرغم من كل شيء، أشخاصاً آخرين تورطوا في قضايا مماثلة. فقد لفتت شهرة القضية والتغطية الإعلامية الكبيرة لمجرياتها، انتباه مشرعي ولاية كاليفورنيا إلى الموقف الرجعي الذي تتخذه الولاية إزاء اختبارات الدم. وفي عام 1953، مرر المجلس التشريعي في ولاية كاليفورنيا قانوناً يحظر الاستمرار في التقاضي عندما تثبت اختبارات الدم، بصورة لا تدع مجالاً للشك، أن المدعى عليه لا يمكن أن يكون والد الطفل. ولسخرية الأقدار، كانت النتائج التي توصل إليها ثلاثة من أطباء الدم كفيلة بتبرئة والدي، لو أن جوان باري حاولت رفع قضيتها عليه بعد صدور القانون، دونما حاجة للمزيد من المحاكمات.

وأين أصبحت الشخصيات الرئيسة في القضية اليوم؟ في عام 1946، تزوجت الآنسة باري وقالت، في ذلك الوقت، إنها سعيدة بحياتها الجديدة بعيداً عن الأضواء. وفي عام 1953، أحيلت إلى

مستشفى باتون ستايت بعد القبض عليها هائمة على وجهها في مدينة تورانس في كاليفورنيا وتبين، فيما بعد، أنها سئمت حياتها الوادعة. وكما في المرة الأولى التي زارت فيها والدي، عام 1941، كانت الآنسة باري في مدينة مكسيكو تسعى وراء استعراض مسرحي جديد. فقد أخفق زواجها وامتنع زوجها بعد انفصالها عنه عن إعالة طفليهما. واليوم، يكشف الدكتور و. ل. جيريك، المشرف على منشأة باتون، في ردّه على استفساري عن القضية، أن الآنسة باري لا تزال نزيلة المستشفى وأنها «في حاجة إلى رعاية صحية تمتد إلى أجل غير مسمى».

أما المدعية الصغيرة، التي صارت اليوم في السادسة عشرة من العمر، فلا تزال تتلقى الدولارات الأسبوعية المئة من والدي الذي يعيش بعيداً في مدينة فيفي لأنه، بقدر ما أعرف عنه، يعجز عن رؤية طفل يعاني من العوز والحرمان. فهو، كما سبق أن قال، في ذلك اليوم، في قاعة المحكمة، ليس وحشاً، بل مجرد إنسان يتمتع بالفضائل والمثالب كبقية بني البشر.

في العاشر من كانون الثاني 1945، حطت الفرقة التاسعة والثمانين مشاة رحالها في أوروبا. كانت السفينة التي أقلتنا مكتظة بالجنود، حتى إن العديدين منا كانوا ينامون في الممرات وسلكت في طريقها إلى مقصدها دروباً متعرجة تجنباً للغواصات الألمانية. وفي القنال الإنكليزي، رافقتنا أربع غواصات داومت على إطلاق قذائف الأعماق بفواصل منتظمة. وأخيراً، وصلنا، في ليلة قارسة، إلى ميناء الهافر وسرنا على شاطئ حصوي شبيه بشواطئ فرنسا الحصوية التي لا أزال أتذكّرها منذ سني طفولتي.

صعدنا إلى سيارات النقل المكشوفة التي كانت في انتظارنا، في الأولى وعشرين دقيقة صباحاً. كانت رياح ثلجية عنيفة تضربنا أثناء اختراقنا مدينة الهافر التي أصابني منظرها بالقنوط وأنا أتأمل مبانيها المدمرة وأتذكّر ما كانت تبدو عليه منذ زمن بعيد. قطعنا سبعين ميلاً عبر الليل الجليدي إلى معسكر لاكي سترايك يراودنا حلم قضاء ليلة دافئة. لكن الجنود الذين سبقونا إلى الجبهة، تركوا أبواب الخيام مفتوحة، فكان البرد في الداخل مماثلاً لما كان عليه في الخارج وكان علينا تلمس طريقنا بحذر لأن المكان كان لا يزال مليئاً بالألغام. عثرت على بعض التبن ووضعته فوق الثلج في إحدى الخيام وتمددت عليه وغططت في نوم عميق دون أن ألقي بالاً إلى تحذيرات والدي حول ذات الرئة.

أمضينا في فرنسا ستة أسابيع من التدريب. أما أنا، فعملت، بسبب إتقاني اللغة الفرنسية، مترجماً لدى الضباط. ثم تحولنا إلى مدينة ريمس الجميلة التي تحولت الآن إلى أنقاض ثم وصلنا إلى لوكسمبورغ، محطتنا الأخيرة قبل الدخول إلى ألمانيا. وهناك، رحّب بنا مواطنو لوكسمبورغ بالتهليل وودعونا بالدموع. ثم وصلنا إلى آخن، المدينة الألمانية الأولى التي كانت، فيما مضى، تؤوي أكثر من مليون نسمة والتي تحولت الآن إلى أطلال. وفي آخن، تلقينا من الجنرال عمر برادلي إشعاراً بأننا أصبحنا في أرض المعركة حيث تمّ تزويدنا بالذخائر والرمانات اليدوية قبل أن نتحرك من جديد. وفي ترير، سمعنا أصوات الحرب للمرة الأولى على شكل أصوات رشقات من الرصاص آتية من بعيد، فانتابنا الخوف والتوتر وصرنا نفكر في أننا انخرطنا في الحرب أخيراً.

داومت على الكتابة إلى جدتي مرتين في الأسبوع مذ غادرت كاليفورنيا وهي عادة ثابرت عليها حتى بعد وصولي إلى هنا. كنت أضع في كل رسالة فقرات شخصية تخص أمي وأخرى تخص

أبي. فكانت نانا تعرض الرسالة على أمي قبل أن ترسلها بالبريد إلى والدي. كانت نانا وأمي تكاتباني كل أسبوع، في حين لم أسمع شيئاً من أبي إلّا من خلال أونا. كانت أونا تستهل رسائلها بشيء كالتالي: «نعجز، والدك وأنا، عن تصديق أنك في الجبهة الآن يا تشارلي. إذ لم تمضِ سوى بضعة شهور مذ كنت هنا تمضي أوقاتك في السباحة وضروب التسلية الأخرى». ثم تلي تلك المقدمة كافة أشكال التحذيرات التي كانت قراءتها تدفعني إلى تصور والدي واقفاً أمام كتفي أونا ويداه معقودتان خلف ظهره يملي عليها ما تكتبه. كان أبي، بالطبع، لا يزال، حتى تلك اللحظة، يحذرني من الموت برداً أثناء تمركزي في إحدى الحفر.

كنت، في الوقت الذي انطلقنا فيه من ترير، قد أصبحت عريفاً. وكنت متمركزاً في حفرة خلف أحد التلال عندما أحضروا لي رسالة من والدتي. كان أرثر داي قد أبحر إلى أحد ميادين القتال في غينيا الجديدة وكان سيدني يخضع لدورة تدريبية، في حين كانت والدتي، التي انتابتها مشاعر الوحدة والتخلي، غارقة في نوبات انهيارها العصبي الثاني. فكتبت لي قائلة إن الحياة لم تعد تستحق أن تعاش بعد أن ذهبنا جميعنا وإنها لم تعد تبالي بشيء وإنها ستقدم على الانتحار.

صدمتني رسالتها، فأخذت أقرؤها المرة تلو الأخرى وقلبي يخفق. في تلك اللحظة، مرّ الرقيب، وهو جندي صلب ومحنك، وألقى نظرة طويلة عليَّ ثم قال: «ما المشكلة يا بني؟». فأخبرته. وفجأة ارتسمت على وجهه أمارات التعاطف وأمرني قائلاً: «تعال معي كي نرى الكاهن». هدأ الكاهن روعي وأخبر الصليب الأحمر بالمشكلة وعدت إلى خط الجبهة في حين اتصل الجيش بأسرتي في الوطن. علمت، فيما بعد، بحزن، أنها تلقت توبيخاً شديداً في حين إنهم أخبروني، حينها، أنه تمّ التحقق من الأمر وأن كل شيء على ما يرام ولا يوجد ما يستدعي القلق. لقد تمّت معالجة الوضع في وقت قصير بشكل لا يصدق. فيا له من جهد ذلك الذي كانت الحكومة تبذله من أجل رفع معنويات جنودها على خطوط القتال!

تحركنا، في اليوم التالي، إلى بلدة غوثا التي كانت قد تمّت السيطرة عليها للتوّ، وكان المدنيون لا يزالون فيها على الرغم من أن الخرائب كانت في كل مكان. اكتشفت، في وسط السوق، أطلال دار أوبرا دائرية تحولت إلى مجرد قشرة خاوية على الرغم من أن أسماء عظماء الألمان المحفورة على أطلال أحد الجدران كانت قد بقيت سليمة بطريقة إعجازية ما دون أن يمسسها سوء. غوتيه، بيتهوفن، شيلر، فاغنر، هاينيه- كانوا، جميعاً، هناك، في تذكير مأساوي بأمجاد الثقافة الألمانية. قرأت الأسماء لنفسي وتخيلت سماعي أنغام الموسيقى التي كانت تملأ أرجاء دار الأوبرا هذه في أيام ماضية أكثر سلماً وسعادة. استدرت عائداً إلى نقطة تمركزي في مصنع أجهزة مذياع ألماني

كنا نخزن فيه البنادق التي يجب صيانتها. كانت نوافذ المصنع محطمة ومظهره يوحي ببيت مسكون، كذلك البيت المسكون الذي رأيته في شاطئ بيبل. كم هو ناءٍ ذلك البيت، في الزمان والمكان، وكم هو طفولي. أما هنا فإنها الجبهة.

وفي بلدة غوثا، شهدت أولى المعارك. فقد أطلق جندي حراسة متوتر النار على رجل تشيكوسلوفاكي كان يعدو لتحذيرنا من قناصة مدنيين يخططون لشن هجوم علينا لجهله كلمة المرور ولعدم وقوفه امتثالاً لطلقات تحذيرية في الهواء. روى التشيكي قصته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بطريقة مفزعة إذ كانت إحدى الطلقات قد صنعت فتحة كبيرة في صدره. لم يكن لدينا مورفين لتسكين آلامه، بل مجرد ضمادات ومعقم. وكانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها شخصاً محتضراً.

بدأ الهجوم قبل وفاة الرجل وكان الوقت قريباً من الغروب. فعلى حين غرة، بدأت طلقات مدفع رشاش تنهمر علينا من المباني المواجهة. ارتميت على الأرض ولم تكن الخوذة معي في تلك اللحظة وكان عليَّ أن أزحف ثلاثين متراً نحو نقطة تمركزي في المصنع بينما كان الرصاص يمرّ فوق رأسي. وصلت إلى المصنع وارتميت أرضاً واعتمرت الخوذة وكانت الطلقات لا تزال تمرّ من النوافذ. أمرني الملازم، بوصفي مساعداً لرامي البازوكا، بالخروج إلى الشارع في مواجهة النيران مباشرة كي أطلق بضع قذائف على المباني المقابلة قائلاً: «سوف نغطيك يا تشارلي». حاولت تنفيذ أوامره لكنني كنت أرتجف وعجزت عن السيطرة على نفسي. فقال الملازم: «سأقوم بذلك بنفسي. أما أنت فعليك أن تغطس في الخندق المساير للشارع لمساعدة الآخرين هناك».

أطلق الملازم قذيفتي بازوكا بأعصاب باردة في حين نزلت في الخندق الذي كانت تتمركز فيه فصيلتي وهو المكان الذي كدت أن أقتل فيه. كان الظلام قد حلّ وصار المرء قادراً على تحديد مواقع إطلاق النار من خلال وميض البنادق. انهمكت في التسديد إلى تلك المواقع إلى درجة نسيت معها إخفاض رأسي. وفجأة، سحبني رفيقي الذي كان بجانبي وهو يصرخ: «انزل!» فامتثلت له- في الوقت المناسب. لم أفكر في الأمر في تلك اللحظة، فلم يكن هنالك فسحة للتفكير لأننا تابعنا إطلاق النار حتى اختفى آخر وميض في الجهة المقابلة ثم أمضينا خمس ساعات متأهبين في مواقعنا وكان الانتظار أكثر إثارة للخوف من القتال ذاته لأن الليل أصبح حالكاً ولم نكن نعلم إن كنا سنتعرض لهجوم آخر أو من أية جهة سينطلق الهجوم. أخذنا نتمازح ونتضاحك دون سبب بطريقة هستيرية لتمرير الوقت. وأخيراً، انتهى كل شيء وتمكنا من الحصول على قسط من النوم.

وفي اليوم التالي، أحصينا ثلاثين من جثث العدوّ وكان على البعض منا حراستها في حين كانت

أسراب من الذباب تحلق فوق رؤوسنا وذوو القتلى ينوحون بشكل هستيري. أما بقية الجنود، فقد توزعوا على المباني لتطهيرها من القناصين الذين قد يكونون فيها.

كان أدائي البائس في حادثة البازوكا قد أصابني بالحزن، فصممت أن أكون شجاعاً. هكذا هرعت كي أكون على رأس من يقتحمون الأبواب ويفتشون الغرف ويطلقون النار على من قد يكون فيها، لكن النقيب منعني من ذلك قائلاً: «لا. دع الأمر لي». والواقع أنه كان يتمتع بأعصاب فولاذية. كان رجلاً شجاعاً بحق.

كان ذلك هو اليوم الذي توفي فيه الرئيس روزفلت. علّقت جلسات المحاكمة الثانية لوالدي في قضية إثبات النسب حداداً على الرئيس الراحل. أما في غوثا، فقد أجهش جنود بالغون في البكاء كالأطفال وبدأت للمرة الأولى أفكر في الموت بطريقة جدية، والاستغراق في التفكير في خطر الموت في الجبهة. صرت ألتزم الصمت وأستغرق في تأملاتي وأرتجف بين الفينة والأخرى حتى تصطك أسناني. أصبحت أبدو في مشيتي كأنني فاقد للتوازن وصرت أصطدم بالآخرين وأجد نفسي عاجزاً عن العثور على الكلمات المناسبة عندما يسألني البعض عمّا أصابني.

قالوا إنني مصاب بحالة صدمة معتدلة فاصطحبوني إلى نقطة الإسعاف في الخطوط الخلفية حيث بقيت هناك لفترة وجيزة. رجوتهم ألّا يسجلوا الحالة في سجلّي، ففعلوا ذلك وعدت إلى الجبهة جنديّاً طبيعيّاً.

وعلى الرغم من أن الخوف لم يفارقني، لكن الحرب أصبحت مجرد مهمة روتينية. وباعتباري عضواً في مجموعة التسليح، فقد كانت وظيفتي صيانة البنادق. وكانت تراودني، في بعض الأحيان، أثناء العمل صورة كاي منهمكاً بسعادة في صيانة سيارتي والدي وقد تناثرت أجزاؤهما حوله في المرآب الساكن. أما الجبهة، فلم تكن مكاناً يتميز بالسكون. فكان كل خروج يعتبر كابوساً. كنا نرتقي التل بسيارة الجيب التي تسلك مساراً متعرجاً ثم نقفز منها قبيل وصولها إلى القمة ونشقّ طريقنا إلى البنادق بحذر، وكنا نتنقل في تلك المنطقة زاحفين. كنا نجري أعمال الصيانة لتلك البنادق تحت النار وتعلمنا هناك أن نغطس عند سماع الصفير الذي ينذر باقتراب قذيفة. أما الحركة بسرعة غير كافية فهي النهاية.

وذات يوم، رأيت أحد أصدقائي يموت بهذه الطريقة. لم أدرك أنه أصيب إلى أن رأيت الدماء تنبثق من ألف ثقب في صدره أحدثتها الشظايا. وعندما قلبناه، رأينا كيف حول الانفجار ظهره إلى كتلة من اللحم المعجون. نظرت إليه وكدت أبكي. من يستطيع أن يصف شعور الوحدة الذي ينتاب جنديّاً

لمشهد الموت العنيف لأحد أصدقائه وهو يدرك أن إحدى القذائف التي لا تزال مستمرة في السقوط حوله قد تحيله أشلاء؟

بدأت أشرب أكثر على الرغم من أنني كنت لا أزال لا أستسيغ طعم المشروبات الكحولية، لكنني اكتشفت أنها تبعث الدفء في جسدي وتحول بيني والتفكير وتقتل الخوف. كان جميع من حولي تقريباً يشربون وللأسباب نفسها. كان الجميع يحاولون التقاط لحظة فرح عابرة يدركون تماماً أنها قد تكون الأخيرة. لم نكن نتكلم، إلَّا نادراً، عن الفتيات وعن أسرنا في الوطن وعن الحنين إلى سني طفولتنا وشبابنا، على العكس مما تعرضه الأفلام الحربية. كان أقصى ما يمكن لواحدنا أن يفكر فيه هو :«أنا خائف. يا إلهي، ليتني لم أكن هنا».

ومع مضيّ الوقت، التحق سيدني، بدوره، بالجيش وأرسل إلى أوروبا كرامٍ احتياطي في كتيبة المشاة الخامسة والستين، كغريب يحتل مكان رجل ميت في مجموعة يعرف أفرادها بعضهم جيداً. فكان الأمر، بالنسبة إليه، أكثر صعوبة مما كان عليه، بالنسبة إليَّ.

وبعد الحرب، أخبرنا سيدني عن احتكاكه المباشر الأول بالموت. كان، في ذلك الوقت، يرافق ضابطاً يلتف حول النازيين عبر سلسلة من المباني، وكان في حوزته مسدس من عيار خمسة وأربعين. كان الاثنان في الطابق الثاني من أحد المنازل حيث صادفا ضابطاً ألمانيّاً. استسلم الضابط، فطلبا منه أن يضع يديه فوق رأسه ثم أخذا يفتشان الغرفة بحثاً عمّا يمكن أن يكون فيها من أوراق. وفيما هما منهمكان بالبحث، استدار النازي وقفز إلى الباب وبدأ يجري نزولاً على السلالم. فأمر الضابط سيدني: «أطلق النار عليه». فأجابه سيدني مذعوراً: «هل تعني أن أقتله؟». لم يكن يصدق أنه تلقى أمراً بقتل رجل أعزل. فأغلق عينيه وسحب الزناد وكانت هذه هي الطريقة التي تعرف، بواسطتها، شقيقي المستقل ذو القلب الضعيف إلى الحرب.

وذات يوم، حدث الأمر الذي لا يمكن أن يحدث. فقد تلقيت رسالة طويلة كتبها والدي شخصيّاً. لا بُدَّ أنه شاهد في الأشرطة الإخبارية جنوداً يشقون طريقهم وسط المنازل الملغومة لأن الرسالة كانت حافلة بالتحذيرات من الأفخاخ. كان قلقاً بحقّ. فقد كتب: «سر بحذر. إذ قد تدوس لغماً وتفقد ساقك. لا تلتقط من الأرض أشياء غريبة، فقد تفقد يدك».

كان قلقاً بصورة خاصة من آلات البيانو التي أفرد لها فقرة خاصة محذراً إياي من العزف على بيانو غريب أو من رفعه أو نقله خشية أن ينفجر في وجهي. أفترض أن سبب خشيته من البيانو هو أنه كان المسؤول عن تعريفي إلى هذه الآلة منذ اللحظة التي أبديت فيها اهتماماً بالموسيقى.

ضحكت مما قرأته. ففي الوقت الذي يطير الرصاص فيه فوق رأسي والقذائف تسقط حولي والطائرات الألمانية تقصفنا بين الفينة والأخرى، كانت آلات البيانو آخر مصادر قلقي.

ازدادت الحرب دموية ووحشية وإثارة للاشمئزاز مع وصولنا إلى أوردروف ومعاينتنا معسكر الإبادة المروع المحاط بالأسلاك الشائكة. كان المكان أشبه بكابوس رهيب مع غرف الغاز، التي تشبه أكشاك الدش، وحفر الجير والمحارق المصنوعة من قضبان السكك الحديدية. شاهدنا أكواماً من الجثث المتفحمة وقد زرعت رصاصة في رأس كل منها.

أحضرنا عمدة أوردروف وزوجته كي نريهما ما كان يحصل في بلدتهما. وعند عودتهما من المعسكر قاما بشنق نفسيهما.

وبعد يومين من معاينة معسكر الإبادة، سرت أجواء من الإثارة في صفوف الجنود بسبب أنباء عن اختيار خمسة جنود وثلاثة ضباط للقيام برحلة ترفيهية إلى الريفييرا وأن الأسماء قد اختيرت بالقرعة. لم أصدق ما سمعته عندما أخبرني الرقيب أن اسمي قد اختير، من مئات من الأسماء الأخرى، للقيام بالرحلة. غادرنا الجبهة بهيئتنا الرثة ولحانا الطليقة التي جعلتنا نبدو كالسكيرين.

وفي نيس، منحنا بذلات عسكرية نظيفة وأمضينا أسبوعين حصلنا خلالهما على أكبر قدر ممكن من التسلية لأننا كنا نفكر أنهما قد يكونان الأسبوعين الأخيرين في حياتنا. وصلت الرحلة إلى خواتيمها بسرعة وعدنا إلى وحدتنا العسكرية وعاودتنا مشاعر الخوف من جديد.

وعند وصولنا إلى هولندا في الثامن من أيار 1945، كان الرقص يعمّ شوارع المدن الهولندية. تحلّق الناس حول شاحنتنا وأوقفونا وأنزلتنا فتيات جميلات من الشاحنة وعانقننا وقدمت الجعة للجميع. هكذا فهمنا أن الحرب قد انتهت ولم يعد هنالك المزيد من الاختباء في الحفر الفردية، لم يعد هنالك المزيد من الزحف في التلال تحت وابل من النيران، ولم يعد هنالك المزيد من اقتل كي لا تقتل. فأخذنا نصرخ ونرقص ونغني ونشرب الجعة ونقبل الفتيات الهولنديات الحسناوات. وأخيراً، شققنا طريقنا عائدين إلى الوحدة، لكن ليس من أجل المزيد من الموت.

ثم تمّ إرسالي، على الفور تقريباً، إلى معسكر فورت ليونارد وود الواقع بالقرب من مدينة سانت لويس في ميسوري. وهناك، التقيت، بمحض الصدفة، بستان وأعدنا وصل ما انقطع من صداقتنا. تمّ الاحتفاظ بنا في معسكر فورت ليونارد وود مدة أربعة أشهر قبل إرسالي، وستان، إلى معسكر مكارثر حيث تمّ تسريحنا من الخدمة في الثاني من شباط 1946.

نلت نجمتي حرب أثبتتا أنني قاتلت بالفعل. لكن شؤون الحرب كفّت، على حين غرة، عن أن تكون

ذات شأن بالنسبة إليَّ. لقد عدت مدنياً من جديد وكنت سعيداً بذلك. أقنعت ستان بالذهاب معي إلى هوليوود كي يعيش معي ويعمل على إيجاد مكان له هناك فوافق. وهو يقول إنني سبب حسن طالعه لأنه ما كان له، لولاي، أن يصبح مؤلفاً موسيقيّاً يكتب مقطوعات لعدد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية. وستان متزوج الآن ولديه أربعة أطفال ولا نزال، حتى اليوم، صديقين مقربين يسرّ واحدنا للآخر بمشكلاته ويربّت على كتفه ويحتفل معه بنجاحاته كما كان الأمر في أيام الجيش.

أحضرت ستان معي إلى المنزل الواقع في أعلى التل فور وصولي إلى هوليوود. كانت أختي الصغرى جيرالدين قد بلغت من العمر سنة ونصفاً وصارت قادرة على العدو في أرجاء المكان في حين كانت أونا تنتظر مولودها التالي. أما أبي، فقد بدا أنه لم يتغير. كان جالساً إلى طاولة الكتابة الصغيرة ونظارتاه على عينيه وقلم الرصاص يخط على الورق الأصفر المسطر نص فيلم «مسيو فيردو». بل إن الجرس الكهربائي الشبيه بالجرس التقليدي كان في مكانه. يصعب تصديق أن مدة عام ونصف قد انقضت فصلتنا، خلالها، حرب وأنني وجدته، في المرة الأخيرة التي دخلت فيها إلى المنزل، جالساً في المكان نفسه ويعمل على النص نفسه وكأن ذلك حصل بالأمس.

كان والدي يعمل، بصورة متقطعة، على فيلم «مسيو فيردو» منذ عام 1941 على الأقل. كان قد أنفق بعض الوقت، أثناء علاقته المشؤومة بجوان باري، على نص فيلم «الظل والجوهر» قبل أن يعود إلى النص السابق فور انتهاء تلك العلاقة.

تعرّف والدي إلى القصة الرهيبة التي تتناول الفرنسي ذا اللحية الزرقاء من خلال أورسون ويلز الذي كان، هو نفسه، يقلب الفكرة. فقد ناقش أورسون ويلز، ذات ليلة، القصة مع والدي، بعد انتهائهما من تناول طعام العشاء في منزله. ومنذ تلك اللحظة، صار والدي مسكوناً بالفكرة، قبل أن يسأل تيم ديورانت، أخيراً، أن يشتريها من أورسون ويلز. بيدَ أن والدي لم يستخدم فكرة أورسون ويلز نفسها، بل ركز على شخصية لاندرو التي تحولت في فيلمه إلى مسيو فيردو.

منذ البداية، أعرب أصدقاء والدي عن شكوكهم حيال إمكانية تحويل الحبكة المخيفة إلى عمل كوميدي، لكن ذلك لم يردعه. فقد كان «مسيو فيردو»، بالنسبة إليه أقرب إلى أن يكون رسالة، كفيلم «الديكتاتور الكبير» تماماً. كان ذلك الفيلم صرخة احتجاج على المعاناة التي تجلبها الإحباطات وتلك التي تتسبب بها الحروب مع ما يرافقها من قتل جماعي، ولا سيما مع ظهور القنبلة الذرية بقدرتها التدميرية الهائلة التي تسببت له بالرعب عند إلقائها على هيروشيما وناغازاكي.

بيدَ أنني أظن أن فيلم «مسيو فيردو» كان، بالنسبة إلى والدي، أكثر من رسالة. أظن أنه استخدم هذا الفيلم لتجسيد مزيج الافتتان والخوف الذي عرفه طيلة حياته تجاه العنف والموت- القصص المخيفة التي تظهر في الصحف ولا سيما عندما تكون الطفولة موضوعاً لها... العقوبات السادية التي تفرض على الناس من منطلقات عرقية والتي كان يناقشني فيها مطولاً... الانتحار والجنون والدراما التي تسبق تنفيذ أحكام الإعدام والوجبة الأخيرة التي يطلبها المحكوم وكلماته وأفعاله الأخيرة.

عندما أرسلت إليه بعض التذكارات التي حصلت عليها خلال الحرب، وكان منها علم نازي كبير وسيف ضابط ألماني وخنجر منحوت ومزخرف بعناية، ردّها إليَّ بأسرع ما يمكن قائلاً: «أنا فخور بك يا بني، لكنني لا أريد أن تكون هذه الأشياء هنا. لا أستطيع تحمل وجودها في المنزل». كان الرعب في وجهه وهو يردّ لي التذكارات بادياً بوضوح.

كان فيلم «مسيو فيردو» متنفساً لكل تلك المشاعر المتضاربة، ولا سيما مشاعر الحزن المدمرة التي كانت تنتابه في مواجهة الجانب المظلم في النفس البشرية. بدا الفيلم وكأنه كان يأمل أن ينجح، من خلال السخرية، في إلقاء شعاع من الضوء على الضراوة المتأصلة في الحياة.

عند عودتي من الحرب، في شهر شباط، كان نص فيلم «مسيو فيردو» ناجزاً تقريباً. كان والدي مستغرقاً في الموضوع كما كان شأنه في موضوع هتلر. فقد درس كل تفصيل في حياة القاتل الصغير وكان تفكيره العميق في هذه الشخصية يقوده، في بعض الأحيان، إلى الغرق في حالة من الاكتئاب تستغرق ساعات.

كان يهتف بنبرة تساؤل على حين غيرة: «كيف استطاع هذا الرجل أن يقتل أولئك النساء بهذه الطريقة المنهجية ويقطعهن ويحرقهن في المرمد ثم يمضي إلى رعاية أزهاره في حين ينبعث الدخان الأسود من المدخنة؟». ثم تراه، في اللحظة التالية، ينسحب من غرفته ويبدأ بتقليد إحدى حلقات القصة المخيفة محيلاً إياها إلى مشهد فكاهي يجعلني عاجزاً عن الامتناع عن الضحك منه. هكذا، هيمنت هذه المشاهد المثيرة من فيلم «مسيو فيردو» التي كان والدي يعرضها عليَّ وعلى ضيوفه طيلة ربيع عام 1946. لكنه تخلى عن معظم هذه المشاهد عند انتقاله إلى مرحلة الإنتاج الفعليّ وهو أمر أسفت له، على الدوام، لأنني اعتبرت تلك الحلقات العفوية أكثر إضحاكاً من أيّ شيء رأيته على الشاشة. وربما كان ذلك ما جعل فيلم «مسيو فيردو» أقل أفلام والدي التي أحببتها.

كان رأي والدي قد استقر على الممثلة التي ستلعب دور البطولة النسائية، قبل أشهر من تسريحي من الخدمة، فبدأ، على الفور، كتابة نص يدور حولها حتى دون إخبارها بما كان يفعله. أما الفتاة، فكانت مارثا راي، وهي أولى بطلات أفلامه اللواتي يتمتعن بخبرة هوليوودية سبقت اتصالها بوالدي. لكن حياتها المهنية كانت، على حدّ قولها، متأرجحة على الدوام وكانت، في تلك اللحظة، في حال من الهبوط المؤكد. كانت مارثا تعمل في الحيّ اللاتيني في نيويورك عندما رنّ هاتفها في أحد الأيام وقال الصوت الذي سمعته عندما رفعت السماعة: «تشارلي شابلن يتكلم» فأجابته مارثا ضاحكة، وفي ظنّها أن الأمر مجرد مزحة: «نعم. بالتأكيد» ثم أقفلت السماعة. لكنها بهتت عندما أخبرها وكيل أعمالها، آبي لاستفوغل، أن المتكلم كان والدي بالفعل. وقد علقت على هذه الحادثة بالقول: «تصور أنك تلقيت اتصالاً من كوميدي يعتبر سيد الكوميديا بلا منازع». اتصلت به وهي ترتجف، لكنها نجحت في قول كلمة نعم عندما سألها عن إمكانية الاجتماع به في هوليوود في غضون اثني عشر يوماً. كان كل ما استطاعت التفكير فيه أنها في طريقها إلى لعب دور البطولة

في مواجهة ملك الكوميديا.

حدث لقاؤهما الأول في أول أيام التصوير وكانت ركبتا مارثا تصطكان. تناولا طعام الغداء واكتشف والدي مقدار خوفها فأخبرها أنهما سيحظيان بيومين من البروفات. لكن هذين اليومين عجزا عن إزالة الرهبة التي انتابت مارثا. إنه تشارلي شابلن العظيم! الذي كان الناس قد أخبروها بمقدار طغيانه وتوقه إلى الكمال عندما يؤدي دور المخرج.

سيطر عليها الخجل في الأيام الأولى في الاستديو وكانت تشير إلى والدي بطريقة مفرطة في التبجيل: السيد شابلن يريد هذا، السيد شابلن يريد ذاك، حتى بلغ التوتر منها مبلغاً أوشكت معه على الانفجار. وفجأة، قررت القيام بأمر جريء حيال ذلك مهما تكن النتائج. كنت، وسيدني الذي كان، في ذلك الوقت، قد سرح من الخدمة بدوره، في الاستديو عندما أقدمت مارثا على حركتها. كان والدي في خضم إحدى نوباته الإخراجية المعروفة وكل من حوله يتصببون عرقاً عندما هتفت مارثا: «تشاك! تشاك! كيف تريدني أن أنفذ هذه اللقطة؟». نظر والدي حوله بذهول. أظن أنها كانت المرة الأولى التي يناديه، فيها، أحد بهذا اللقب. التقت عيناه بعيني مارثا ورأى فيهما بريق التحدي. وفجأة أشرق وجهه بالبهجة وزال التوتر. ومنذ ذلك الحين صار لقب «تشاك» يتردد على لسان مارثا ولقب «ماغي» على لسان والدي حيث إن اسم مارثا الحقيقي هو مارغريت ريد.

هكذا تجاوزت مارثا العقبة الأولى بنجاح. لكنها أدركت أن ذلك لم يكن كافياً. كان لا يزال ينبغي لها أن تثبت قدميها إن كانت راغبة في أن لا تمحوها شخصية والدي تماماً. وفي أحد الأيام، قاطعت مارثا إحدى جلسات التصوير بجملة قاطعة عندما قالت بصوت جهوري: «ساعة واحدة!». فسألها والدي الذي كان أكثر ذهولاً من أن يغضب: «ماذا... ماذا تقصدين؟». فشرحت مارثا الأمر بإيجاز: «الغداء. إنها الساعة الثانية ونحن لم نتناول طعامنا بعد». كانت تلك المرة الأولى التي يجرؤ، فيها، أحد، أثناء التصوير، على لفت انتباه والدي إلى مرور الوقت. فوافقها والدي قائلاً: «أنت محقة». وصرف الممثلين والفنيين من أجل الغداء. ومنذ ذلك الحين صار والدي يوقف العمل كلّما غنّت مارثا: «ساعة واحدة!» دون أن ينطق بكلمة. أما أولئك العالمون بأساليبه في العمل، فكانوا يبتسمون في سريرتهم، لأنها كانت المرة الأولى، على مدى مسيرته الإخراجية، التي تجرؤ، فيها، إحدى نجماته على تحديه.

لم تكن مارثا تصور الفيلم مع والدي لمجرد التسلية، بل كانت تواقة إلى التعلم كبوليت وجاك أوكي. كان يمكن للمرء أن يراها طوال الوقت تحوم في الاستديو وتراقب كل ما يجري، حتى عندما لم تكن الحاجة تستدعي وجودها. بل إنها تجرعت تعليمات والدي حتى آخر قطرة. اكتشفت

كم كانت نصائحه مفيدة ولا سيما أن أسلوبها في التمثيل يستند، بصورة أساسية، إلى الإيماء. فقد تعلمت من والدي كيف تضبط درجة الإيماء بما يتناسب مع عدد الحاضرين، تماماً كما يضبط الخطيب مقدار ارتفاع صوته- أي إيماء مضخم في المسارح الكبيرة وأقل تضخيماً في المسارح الصغيرة. كما تعلمت أن ملابس الخدع الرياضية التي تلبسها لمساعدتها على أداء الدعابات لم تكن مناسبة. فقد قال لها والدي يوماً: «الكوميديا الخفيفة تتطلب ملابس جميلة وماكياج متقن وتسريحة شعر أنيقة. ففي هذا النوع من الفن، يفترض بالحركات، لا بالملابس، أن تضحك الناس». وقد علّقت مارثا على ذلك: «إنه محقّ. لكن نصيحته كلفتني الكثير من المال الذي صرت أنفقه على شراء الملابس».

بيدَ أن والدي نبّه مارثا، على وجه الخصوص، إلى ضرورة عدم الإفراط في التدريب قبل الحضور إلى التصوير. وهي المرة الأولى التي يقلل فيها من أهمية التزام إحدى بطلاته بالبروفات. لكن مارثا كانت مختلفة عن الأخريات. فهي ممثلة إيمائية ناشطة كما أن والدي أحسّ على الدوام بأهمية العفوية في مزيجه الكوميدي الفريد. وقد شرح الأمر، ذات مرة، لمارثا قائلاً: «إن أحسست بالملل من نفسك ولم يفرحك ما تقومين به، فإن الجمهور بدوره لن يسرّ بمشاهدتك».

أظن أن كون مارثا ممثلة إيمائية أصلاً هو ما جعل والدي يشعر حيالها بنوع من القرابة. فقد كان يكنّ تقديراً خاصّاً لمهاراتها ولم يصحح أداءها إلّا في مرات نادرة، وهو أمر جعل مارثا تحسّ بالقلق والتوتر، فكانت تسأله عما إذا كان أداؤها صحيحاً، فأجابها والدي في إحدى المرات: «لا تقلقي. هكذا كتبت دورك. إن ارتكبت أيّ خطأ سأخبرك». ثم مضى في نصحها: «يمكنك القيام بما يحلو لك شريطة ألّا يكون ذهنك مبتذلاً. تمتعي بشيء من العبث. دعيهم يبتهجون فهذا ليس سوقيّاً. هنالك أناس يبرعون في الشتيمة، فيما يعجز آخرون عن ذلك. إنها كأية موهبة أخرى، قد تكون موجودة وقد لا تكون. عليك أن تتصرفي على طبيعتك».

وعندما اعترفت له، في أحد الأيام، بمقدار توترها، بدأ والدي يخبرها بمشكلاته: «أنا عصبي للغاية». ثم مضى في القول إن فيلم «مسيو فيردو» هو تجربة جديدة بالنسبة إليه وإنه، في الواقع، يفتقد الصعلوك الصغير الذي خرج في فيلم «الديكتاتور الكبير» ولم يعد، يفتقد سرواله المترهل وقبعته الصغيرة وشاربيه، وقد حلّ مكانه الفرنسي ذو اللحية الزرقاء بشخصيته الغريبة والمنفرة الذي كان عليه أن يصنع من حياته الرهيبة عملاً كوميديّاً يحافظ على التوازن الدقيق بين الكوميديا والتراجيديا، أو بالأحرى، الرعب. وقد تساءلت مارثا: «لماذا أخبرني بتوتره؟ إنه تشارلي شابلن العظيم. وهو ليس مضطرّاً إلى البوح بضعفه». يبدو أنه لم يتبادر إلى ذهنها أنه لا يوجد في العالم

رجل أكثر وحشة من أبي خلال الإنتاج.

لم يتضمن فيلم «مسيو فيردو» الكثير من اللقطات التي أعيد تصويرها كما في أفلام والدي السابقة. بدا أنه يسابق الزمن. فأنجز الفيلم في اثني عشر أسبوعاً، وهو زمن قياسي، بالنسبة إلى أفلام شابلن السابقة، على الرغم من أن الفيلم لم يشهد عرضه الأول إلَّا في شهر نيسان من العام التالي.

لم يحقق فيلم «مسيو فيردو» نجاحاً كبيراً في الولايات المتحدة. فبالإضافة إلى افتقاره عناصر جذب المشاهد الأمريكي، تعرض الفيلم لمقاطعة مجموعات متنوعة اعترض بعضها على الفيلم بحدّ ذاته من حيث إنه يجمل الجريمة، في حين أقرّت مجموعات أخرى بصراحة أن المقاطعة لا تستهدف الفيلم، بحدّ ذاته، بل تستهدف أبي. ففي أيار 1947، مثلاً، أي بعد شهر من العرض الافتتاحي، حاول مالكو ثلاث مئة وخمس وعشرين صالة سينما في أوهايو الدعوة إلى مقاطعة الفيلم على المستوى الوطني لأنهم يعتقدون أنه لا ينبغي «تبديد أوقات العرض الثمينة على شخصية كشابلن». فقد نجح الفيلم، الذي جسد فيه والدي شخصية الرجل الفاسق، في تركيز الاهتمام على حياته الشخصية وتمّ تضخيم كافة الأخطاء التي اتهم بارتكابها حتى بدت أشبه بجرائم كبرى، وهو أمر سأعود إليه لاحقاً.

أما في أوروبا، فقد استقبل فيلم «مسيو فيردو» كتحفة فنية وفاز بعدد من الجوائز وحقق حضوراً مميزاً، على وجه الخصوص، في فرنسا، موطن القاتل الذي يتناوله الفيلم وهو أمر لمسته مارثا راي لمس اليد عندما توجهت إلى فرنسا، بعيد إطلاقه هناك، كي تؤدي عرضاً للقوات الحاضرة هناك. فقد توقفت مارثا في باريس لشراء ملابس من مؤسسة ديور، ولم يكن أمامها إلَّا حوالي ساعة. لكن ديور، الذي كان في خضم التحضير لعرض أزياء، كان قد وضع قاعدة صارمة تحظر بيع أزيائه في مثل تلك الأوقات. انتابت خيبة الأمل مارثا عندما دخل بيير بالمان، مساعد ديور، في ذلك الوقت. قدمت له مارثا نفسها، فهزّ كتفيه لأن اسم مارثا راي لم يعنِ له شيئاً. ثم ألقى نظرة متمعنة عليها وهتف بدهشة: «مدام فيردو!» وأحاطها بذراعيه وطبع قبلة على خديها على الطريقة الفرنسية وصار كل ما تريده ملكاً لها. وقد أخبرتني فيما بعد أنه «لم يكن لشرطي هناك أن يعرف مارثا راي. أما مدام فيردو، فكان الجميع يعرفونها».

أما الأسابيع الاثنا عشر التي أمضتها في العمل مع والدي، فحدثتني عنها مارثا بحماسة كبيرة: «كانت شرفاً لي. كنت لأعمل معه دون مقابل- فقط لمجرد الحصول على فرصة العمل معه. يسألني جميع الكوميديين عن هذه التجربة فأخبرهم، أخبر الجميع، أنني أعتبرها أعظم تجارب

حياتي إلى جانب إنجاب ابنتي».

تركت الجيش، وأنا في الحادية والعشرين من عمري وصرت حرّاً. وفجأة، أصبحت الحياة أكثر الأمور أهمية وصممت على الاستمتاع بكل لحظة منها- الكثير من العطلات والحفلات والفتيات. أما الفتيات اللواتي صرت أحضرهن إلى المنزل، فلم يكنّ فتيات مراهقات طريات العود كما في السابق، بل نجمات صاعدات يتمتعن بالفتنة. أردت أن أسحرهن، فتبنيت كافة نصائح والدي حول كيفية لفت انتباه الفتيات والفوز بقلوبهن. فوالدي، في نهاية الأمر، كان، على الدوام، محط إعجاب النساء اللواتي كنّ يتسابقن للارتماء في أحضانه.

اعتاد والدي على القول: «معظم الرجال يخطئون في ترتيب الأولويات حين يتعلق الأمر بمغازلة امرأة. عليك أن تكون رجلاً مهذباً على الدوام. افتنها بعقلك أولاً وليس بقوتك كرجل. فهذا الأمر يأتي لاحقاً».

كان والدي، من جهة أخرى، يراقب صديقاتنا بعين الأب الذي يدرك أن ابنيه بلغا سنّ الزواج. لم يكن ينتقد أية فتاة ندعوها إلى المنزل للعشاء أو السباحة على الرغم من أنه كان يخضع الفتاة التي لا تعجبه لرقابة شديدة بأرقّ صورها الممكنة، فكان يكتفي بتقليدها بطريقة تبرز مثالبها وقد عرضها بأشد الطرق إحباطاً. كان يحذرنا على الدوام من الجنس الآخر.

ومع كل هذا القدر من النصائح، يصعب على المرء أن لا يفهم سبب بقائي، وسيدني، أعزبين كل هذا الوقت على الرغم من أنه لا يمكن إنكار وجود أسباب أخرى. فالزيجات الأربع التي عرفها كل من والدي ووالدتي والزيجات الثلاث لجدتي أضعفت، على ما أظن، إيماننا بالزواج بوصفه مصدراً للفرح والاستقرار.

من الفتيات اللواتي أحضرتهن إلى المنزل، كانت هنالك فتاة أعجب بها والدي بصورة خاصة. كانت، مثلي، في الحادية والعشرين من العمر، ونجمة مغمورة صاعدة، اسمها نورما جين دوهيرتي، ترتبط بعقد مع شركة فوكس القرن العشرين.

اعتاد والدي على القول: «آه. يا لها من جميلة. يا لهذا المظهر! يعجبني ذوقك يا بني، يعجبني للغاية». كان والدي يتجاذب أطراف الحديث مع نورما جين دون أن أعرف عمّا يتكلمان على الرغم من ثقتي التامة أنه كان الطرف الأكثر كلاماً لأنها كانت تشعر تجاهه بالمهابة، ثم يمازحني بالقول: «لديها أسلوب مميز في الكلام. أليس كذلك؟» ويبدأ بتقليد صوتها الرقيق الذي عرفت به

فيما بعد: «تشارليييي! ماذا سنفعل الليلة؟».

لكن مزاح والدي لم يعنِ تغاضيه عن شيء. كان يعلم أنني بدأت أفكر في هذه الفتاة بطريقة جدية. فقال لي ذات مرة: «حذارِ يا بني. لا تقع في الحبّ بسرعة. أنت تمتلك من الثقافة ما يجنبك الوقوع في الخطأ». لكن والدي لم يكن في حاجة إلى القلق من نورما جين. فقد قالت لي ذات يوم: «حسناً يا تشارليي. لقد أصبح اسمي الآن مارلين مونرو». بدأت مارلين مونرو تصعد نحو القمة بسرعة وكان واجب قسم الإعلان في الاستديو الذي تعاقدت معه ضمان بقاء اسمها حاضراً في الصحف من خلال ترتيب لقاءات هنا وهناك تجمعها بشبان معروفين. هكذا، انفصلت نورما جين عني ولم أرها لسنوات.

لم يتخلَّ والدي عن حلم جعلي، وسيدني، ننال تعليماً جامعيّاً وقد عشت حياتي تواقاً إلى تحقيق رغباته. لكنني عجزت، بعد انتهاء خدمتي العسكرية، عن إلزام نفسي بأربع سنوات إضافية من الانضباط العسكري، وكان الأمر نفسه ينطبق على سيدني وعلى الكثير من الشبان الذين قاطع التجنيد مسيرتهم التعليمية. فحزن والدي للغاية.

كان يقول لي: «كفَّ عن اللهو مع الفتيات وعن إضاعة وقتك يا تشارلز. نل تلك الشهادة وسآخذك معي إلى الاستديو وأعلمك كل ما يتعلق بصناعة السينما. بل إنني سأبتاع من أجلك ذلك البيت الذي أحببته كثيراً».

كان والدي يعلم أنني لم أتخلَّ عن حلم أن أصبح ممثلاً كما أنني أخبرته بعزمي على شراء منزل بالمال الذي ادخره لي عندما كنت صغيراً. كان عرضه، في الواقع، مغرياً لأنني كنت واثقاً بصدقه- لأنه لم يسبق له الحنث بوعد قطعه لي، ناهيكم عن قدرته الكبيرة على الإقناع. ذكرتني تلك المحادثة بأيام الأحد البعيدة تلك عندما كان ينجح في إعادتي إلى مدرسة البلاك فوكس وأنا مفعم بالحماسة لتحقيق درجات مرتفعة.

هكذا استسلمت، إلى حدّ ما على الأقل. فخضعت، من أجل إسعاده، لدورة تكميلية في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. لكنني لم أستطع الكفّ عن التفكير في أنني كنت أضيع وقتي سدًى. وفي نهاية العام تخلّيت، بصورة نهائية، عن فكرة نيل تعليم تقليدي فتركت الجامعة وانضممت إلى فرقة «سيركل ثيتر» المسرحية التي كان سيدني عضواً فيها، ومن هناك، انطلقت إلى معهد «هوليوود أكتورز لابوراتوري».

وفي حقل التمثيل، بدأت الفروق الشخصية بيني وبين سيدني بالبروز. فكما كان سيدني قادراً على

تحدي والدي في ميدان التنس، كذلك كان الأمر هنا، عندما كان والدي يستدعيه من أجل النقد والتدريب، في حين فضلت، أنا نفسي، أن أدرس على يد أساتذة آخرين على الرغم من أنني كنت أحضر، يوميّاً تقريباً، تدريبات سيدني على يد والدي.

أكبرت شجاعة سيدني في قبوله التدرب على يد والدي، لكنني لم أرد ذلك لنفسي. فهو، بالنسبة إليَّ، مثلي الأعلى وكان تهيبي تجاه المكانة التي حققها في عالم التمثيل أكبر من أن أكون قادراً على أن أختطّ لنفسي شخصية مهنية مستقلة تحت إشرافه.

لم يعنِ ذلك أنني لم أكن أرحّب بنقده. فعلى الرغم من أنني لم أتدرب في حضوره، فقد كان حريصاً، على الدوام، على حضور العرض النهائي الذي أقدمه على خشبة المسرح وعلى تزويدي بالملاحظات. كانت ملاحظاته تنصبّ، بصورة رئيسة، على ضبط هذه النقطة أو على تلك، على الرغم من أنه كان، في بعض الأحيان، يقترح إدخال تعديلات كاملة على المشهد برمّته كما في مسرحية «عطلة صانع الأحذية» لتوماس ديكر التي جسدت، فيها، شخصية الملك.

فقد جاء إلى مسرح الأكتورز لاب لمتابعة أدائي في العرض الافتتاحي، وكانت تلك المرة الأولى التي يراني فيها أمثل. أصابني الذعر وتساءلت عمّا يمكن أن يكون عليه رأيه بأدائي. كان، بالنسبة إليَّ في تلك الليلة، المتفرج الوحيد. وأخيراً، طغى، على حين غرة، صوت ضحكته العفوية على ضحكات الآخرين بعد أن كنت قد حاولت، عبثاً، سماع تلك الضحكة المميزة على خشبة مسرح «إيبل ثيتر» وكنت يومها لما أزل طفلاً. أديت دوري بكل ما أملك من إمكانيات.

وعند انتهاء المسرحية، قابلني والدي في الكواليس لتهنئتي وقال لي بصوت ملؤه السعادة، وكأنه قد فوجئ بأنني قادر على التمثيل حقّاً: «لم أعلم قبل الآن كم أنت بارع يا بني». سألته إن كانت لديه أية اقتراحات أو نقد، فوجه ملاحظة تعتبر دليلاً على مقدار قرب فنّه من المذهب الطبيعي: «لقد بالغت، كملك، في مراسم تنصيب الفرسان. فالملك يستل سيفه ويربّت به، دونما تكلف، على كتفَي المرشح قائلاً له: لقد أصبحت فارساً. لأن هذه المراسم تعتبر من صلب واجباته اليومية».

والواقع أن كل ما قدمه والدي على الشاشة كان عفويّاً ومرتجلاً، كشرحه لما يقوم به الملك عند تنصيب فارس. فلم يتبنَّ أيّاً من مدارس فنّ التمثيل المختلفة من ستانيسلافسكي إلى بوليسلافسكي. وكان يقول: «إن كنت ممثلاً بارعاً، فليس عليك أن تقلق حول كيفية تأدية الدور. التمثيل أمر غريزي».

بعد انتهائي من معهد «هوليوود أكتورز لاب»، عدت إلى نيويورك للمشاركة في إحدى

المسرحيات قبل أن أقلّد والدي للمرة الثانية في حضور جمهور، وكان أدائي مختلفاً بما لا يقاس عن ذلك العرض الصبياني الذي قدمته في مسرح «إيبل ثيتر». فسألني كين موراي أن أظهر في الاستعراض الذي يقدمه في مسرح «روكسي ثيتر». فكرت في الأمر مليّاً قبل أن أوافق. وألصقت الشارب الصغير واعتمرت القبعة وأمسكت العكاز وقلّدت والدي أمام ستة آلاف متفرج.

مزق النقاد الاستعراض إرباً على الرغم من أنهم كتبوا عني بشيء من الإطراء. بقيت مع كين في جولته التي استغرقت أسبوعين قبل أن يستدعيني لو والترز لتقديم عرض آخر في الحيّ اللاتيني مقابل عرض مالي مغرٍ، لكنني رفضت. لكن السعر المعروض عليَّ كان يزداد مع اشتداد رفضي حتى أغواني بالفعل وأوشكت على القبول قبل أن أرفض العرض تماماً لأنني لم أكن أرغب في أن أوسم بأنني مجرد مقلّد لوالدي، بل كنت أسعى إلى أن أكون ممثلاً يختط لنفسه دربه الخاص. هكذا، عدت إلى هوليوود. وفي طريق عودتي، أدركت، فجأة، أنني مضطر إلى مواجهة والدي وأخذت أتساءل عن رأيه في كوني أقلّده.

كنت أدرك كم هو صلب تجاه من حاولوا استغلال أبنائه. فهل يعتقد أن كين موراي استغلني؟ هل يعتقد أنني كنت من الحماقة بما يجعلني أدمر نفسي بتقليده بدل أن أعمل على خلق شخصية خاصة بي؟ هل يظن أنني حاولت ركوب شهرته لكسب المال؟ هل يرى في تقليدي إياه دون استشارته نوعاً من الوقاحة؟ ماذا لو أنه تبرأ مني؟ كان خيالي خصباً للغاية، فبدأت أتصور نفسي وقد انفصلت عنه إلى الأبد على الرغم من أنني كنت أحبّه ولم أكن أرغب في شيء أكثر من أن يحبّني.

والأسوأ أنني أصبحت، بعد عودتي إلى هوليوود، أخشى حتى من مجرد مواجهته والتعرف إلى حقيقة موقفه مني. هكذا انتظرت أسبوعين مقدماً لنفسي كل المبررات لعدم اتصالي به. وفي أحد الأيام، ذهبت إليه وكان جالساً على الأريكة في غرفة المعيشة بانتظاري. فبادرني بالقول عند دخولي: «كيف حالك يا بني؟ سمعت أنك قدمت أداء جيداً في مسرحيتك مع فريدريك مارتش». غمغمت: «شكراً يا أبي». «سمعت أنك ظهرت كذلك على خشبة مسرح روكسي ثيتر». «نعم. هذا صحيح يا والدي». «سمعت أنك قلدتني...» ثم توقف عن الكلام قبل أن يتابع: «... وأن أداءك كان ممتازاً».

يا للراحة التي أحسست بها! تساءلت، وأنا أراه جالساً هناك مع كل ذلك المزاج المرح، كيف راودني كل ذلك الخوف منه. أحسست بشيء من الحماقة. إنه والدي وأنا ابنه. هكذا كانت الأمور بيننا على الدوام.

ثم تابع والدي القول: «أظن أن الأمر مسلٍّ. هلّا قلّدتني أمامي؟».

فجأة ارتبكت وقلت له: «لا. لا أجرؤ. لا أمتلك الجرأة».

استمرّ في مداهنتي لكنني لم ألن. لم يكن لي، حينذاك ولا في أيّ وقت لاحق، أن أقلّده في حضوره، على الرغم من إلحاحه المستمر عليَّ، في حين استطعت، دون تردد، تقليد شخصية مشهورة أخرى متمثلة في والتر غيسكينغ، أعظم عازفي الكولوراتورا على البيانو في عصرنا وسعدت برؤيته يضحك من ذلك بصخب. أما والدي، فأمره مختلف. فهو ليس أعظم الإيمائيين في العالم على الإطلاق، بل هو والدي، كذلك.

لا يمكنني الجزم إن كانت فقرة التقليد التي قدمتها في استعراض كين موراي أعانتني على التقدم في مسيرتي المهنية أم إنها أضرّت بي. فالمشكلة التي أعاني منها تلازمني منذ البداية: وهي شبهي بوالدي وكون الكثير من حركاتي تشبه حركاته. بل إن المخرجين كانوا يميلون، في اختبارات الأداء، إلى نعتي بالصعلوك الصغير أو السكير. كما كان عليَّ، على الدوام، أن أكافح كي لا تكون الأدوار التي ألعبها خارج سياق المسرحية وأن لا تكون مكتوبة لهدف واحد هو إظهار نجل تشارلي شابلن الذائع الصيت يقلّد والده.

في النصف الثاني من عام 1951، وكنت آنذاك، في السادسة والعشرين من العمر، بدأ والدي تصوير فيلم «أضواء الشهرة» الذي استمر في العمل عليه طيلة السنوات الخمس الفائتة، ولعب سيدني، فيه، دور البطولة الشبابية. كان والدي حريصاً على اختيار الممثل المناسب لأداء الدور، وهي قاعدة لا تستثني أفراد الأسرة. والواقع أن والدي كان في حاجة إلى شاب فارع الطول كي يظهر قصر قامته مقارنة به وكان سيدني، بطوله الذي يزيد عن مئة وثمانين سنتيمتراً، أطول أفراد الأسرة، ناهيكم عن أن والدي عمل مع سيدني سنوات طوالاً كان، خلالها، يكتب دوراً يتمحور حوله. وعند عودتي إلى هوليوود، مارس والدي عليَّ ضغوطاً كبيرة كي أقبل بلعب دور ما في فيلمه، حتى ولو كان دوراً قصيراً.

كان والدي وأونا، بحلول ذلك الوقت، قد أنجبا أربعة أبناء هم جيرالدين ومايكل وجوزيفين وفيكتوريا الصغيرة التي كانت قد ولدت في الربيع الماضي. وكان والدي يسعى إلى إشراك الأطفال الثلاثة الأكبر سنّاً في الفيلم، بالإضافة إليَّ وإلى سيدني، مدفوعاً بأسباب عاطفية جعلته توّاقاً إلى أن يكون فيلم «أضواء الشهرة» شأناً عائليّاً على حدّ قوله. فقد كان، على حدّ قوله، مقتنعاً تماماً أنه سيكون آخر أفلامه وأعظمها على الإطلاق. قال ذلك في استعادة جديدة لنغمة التقاعد على

الرغم من أنه تناول الموضوع برفق هذه المرة.

كان يقول على سبيل المثال: «حسناً. أظن أن والدكم سيتقاعد بعد هذا الفيلم. لقد كبر في السنّ». هكذا، بدأ والدي، الذي لم يكن قد بلغ الثالثة والستين إلّا بالكاد، يطلق الدعابات بشأن سنّه. لقد بدا واعياً بوضوح لقضية السنّ على الرغم من أنه لم يكن، حتى في ذلك الحين، يلقي بالاً كبيراً إلى عدد السنوات التي عاشها. فقد كان فتيّاً في روحه على الدوام وعاشقاً للشباب حوله، أو على الأقل لمن يتمتعون بروح الشباب.

تعتبر قصة فيلم «أضواء الشهرة»، التي كتبها والدي بنفسه، سيرة ذاتية رمزية، في جزء كبير منها، استند فيها إلى أيام المسارح اللندنية التي عرفها جيداً في طفولته. وكان، في ذلك الحين، قد لعب دور السكير الذي استرعى اهتمام هوليوود عام 1913 أثناء جولته في الولايات المتحدة مع فرقة كارنو. لكن الشخصية التي جسدها في فيلم «أضواء الشهرة» كانت حزينة، أكثر منها مضحكة.

تدور القصة حول ممثل إيمائي عجوز فقد مكانته في عالم المسرح بسبب إدمانه على الكحول. لكن فتاة كان قد أنقذها من الانتحار تساعده على التعافي وتقع في حبّه. بيدَ أنه، وقد عجز عن تصديق حسن طالعه، شجع على نشوء علاقة عاطفية بينها وبين موسيقي شاب خجول.

لم يكن والدي، أثناء انكبابه على كتابة الفيلم، قد استقر على اسم محدد للعب دور البطولة النسائية، بل إنه قرر، في اللحظة الأخيرة، إشراك كلير بلوم شعوراً منه أن التصوير قد تأخر بما فيه الكفاية.

انطلقت عمليات الإنتاج في بداية كانون الأول 1951 وحددت مهلة التصوير بستة وثلاثين يوماً على الرغم من أنه استغرق، من الناحية الفعلية خمسين يوماً. وأخيراً، جاء الدور عليَّ وعلى سيدني كي نصبح أهدافاً لتوق والدي إلى الكمال الذي لطالما استهدف، عندما كنا أطفالاً، أشخاصاً آخرين. وفي ختام تلك التجربة، ازددت اقتناعاً أكثر من أيّ وقت مضى أن سمعة والدي وشدته في العمل تجعل إثبات من يعملون معه شخصيتهم ضرباً من المستحيل. لا يوجد أحد في العالم يستطيع إدارة والدي كما يدير نفسه، لكنني أحسّ بأن الممثلين الأقل شأناً في أفلامه ربما استفادوا بصورة أكبر لو أن شخصاً آخر أدارهم.

أظن أن والدي، عندما تعلق الأمر بي وبسيدني، كان أكثر تطلباً مما هو مع الآخرين. فلأنه لم يكن يمكن لنا، بصفتنا ابنيه، أن نتمتع بمعاملة تفضيلية، فقد مضى والدي معنا إلى الحدود القصوى، بل

إنه حاول أن يجعل منا عبرة لمن يعتبر، وكان قاسياً، بصورة خاصة، مع سيدني، بصفته البطل الرومانسي الشاب إلى درجة جعلت الأشخاص الذين يحضرون التصوير يرثون له في بعض الأحيان. بيدَ أني لم أسمع سيدني يتبرّم يوماً، بل إنه حافظ على رباطة جأشه وتعلم من والدي وكان جزاؤه الثناء على حسن أدائه في المراجعات الصحفية للفيلم.

صرت، وسيدني، أكبر سنّاً وبدأ والدي يسرّ لنا بمكنونات صدره ويناقش معنا ما كان يريد تحقيقه في أفلامه. كان يحاول تقديم فلسفته في الحياة التي يمكن تلخيصها بشخصية الصعلوك الصغير. تكلم كثيراً، في تلك الأيام، عن الصعلوك الصغير من حيث إن شخصية الممثل الإيمائي، في فيلم «أضواء الشهرة» هي، في الواقع، تجسيد للصعلوك الصغير الذي ازداد سنّاً وحكمة وحزناً. كان والدي يشعر بأن الصعلوك الصغير رمز لرجل العالم الصغير ذاك الذي يسعى، على الدوام، إلى الوصول إلى الأفضل دون أن يفلح فيغادر، لهذا السبب، خشبة الحياة حزيناً كما دخلها في المرة الأولى، وهي ثيمة كفيلة بالكشف عن شعور والدي العميق بانعدام الأمن. فهو يعرف أنه، من الناحية الموضوعية، ممثل كوميدي عظيم. وهو موضوعيّاً كذلك، يتمتع بالشهرة والثروة واحترام زملائه في المهنة. أما ضمنيّاً، فهو لا يزال الرجل الصغير الذي يشعره إخفاقه بالحزن لأنه لم يحقق كل ما حلم بتحقيقه في الحياة. وشعور الأسف هذا يظهر بوضوح في أفلامه، حتى تلك ذات النهاية السعيدة التي تخلّف في المرء، على الرغم من ذلك، طعم الحزن والخسران. إنها فلسفة رجل توّاق إلى الكمال يسعى ما وسعه الأمر ويبذل كل ما لديه من طاقة- كما كانت عليه حال والدي بالتأكيد- دون أن يحقق غايته النهائية التي يبدو أنها قادرة على الإفلات منه على الدوام.

وفيما يتعلق بالأسلوب، يميل والدي إلى إخراج أفلامه بطريقة مسرحية. فهو يؤمن بقوة بضرورة إظهار مسرح الأحداث برمّته بدلاً من اللجوء إلى اللقطات القريبة التي لا يستخدمها إلَّا عند الضرورة القصوى. فاللقطة المقربة، كما اعتاد أن يقول، لا تفيد إلَّا في نقل الحالة الانفعالية للشخصية في حين إن الأمر، في السينما، يتعلق بعرض صورة الحياة ككل- وهي صورة لا يمكن للفرد، مهما كانت أهمية دوره فيها، أن يسهم إلَّا بقسط فيها.

أشعرتني، وسيدني، مشاركتنا في أحد أفلام والدي بقدرتنا على الزعم أننا عملنا تحت إدارة ملك الكوميديا بالاعتزاز على الرغم من أنني لا أستطيع، شخصيّاً، القول إن دوري في فيلم «أضواء الشهرة» هو العمل التمثيلي المفضل بالنسبة إليَّ. فقد كانت متعتي أكبر في لعب دور البطولة في مسرحية «يا للرجال! يا للنساء!» الكوميدية التي شاركت في تقديمها خلال جولة في الجزر البريطانية عام 1956. لكن دوري المفضل كان، بالتأكيد، شخصية فيكتور، الملاك الفرنسي في

مسرحية «الكل من أجل ماري»، مع إدوارد أيفريت هورتون، التي عرضت في مسرح باسادينا عام 1957. فقد أتاح لي ذلك الدور استعراض مواهبي التمثيلية بأسلوبي الخاص. وعندما قرأت المراجعة التي كتبها ديفيد بونغارد في صحيفة «لوس أنجلوس هيرالد إكسبرس»، أشعرني الحكم عليَّ من خلال قدراتي الذاتية بالسرور. فقد كتب السيد بونغارد: «من الأمور الملفتة مساهمة تشارلز شابلن الابن في المسرحية. إنه ممثّل مكتمل وقد برهن، في هذه المسرحية، عن تمتعه بشبه كبير، من الناحية التقنية، بأعمال والده الكوميدية دون أن يتعمد ذلك. بل مجرد إيماءة هنا وغمزة هناك».

كان ذلك أمراً رائعاً لأنني لم أرغب يوماً في أن أنافس والدي أو أن أمضي حياتي في تقليده على الرغم من أنني ورثت عنه، إلى حدّ ما، مهاراته الإيمائية التي كان، هو نفسه، قد ورثها عن جدته. إن أقصى أمنياتي هي أن أستحق حمل الاسم الذي أحمله- اسم شابلن الذي يحتل مكانة رفيعة في عالم المسرح. وقد أشعرني عدم مشاهدة والدي لي في هذا الدور بالأسف.

اكتسبت من خدمتي العسكرية عادة سيئة. لم تكن معاقرة الخمر خلال الحرب مشكلة حقيقية. فقد كنت أشرب، كمعظم الجنود الآخرين، لأنني اكتشفت في الخمر قدرة على تخفيف الضغوط. لكنني عدت إلى الحياة المدنية ووجدت نفسي، على حين غرة، دون ضباط أطيع أوامرهم ودون أن توكل إليَّ مهام تشكل الفرق بين الحياة والموت. هكذا وقعت في فخ معاقرة الخمر دون وجود ما هو قادر على إيقافي.

أجهل ما يجعل بعض الأشخاص يجدون في الخمر مهرباً في حين يتمتع آخرون بالحصانة منه. أعلم أننا، جميعنا، نعاني من مشاكل ينبغي لنا العمل على حلّها، ولذلك يصبح الإلقاء باللائمة على الظروف ضرباً من الحماقة. فالأمر مدفوع، إذن، بشيء ما موجود فينا، بشيء لا نستدعيه بإرادتنا- سمّوه، إن شئتم، القدر أو الاستعداد الذاتي- يجعل البعض منا مدمنين.

رأيت، في سيدني، على الدوام، إنساناً يعيش حياته بالطول والعرض، لكنني اكتشفت أنه عاد من الحرب ببعض المشاكل على الرغم من أن الخمر لم يكن منها. فقد وجد نفسه، هو من كان يبثّ الحياة في كل ما حوله، عاجزاً عن الاختلاط بالآخرين. فكان يذهب إلى الحفلات وينزوي في ركن ولا ينطق بكلمة واحدة طيلة السهرة. هكذا، قرر سيدني، بعد أن اختبر انهياره الأول على خشبة المسرح، أن يحمل مشكلاته إلى معالج نفسي، كما أعرب عن استعداده لدفع تكاليف علاجي النفسي كذلك لأنه رأى كيف تحسنت أوضاعه مع مداومته على العلاج. فقد قال لي ذات مرة: «بحق الجحيم يا تشاك. لديَّ ما يكفي من المال. يمكنني أن أسجله على حساب ضريبة الدخل المترتبة عليَّ». تأثرت بعرض سيدني السخي وبطيبة قلبه. لكنني هززت رأسي رفضاً. فقد كنت، كما سيدني، أتمتع بروح الاستقلال، وإن بطريقة مختلفة عنه. فقلت له: «لا يا سيدني. أفضل الاهتمام بشؤوني بنفسي. لن يفيدني الاعتماد عليك في شيء».

خرجت مشكلتي إلى حيز العلن- والواقع أن إحدى مشاكل الإدمان على الخمر هي أنها تجعلك تبدو كالأحمق أمام الناس- في ليلة رأس السنة، خلال الفترة التي أمضيتها في الأكتورز لاب. كنت قد تناولت عدداً من الكؤوس وارتكبت خطيئة قيادة السيارة تحت تأثير الكحول كي أجد نفسي نزيل سجن لينكولن هايتس في لوس أنجلوس. كانت جميع المقاعد مشغولة، فوضعت صفحة من جريدة على الأرض وتمددت عليها. رغبت في الموت بهدوء في تلك الزنزانة وسط التعسين الآخرين

المحتجزين معي. كانوا، جميعاً، يتمتعون بفضيلة كونهم مغمورين. أما أنا، فأدركت، على الفور، أنني لن أكون قادراً على الاستفادة من هذه الميزة حتى في عتمة الزنزانة.

ولم تمضِ أكثر من عشرين دقيقة حتى حصل ما كنت أنتظره. فقد أنيرت جميع الأضواء وسمعت أصواتاً ووقع خطى كثيرة وصليل أبواب. وفجأة، اقتحم الزنزانة حوالي عشرة صحفيين برفقة رجل شرطة وقد جاؤوا لسماع القصة مني، ليس لأنني مجرد إنسان عادي، بل لأنني ابن رجل مشهور.

لقد كنت أعي فداحة الخطأ الذي ارتكبته وكنت مستعدّاً لدفع الثمن عن طيب خاطر. لكن ظلم تعريضي للأضواء لمجرد كوني أحمل لقب شابلن ملأني بالغضب. أنا، في الأحوال الطبيعية، لطيف مع الصحفيين، بل إن بعضهم أصدقائي وأنا أعي أن الصحفي مكلف بعمل عليه أن ينجزه. لكنني كرهتهم، جميعاً، في تلك اللحظة وبدأت أطلق عليهم كل ما توارد إلى تفكيري من نعوت مع إدراكي التام لضرورة ضبط أعصابي لأنني كنت تحت رحمتهم. لكنني عجزت عن منع الكلمات من الخروج من فمي، فصببت عليهم، على شكل شتائم، جام الغضب الأعمى الذي كان يعتمل في صدري. أظن أنني، في تلك اللحظة، تجرعت، حتى الثمالة، كل مشاعر الجور الرهيبة التي ملأت صدر والدي أثناء تعرضه، على منصة الشهود، لحملات الإزعاج والتسخيف التي شنّها السيد سكوت عليه. لا يوجد من الكلمات ما يكفي لوصف معاناة إجبارك على مجابهة الهجوم أعزل وتعرضك لكل أشكال المهانة على يد أخيك الإنسان.

صرخت فيهم قائلاً: «أصغوا إليَّ. أعلم أنهم يحاولون جعلي في المحكمة عبرة للآخرين بسبب الإرث الذي أحمله، مهما يكن ذلك الإرث. لكن ما الذي يجبرني على تحمل هذا الموقف كذلك؟».

وفي تلك اللحظة، أخذت أهدد المصورين، لكنهم ضحكوا مني قبل أن يفتح رجل الشرطة باب الزنزانة ويلوي ذراعي من أجل التقاط صورة أخيرة أظهر فيها كمجرم خطر.

حددت قيمة الكفالة في الثانية والنصف بعد منتصف الليل تقريباً وتكفل أحد الأصدقاء بدفعها وأطلق سراحي في السادسة صباحاً. أصبحت رجلاً حرّاً من جديد، لكن الإحساس بكوني مجرماً لم يفارقني. خالجني شعور فظيع بالندم وقد، جعلتني هذه التجربة أصحو، فهمت على وجهي في انتظار صدور الصحف واشتريتها كلها دون أن ألقي عليها ولو نظرة.

سألني بائع الصحف: «هل حدث أمر هام؟» فقلت له وأنا أحاول إخفاء وجهي بسبب علمي، دون أن أنظر، أن صورتي ستتصدر الصفحة الأولى: «لا... لا».

توجهت بالصحف إلى مكتب محامي، ماكس غيلفورد. كنت في حالة يرثى لها، بملابسي المجعدة ولحيتي الطليقة. أخبرت ماكس بما حصل فحاول تهوين الأمر قائلاً: «حسناً. أعلم. أنا، نفسي، ثملت ذات يوم. لقد أفرطت قليلاً». ثم أمر لي ببعض القهوة.

راجعنا الصحف في أثناء احتسائي القهوة وشاهدت نفسي على الصفحات الأولى مع عناوين رئيسة وصورة لي وأنا أزمجر من خلف القضبان وكأنني في حديقة حيوان. وقد علمت من بوليت، فيما بعد، أن القصة وجدت مكاناً لها، كذلك، في صحف فرنسا التي كانت موجودة فيها، في تلك الفترة.

ساءني ما رأيته فرمقني ماكس بنظرة تعاطف وطلب مني أن أذهب إلى البيت على أن أعود إليه، في اليوم التالي، كي نناقش الموقف. أخبرته أن وضعي المالي سيّئ لأنني كنت قد اشتريت منزلاً باستخدام المدخرات التي كان والدي قد تركها لي حتى أبلغ الحادية والعشرين. وعلى الرغم من أنني كنت لا أزال أتلقى عائدات حسابي الائتماني التي تصل إلى خمس مئة دولار شهريّاً تقريباً، إلّا أن الأقساط والديون المختلفة كانت تستنزف ذلك المال بصورة محزنة. أعرب ماكس عن تفهمه لوضعي وطمأنني قائلاً إنه سيتقاضى مني خمسين دولاراً فحسب.

غادرت مكتبه وذهبت إلى منزل والدتي وجدتي اللتين جعلهما مظهري الخارجي تدركان المشاعر التي تكتنفني، فحاولتا التخفيف عني. لكن الأسوأ كان ما هو قادم. كنت أتخيل مقدار الصدمة التي أصابت والدي. تخيلته منكباً على الصحف بصمت كما يفعل صبيحة كل يوم أثناء احتسائه القهوة، ورأيته يهبّ على قدميه فجأة، وقد قرأ العناوين ورأى الصور الكريهة، ويذرع المكان جيئة وذهاباً ويتحدث مع نفسه عن ابنه الضال- غاضباً ومتألماً في الآن عينه. فكيف لي أن أقابله؟

انتظرت حتى وقت متأخر من ذلك اليوم عسى أن يكون قد تعافى من الصدمة التي تلقاها، ثم اتصلت به وسألته عن إمكانية زيارته. فلم يمانع بالطبع. حلقت ذقني واستحممت وارتديت ملابسي وذهبت إلى المنزل. عبرت الرواق إلى غرفة الدراسة حيث كان في انتظاري ولم يكن يرعد ويزبد، بل كان هادئاً للغاية ووجهه خالٍ من أيّ تعبير. وقال: «اجلس يا بني» ثم بدأ يكلمني. لم يشر إلى عناوين الصحف ولا إلى الصور الرهيبة أو العار الذي لحق بي. لكن القلق كان بادياً عليه بوضوح.

قال بنبرة جدية: «تعلم أن معاقرة الخمر عادة سيئة. لقد قتل الخمر جدك في ثلاثينيات عمره. آمل أن لا تصبح مثله. أنت تعلم أن الخمر قد يقتلك إن لم تراقب نفسك». ثم مضى في القول: «جميعنا نرتكب الأخطاء طبعاً. وهم لم يتعاملوا معك بطريقة لائقة. لكن يجب أن لا تقود سيارة عندما تكون

ثملاً. إذ يمكنك أن تلحق الضرر بنفسك أو بالآخرين».

كان إصغائي إليه وسماعي نبرة القلق الحقيقي في صوته، بدلاً من الانتقاد الذي توقعت تلقّيه، كفيلاً بجعل ندمي أعمق. فاعترفت له: «حسناً. أنا حزين للغاية». وماذا كنت أستطيع أن أقول؟

نهضت استعداداً للرحيل، فنهض أبي بدوره واقترب مني وأحاطني بذراعه وقال: «لا تقلق يا تشارلز. إن احتجت إلى أية مساعدة، فأخبرني». كنت أدرك أنه يقصد التكفل بالنفقات- المحامي والغرامة- إن طلبت منه ذلك. كان بإمكاني الاتكال عليه، لكن التخلص من هذه الفوضى كان واجبي أنا. وقد أخبرته بذلك فمازحني لكنني استطعت أن أرى نظرة الاحترام في عينيه لرفضي عرضه واستعدادي لتحمل مسؤولياتي عن الأخطاء التي ارتكبتها. وفجأة، شعرت بأن حالي صارت أفضل.

بلغت الغرامة الواجبة عليَّ مئة وخمسين دولاراً اقترضتها من المصرف. كما خضعت لإطلاق سراح مشروط لمدة ستة أشهر منعت خلالها من ارتياد الحانات.

استمرت مخاوف والدي بشأني مدة طويلة بعد الحادثة. شعرت بأنه يؤمن أن الضعف تجاه الخمر أمر موروث نقله لي جدي وأنه لا يوجد ما ينبغي لومي عليه. هكذا استمر في مراقبتي على أمل حمايتي من الخمر. أتذكّر أنني، في إحدى الليالي، خلال فترة إطلاق السراح المشروط، أفرطت في الشرب أثناء حفلة كبيرة أقيمت في منزله. لم أصنع ضجة كبيرة حولي، بل التزمت الجلوس في ركن من المنزل وكنت شبه دائخ أحاول إبعاد شبهة الثمالة عن نفسي قدر الإمكان. وفي اليوم التالي، ناداني والدي وقال لي بنبرة عتاب: «لقد أفرطت في الشرب بعض الشيء في الليلة الماضية يا بني. لقد كنت أراقبك». فأجبته: «آسف يا والدي. آمل ألّا أكون قد جلبت العار عليك». وأخذت أعتذر منه. فقال للتخفيف عني: «لا. لا. لقد كان ذلك في نهاية الأمسية ولم تجعل من نفسك أضحوكة. بيدَ أنني اضطررت، بعد انصراف الجميع، إلى مساعدتك على صعود الدرج إلى غرفتك. لقد كنت تترنح». ثم ذكرني، مرة أخرى، بجدّي الذي توفي، في ريعان شبابه، نتيجة معاقرة الخمر. كان يتذكر ذلك الأمر على الدوام ووجهه ينضح بالحزن والصدمة اللذين أصاباه عند وفاة ذلك الرجل الساحر والبائس في الوقت نفسه.

أنا سكير مثابر. وقد حصل، مرة واحدة، في بداية مسيرتي المهنية أن خسرت عملاً بسبب الخمر. كنت، في ذلك اليوم، قد أفرطت في الشرب نتيجة شجار مع الفتاة التي كانت خطيبتي وفوت الطائرة المتجهة إلى بوسطن حيث كان عليَّ أن أشارك في بروفة مسرحية يخرجها غارسون

كانين. وصلت إلى التدريب متأخراً في فترة بعد الظهيرة وكان الممثلون قد أمضوا النهار كلّه في المسرح فقرعني كانين أمامهم. أصابني، بالطبع، إحراج كبير لكنني استحققت ذلك التقريع ولم أستأ منه وحافظت على صداقتي معه حتى اليوم.

وفي مساء اليوم التالي، جاءني مدير الخشبة، الذي كان واحداً من أصدقائي المقربين، بأوراق فصلي. لكنهم عاملوني بنزاهة، فلم يشوا بي لمجلس نقابة الممثلين. وكنت، بالطبع، غنيّاً عن تلقّي عقوبة إضافية لأن إحساسي بالذنب كان يعذبني. فقد تساءلت عمّا يمكن لوالدي أن يظن بي. لكنني أعتقد أنه لم يسمع بالقصة وهو أمر أشعرني بالامتنان لأنه يتمتع بضمير حيّ تماماً حينما يتعلق الأمر بمهنته. بدا لي، في تلك اللحظة، أنني خذلته، كما خذلت نفسي وأنني مسؤول عن تلك البقعة السوداء التي لطخت سمعة أسرتي التي استغرق في بنائها سنوات طويلة من خلال الجدّ والإخلاص للعمل. تلك كانت الأشياء التي كنت أقولها لنفسي. لم أكن، في تلك الأيام أفكر، بل كنت أتألم فحسب. لكنني حزمت أمري، في نهاية المطاف، وقررت أن لا أقارب الخمر عندما أعمل. وقد حافظت على هذا العهد بإخلاص جعلني معروفاً اليوم بالالتزام أثناء العمل.

التمثيل بالنسبة إليَّ واجب ودعوة حقيقية وعمل خلاق. وهذه القناعة هي ما جعلني أحسّ بالرهبة تجاه والدي مذ كنت غلاماً وهو ما جعلني، على الدوام، أتصل به قبل أن أمرّ لزيارته.

بل إنني اتصلت، ذات يوم، بشقيقي سيدني، لدى ذهابي إلى نيويورك عندما كان مشغولاً بمسرحية «الأجراس تقرع»، كي أتأكد أنني لا أقاطعه أثناء العمل. فصرخ وقد أدهشه تصرفي الرسمي: «ماذا تقول يا تشاك؟ يمكنك القدوم بالتأكيد». فذهبت إليه كي أهنئه على نجاحه، لكنه قلل من أهمية الأمر قائلاً: «اللعنة يا تشاك. أنا لست بممثل. أنا رجل أعمال». فهتفت متعجباً: «رجل أعمال!». صدمني ما قاله بحق لأنني كنت أظن، دائماً، أن سيدني ممثل رائع في حين إنه يتكلم عن الفن وكأنه مجرد مهنة.

لكن سيدني محظوظ بالطبع. فهو يتمتع بالموضوعية التي تنقصني على الرغم من أنني لم أعتقد، ولو لدقيقة، أنه ينظر إلى نفسه بوصفه مجرد رجل أعمال. فأنا أعلم أنه، في أعماق نفسه، يفخر أن الآخرين يقولون عنه إنه فنان.

يوقعني ذلك التقديس لمهنة التمثيل بالمشاكل أحياناً. فأنا لست، في واقع الأمر، في حاجة إلى التمثيل كي أعيش، لأن مواردي من حسابي الائتماني تكفيني. لكنني أطمح إلى ما هو أكثر من ذلك. أطمح في تحقيق أمر ما كممثل. وعندما تصبح الأمور سيئة ولا أجد لنفسي مكاناً في مهنتي،

وعندما يصبح الصمت ردّي الوحيد عن سؤال البعض: «ماذا تفعل هذه الأيام يا تشارلي؟»، في لحظات كهذه أجد نفسي أشرب.

أن يكون المرء ابناً لممثل معروف وحاملاً لاسمه، ولا سيما إن كان يرغب في أن يكون ممثلاً، كذلك، أمر له بعض العواقب. فهو لا يستطيع صعود السلم من بدايته، كما هي الحال مع المبتدئين الآخرين، لأنه يكون شخصاً معروفاً على الرغم من أنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه الشهرة، كما أنه يصبح موضوعاً لمقارنات سخيفة تضعه في مواقف محرجة. وهذا ما حصل معي، مثلاً، عندما كان لديَّ موعد مع المنتج ثيرون بامبرغر، من أجل اختبار أداء للعب دور في إحدى المسرحيات التي كان مقرراً أن تعرض في مسرح باكس كاونتي في بنسلفانيا. ذهبت إلى مكتب السيد بامبرغر في نيويورك من أجل المقابلة، فأبقاني منتظراً نصف ساعة. وأخيراً دعيت إلى الداخل، فوجدته هناك وصحيفة مفتوحة أمام وجهه. لم يضع الصحيفة جانباً ولم يرحّب بي، بل إنه لم ينظر إليَّ، بل بقي صامتاً لبرهة ثم قال لي، من وراء الصحيفة: «هل أنت عظيم مثله؟». أيّ ردّ عن سؤال كهذا يمكن للمرء تقديمه؟ اكتفيت بالاستدارة والانصراف دون أن أقول كلمة وسمعته يناديني لكنني لم ألتفت إلى الوراء.

أمضيت، كذلك، سنوات كنت، خلالها، مضطرّاً لمجابهة عائق إضافي يتعلق باسمي. إنه صفة الشيوعي التي ألصقت بوالدي والتي يبدو أنها، بطريقة ما، وجدت طريقها إليَّ وأخافت المنتجين الذين كان يمكن أن يفكروا في إشراكي في أعمالهم. ربما كان سيدني أكثر حكمة مني في ذهابه إلى نيويورك وتركيزه على المسرح. فمنتجو المسرح، لحسن الحظ، غير معنيين بالرأي العام بقدر المنتجين السينمائيين أو منتجي البرامج التلفزيونية. فعندما غادر والدي البلاد بسمعة ملطخة وحظرت أفلامه، صار اسم تشارلي شابلن قاتلاً حقيقيّاً لشبابيك التذاكر. بيدَ أنني بقيت في هوليوود لأنها موطني ولأنني أحبّها ولأنني بقيت آمل أن أصل إلى اللحظة التي يبرأ فيها اسمي. لكنني لا أستطيع القول إن خياري هذا لم يجعل الأمور صعبة عليَّ.

أنا أُسأل عن هذا الأمر على الدوام: «هل أنت شيوعي كوالدك؟» وهي الصيغة المستعملة إن كان السائل وقحاً. فيغضبني ذلك لأنه لم يبدر عني، يوماً، ما يمكن أن يؤدي إلى التشكيك بولائي إلى الولايات المتحدة. لقد حاربت من أجل وطني بإرادتي ولا أزال مستعدّاً للقتال مرة أخرى ضد أيّ عدوّ إن اقتضى الأمر ذلك. في حين يصوغ آخرون السؤال بطريقة أكثر لياقة: «هل والدك شيوعي حقّاً؟» وهؤلاء هم المهتمون بسماع وجهة نظري.

والواقع أنني اعتدت على الانخراط في نقاشات طويلة وحامية من أجل توضيح كيف أنني لست

شيوعيّاً. لكن المشكلة تكمن عندما تلتقي بعدد كبير من الناس وتحاول الإجابة عن سؤال كل واحد منهم على حدة. عندها ستمضي حياتك في تبرير نفسك للآخرين. هكذا، اعتمدت مقاربة مختلفة تقوم على القول: «انظر. أظن أن هذا السؤال سخيف للغاية. لماذا لا تقلب الحقائق كي تكتشف الإجابة بنفسك؟ أما إن أردت جواباً قصيراً ومباشراً فسأقوله لك في الحال: إنه ليس شيوعيّاً ولم يكن كذلك في أيّ يوم مضى».

لكن كيف حدث أن اعتبر والدي شيوعيّاً أو ربما متعاطفاً مع الشيوعية؟ تلك هي سخرية الأقدار الثانية في مسيرته المهنية الطويلة، بعد أن وصم، من قبل، بالتهتك.

يضحك ديفيد راسكين، الذي أحبّ أن يصف نفسه، في الثلاثينيات، بأنه اشتراكي، عندما يتذكر أن أفكاره السياسية، على اعتدالها، كانت أكثر تطرفاً من أن يتحملها أبي، وكيف أنه كان يسخر منه بسبب تلك الأفكار. بل إن والدي عرض راسكين لسخرية هـ. ج. ويلز، عند قدومه إلى البلاد عام 1936، بسبب أفكاره السياسية. فقد سأله ويلز، عندما التقيا للمرة الأولى، بلهجة بريطانية فخمة: «سمعت أنك قرنفلي أيها العجوز». أجابه راسكين، وقد بدأ القلق ينتابه من أن يصبح هدفاً للسخرية: «الأمر يعتمد على ما تعنيه». فردّ ويلز عليه بطول أناة: «أقصد إنه لون جميل عتيق الطراز»، في حين ارتسمت على وجه والدي ابتسامة سعادة بسبب الضيق البادي على راسكين.

لكن، على الرغم من معارضة والدي الصريحة لأفكار ديفيد الاشتراكية، إلَّا أنه كان، على الدوام، صادقاً في اهتمامه بالكادحين، وهو أمر تدل عليه معاملته للموظفين في الاستديو. كان يعتقد دائماً أن تآكل الأحوال المادية لمن هم أشد فقراً هو أسوأ أشكال المعاناة. أتذكّر مقدار رعبه من الفقر المدقع الذي عاينه في الهند أثناء زيارته تلك البلاد ومقدار تقديره للمهاتما غاندي الذي انضم طوعاً إلى طبقة المنبوذين في حين كان بإمكانه أن يستمتع برغد العيش. لم يكن غاندي ألمع الرجال الذين التقاهم في حياته، على حدّ قوله، بل أكثرهم شبهاً بالله كذلك.

كما أن والدي أعرب، ذات مرة، عن إعجابه برامسي مكدونالد بسبب الاهتمام الذي أظهره بحقوق عامة الناس. وخلال رحلته إلى إنكلترا، عام 1931، عرج والدي على مزرعة مكدونالد، وشهد قيام رئيس الوزراء بالإيعاز، بفظاظة، إلى مجموعة من الناس، كانوا يستمتعون بنزهتهم في ركن ناءٍ من أرضه، أن يغادروا. أما والدي، الذي ربما تكون المثالية في السياسة في عصر تسوده النفعية خطأه الرئيس، فقد صدمه هذا السلوك غير الأخلاقي فقطع علاقته مع مكدونالد، بل إنه رفض أن يظهر معه في أية صورة مشتركة.

يعتنق والدي إيماناً عميقاً حتى التعصب، مؤداه أنه يجب إحلال السلام في العالم بطريقة أو بأخرى. كان، في بعض الأحيان يقول لي على سبيل المزاح: «لماذا لا نقبض على زعماء الدول المتحاربة وننزع عنهم ثيابهم ونضعهم في حلبة يتصارعون فيها؟ حيث يمكننا أن نرى مختلف

الأشكال من طوال القامة إلى قصارها ومن السمان إلى النحيلين. سيكون منظرهم المضحك كفيلاً بإنهاء الصراع هناك».

وبسبب شعوره أن الروح الوطنية تولد الحروب، عارض والدي، على الدوام، حشو أدمغة الأطفال بالأفكار القومية المتطرفة، وكان يقول إن ذلك كفيل بجعلهم ينظرون إلى الأمم الأخرى والأعراق الأخرى بطريقة متعالية، وإن ذلك يقود إلى نشوء دول قومية على شاكلة ألمانيا النازية. ولذلك، يحبّ والدي أن يصف نفسه بأنه عالمي. وكان قد أعرب عن بالغ تقديره لويندل ويلكي، المرشح الجمهوري في انتخابات عام 1940، من أجل مناداته بتبني سياسة «عالم واحد».

باستثناء تلك القناعات، تعتبر أفكار والدي السياسية محافظة للغاية. وهو يميل إلى استخراج أفضل ما في النظم السياسية السائدة. فقد اعتاد، من جهة، على الإشادة بهتلر لما أبداه من اهتمام بعامة الشعب وبالأشغال العامة. كما أبدى، من جهة أخرى، موافقته على الطريقة التي أبعد بها الروس فنانيهم عن جبهات القتال والدعم الكبير الذي قدموه لهم. لكنه لم يدرك، إلَّا بعد انتهاء الحرب، أن الروس، مع حرصهم على توفير رغد العيش لمبدعيهم، كانوا يجبرونهم على تسخير مواهبهم خدمة لغاياتهم البروباغندية فخاب أمله منهم، كما خاب من رئيس الوزراء مكدونالد، من قبل. أما من الشرق الأقصى، فقد أضاف إلى خليط أفكاره النزعة السلمية التي تتمتع بها الصوفية البوذية. وكان ارتباطه بإنكلترا عاطفيّاً دافئاً على الدوام. كما أن جذوره ضاربة في معاناة سكان الأحياء العشوائية في كينينغتون بعمق لم يسمح له بالإفلات من تلك الشوارع القذرة التي كان الصعلوك الصغير رمزاً لها.

أما الولايات المتحدة، فقد كانت، بالنسبة إليه، مثلاً أعلى، أكثر من أية أمة أخرى. لقد أحبّها- بشعبها ككل وبأفراد هذا الشعب كل على حدة وبالمنزل الذي بناه على قمة التل الذي كان المنزل الحقيقي الأول الذي اقتناه. لقد أحسّ على الدوام بعمق انتمائه إلى أمريكا بما تحمله من آفاق حرية الفكر والمعتقد وتشديدها على أهمية الفرد.

كان والدي يستمتع بتجميع تلك الأفكار التي جمعها من مختلف البلدان كي يخلق منها يوتوبيا رائعة، مع كونها غير قابلة للتحقق. تلك كانت سياسته، سياسة مثالية حبلى بالأوهام، سياسة فنان كان قادراً على أن يحتفي برجال دولة كبار مثل ونستون تشرشل والرئيس روزفلت. بيدَ أن والدي لم يبشرنا، أنا وسيدني، بأفكاره السياسية- بل ترك لنا الحرية في هذا المجال، كما في المجالات الأخرى- على الرغم من أنه كان يستمتع بمناقشة أفكاره معنا ومع كل من يمكن أن يصغي إليه. ولأن العديد من نظرياته السياسية كانت تبدو للآخرين شديدة الغرابة، فقد كان قادراً، على الدوام،

على الخوض في نقاشات حامية كان والدي يجد فيها شيئاً من الإثارة الفكرية.

كان الأمر بالنسبة إليه أقرب إلى أن يكون لعبة. كنت أستمع إليه وهو ينافح، بجدية زائفة، في فترة لا تزيد عن الساعة، عن وجهتي نظر متعارضتين للمشكلة نفسها أمام أشخاص مختلفين من أجل اختبار قدرته على جلبهم إلى صفه. كان هذا النوع من تداول الأفكار، بالنسبة إليه، أشبه بمباراة تنس سريعة تحلّ الكلمات، فيها، محل الكرة. بل إن حماسته كانت تصل به، في بعض الأحيان، إلى إطلاق مواقف صارخة يستطيع المرء أن يتبين، بعد تأمل رزين، أنه عبر عن رفضه لها في بداية الحديث.

وكان ذلك يضعه في مأزق لأن عناده لم يكن ليساعده على التراجع، لا سيما أمام الغرباء، على الرغم من أنه كان يبدي، في بعض الأحيان، ما يشبه التراجع حين يتعلق الأمر بي أو بسيدني. «حسناً، أيها الفتيان، لقد غيرت رأيي في الفكرة التي كنت أناقشكما فيها بالأمس». ثم يضيف شيئاً ما، مع ضحكة استنكار خافتة، كما هو شأنه عندما يكون مضطرّاً لإجراء عملية تراجع حذرة: «الفكرة ليست بالقوة التي ظننت أنها عليها بالأمس. بل إنها رديئة للغاية».

وهنالك خصلة أخرى فيه كانت مصدراً للمتاعب في تلك الفترة من حياته هي فضوله القوي تجاه الناس، أيّ نوع من الناس. كان في بعض الأحيان يحسّ بالرغبة في القيام بجولة في حيّ سكيد رو في لوس أنجلوس، فتبدأ استعداداته لهذه الزيارة قبل بضعة أيام من الموعد المحدد لها من خلال إطلاق لحيته ثم يرتدي ملابس رثة لاستكمال عملية التنكر بحيث يصبح الناس هناك عاجزين عن اكتشاف شخصيته كما أذكر.

بدأت أرافقه في بعض تلك الجولات عندما أصبحت أكبر سنّاً. كان السائق يقلّنا إلى وسط المدينة ويتركنا هناك كي نتدبر أمرنا. فيمشي والدي الهوينا في شوارع الحيّ القذرة التي ربما كانت تذكره بأحياء لندن العشوائية ويدخل إلى الحانات لارتشاف كأس ومراقبة الناس حوله والإنصات باهتمام إلى أحاديثهم.

كان يبدي اهتماماً بالغاً بالشخصيات غير المألوفة. بل إنه كان يتبجح بأنه تعرّف ذات مرة إلى رجال عصابات. وقد شرح الأمر بقوله: «أنا معروف تماماً، بطبيعة الحال، والكثير من الناس في العالم السفلي يقدرون الإبداع. لقد بلغ تأثرهم بلقائي مبلغاً جعلهم يعرضون خدماتهم عليَّ». وقد وصف والدي المشهد لي بأسلوب بالغ الدرامية وكرر الكلمات التي استخدمها رجل العصابات بحذافيرها: «إن رغبت في التخلص من أيّ إنسان يا تشارلي، فإننا مستعدون للقيام بذلك. قل كلمة

واحدة فحسب». لقد افتتن والدي برجال العصابات وبولعهم الغريب والفاسد بالإبداع على الرغم من أنه أحسّ بسعادة بالغة في تركهم وشأنهم بعد العرض السخي الذي قدموه له.

فلا ينبغي، والحال كذلك مع هذا الفضول تجاه الناس، أن يفاجئنا تمتع والدي بذائقة غريبة عندما يتعلق الأمر بالضيوف. فقد كان أيّ إنسان مثير للاهتمام موضع ترحيب في المنزل بمعزل عن انتمائه السياسي. إذ ضمت لائحة ضيوفه جمهوريين وديمقراطيين وحمراً وقرنفليين دون أيّ تمييز. بل إن عدداً قليلاً للغاية من الشيوعيين زاروا والدي في السنوات العشر الأخيرة من إقامته في الولايات المتحدة. وشهد منزل والدي المزيد من الألوان القرمزية، فقد كان الانتماء إلى أحد ألوان التدرج السياسي يعتبر مسايراً للموضة. والواقع أن والدي كان يستمتع بصحبة هؤلاء الناس، ليس فقط بسبب أهوائهم السياسية، بل بسبب الآراء الإبداعية التي يقدمونها.

كان والدي معجباً للغاية بهنري والاس الذي زاره ذات مرة للعب التنس. كما حلّ كل من هاري بريدجيز وبول روبسون ضيوفاً في منزله. وعندما زار أسقف كانتربري هيوليت جونسون، المعروف بلقب الأسقف الأحمر بسبب آرائه اليسارية المتطرفة، البلاد، استمتع برفقة أبي الذي اعتبره رجلاً لامعاً للغاية.

أما أكثر ضيوف والدي إثارة للجدل فهو المؤلف الموسيقي هانز إيسلر. لم يعنِ لوالدي شيئاً كونه شقيق غيرهارد إيسلر الذي أصبح اليوم مسؤول الدعاية في ألمانيا الشرقية ولم يستعلم عما إذا كان هانز إيسلر، نفسه، شيوعيّاً. فهو لم يرَ فيه سوى موسيقي خلاق قست عليه الأيام ومدّ له يد العون متجاهلاً الرأي العام لأنه لم يكن يستطيع أن يتحمل رؤية مبدع يعاني من الحرمان، وهي واحدة من الخصال الراسخة في شخصية والدي. فعند خروج بطل التنس العظيم، بيل تيلدن، من السجن بعض قضائه عقوبة فيه بسبب تهم أخلاقية، كان مفلساً تقريباً. وكان يستحيل عليه أن يحصل على عمل بسبب طبيعة التهم الموجهة له كما تجنبه معظم أصدقائه. كان السيد تيلدن، في أيام أسعد، ضيفاً مرحّباً به في منزل والدي الذي كان يعتبره عبقريّاً، وهو الاعتبار الذي جعله يشعر بأنه ملزم بمساعدته ولم يفكر على الإطلاق في حماية سمعته. هكذا وضع والدي ملعب التنس في منزله بتصرف السيد تيلدن الأمر الذي لم يسمح له بالحفاظ على مهاراته في اللعب فحسب، بل أيضاً بكسب بعض المال من خلال الدروس الخاصة. بل إن والدي اشترى دروس تنس لأونا بمئة وخمسين دولاراً.

أما السيد تيلدن شخصيّاً، فكان، من حيث الشخصية، أقرب إلى الأوتوقراطية ولم يكن من نوع الرجال الذين تسهل مساعدتهم. فقد استولى على ملعب التنس بشكل كلّي بحيث كان والدي مضطرّاً

إلى استئذانه قبل استخدامه وكان عليه فضّ الخلافات بين كبير خدمه وتيلدن المشاكس الذي صار التعامل معه صعباً إلى درجة دفعت غالبية الناس إلى الابتعاد عنه. أما والدي، فكان يحتج على سلوكه بضحكة: «ألف لعنة، هذا ما أنا عليه بالضبط أثناء العمل. فعندما أكون هناك، لا أبالي بمن يقف قبالتي أو بما يفعله. لذلك فسلوكه لا يزعجني، بل إني أتفهم ذلك الأمر فيه».

اتفقت آراء كتاب الأعمدة في الصحف الصادرة في المدينة على أن الضوء الذي سلط على والدي بسبب قضية جوان باري كان مسؤولاً إلى حدّ بعيد عن النظر إليه بريبة، كذلك، في الأمور المتعلقة بآرائه السياسية. كان والدي قد أمضى سنوات في المناداة بحلول خيالية على الدوام ومفرطة في راديكاليتها أحياناً لمشاكل العالم دون أن يأخذه أحد على محمل الجدّ. أما المرة الأولى التي وضع فيها، بفظاظة، موضع الاتهام، فكانت، إن أسعفتني ذاكرتي، أثناء محاكمته بتهمة الاتجار بالرقيق الأبيض. عندها فقط، تجشمت لجنة دايس المكلفة بالتحقيق في النشاطات غير الأمريكية عناء البحث في خطاب الجبهة الثانية الذي ألقاه في نيويورك عام 1942. في ذلك الوقت، كانت الجبهة الثانية التي نادى والدي بها قد فتحت بالفعل وكانت روسيا لا تزال حليفة لنا، ولذلك لم يحمل هذا الاتهام الكثير من الثقل. إلّا أن الهجوم الثاني ضد والدي شنّ عام 1945، في الفترة الفاصلة بين محاكمتي إثبات النسب. وكان على رأس الهجوم، هذه المرة، السناتور ويليام لانغر الذي قال إنه في طريقه إلى اقتراح تشريع كفيل بترحيل والدي من البلاد، على أسس أخلاقية، بوصفه أجنبيّاً غير مرغوب فيه. وسرعان ما ردّت وزارة العدل بالقول إن التشريعات القائمة تكفل ترحيل والدي إن وجدته المحكمة مذنباً بأية تهمة. أما الآن، فلا يوجد دليل كافٍ لإصدار قرار بترحيله.

وفي ربيع عام 1946، وقعت حادثة أثارت الشكوك مرة أخرى في انتماءات والدي السياسية. فقد حظي الشاعر والمسرحي السوفياتي كونستانتين سيمونوف، الذي كان في زيارة إلى هوليوود برعاية من وزارة العدل نفسها، بحفاوة والدي والمخرج لويس مايلستون والراحل جون غارفيلد. وقبيل مغادرته، ردّ السيد سيمونوف على حفاوتهم بمثلها داعياً إياهم إلى وليمة على ظهر ناقلة نفط سوفياتية كانت راسية في ميناء لونغ بيتش. وقد لبّى الرجال الثلاثة الدعوة. إذ كان رفضها سيعتبر انتهاكاً لأصول اللياقة وحسن الإرادة الدولية على حدّ سواء.

والواقع أن الأهمية التي عزيت إلى تلك الحادثة تبدو، في المناخات الأكثر هدوءاً التي نعيشها اليوم، ضرباً من الجنون. فموقفنا الدبلوماسي تجاه روسيا، اليوم، لا يختلف عن موقفنا منها في حقبة حادثة سيمونوف عام 1946. وعلى الرغم من ذلك، لا يتعرض أحد، اليوم، للانتقاد بسبب

زيارته لروسيا، ناهيكم عن الحلول ضيفاً على إحدى ناقلات نفطها الراسية على شواطئنا. بل إن أيّ مواطن أمريكي حكيم بمعزل عن الحزب الذي يؤيده لا بُدَّ من أن يجد ما يسليه في استعراض أسماء المسؤولين الحكوميين الذين أبدوا حماسة فائقة للقاء الزعماء الروس هنا وفي روسيا على حدّ سواء. بل إن بعض هؤلاء المسؤولين ينتمون إلى المعسكر نفسه الذي ساط والدي بلا رحمة بسبب مواقفه المنادية بعالم واحد عام 1946.

لم يقم والدي بأية رحلة إلى روسيا، بيدَ أن زيارة عابرة قام بها برفقة شاعر روسي بدت للكثيرين برهاناً أكيداً على تعاطفه مع الشيوعية. وقد كتب عن هذا الأمر في الصحف الكثير من القصص في ذلك الوقت. كما أن السيناتور في مجلس شيوخ ولاية كاليفورنيا جاك تيني كلف اثنين من المحققين بتحري ما قد يكتنف تلك القصة من أمور غير أمريكية.

وعندما سألت الصحافة مايلستون وغارفيلد ووالدي التعليق، قدم مايلستون وغارفيلد ردوداً عقلانية. أما والدي فرفض التعليق في خصلة أخرى سببت له قدراً كبيراً من المتاعب هي صلاته الضعيفة برجال الصحافة. فقد كان يخشى الصحافة على الدوام بسبب السلطة التي تتمتع بها. بل إني لم أره يوماً في حالة من التوتر كتلك التي كنت أراه عليها عند استعداده للقاء صحفي.

أتذكّر أمراً حصل منذ بضع سنوات مضت عندما أقلتني لويلا بارسونز من مدرسة البلاك فوكس إلى وادي سان فرنسيسكو للقاء والدي في إحدى الحفلات. في ذلك اليوم، نبهني والدي بقلق إلى ما يمكن أن أقوله وإلى ما لا يجب أن أقوله في أثناء تلك الرحلة الطويلة بالسيارة. إذ كنت لما أزل فتيّاً للغاية، وقد كان حريصاً على جعلي متحفظاً في الكلام. فقد قال لي بتوجس: «تذكر هذا الأمر يا بني. إنها صحفية ومراسلة بارعة للغاية. حاول أن تكون ردودك عن أسئلتها قصيرة لا تزيد عن نعم أو لا قدر الإمكان».

لم تبهرني قدرات الآنسة بارسونز التحريرية في ذلك اليوم. فقد طرحت عليَّ الكثير من الأسئلة، لكن بطريقة لطيفة وودية للغاية. وكانت، بالكاد، تنظر إليَّ ولم يبدُ عليها أنها تلقي بالاً كبيراً إلى إجاباتي ولم تكتب كلمة واحدة. ولذلك لم أستطع فهم سرّ قلق والدي من ذلك الحوار البريء للغاية. لكنه التقى بي في الحفلة وانتحى بي جانباً واستجوبني بعناية عن أدقّ التفاصيل. واظبت على الشعور في أنه يبدي اهتماماً مبالغاً فيه بأمر لا يحمل أية أهمية حتى اليوم التالي عندما قرأت مقابلتي مع الآنسة بارسونز التي كتبتها دون أن تنقص منها كلمة وأدركت، عندئذٍ، أسباب الاحترام الكبير الذي يبديه والدي لمهنة الصحافة.

ويضاف إلى التحفظ الطبيعي الذي يبديه والدي تجاه الصحفيين إحساسه بأن جزءاً كبيراً من عالم الصحافة قد انقلب عليه بعد محاكمتَي إثبات النسب. فقد صار الأمر يبدو له وكأن الصحفيين لم يكونوا يحاولون أخذ وجهة نظره بعين الاعتبار، بل كانوا يحاولون، عن عمد، إخراج الأشياء التي يقولها من سياقها ويعمدون، في بعض الأحيان إلى تحريف كلماته. ازداد التباعد بينه وبين الصحافة بالتدريج إلى أن صار يبدي عدائيته تجاهها بصورة صريحة في لحظة كان فيها في أمسّ الحاجة إلى تعاطفها. هكذا، بدأت ردود فعل والدي تجاه الصحفيين تتخذ الشكل الذي اتخذته ردوده على استفزازات السيد سكوت أثناء وجوده على منصة الشهود. فهو قادر، في ذروة غضبه في بعض الأحيان، على الدفاع عن قضاياه بأسوأ الطرق الممكنة ثم يأبى إبداء أيّ شكل من أشكال التراجع.

والواقع أن والدي لم يقاتل، قط، من أجل إثبات صحة ما يقوله، بل من أجل حقّه الأساسي في قول ما يحلو له. وفي هذا الشأن قال ذات مرة: «الديمقراطية هي مكان تستطيع فيه أن تعرب فيه عن أفكارك بحرية- وبغير ذلك لا يمكن أن يكون ديمقراطية».

من المؤكد أن والدي، بوصفه أعظم الإيمائيين في العالم، يتمتع بقدر من البراعة في استخدام يديه يفوق بما لا يقاس براعته في استخدام لسانه. وعلى الرغم من ذلك، فإن غالبية ردوده على الانتقادات التي طالته بعد الحرب تبدو منطقية عند النظر إليها بمنظار اليوم الأكثر عقلانية. فقد قال إن خطاب الجبهة الثانية الذي ألقاه في نيويورك جاء في وقت كان التعاون الوثيق، فيه، مع روسيا حاجة ملحّة. فقد كان يسعى إلى مدّ يد العون في إطار العلاقات بين البلدين وقد أحسّ بأن نشاطاته في هذا المجال كانت مفيدة.

أما عن عدم حصوله على الجنسية الأمريكية، فقد كان ذلك بسبب اعتبار نفسه مواطناً عالميّاً، من جهة، ولعدم رغبته في التخلي عن جنسية الأرض التي ولد فيها، من جهة أخرى. أما أصدقاؤه المقربون الذين كانوا يلحّون عليه حول ضرورة أن يرفع الضغوط عن كاهله بقبول الجنسية بحجة مفحمة تبرر رفضه. فقد قال بعناد: «إنهم يضعون فوهة مسدس في ظهري. وأنا لا أقبل ذلك».

أما منتقدوه، فكان يردّ عليهم بأنه «ضيف ينفق الكثير من المال» على الرغم من أنه ليس بمواطن. وأنا أعلم حقيقة قيام والدي بتسديد ملايين الدولارات لوزارة الخزانة في الولايات المتحدة أثناء إقامته هناك على شكل مستحقات ضريبية. بيدَ أنه كان ينظر إلى هذا التصريح، في تلك الأيام، على أنه مجرد مراوغة. كما استاء الناس من شرحه أنه يدفع الضرائب للولايات المتحدة عن كامل مدخوله على الرغم من أنه يحصل على ثلاثين بالمئة منه من الولايات المتحدة وسبعين بالمئة من

خارجها.

كما أن نقاشه حول مسألة الضرائب استجلبت ردوداً مؤلمة بعد الحرب. إذ سرعان ما كان يخرج من يذكره أن الآخرين لم يكتفوا بتسديد ما عليهم من ضرائب، بل إنهم قدموا حياتهم على جبهات القتال دون أن يبدو أن أحداً يتذكر أن والدي، الذي لم يكن في سنّ تسمح له بالذهاب إلى الجبهة، قدم، بطيب خاطر، ولديه للحرب وكان يقول بفخر لكل من يعرّفه إلينا: «أنا بريطاني. أما ولداي، فأمريكيان. وقد كانا جنديين وحاربا في الجبهة».

كما واجه والدي اتهامات حول مقدار مساهمته في المجهود الحربي وكان يقارن، في هذا السياق، ببوب هوب الذي سافر إلى أقصى أرجاء الأرض لتقديم عروض ترفيهية للقوات المحاربة، على العكس من والدي الذي كان يردّ: «الفن الذي أقدمه لا يصلح لتقديم عروض ترفيهية مباشرة» وهو ردّ بسيط يعبر عن واقع الحال على الرغم من أنه كان يبدو ردّاً واهياً لأن الكثير من الناس لا يدركون أن الكوميديا نوعان. فهنالك فن الستاند أب الذي يقدمه هوب والذي كان من الفنون المطلوبة في أوساط الجنود. أما ممارسة والدي لفن الستاند أب فلم تزد عن إلقاء النكات أمام حلقة ضيقة من الأصدقاء المقربين، ولذلك فإن اصطناع البرودة، مع إشاعة أجواء المرح أمام جمهور من الغرباء مع ما يبثه ذلك فيه من رهبة الإخفاق شبه المؤكد، هو، بالنسبة، إليه، شكل من أشكال التعذيب الموجع.

فقد حاول والدي، في إحدى المرات، ممارسة هذا النوع من الفنون، تحت إلحاح رئيس شؤون الموظفين في إحدى الشركات الكبرى لصناعة الطيران الواقعة بالقرب من لوس أنجلوس. وذات يوم، تلقى والدي، في مسرح الهواء الطلق الواقع في مقرّ الشركة الذي تجمع فيه كافة العمال مصطحبين معهم وجبات غدائهم، كبرى إخفاقاته المهنية. فلم يضحك أحد، في ذلك اليوم، ولم يصفق أحد وبدا أن أحداً لا يتابع العرض، بل انهمك جميع العمال بالتهام طعامهم. وقد خرج والدي من هذه التجربة منهكاً وبأعصاب منهارة. وقال معلقاً: «لن أفعل ذلك مرة أخرى على الإطلاق. لا أستطيع القيام بذلك. إنه ليس فنّ الترفيه الذي أمارسه».

وعلى الرغم من ذلك، أشار والدي إلى أنه تبرع بقسط كبير من وقته للحكومة وألقى العديد من الخطب نزولاً عند رغبتها. بيدَ أن خطبه هذه صارت، بدورها، في ذلك الوقت، موضع شبهة فلم ينل الشكر على هذا الجهد الذي بذله إلَّا بالكاد.

أما من كانوا يسألونه حول ما إذا كان شيوعيّاً أو أنه متعاطف مع الشيوعية، فكان والدي يجيبهم

بحزم: «لا!» دون أن يكون قادراً على إمساك نفسه عن إضافة جملة غريبة مثل: «حياتنا اليوم تتسم بالحرفية. فإن خطوت برجلك اليسرى فسوف تتهم بكونك شيوعيّاً».

وكان، عندما يسأل عن هانز إيسلر، يقرّ بالصداقة الحميمية التي تربطه بهذا الموسيقي مشدداً بقوة على أنه لا يوجد ما يربطه بالجاسوسية أو الخيانة. وعلى الرغم من تلك التصريحات والتفسيرات المباشرة، فإن مشاعر الحنق تجاه والدي والاعتقاد بأنه شيوعي، أو على الأقل مؤيد للشيوعية، كانت في ازدياد مضطرد.

على المرء أن يتذكر الظروف التي أحاطت بتلك الحقبة كي يكون قادراً على فهم كيف وصلت الأمور إلى هذا الحدّ. فمع انتهاء الحرب، كفّت روسيا عن أن تكون حليفتنا وصارت دولة كبرى تنتهك، عن عمد، المعاهدات التي عقدناها معها عن حسن نية. كنا خائفين من شرها إلى حدّ دفعنا إلى نسيان ما قاله رئيس حكيم اسمه روزفلت: «ليس للمرء ما يخشاه إلّا الخوف نفسه». صرنا مقتنعين أن العملاء الروس يدمرون مؤسساتنا بالسرّ وبدأنا نشكك بالكثير من الأشياء التي لم تكن، في السابق، تبدو مؤذية. وبدأت لجنة النشاطات غير الأمريكية، في بحثها المحموم عن الشيوعيين، تحشر نفسها في شؤون عالم الترفيه. ولم يكن هنالك ما يدعم الظن أن والدي سيكون بمنأى عن العين الفاحصة للجنة.

ففي شهر كانون الأول 1946، أعلن رئيس اللجنة إيرني أدامسون أنه سيتمّ استدعاء والدي للشهادة في جلسة استماع عامة في واشنطن مع ويل روجرز جونيور وجيمس روزفلت. لكن أشهراً ستة مضت دون أن يستدعى ودون أن توجّه إليه تهم محددة.

بيدَ أنه بقي مادة للجدل. بل إنه أصبح، في شهر حزيران 1947، موضوعاً لنقاش حامي الوطيس. فقد ذهب جون رانكين، النائب عن ولاية ميسيسيبي إلى حدّ وصف أفلامه بأنها «كريهة». أما نائب كاليفورنيا تشيت هوليفيلد الذي انبرى للدفاع عن هوليوود، فقد قاطعه النائب جوزيف مارتين بحدة لوصفه اللجنة بأنها لجنة غير أمريكية.

وفي تموز من ذلك العام، تجاوز سخط والدي من هاي غاردنر مذيع محطة إن. بي. سي.، كل الحدود واتهمه بالتشهير به حين وصفه بالشيوعي والكاذب وطالبه أمام محكمة فيدرالية بدفع تعويض مقداره ثلاثة ملايين دولار. لكن الأنشطة التي قام بها والدي لتطهير اسمه لم تفعل سوى القليل. ففي الشهر نفسه، أعلن النائب ج. بارنيل توماس أن والدي سيستدعى للمثول أمام لجنة النشاطات غير الأمريكية في مجلس النواب في واشنطن. وعلى مدى أشهر، استمرت في التداول،

شائعات مبهمة مفادها أنه على وشك المثول أمام اللجنة. وكانت تلك الشائعات، في كل مرة، تضيف المزيد من المصداقية على الاعتقاد السائد أن والدي شيوعي أو مؤيد للشيوعية.

وفي تشرين الثاني 1947، قام والدي بإحدى التحركات المريبة التي كان من شأنها إلقاء المزيد من ظلال الشك على علاقاته. فعندما بلغت إجراءات ترحيل هانز إيسلر ذروتها، أبرق والدي لبابلو بيكاسو طالباً منه قيادة لجنة من الفنانين الفرنسيين للاحتجاج لدى السفارة الأمريكية في باريس «على إجراءات ترحيل هانز إيسلر الشائنة وإرسال نسخة من رسالة الاحتجاج إليَّ من أجل استخدامها هنا». أشك في أن والدي قد فكر لحظة في ما تحمله فكرة الطلب من رجل انتماءاته الشيوعية مؤكدة أن يتدخل لصالح رجل متهم بالشيوعية في بلد غير شيوعي من غرابة. فقد كان الأمر، بالنسبة إليه، لا يزيد عن مجرد أن فناناً طلب من فنان آخر نجدة فنان ثالث. لكن الأمر بدا للكثيرين ضرباً من الغطرسة وقرعته الصحافة على قلة لياقته أكثر مما قرعته على الأضرار التي تسبب بها. كيف استطاع القيام بهذا النشاط الهدام بوضوح.

وفي آذار 1949، وضعت أونا مولودها الثالث وأعرب كتاب الأعمدة عن دهشتهم حيال ديمومة هذا الزواج والانسجام البادي فيه، الأمر الذي كان من شأنه أن يمحو الصورة القبيحة التي رسمت لوالدي خلال محاكمتَي إثبات النسب. لكن تلك الصورة كانت، على ما يبدو، أكثر رسوخاً من أن تزول بتلك السهولة وأضيف إليها الآن عار قيامه بنشاطات هدامة.

وفي نيسان 1949، بدا أن والدي قد قدم المزيد من الأدلة على ميوله السياسية اليسارية من خلال السماح باستخدام اسمه كراعٍ لمؤتمر السلم العالمي الذي نظمه الشيوعيون. ومرة أخرى أدّى استخفاف والدي بالسياسة وبالمذاهب السياسية إلى جعله ينجذب إلى كلمتي «السلم العالمي». وقد قال إنه كان يعتقد أن أيّ تحرك باتجاه إحلال السلام ينبغي أن يكون موضع تشجيع بغضّ النظر عمَّن يرعاه.

وفي شهر نيسان نفسه، طالب السيناتور باتريك مكارين، رئيس اللجنة التشريعية في مجلس الشيوخ، باستصدار تشريع يسمح بطرد الأجانب الذين يمارسون أنشطة هدامة من الولايات المتحدة. وكان السيناتور هاري كاين أكثر وضوحاً في تحديد المقصودين بالتشريع بقوله إن القانون مصمم لترحيل والدي المدان، بحسب زعمه، بتهمة الخيانة من خلال إرساله برقية إلى بيكاسو.

وفي بداية عام 1951، بُعيد وضع أونا مولودها الرابع، أعلن النائب هارولد فيلد مرة أخرى أن والدي قيد التحقيق من قبل لجنة النشاطات غير الأمريكية. ولو أن والدي كان مداناً بالقيام بأيّ

نشاط هدام، مهما يكن صغيراً، فإن تحقيقات اللجنة الكثيرة كانت كفيلة باكتشافه وكان والدي ليستدعى للمثول أمامها. بيدَ أن أحداً لم يستدعه لأنه لم يقم بشيء. فهو لم ينتمِ إلى أية جبهة ولم يحضر أية اجتماعات سرية وقد ندد، جهاراً، بكافة المنظمات ذات الطبيعة الهدامة. ولم يكن هنالك أيّ شيء ضده خلا الإشاعات.

كان والدي ليرحّب بالحصول على فرصة تبرئة اسمه. بل إنني أذكر أنه اتصل، ذات مرة، بواشنطن طالباً السماح له بتقديم شهادته. لكن طلبه قوبل بالتجاهل. وقد أسرّ لي ذات مرة بالقول: «إنهم لا يستدعونني لأنهم لا يملكون شيئاً ضدي. إني، ببساطة شديدة، لست بشيوعي، ولم أكن شيوعيّاً في أيّ يوم مضى».

لم يكن والدي الوحيد في هوليوود الذي أخضع للتحقيق في تلك الأيام. فقد تمّ استدعاء شخصيات سينمائية كثيرة للجلوس في منصة الشهود أخضعت للاستجواب أمام كاميرات التلفزيون كما ذكرت أسماء كثيرة، إلى جانب والدي، دون أن يتاح لأصحابها فرصة المثول أمام اللجنة لتبرئة ساحتهم. والواقع أن الشخصيات التي ثبتت ميولها اليسارية كانت قليلة للغاية، إلّا أن تلك التحقيقات العلنية عرضت الحياة المهنية لأشخاص كثيرين لأضرار فادحة عصية على الإصلاح وأجبر الكثيرون على الانزواء بصورة مؤقتة.

بالطبع، لم تقتصر المعاناة التي سببتها تلك الموجة شبه الهستيرية، التي تفاقمت بما أطلق عليه النشاط الشرطي في كوريا، على عالم الترفيه. فقد فصل، في تلك الفترة، علماء موهوبون ودبلوماسيون وأساتذة والعديد من صغار الموظفين الحكوميين من أعمالهم. ولم تهدأ تلك الموجة إلّا بعد التوبيخ الرسمي الذي وجهه مجلس الشيوخ للسناتور جوزيف مكارثي عام 1954.

وخلال فترة التحقيقات القاسية تلك، هيمنت على هوليوود أجواء قاتمة. فالعاملون في حقل الترفيه يعتمدون، بدرجة كبيرة، في كسب قوت يومهم على الرأي العام. وقد اختار الكثيرون ممن اعتبرتهم اللجنة مشتبهاً بهم أن يعانوا بصمت وأن يبتعدوا عن الأضواء قدر الإمكان. فقد بدا ذلك أفضل ما يمكن القيام به. لكن والدي لم يكن من ذلك الرأي، بل رفع الصوت عالياً، بوصفه أحد أكثر الفردانيين في العالم إثارة للجدل، دفاعاً عن حقوق الفرد. وبدا صراعه هذا متلائماً تماماً مع طبيعة هذه البلاد التي تفخر بإعلائها شأن الفرد عن شأن الدولة. فقد كان والدي عاجزاً عن عدم التعبير عن إيمانه الراسخ أن للمرء، في البلاد الديمقراطية، الحق في التفكير كما يشاء وأن يقابل من يشاء شريطة أن لا تتسبب أفعاله بالأذية. يمكنكم القول إن نضاله كان مدفوعاً، بصورة رئيسة، برهاب الاحتجاز الذي يعاني منه. إنه، ببساطة شديدة، يعجز عن تحمل احتجاز نفسه في زنزانة

تحريم التفكير. فهو أمر يخنقه ويقمعه بطريقة تفوق طاقته.

لم يكن لنضال والدي في سبيل قناعاته أن يمرّ دون تضحيات. فلدى قدومي من الساحل الشرقي من أجل المشاركة في فيلم «أضواء الشهرة»، حزنت لرؤية نتائج موقفه على حياته. لم تعد زيارة منزل تشارلي شابلن امتيازاً. فقد خشي الكثير من الناس أن يظهروا هناك كي لا يصبحوا، بدورهم، موضع شبهة.

أما تيم ديورانت، اليانكي العنيد في وفائه، الصلب كصخرة من صخور نيو إنغلاند، فكان حاضراً هناك، وبذل كل ما في وسعه لاسترجاع بعض ملامح الحياة القديمة وقد لاحظ سخرية الأقدار. فقد كان هاتفه، في السابق، لا يهدأ وهو يتلقى اتصالات من أناس يعرضون عليه خدماتهم أو يدعونه إلى تناول كأس أو إلى العشاء على أمل أن يمرر لهم دعوة إلى منزل شابلن. أما الآن، فقد جاء الدور على تيم من أجل الاتصال بالناس ورجائهم الحضور إلى مباراة تنس، لكنهم كانوا يردّونه خائباً. صار بيت التنس والملعب العشبي الذي شهد، في يوم من الأيام، حفلات استقبال سخية، مقفراً في أيام الآحاد. وأظن أن والدي كان، في تلك الأيام، أكثر رجال هوليوود وحدة.

وسط تلك الأجواء، أجواء الوداع الحزينة، بدأ العمل على فيلم «أضواء الشهرة»، وهو قصة حزينة عن ممثل إيمائي كان مطلوباً بشدة، في يوم مضى، لكنه فقد حظوته ووقع تحت وطأة العوز.

في الرابع من آب 1952، نظم والدي العرض التجريبي الأول لفيلم «أضواء الشهرة». وكان عرضاً خاصّاً حضره مئتا مدعوّ. وجاءت شخصيات سينمائية مرموقة مثل ديفيد سيلزنيك والراحل همفري بوغارت ورونالد كولمان لتحيته. كان والدي، في ذلك الوقت، كما هو الآن، موضع احترام في أوساط هوليوود الضيقة بوصفه واحداً من عباقرتها الحقيقيين. لكن الحضور ضمّ، كذلك، عدداً من العمال الذين خدموا والدي بإخلاص منذ أيام فيلم «حمى الذهب».
كان والدي في قمة الإثارة، كما هي حاله على الدوام في العروض التجريبية لأفلامه. انتهى عرض الفيلم، فنهض من كرسيه لإلقاء خطبة قصيرة. لكنه لم يكد ينطق ببضع كلمات: «أريد أن أشكركم...» حتى صرخت امرأة كانت بين الحضور: «لا! لا! الشكر لك!» قبل أن يبدأ الجميع بالهتاف: «الشكر لك! الشكر لك!». كانت تلك آخر هتافات الاستحسان التي سيسمعها والدي في هوليوود والتي تردد صداها خارج صالة العرض ووصفها كاتب الرأي سيدني سكولسكي بأنها «أكثر الليالي التي شهدتها إثارة في صالة عرض».
ومع إنجاز الفيلم، بدأ والدي وأونا بالتخطيط لقضاء إجازة في أوروبا مع أطفالهما الأربعة، وهي إجازة أمضاها والدي على مضض لأنه لم يكن يرغب في مغادرة البلاد قبل تطهير اسمه كليّاً. لكن أونا، التي لم يسبق لها زيارة أوروبا، كانت تحسّ بإثارة بالغة تجاه هذه الرحلة كما لو أنها طفل، ولم يكن والدي يرغب في تخييب أملها.

وفي الليلة السابقة لسفرهما، أقام تيم ديورانت حفلة وداع في حديقة منزله الخلفية في بيفرلي هيلز، وكانت حفلة صاخبة، بحقّ، حضرها خمسون أو ستون مدعوّاً جاؤوا بملابس غير رسمية باستثناء مارلون براندو الذي ارتدى زيّ عشاء رسمي في مناسبة نادرة يظهر فيها مارلون براندو ببذلة رسمية ارتداها تعبيراً عن تقديره لوالدي.

في تلك الليلة، أمضى أرتور روبنشتاين، وهو قاصّ وممثّل إيمائي بارع قصير القامة وواسع الجبهة وصغير اليدين، معظم الأمسية واقفاً يقص بظرف أخبار رحلاته إلى الشرق الأقصى. كما قدم عرضاً تمثيليّاً حاكى فيه لاعبي الكابوكي الذين كان قد شاهدهم لتوّه في اليابان. والواقع أن تقليد هؤلاء اللاعبين كان، على الدوام، من نقاط القوى لدى والدي، لكنه بدا، في تلك الليلة هادئاً ومهموماً بشكل يدعو إلى الاستغراب. كانت تلك المرة الأولى، إن أسعفتني الذاكرة، التي لا تملأ حيويته الحفلة. بل بدا أن مظهر الحزن الذي كساه قد ألقى بظلال كثيفة على أجواء الحفلة بطريقة

عجز معها السيد روبنشتاين، بما يحمله من خفة ظل، عن تبديدها.

ولم يتجلَّ بريق والدي القديم كواحد من رموز الترفيه، خلال تلك الأمسية، سوى مرة واحدة عندما بدأ يرقص، على حين غرة، مع الراقصة العظيمة كاثرين دورهام وكان أداؤهما على درجة من الروعة دفعت كافة الحاضرين إلى الكفّ عن الرقص من أجل مراقبتهما. أما والدي، فقد تقمص حركات الآنسة دورهام وإيماءاتها، بل شخصيتها كذلك. لقد بدا وكأنه الآنسة دورهام نفسها بحركتها الانسيابية وكياستها الأنيقة. وكان ذلك أروع عروض الإيماء التي رأيناها على الإطلاق وتابعها بعضنا وفي حلوقهم غصة.

فهل كان ذلك الأداء المدهش تحية وداع يقدمها والدي لتلك المدينة التي اختارها موطناً له على مدى سنين كثيرة؟ كانت تلك الرقصة، في الواقع، الفقرة الأخيرة التي يتابعها سكان هوليوود من تاريخ من العروض الترفيهية التي زينت الكثير من الحفلات التي عرفتها المدينة في الماضي.

وفي اليوم التالي، أقلّ تيم ديورانت والدي وأونا والأطفال الأربعة إلى محطة القطارات المركزية في لوس أنجلوس. وفي طريقهم إلى هناك، التفت والدي فجأة صوب تيم، الذي استطاع رؤية الدموع في عينيه، قائلاً: «هل تعلم يا تيم أنه يراودني شعور أنني لن أعود أبداً؟». فأجابه تيم بسخرية: «هذا هراء يا تشارلي». لكن والدي هزّ رأسه وأضاف بإصرار: «بلى. إني أشعر بذلك حقّاً».

استقل القطار وكان ذلك يومه الأخير في كاليفورنيا بالفعل. لكن ذلك الهاجس السوداوي لم يهاجمه إلَّا في تلك الأيام الأخيرة. فالواقع أن والدي وأونا أنفقا، في الأشهر الأخيرة، الكثير من المال، ما يزيد عن خمسين ألف دولار، على أعمال صيانة المنزل وكأنهما كانا ينويان أن يعيشا فيه إلى الأبد. بل إن أعمال الصيانة امتدت إلى مجالات لم تحلم بوليت بإنجازها. فقد زود الرواق الشاسع المهيب بسقف من أجل إعداد المزيد من غرف النوم، في الطابق الأعلى، للأسرة التي كان أفرادها يزدادون عدداً. وقد بلغ اعتزاز والدي بغرف النوم الجديدة مبلغاً جعله يرافق ضيوفه إلى الطابق الأعلى لمشاهدتها.

أتساءل اليوم إن كان قد قام، صبيحة رحيله، بإلقاء نظرة وداع أخيرة على تلك الغرف، القديمة منها والجديدة، وعلى المنزل الذي عاش فيه ما يقارب ثلاثين عاماً. هل توقف، لبعض الوقت، أمام غرفة نومه بسجادتها المهترئة- التي عجزت أونا، نفسها، عن إقناعه بالتخلص منها؟ هل قام بزيارة أخيرة إلى الأجمة الملحقة بالمنزل وإلى حوض السباحة وملعب التنس الواقع عند سفح

الأرض العشبية المنحدرة؟ لقد كان يعتزّ على الدوام بامتلاكه حوض سباحة وملعب تنس على الرغم من أنه لا يمكن اعتبار أرض مساحتها لا تزيد عن ستة دونمات بالأرض الكبيرة بالنسبة إلى مليونير. لكنه كان سعيداً بها.

هكذا إذن، ألقى نظرة وداع أخيرة على كل شيء: على منزله، وعلى تلته، وعلى البلدة التي عرف فيها الشهرة وبنى فيها أمجاده وعلى البلاد التي حلم، ذات يوم، أن يربي الخنازير فيها في مزرعة في ولاية أركنساس. وفي السابع عشر من أيلول، استقل السفينة كوين إليزابيث في طريقه إلى إنكلترا.

وما إن أصبحت الكوين إليزابيث في عرض البحر، حتى أبطل المدعي العام جيمس مكغارنيري الرخصة الممنوحة له للعودة إلى البلاد وأعلن عن جلسة استماع للبحث في استحقاقه العودة إلى البلاد بموجب قوانين الهجرة. كان ذلك القرار استثنائيّاً، بالفعل، لأن والدي كان قد نال الإذن قبل مغادرته وكان كل شيء على ما يرام. بل إنه كان قد دفع كل ما يترتب عليه من ضرائب وخضع، عام 1948، لتحقيق معمق أجرته سلطات الهجرة ووزارة العدل، على حدّ سواء، وتمّت تبرئة ساحته من كافة التهم المتعلقة بممارسة النشاطات الهدامة والتهم ذات الطبيعة الأخلاقية.

فلماذا قام السيد مكغارنيري بهذه الخطوة الطائشة التي كانت كفيلة بالإساءة إلى صورة الولايات المتحدة في الخارج؟ ساد اعتقاد، في أوساط أصدقاء والدي، بأن المدعي العام كان، بكل بساطة، مدفوعاً بدوافع سياسية.

أصابت خطوة إبطال رخصة العودة إلى البلاد والدي بصدمة شديدة وأطلق على الفور تصريحاً بينما كان لما يزل على متن السفينة: «لقد قمت بكافة الخطوات القانونية المطلوبة للحصول على رخصة العودة التي قدمت لي بحسن نية وقبلتها بحسن نية. ولذلك فإنني أفترض أن الولايات المتحدة سوف تقرّ بصحة هذه الرخصة».

وفي اليوم التالي، أشارت وزارة العدل، في مسعى لتبرئة نفسها على وجه الاحتمال، إلى أنها تملك معلومات جديدة عن والدي تبرر الخطوة التي اتخذتها، حيث أكد ناطق باسم الوزارة أنه «يوجد الكثير من المعلومات المتوفرة».

وبعد يومين، أدلى والدي، عند وصوله إلى شيربورغ في فرنسا، ببيان آخر قال فيه: «ليست لديَّ آراء سياسية خاصة. أنا أعشق الحرية وهو أمر لا يمكن أن يجعلني عرضة للانتقادات في أيّ بلد ديمقراطي».

وفي خطاب ألقاه في الثاني من تشرين الأول، أي بعد أقل من أسبوع، وصف المدعي العام مكغارنيري والدي بأنه «شخصية بغيضة» دون أن يدعم بيانه المسيء بأيّ من الحقائق التي ادعت وزارته حيازتها. وردّ والدي ببيان صحفي آخر: «لست راغباً في التعليق على هذه الاتهامات المبهمة التي ارتأى السيد مكغارنيري، بصورة تدعو إلى الاستغراب، أن يطلقها وأنا بعيد آلاف الأميال عن الولايات المتحدة. أكرر ما سبق وقلته وهو أنني حصلت، من خلال القنوات المناسبة، من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية على الإذن بالعودة».

في ذلك الوقت، كانت جمعية الفيلق الأمريكي قد تبنت قراراً يطري على سلوك السيد مكغارنيري. لكن كان هنالك الكثير من المواطنين، من المعجبين بوالدي وممن لا يستسيغونه على حدّ سواء، ممن أحسّوا بأن السيد مكغارنيري تجاوز حدود السلطة الممنوحة له من خلال سحب الإذن بالعودة إلى البلاد في لحظة كان والدي عاجزاً، فيها، عن الدفاع عن نفسه. بل إن ماري بيكفورد، ذات الميول السياسية اليمينية، عبرت ببراعة عن رأيها بهذا النوع من الأشخاص عندما قالت إن هذا السلوك «لا يرقى إلى سمعة الولايات المتحدة العظيمة».

في ذلك الوقت، كان والدي يحظى في أوروبا باستقبال الفاتحين. فقد احتفت به حشود غفيرة في وطنه الأم إنكلترا، كما في بقية أرجاء القارة الأوروبية، في وقت لاحق. كما استقبلته ملكة بريطانيا وقلّده الرئيس الفرنسي رتبة فارس في فيلق الشرف، وهو أرفع وسام تمنحه فرنسا، وخصّه الرئيس الإيطالي بمقابلة خاصة ومنحه ميدالية ذهبية.

بدا الأمر وكأن أوروبا تنتهز الفرصة، لا لتكريم رجل معروف فحسب، بل لإبراز الفرق بين ما يلقاه هنا والمعاملة الظالمة التي خصته بها الولايات المتحدة. وبالطبع، انتهزت صحيفة البرافدا الروسية الرسمية الفرصة للسخرية من الولايات المتحدة. فعلى الرغم من أن أفلام والدي تحفل بالكثير مما هو غير تقدمي، على حدّ قول الصحيفة، إلَّا أن قضية شابلن تظهر، بوضوح، كيف تضغط الولايات المتحدة على كل من يعمل في السينما من فنانين وفنانات كي يضع مواهبه في خدمة أغراضها الدعائية تحت طائلة الاضطهاد المتواصل.

فلو كان لدى المدعي العام ما يبرئ ساحته، فقد كان ذلك هو الوقت المناسب لإبرازه بالتأكيد. بيدَ أنه، بدلاً من ذلك، طلب من مكتب التحقيقات الفيدرالي القيام بتحقيق آخر في حياة والدي الخاصة على الرغم من أنها خضعت، في السابق، لتحقيق متأنٍّ، أثناء قضية الإتجار بالرقيق الأبيض. لكن مكتب التحقيقات الفيدرالي تولى المسألة وأجرى واحدة من التحريات المعمقة التي استحق عليها السمعة التي يحملها في أرجاء العالم.

خلصت، نتيجة للمداولات التي أجريتها مع الناس الذين تمّ سؤالهم، إلى نتيجة مفادها أن عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي أمضوا القليل من الوقت في تحري نشاطات والدي السياسية المزعومة، وهو أمر لا يحمل سوى معنى واحد هو أن والدي خرج بريئاً من كافة التحقيقات السابقة، في حين تركزت معظم أسئلتهم عن أخلاقياته. حيث أعيد استجواب كافة الشهود الرئيسين في قضية جوان باري على الرغم من مضيّ أحد عشر عاماً على أحداث تلك القضية. عاش والدي خلالها حياة مثالية مع أونا. كما تمّ استجواب محامي والدي، لويد رايت، واستدعي تيم ديورانت في ثلاث مناسبات مختلفة. وقد تمّ تذكير الشهود بحسم أن أيّ حنث بالقسم يعني السجن في جزيرة مكنيل. بل إن عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي سألوا والدتي عن طلاقها وعن أية أمور شاذة يمكن أن تكون قد جرت في السنوات السبع والعشرين السابقة. كما تحققوا من أوراق طلاق بوليت في مدينة خواريز المكسيكية ووجدوا كل شيء قانونيّاً.

كان واضحاً أن كل تلك التحقيقات لم تخرج بما يمكن أن يشكل أساساً لإدانة والدي، والدليل على ذلك أن المدعي العام لم يعقد تلك الجلسة العامة الموعودة أو أية جلسة أخرى على الإطلاق.

وفي شباط 1953، أصبح فيلم «أضواء الشهرة» جاهزاً للعرض وأشاد النقاد به بوصفه تحفة فنية. كما ذهب أرثر نايت من ساترداي ريفيو إلى حدّ اعتبار والدي واحداً من ثلاثة من عباقرة السينما الذين لا مثيل لهم- أما الاثنان الآخران، فهما د. دبليو. غريفيث وسيرجي إيزنستاين- وإلى حدّ وصف الفيلم الأخير بأنه أهم أفلامه على الإطلاق. فقد كتب قائلاً: «إنه قمة بكل ما للكلمة من معنى وخلاصة فلسفة هذا الكوميدي ومواقفه من الحياة والحبّ والجمهور والكوميديا. إن (أضواء الشهرة) في جوهره ليس فيلماً كوميديّاً على الإطلاق، بل ميثاق يخطه فنان بلغة شاعرية محبّبة وفي ظروف مؤثرة».

أما آل هاين، الذي كتب مراجعة للفيلم لصالح صحيفة هوليداي، فقد اختتم تقريظه للفيلم بفقرة ذات دلالة: «شابلن عبقري وهو بالتأكيد رجل مغرور وصعب المراس... لكننا قد نتذكر، نحن الأمريكيين، أنه، في كل ما نصنعه لإيذاء عباقرتنا، يكون الشر الذي يصيبنا أكبر بكثير من الضيق الذي نتسبب لهم به».

ومع اقتراب موعد إطلاق فيلم «أضواء الشهرة»، انضم عامل جديد إلى التعقيدات التي واجهها والدي مع الحكومة. كانت أربعة أشهر قد انقضت على إعلان المدعي العام أنه في صدد إجراء جلسة استماع عامة تناقش وضع والدي. بيدَ أن جمعية الفيلق الأمريكي قررت الذهاب بعيداً ومقاطعة فيلم «أضواء الشهرة» حتى تثبت براءة والدي، كما انضم نادي النساء إلى حركة

المقاطعة. بيدَ أن الأمر المفاجئ تمثّل في أن رئيس مجلس اتحاد نقابات السينما روي بريور دعم بشدة موقف الفيلق الأمريكي وهو موقف بدا للكثير من العاملين في السينما متناقضاً بوضوح مع مواقفه المعروفة من حيث إنه سمح لأعضاء نقابته بمساعدة والدي في تنفيذ الفيلم قبل أن ينقلب عليه ويحظره.

ارتفعت بضعة أصوات احتجاج عبر أصحابها عن صدمتهم. وكانت صحيفة النيويورك تايمز ذات النفوذ أحد تلك الأصوات حيث خصصت مقالة افتتاحية لحملة المقاطعة. فقد قالت الصحيفة في تعليقها على الإجراءات العقابية التي تناولت رجلاً لم تتمّ إدانته بعد: «إن لم تكن هذه الأحكام المسبقة، بل وما هو أسوأ، أي الخضوع لهذه الضغوط، نشاطاً لاأمريكيّاً، فبودّنا أن يعلمنا أحد عمّا يمكن أن تكون عليه».

وفي العاصمة واشنطن، خصص الأسقف فرنسيس ساير جونيور، كبير كهنة الكاتدرائية الأسقفية، إحدى مواعظ يوم الأحد لمسألة الرقابة. وقال الأسقف خلال الموعظة: «عندما تبدأ أية مجموعة من الأمريكيين بإعداد لائحتها الخاصة بالأشخاص المقبولين والأشخاص غير المقبولين ثم تتصرف على أساس أن الحكم الذي أصدرته جدير أن يكون ملزماً لكافة الأمريكيين، فلا بُدَّ أننا أمام انتهاك فاضح لبعض المبادئ الرئيسة».

لكن تلك الأصوات بقيت، في تلك الأزمنة، غير مسموعة. فقد حققت حملة مقاطعة فيلم «أضواء الشهرة» نجاحاً كبيراً على الرغم من أن أغنية الفيلم، التي ألفها والدي بطبيعة الحال، احتلت، لسخرية الأقدار، المراتب الأولى في قوائم الأغنيات الأكثر رواجاً.

في ذلك الوقت، أصيب والدي بالإحباط نتيجة التقارير الصحفية، التي تقول إنه قد يودع سجن جزيرة إيليس لمدة تصل إلى سنتين يخضع خلالها للتحقيق. وفي نيسان 1953، سلم والدي إذن العودة إلى البلاد إلى نائب قنصل الولايات المتحدة في جنيف كينيث أوكالي واستقر في مدينة فيفي. لم يفاجئني اختياره سويسرا موطناً جديداً له. فقد كان يحدثني، مذ كنت طفلاً، عن مقدار إعجابه بهذه الديمقراطية الصغيرة التي اجتذبه أسلوب الحياة فيها وآفاق الحرية التي تقدمها للأفراد.

يعيش والدي في فيفي منذ ذلك الوقت ويعتبر فيلمه الأخير، «الملك في نيويورك»، الذي صوره خارج الولايات المتحدة، شهادة على المرارة التي أحسّ بها إزاء ما اعتبره خيانة الولايات المتحدة له. بيدَ أن ما ليس معلوماً على نطاق واسع هو أن المسودة الأولى لسيناريو الفيلم كانت أكثر قسوة بكثير من تلك التي تبناها عند تصويره. حيث قام والدي، بعد طول تفكير، بضبط نبرة الفيلم.

استمر والدي، في أوروبا، في تصرفاته المثيرة للجدل عبر قول ما يحلو له ولقاء الناس الذين يرغب في لقائهم دون أن يثير الذعر حوله. فقد جدد صلاته ببيكاسو، لا بسبب الانتماءات السياسية لذلك الرسام، بل مدفوعاً بالإعجاب بموهبته الفنية الخارقة.

وفي شباط 1954، أثار وأونا بعض الضجيج عندما تخلت أونا عن جنسيتها الأمريكية وأصبحت مواطنة بريطانية. وفي العام نفسه، استقبل شوان لاي، الزعيم الشيوعي الصيني ونال عضوية الشرف في رابطة الممثلين النرويجيين وفاز بجائزة السلام البالغة قيمتها أربعة عشر ألف دولار التي قدمها مجلس السلم العالمي الذي يرعاه الشيوعيون. ثم، خصص، كي يضيف إلى جملة تلك التناقضات تناقضاً جديداً، جزءاً من قيمة الجائزة للأب بيير، وهو رجل دين كاثوليكي فرنسي كرس نفسه للأعمال الخيرية كي يتهمه، على الفور، أحد نقاده في هذه البلاد بالاستهتار.

لكن إنكلترا كرمته في عدد من المناسبات وكان، كما هو متوقع، واحداً من المتحدثين المميزين في جمعية زمالة ديكنز اللندنية الرزينة. كما تلقى، في مرات عدة، دعوات لزيارة السفارة الروسية في سويسرا. وكانت الزيارة تتخذ، في كل مرة، الشكل الدرامي المسلي نفسه. إذ يتوجه والدي إلى السفارة بالبذلة الرسمية فيتلقى التهنئة على أعماله ويخبرونه بمقدار حبّ الشعب الروسي واحترامه له على أعماله الرائعة، فيصغي والدي بتهذيب إلى أن يصل الحوار إلى الهدف المنشود: «نودّ الحصول على أفلامك كي يدرك الشعب الروسي مقدار عظمتك»، فيجيبهم والدي: «وماذا عن الترتيبات المالية؟»، فيقولون: «حسناً... لقد ظننا أنك ترغب في عرض أفلامك...»، فيردّ: «سوف أجمعكم بمدير أعمالي لمناقشة الأمر معه». وتنتهي المقابلة عند هذا الحدّ ويغادر والدي السفارة ترافقه مشاعر الخيبة على الرغم من أنه لم تكن لديه أية أوهام حول الروس، لا الآن، ولا في أيّ وقت مضى.

كانت انتقادات والدي اللاذعة للولايات المتحدة أثناء إقامته في أوروبا تجد طريقها إلى الصحف في بعض الأحيان، وكان كتاب الأعمدة في الصحف والمجلات ينتقدونه بقسوة، بين الفينة والأخرى. لكن في كانون الأول 1958، توصل والدي مع الحكومة الأمريكية إلى تفاهم منصف حول الخلافات الضريبية بين الطرفين التي كانت راجعة إلى مجرد سوء فهم بريء ولا تحمل أية رغبة من والدي في إثارة المزيد من الضجيج. فقد كان والدي يظن أن ردّ إذن العودة إلى البلاد يعني تخليه عن إقامته في الولايات المتحدة، بصورة تلقائية، ولم يدر في خلده أنه يجب أن ينهي هذه الإقامة بصورة رسمية ولم يقم بذلك، إلّا بعد تسعة أشهر ترتبت عليه خلالها ضرائب دخل إضافية. هكذا، قام والدي بتسديد خمس مئة ألف دولار إلى وزارة الخزانة الأمريكية وأعلنت الحكومة

الأمريكية أنه قد تمّ حلّ هذه القضية بالطرق الودّية دون توجيه أية اتهامات جنائية. لا يسعني الامتناع عن التفكير ما إذا كانت الحكومة الأمريكية قد أحسّت بالأسف لاضطرارها إلى إغلاق حساب هذا الزبون السخي.

قابلت والدي في مدينة فيفي عام 1954 حيث كنت، وسيدني، في ألمانيا لتصوير فيلم. اتصلت به قبل زيارته كالمعتاد الأمر الذي فاجأه، بل قل صدمه، لأنني لم أكن قد تخليت عن أسلوبي الرسمي في التعامل معه بعد مضيّ كل تلك السنوات.

ذهبت إليه في الحال ولم تكن قد مضت على زيارة شوان لاي له سوى خمسة أيام. وللمرة الثانية في حياتي- كانت الأولى تتعلق بعدم حصوله على الجنسية الأمريكية- أجد نفسي أسائله عن أحد أفعاله: «بحق الله يا أبي. ما الذي يدفعك إلى تناول العشاء مع شخص كهذا؟ هل تعلم ما الذي تفعله؟ إنك ستدفع كل الناطقين بالإنكليزية إلى كرهك».

أجابني بمنطقه العنيد نفسه: «لا أستطيع منعهم من ذلك. لقد كنت تواقاً إلى معرفة ما الذي يجعل هذا الرجل مميزاً. أنا لا أتفق معه في كل آرائه السياسية بالطبع. بيدَ أن ذلك لا يعني أنه ليس رجلاً حادّ الذكاء ومثيراً للاهتمام».

الواقع أن فضول والدي تجاه الناس، سواء كانوا رجال عصابات أم موسيقيين أم رجالاً من السكيد رو أو هـ. ج. ويلز أو شوان لاي، لا يحدّه شيء. إنه يعشق الاختلاط بالسياح متخفياً كي ينصت إلى المحاضرات التي يلقيها عليهم الأدلاء. وقد زار كل مكان يثير اهتمامه بجوار دارته السويسرية. بل إنه أصرّ عليَّ، في أثناء زيارتي له، أن يرافقني سائقه إلى قلعة شيلون الشهيرة التي ألهمت زيارتها لورد بايرون في قصيدته الشهيرة «سجين شيلون» التي لم تستغرق كتابتها سوى ليلة واحدة. وكان والدي، نفسه، قد تفقد ذلك المكان.

وجدته يعيش في فيفي حياة وادعة وسط السهول الخضراء والمناظر الخلابة وأصوات الطبيعة وزقزقة العصافير وحفيف الأشجار والبحيرة الرائقة وبجعاتها. ولم يكن يقطع سكون الصباح سوى أصوات إطلاق نار قريبة صادرة عن المكان الذي يتدرب فيه سكان فيفي على الرماية. لم يفاجئني، أنا من يعلم حق العلم باشمئزازه من كل ما يتعلق بالسلاح، ضيقه بأصوات البنادق ولا سخطه على الوسيط العقاري الذي لم يخبره بوجود حقل رماية قريب من المزرعة التي اشتراها.

أما أنا، فكانت فيفي، بالنسبة إليَّ، أكثر هدوءاً من أن تتقبلها ذائقتي، حتى مع وجود ميدان الرماية ذاك. فقد أمضيت هناك خمسة أيام كاملة. وفي اليوم الرابع، بدأت أفقد أعصابي. وقد أخبرني سيدني، في وقت لاحق، أنه أمضى أسبوعين، في فيفي، قبل أن يهرع عائداً إلى صخب المدينة

ونواديها الليلية كي يسترد عافيته العقلية. في حين يعشق والدي العزلة ويتمتع بالقدرة على البقاء هناك فترات أطول مما استطعنا على الرغم من أنه كان، بين الفينة والأخرى، يتوجه، برفقة أونا، إلى باريس أو إلى لندن لحضور مسرحية أوبرا ما أو عرض باليه وللاستمتاع بصخب الحياة في المدينة.

بيدَ أنني أملك من الأسباب ما يدفعني إلى الاعتقاد أن والدي يفتقد حياة الأضواء وصراخ المعجبين والعروض الأولى على الرغم من الحياة الهانئة التي يتمتع بها. إذ أتذكّر تلك الأمسية التي مضيت فيها، مع سيدني ووالدي وأونا، للعشاء في أحد كبريات الفنادق في لوزان. هناك، تجمع، في الخارج، حشد من الطلاب كان يبدو، بوضوح، أنهم في انتظار خروج والدي فعرض مدير الفندق إخراجنا من باب جانبي، إلَّا أن والدي هزّ رأسه قائلاً: «لا بأس» وخرجنا من الباب الأمامي حيث صنعت، وسيدني، حاجزاً بجسدينا لحماية والدي وأونا. وعلى الرغم من أن الحشد كان ودوداً، فقد كان مشحوناً بحماسة الشباب الأمر الذي جعل الحضور أقرب إلى الغوغاء. فقد اقترب شخص ضخم الجثة ولطم والدي على ظهره مازحاً وهو يصرخ: «هيه... تشارلي، كيف حالك؟» في حين أصاب مرفق شخص آخر عينه. هكذا شق والدي طريقه بصعوبة وسط مجموعة من الشبان الأشداء كانوا يحاولون الاقتراب منه وشد معطفه علَّهم يحصلون على تذكار.

كنا، لدى بلوغنا السيارة، على وشك الانسحاق، لكن الحشد استمر، حتى بعد أن أصبحنا بأمان في الداخل، في الضرب على نوافذها وهزّ هيكلها، بل إنهم تسببوا ببعض الانبعاجات في واقي الصدمات قبل أن ننجح في المضي بعيداً. كان والدي، في تلك الأثناء، يجلس بهدوء وعلى محياه سعادة ظاهرة. إنها، على ما أظن حقيقة كونية مفادها أنه مهما بلغ ولع الممثل بالخصوصية، فإن أضواء الشهرة واحتفاء المعجبين يسكرانه.

سألني والدي، أثناء وجودي في فيفي، عما هي عليه الأمور في هوليوود. لم تكن الأسئلة التي طرحها كثيرة، لكنها كانت كافية كي تجعلني أدرك أن اشتياقه لها يفوق ما يقرّ به. كما كانت تعتمل في نفسه مرارة كامنة، مرارة إنسان رفع حبّه لشخص، أو لشيء، إلى مرتبة القداسة وآذاه ذلك الحبّ. كان موقفه يتلخص بما قاله ذات مرة: «حسناً. إن لم يكونوا يريدونني، فأنا، كذلك، لا أريدهم».

لكن السنين زادته رقة وتفلسفاً وهو أمر أحسست بأن لتأثير أونا يداً كبيرة فيه- أونا الجميلة والحيية والمحبوبة مع أطفالها الرائعين، أونا التي قالت ذات مرة إنها ترغب في إنجاب عشرة أطفال وأثبتت السنون أنها لم تكن تمزح.

فأثناء وجودي في فيفي، لاحظت بسعادة أن والدي، الذي أصبح الآن محاطاً بأطفال من مختلف الأعمار والأحجام، لم يعد ينظر بخوف إلى الأطفال الرضع بوصفهم رموزاً، ولم يعد يتساءل عما ينبغي صنعه بشأنهم. كان قد تعلم لعب دور الأب من تلك الأيام الماضية، في المنزل الواقع في أعلى التل، عندما كنت تراه يحوم خائفاً حول مذودي ومذود سيدني.

لكن عمَّ تحدثنا أثناء فترة إقامتي عنده؟ كان بدهيّاً، مع قرب المسافة التي تفصلنا عن قلعة شيلون، أن يتأمل والدي في ذلك الشاعر المثير للجدل. تحدث عن قدمه الشوهاء وعن انجذاب النساء إليه وعن مرارته تجاه الحياة وعن عزيمته، تلك العزيمة التي كانت تقف، بصورة رئيسة، خلف إعجاب والدي العنيد به.

كما تحدث عن إدغار ألن بو وعن نقاط ضعفه وعن إدمانه على الكحول وعن عاداته في إهمال مظهره الخارجي التي جعلته موضع إدانة في حين لم تبرز عظمته الحقيقية إلَّا بعد وفاته. وتحدث بالطريقة نفسها عن شيلي، الذي وقف اهتمامه بالسياسات الأيرلندية ونظرته غير التقليدية للحبّ وراء نفيه من إنكلترا.

كان والدي قد توصل إلى خلاصة مفادها أن أعمال الفنانين الأحياء لا تقيّم إلَّا من خلال منظور حياتهم الشخصية. لم يشك منذ البداية، ولو للحظة، أنه فنان وأن أعماله تستحق أن تصان. ففي حين سمح بعض من عظماء هوليوود مثل د. دبليو غريفيث، بتهور، لأفلامهم بالابتعاد عن متناول أيديهم ومن ثم بأن تصبح عرضة للتلف، فقد احتفظ والدي بأعماله في علب خاصة مصممة لحمايتها من العوامل المدمرة للزمن. واليوم، لا تزال أفلامه تحتفظ بالجودة نفسها التي كانت عليها عند إنجازها. ولا بُدَّ أن مريدي شابلن سيسرون عندما يعلمون أنه يحتفظ، كذلك، بغالبية مخلفات المونتاج. والواقع أن هذه المشاهد، التي تمّ استبعادها، أصلاً، لضرورات السرد القصصي، تعتبر أكثر إضحاكاً من تلك التي تمّ الحفاظ عليها.

ثم أخلص إلى حال أسرتنا اليوم. أعيش، منذ بضع سنوات، مع نانا، التي لا تزال تضج بالحيوية، كما كانت على الدوام، في منزل صغير في وادي سان فرنسيسكو. أما والدتي، التي تعافت من آخر انهياراتها العصبية واستعادت جاذبيتها المعهودة، فتعيش، منذ عام 1956، حياة زوجية سعيدة مع بات لونغو الذي يعمل لصالح مصرف يونيون بنك في لوس أنجلوس. ويعيش العم سيدني في أوروبا مع زوجته الفرنسية، ويتابع شقيقي سيدني حياته المهنية الناجحة في برودواي. أما بوليت غودارد، زوجة أبي المفضلة، فقد تزوجت الروائي إيريك لومارك عام 1958 وتعيش معه في سويسرا. لكنها لا ترى والدي على الإطلاق «لأننا نعيش في جبلين مختلفين» على حدّ قولها. وهي

لا تزال، على عهدي بها، فاتنة ومفعمة بالنشاط ولا تزال تجد الوقت اللازم لمهنة التمثيل.

لا تزال عادات والدي في كتابة الرسائل على ما هي عليه من بؤس. فهو يكتفي بتهنئة أعياد الميلاد. لكنني تلقيت، لدى زواجي بالممثلة سوزان ماغنيس، في الخامس من آب 1958، منه ومن أونا والأطفال الستة برقية تبريك. وعندما تناهت إلى علمه، بعد موسم الميلاد، المشكلات التي يعاني منها زواجي في عامه الأول وانفصالي عن زوجتي على الرغم من مولد ابنتنا سوزان ماري، في الحادي عشر من أيار، قرر أن هذه المناسبة تستأهل كتابة رسالة. وأخيراً، كتب لي رسالة مختصرة لكنها نافحة بالروح الأبوية وضمنها شيكاً بألف دولار.

وبعد تسعة أشهر، جعله طلاقي يجلس إلى طاولة الكتابة من جديد. وفي هذه المرة، كتب لي رسالة أطول مليئة بضروب قلق ونصح وفلسفة رجل وأب علمته الحياة الكثير. تقول الرسالة:

عزيزي تشارلي:

أعتذر عن امتناعي عن الكتابة لك من قبل. لكنك تعلم دون شك مقدار انهماكي في كتابة مذكراتي التي سيستغرق إنجازها عاماً آخر على الأقل، حيث إن صياغتها وتنقيحها يستهلكان كل وقتي.

تلقيت رسالة بالغة اللطف من زوجتك. وهي امرأة ساحرة تماماً على ما يبدو. من المؤسف أنكما لم تتمكنا من العيش معاً، على الرغم من امتلاككما أسباب النجاح بوجود طفلتكما الجميلة التي يجب أن تشكل، دون أدنى شك، رابطاً قوياً يجمعكما.

سوف تكتشف يا تشارلي، مع مرور السنين، أنك تحتاج إلى ملاذ، أي إلى شخص عرفته على مدى سني حياتك وصار مقرباً منك. طفلتكما جميلة للغاية. وعليكما بذل كل جهد لإسعادها. والواقع أنه لا يوجد، في سنوات طفولتها، ما هو قادر على منحها السعادة والأمان أكثر من الجوّ الذي يحيطها به والداها.

لقد بلغت السبعين من العمر وأنا أفكر في أطفالي كثيراً كما أفكر فيك وفيما تفعله لتدبر أمور حياتك التي عليك أن لا تضيعها هباء. فأنت تتمتع بالموهبة وبالسحر وبالروح الطيبة. فأنا رأيتك على خشبة المسرح وأعرف أنك تتمتع بقدرات مضاعفة- إن كنت جادّاً في استغلالها.

لا أرغب في تحويل هذه الرسالة إلى موعظة، لكن نبأ طلاقك من زوجتك أحزنني لأنها تبدو شخصاً لطيفاً للغاية...

هل تصل إليك أخبار سيدني؟ لقد فهمت أنه يبلي حسناً. وعليك، بدورك، أن تبلي حسناً، فلديك ما

يكفي من الموهبة. اكتب لي وأعلمني بمخططاتك...

أونا ترسل لك بالغ حبّها وكذلك الأطفال. إنهم يتحدثون عنك كثيراً وهم سعيدون للغاية بابنة أخيهم الصغيرة وتواقون إلى معرفة ما تفعله ويتساءلون عمّا يمنعك من القدوم لرؤيتهم. إنهم يكبرون: جيرالدين في الخامسة عشرة، مايكل في الرابعة عشرة تقريباً، جوزي في التاسعة، فيكي في الثامنة، يوجين في السادسة، جاين في الثانية، ثم هنالك طفلنا الجديد الذي ولد منذ ثلاثة أيام.

مع كل الحبّ،

والدك

أعلم أنه عندما يتكلم والدي، بذلك التركيز، عن ضرورة وجود ملاذ، فإنه يفكر في أونا التي جاءت إليه في أيامه الحالكة حاملة معها حبّها ووفاءها. أتذكّر كيف أنه أسرّ لنانا، ذات مرة، منذ سنوات عديدة مضت، أنه لا يؤمن بوجود شخص يحبّه بما يكفي. وأنا سعيد للغاية أنه نجح، في نهاية المطاف، في الوقوع على أونا.